تاريخ الأدب في إيران

(الجزء الرابع)

من بداية الحكم الصفوى حتى نهاية الحكم القاجارى

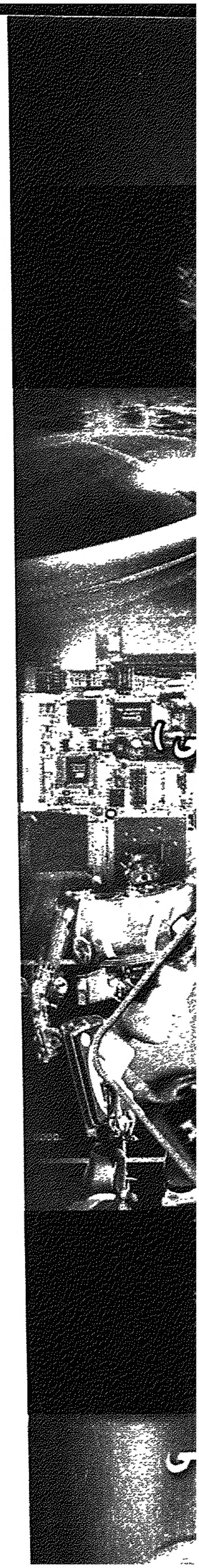
تأليف: إدوارد براون

ترجمة: محمد علاء الدين منصور

377

المشروع القومى للترجمة





يمثل هذا الكتاب ست عشرة قصة
بالإضافة إلى حكايتين من حكايات الهاوسا . وا
لكتاب مختلفين ينتمون إلى بلدان متفرقة.
المحاولة إلى وقوف القارئ العربى على نماذج م
الأدب الأفريقى فى مجال القصة القصيرة لدى
نرتبط بها بصورة أو بأخرى من روابط السي
الاقتصاد. ولكن لم يكن للثقافة دورها المنشود
الروابط. وعلى الرغم من وجود بعض المراكز
فى عدد من دول القارة، فإن هذه المراكز لا تق
فعال فى تدعيم روابط الثقافة بين مصر وهذ

المشروع القومى للترجمة

تاريخ الأدب فى إيران

من بداية الحكم الصفوى حتى نهاية الحكم القاجارى

(١٥٠٠ - ١٩٢٤م)

(الجزء الرابع)

ألفه بالإنجليزية : إدوارد براون

ترجمه إلى الفارسية : رشيد ياسمى

ترجمه إلى العربية : محمد علاء الدين منصور

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٣٧٧
- تاريخ الأدب فى إيران (الجزء الرابع)
- إدوارد براون
- رشيد ياسمى
- محمد علاء الدين منصور
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

هذه ترجمة عن الفارسية لكتاب :

تاريخ ادبى ايران - مجلد جهارم

آز آغاز سفوية تاپايان قاجاريه

الصادر عن : انتشارات بنياد كتاب

تهران - جاب دوم زمستان ١٦٣٤ هـ . ش

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

المحتـــويات

تقديم المترجم	7
مقدمة المؤلف	9
القسم الأول : التاريخ المجمل لإيران فى القرون الأربعة	11
الفصل الأول : "ملاحظات عامة تتعلق بالأسرة الصفوية"	13
الفصل الثـــانى : "من ظهور الدولة الصفوية إلى عام (٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤م)"	39
الفصل الثـالـث :" أوج الدولة الصفوية وحضيضها"	83
الفصل الـرابـــع : "موجز تاريخ فى القرنين (من ١٧٢٢ إلى ١٩٢٢م)"	115
القسم الثانى : "الشعر الفارسى فى القرون الأربعة"	147
الفصل الخامس : "ملاحظات عامة حول الشعر الأخير خاصة الشعر الدينى"	149
الفصل السادس : "شعراء ما قبل الحكم القاجارى"	167
الفصل الســابع : "شعراء العصر القاجارى"	219
الفصل الثــامن : "المذهب الشيعى وأئمته"	261
الفصل التــاسـع : "كتاب النثر" إلى عام ١٨٥٠م	299
الفصل العــاشـر : "رقى السنوات الأخيرة"	335

تقديم المترجم

أشرف بتقديم هذه الترجمة للمجلد الرابع والأخير من سلسلة الكتب المهمة والثرية التى ألفها المستشرق الإنجليزى الكبير إدوارد براون ، عن تاريخ الأدب الإيرانى من البداية إلى نهاية الربع الأول من القرن العشرين ، وقد قمت - بعون الله - بترجمة الجزء الثالث من هذه السلسلة ، والذى يبحث تاريخ الأدب الفارسى فى عهد حكم المغول والتيموريين ويصدر الجزآن معا ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة فى المشروع القومى للترجمة ، هذا المشروع ذو الأهمية والخطر الذى نرجو له الدوام والنجاح ، وقد آثرت نقل هذا الكتاب من نسخته الفارسية المترجمة عن الأصل الإنجليزى ؛ لأن المترجم الإيرانى وهو- رشيد ياسمى - محقق وأديب ، وانتهج فى ترجمته أن يحذف ما يفيد الغربيين ولا يضيف جديدا إلى القارئ الإيرانى والعربى ، خاصة فيما يتصل بتفصيلات من التاريخ والدين لقاء إضافاته التى توجبت بعد رحيل المؤلف وظهور دراسات جديدة وتحقيقات طريفة ، وكما رخّص المترجم الإيرانى لنفسه هذا النهج حذفت بعض الحواشى غير المهمة التى وضعها المؤلف والمترجم أو أضفت مفاد جديدها إلى النص رغبة فى الإيجاز والتيسير .

ويظهور هذا الجزء الأخير وقبله الجزء الثالث - وقد ظهر من قبل الجزآن الأول والثانى اللذان يبحثان الأدب الإيرانى وتاريخه من البداية إلى السعدى (نحو نصف القرن السابع الهجرى والثالث عشر الميلادى تقريبا) تكمل هذه المنظومة المهمة للمثقف العربى والمتخصص العربى ، وتضيف لبنة لا محيص منها فى صرح معرفتنا بالأدب الإسلامى الإيرانى .

ولله الحمد من قبل ومن بعد

القاهرة فى (٢٠٠١ م)

مقدمة المؤلف

يعد هذا الجزء فاتحة واجب شمرت عن ساعد الهمة لإتمامه فيما يزيد عن اثنين وعشرين عاما ، وقد نُشر الجزء الأول فى عام (١٩٠٢ م) ، والثانى عام (١٩٠٦) ، والجزء الثالث – الذى عنوانه (تاريخ الأدب فى إيران من السعدى إلى الجامى) – نشر بعد الثانى بأربعة عشر عاما ، ويعد هذا الكتاب الذى يبحث الأدب الإيرانى فى القرون الأربعة الواقفة بين عامى (١٥٠٠ م) و (١٩٢٤ م) الجزء الرابع والأخير .

ومع أنى لا أستطيع أن أرجح هذا الجزء من حيث شكله الظاهرى وفوائده المعنوية على المجلدات الثلاثة السابقة له ، ومع أنى على علم كامل بأوجه قصوره فقد يشمل أكثر مما سبقه نقاطا ومعلومات جديدة ويجمع دراسات وأبحاثا مبتكرة .

ذاع فى أوربا والجزء الأعظم من تركيا والهند أن الأدب الإيرانى ينحصر فى الشعر وليس غيره من الآثار الأدبية الفارسية يجدر بالاهتمام ، كما يقال إنه لم ينظم من عهد الجامى إلى الآن شعر يظفر بقراءته داخل إيران ؛ وكل هذه الآراء أوجبت ألا يهتم أحد بالتأليف فى تاريخ الأدب فى إيران فى القرون الأربعة مدار البحث وألا تنشر أكثر الكتب الفارسية التى هى مصادر هذه المعلومات .

وإذا كان تأليف هذا الكتاب الباعث على اللذة وإتمامه يوجبان الرضا والشكر إلا أن مزالقه ونقائصه تحفز على النقد وتحرك حسّ التقصى والتمحيص ، وهذا فى حد ذاته وسيلة زيادة المعلومات . فإن كان جرى فى هذا الكتاب خطأ فإنى أوثر النقد المنصف للعلماء المتخصصين على المدح والتفريط الذى يزجيه المنحازون لى ، والأصدقاء المتحمسون بلا روية ويقول سعدى :

كفيت أذىً يا من تعد محاسنى ... علانيتى هذى ولم تدر باطنى

إداورد براون

٢١ يونيو ١٩٢٤

القسم الأول

التاريخ المجمل لإيران فى القرون الأربعة

الفصل الأول

ملاحظات عامة تتعلق بالأسرة الصفوية

الأهمية التاريخية للأسرة الصفوية

يعد ظهور الأسرة الصفوية فى إيران فى بداية القرن السادس عشر الميلادى واقعة تاريخية كثيرة الأهمية ، ليس فقط لإيران وجيرانها بل لأوروبا على وجه العموم ، فظهورها ليس دليلاً على استقرار الملك الإيرانى وتجديد ثبات القومية الإيرانية وحسب – وكانا كالشمس المكسوفة لثمانية قرون ونصف – بل هو علامة على دخول هذا البلد فى المجتمع الدولى ومنشأ العلاقات السياسية ، ولا يزال أيضا ثابتا على حاله بدرجة مهمة ، وقد تعقب بتفصيل أهمية هذه الأسرة ر.ج . واتسون R.J.Watson ، الذى يبدأ كتابه (التاريخ المجمل لإيران من بداية القرن السادس عشر إلى عام ١٨٥٨ م، لندن ١٨٦٦ م)(١) من هذه المدة ؛ لأن هذه المدة فى الحقيقة هى عهد الانتقال من القرون الوسطى إلى القرون التى يمكن – إلى حد ما – تسميتها بالقرون الحديثة .

قضى تغلب العرب فى أواسط القرن السابع الميلادى على دين زردشت والحكم الساسانى وحتى منتصف القرن الثالث عشر حين زالت الخلافة العربية على يد المغول جعل العرب إيران ولاية من ولايات الخلافة ، حقا إن قبل هذه الواقعة وبعدها حكمت أسر مستقلة أو نصف مستقلة فى إيران ، لكن أغلبها كان من العنصر التركى أو المغولى كالغزنويين والسلاجقة والخوارزمشاهيين وأسرة جنكيز وتيمور ، ومع أن

(١) عنوان الكتاب ذكر خطأ من بداية القرن التاسع (المترجم)

أسرة إيرانية الأصل مثل آل بويه ظهرت فلم تحكم غير جزء من إيران القديمة ، وكانت الأسرة الصفوية التى أحالت إيران مرة أخرى (شعبا) قائما بذاته متحدا قويا وواجب الاحترام ، ومدت ثغورها فى حكم الشاه عباس الأول (١٥٨٧ - ١٦٢٨ م) حتى حدود الإمبراطورية الساسانية ، وانتقلت فى عهد هذا الملك العاصمة من قزوين إلى أصفهان ، وصارت هذه المدينة (نصف الدنيا) فى مضرب أمثال الإيرانيين وعلى حسب قول (الدون خوان Don Joan) إنها تسمى (مديومندو Medio mando) أى نصف الدنيا ، وقد استحقت أصفهان هذا اللقب لكثرة عمائرها الفخمة ، وصناعها المهرة ، واختلاف التجار إليها من الأقاصى والوفود السياسية التى كانت تتجه إليها لا من الهند والتركستان وتركيا العثمانية وحدها بل من كافة البلاد الأوربية تقريبا من روسيا إلى إسبانيا والبرتغال .

فقدان التاريخ الكافى والكامل للأسرة الصفوية

لم يؤلف حتى الآن تاريخ كامل وصحيح(١) عن الأسرة الصفوية مع وجود أهميتها وكثرة المصادر المفيدة ، وشرح " السير جون ملكم " المجمل والسير كلمونتز مرخام الذى أرخاه عن هذه الفترة فى تاريخها لا يكفى من حيث الوسعة ، وتنقصه الدقة من حيث التفصيل ، ويقوم على مصادر محدودة تعوزها تماما الصحة والأصالة ، وتضع كثرة المصادر وتنوعها وفقدان الوسيلة للحصول على غالب المصادر المهمة للمعلومات واختلاف اللغات وتعددها على سبيل الخصوص ، التى كتبت بها العراقيل والعوائق فى طريق يفكر فى إعداد شرح صحيح لهذه الفترة .

(١) سنتحدث فى الفصل الثالث عن التاريخ لكروسينسكى وهانوى المنصب على العهد الأخير للحكم الصفوى.

المصادر الأربعة المهمة الفارسية التى لم تطبع

المصادر الأربعة الكثيرة الأهمية الفارسية التى ألفت فى الشطر الأول لهذا العهد أى إلى وفاة الشاه عباس الأول هى كالتالى :

١ – صفوة الصفا الشامل لسيرة الشيخ صفى الدين المرشد المعروف للقرن الثالث عشر ورأس الأسرة الصفوية وجدها الأعلى .

٢ – كتاب نسب الأسرة الصفوية الحاوى لترجمات قيمة لكبار هذه الأسرة القدامى ، ولا تظهر معلوماتها فى مصدر آخر .

٣ – أحسن التواريخ الذى انتهى فى (١٥٧٧ م) بعد موت الشاه طهماسب بعام ، ويحكى وقائع أيام حكم هذا الملك وأبيه الشاه إسماعيل مؤسس الأسرة الصفوية .

٤ – تاريخ عالم آراى عباسى أو التاريخ العباسى زينة العالم ، وهو تذكرة مفصلة ومبسوطة عن فترة حكم الشاه عباس الأول .

ولم يطبع أحد هذه الكتب الأربعة [1] أو يترجم [2] ، باستثناء (عالم آرا) فما بقى نادر النسخ ، وسعدت كثيرا حين توصلت إلى نسختين من كتاب النسب والتاريخ العباسى ، وكانتا بحوزة السير إليوت هوتم شندل ، وأشكر اللطف الذى بلا حد للمستر أ.ج. إليس الذى وضع تحت تصرفى نسختين خطيتين للكتابين الآخرين لدراستهما .

(١) بعد تأليف هذا الجزء أرسل إلى أحد الإيرانيين نسخة فاخرة من صفوة الصفا طبعت على الحجر فى بمباى.

(٢) طبع على الحجر فى طهران المجلدات الثلاثة لعالم آراى عباسى ، وصححها ميرزا محمود خونسارى فى (١٣١٤ هـ ق)، وطبعت سلسلة النسب الصفوية أيضًا فى برلين بمطبعة إيران شهر عام ١٣٠٢ ش (ياسمى)

التواريخ الأخيرة الفارسية غير موثوق بها

مع أن مؤرخى فى العهود الأخيرة الذين أرخوا لتاريخ إيران العام من قبيل رضا قليخان فى إتمام روضة الصفا لمير خواند حصلوا على المصادر الأربعة السابقة الذكر وراجعوها لكنهم لم يكتفوا بتلخيص موضوعاتها كما هى بل زيفوا وعقدّوا ما نقلوه عنها بطريقة ممجوجة ، والنموذج التالى لهذا التخليط المهووس : أرسل الشاه عباس الأول فى يوليو ١٥٩٩ م وفدا إلى أوربا لزيارة : روسيا ، والمجر ، وألمانيا ، وفرنسا وإسبانيا ، وإنجلترا ، وأسكتلندا ، ومقابلة بابا روما ورؤساء البندقية ، وكان أعضاء الوفد مكونين من سفير إيران حسين على بيك[1] وأربعة آخرين من علية إيران – يسميهم الدون خوان فى رحلة إيران كابالرو – وخمسة عشر من الخدم ، وعبر السير أنطونى شرلى Sherley المعروف من بحر الخزر والفولجا ومعه خمسة عشر من الرفاق الإنجليز وقسيسان برتغاليان وخمسة تراجمة بهذا الوفد ، وتوجه الأول إلى موسكو ، ومكث بها نحو نصف عام ثم اتجه عن طريق ألمانيا إلى إيطاليا ، لكنه لم يسمح له بدخولها خوفا من أن دخول هذا الوفد إلى البندقية سوف يثير حافظة العثمانيين الذين تصادف وجودهم بها ؛ وعوضا عن ذلك لقى استقبالاً حافلاً فى روما، وكان تاريخ دخول الوفد المذكور هو (أبريل ١٦٠١ م) ومدة مكوثه شهرين ، ثم ركب سفينة واتجه من جنوة إلى جنوب فرنسا ومنه إلى إسبانيا وبها اعتنق ثلاثة من النجباء الإيرانيين الأربعة الكاثوليكية وسموا : بالدون فيليب Don Fillipe ، والدون دييجو Don Diego ، والدون خوان الإيرانى .

(١) يسمى هذا الدون حسين على ذاك (أوزون عالى بيك) وأنطونيو ديجوفا (إسن عليبك)، والجزء الأول على هذا من الاسم هو (حسين) وليس كما كنت أظن (أوزون) .

الدون خوان الإيرانى

كانت علاقة السير أنطونى شرلى من البداية سيئة مع رفاق سفره الإيرانيين؛ فانفصل عن الوفد ، لكن كتب الرحلات التى كتبها هو ورفاقه [١] حتى ذاك الوقت تساعدنا فى تعديل ما ذكره الدون خوان على أساسها وتكميلها وتصحيحها . لم يكن الدون خوان الذى ترك الإسلام يجرأ على العودة إلى إيران وتلقى عقوبة المرتد ولا فوت من الاعتماد على المؤرخين الإيرانيين لفهم نهاية هذه الواقعة المؤلمة ، ويظهر لنا فى (عالم آراى عباسى) ضمن وقائع عام (١٠٢٢ هـ / ١٦١٤ م)[٢] ذكر دخول سفير ملك إسبانيا وبضعة قساوسة وممثل إيرانى كان عائدا إلى أصفهان من أوربا [٣] ، وقد حل هذا الشخص الأخير موضع نقمة الشاه عباس وبدون أن يسمح له بالتوضيح والدفاع عن نفسه قتل قتلة شنيعة ، وقد وضح علة ما حدث له الشاه للإسبان وهو: أن المذكور ارتكب أيام مأموريته بضعة أعمال منها أنه فتضى المظروف الممهور بالختم الملكى ، وأفشى ما بداخله ولبس السواد فى عزاء زوجة ملك إسبانيا ، وباع الرسالة التى يحملها للبابا إلى تاجر لكى يقدم التاجر نفسه بدلاً منه ويلقى التكريم ، لكن أعظم خطاياه التى أوجبت عقابه هو أنه كان يسيئ معاملة رفاق سفره وجدّ فى إيذائهم حتى أن بضعة منهم آثر المسيحية واختار النصرانية للخلاص من جوره وبقوا فى بلاد الفرنجة ؛ فاقتضت الغيرة على الإسلام معاقبته [٤] ، هذا ونجد الواقعة المذكورة فى مراجعتنا ملحقات روضة الصفا ، وهو تاريخ عام لإيران وتأليف رضا قليخان وألف عام ١٨٥٨ م منقولة بطريقة واضحة وتغيير بسيط عن عالم آرا نقطة مهمة زيفها تزييفا

(١) راجع خاصة (شرلى وإخوان ... تأليف أحد أعضاء الأسرة نفسها) شيسويك (chisuick ٢١٨٨) ص ٢٢ – ٣٥ .

(٢) الورقة ٢٣٠ من المخطوطة بحوزتى المرقمة بـ (II ١٤٠) .

(٣) مع أن اسم الممثل الإيرانى هذا هو دنجيز بيك شاملو الملقب يوزباشى كما ورد بالتاريخ الإيرانى إلا أن اسمه فى كتاب الدون خوان هو حسين على بيك (d ٤١٢) ، ولكن أشك فى أن الشخصين شخص واحد .

(٤) للتفصيل راجع عالم آرا – طهران ، ص ٦٦٠ (ياسمى) .

شديدا إذ نقل عن الشاه عباس فى روضة الصفا : (أعظم جميع الجرائم أن بضعة أشخاص مالوا إلى الإسلام وقصدوا المجيئ إلى إيران فعاملهم بسوء الخلق وقسوة حتى إنهم ندموا وعادوا إلى المسيحية وبقوا فى بلدهم نفسها) ، وسبب هذا التغيير والتخليط المتعمد للتاريخ - فى افتراضى - أن رضا قلى خان لم يشأ أن يشجع الناس وأن يذكر أن المسلم يمكن أن يصير يوما مسيحيا، وما أريد أن أصل إليه من نتيجة من هذا الشرح هو ضرورة مراجعة كتب التاريخ الأخيرة لإيران بكمال الاحتياط، والاعتماد - كلما أمكن - على المصادر المعاصرة لها عند تحقيق كل موضوع وواقعة .

خطأ للسير جون ملكم

وقبل ترك هذا الموضوع أعد لازما الإشارة إلى خطأ للسير جون ملكم سببه الدراسة المتعجلة للمصادر الإيرانية ، فى عام ١٠٠٢ هـ / ٣- ١٩٥٤ م، وهو العام السابع لحكم الشاه عباس تنبأ بأن آثار الكواكب والقرانات العلوية والسفلية تدل على موت الجالس على سرير الحكم ، وأوصى الشاه بأن يعتزل الحكم بضعة أيام ويجلس مكانه شخصا محكوما عليه بالقتل حتى يقع عليه تأثير القران ، وعمل كما أشار وصار ملكم خان [١] (ومن اسمه يوسف الذى يقول مؤرخو إيران إنه كان كافرا يحتمل أنه كان مسيحيا) [٢] ؛ لكن هذا خطأ : فالمذكور كان من إحدى الطوائف الضالة عن الإسلام وتسمى النقطوية التى تؤمن بالتناسخ وغيرها من المبادئ الكافرة وفصّل (عالم آرا) وما نقل عنه فى روضة الصفات ظهور هذا المذهب المنكور وقمع رؤسائه ، إذن فلا مندوحة من ضرورة مراجعة المصادر الأصلية عند كتابة تاريخ صادق للصفويين ولابد من طبع المخطوطات الموجودة .

(١) تاريخ إيران (لندن ١٨١٥ م) الجزء الأول ، ص ٥٢٧ .
(٢) ترجمة تاريخ السير جون ملكم الجزء الأول الباب ١٤ ، ص ١٩٤ ، طبعة الهند ١٢٨٧ هـ. ق (ياسمى) .

المصادر التركية

مع ذلك فالمصادر التاريخية الفارسية قسم واحد من المصادر المفيدة للفترة محل الدراسة ، فمراجعة كتب التذاكر والتواريخ التركية التى لا حصر لها - المطبوع منها وغير المطبوع - التى تتحدث عن هذه الفترة خاصة أيام الحرب العثمانية الإيرانية التى استمرت - تقريبا - بلا انقطاع فى القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، بل تتميز فى بعض الجوانب ؛ ولذا فهى لازمة وواجبة لإكمال تاريخ الفترة المذكورة وإصلاحها، وأهم هذه المصادر مجموعة المراسلات الحكومية العثمانية التى جمعها فريدون بيك قبل عام ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م بقليل وسماها (منشآت السلاطين) ، وطبعت هذه المجموعة القيمة المجهولة القدرة على حسب قدمها التاريخى بعضها مكتوب بالعربية والأخرى بالتركية وثالثتها بالفارسية ، وقد قصّت هذه المراسلات أغلبها من عهد الأمير تيمور فصاعدا الوقائع والتقريرات السياسية اليومية الإيرانية، وحوى القسم الأخير للجزء الأول الرسائل التى تبادلها السلطان بايزيد الثانى (١٨٤٢ - ١٥١٢ م) وسليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٤ م) وسليمان الأول (١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) من ناحية ، والشاه إسماعيل (١٥٠٠ - ١٥٢٤ م) وابنه وخلفه فى الحكم الشاه طهماسب (٤٢٥١ - ٧٦٥١ م) من ناحية أخرى ، كما شرحت فيها وقائع بعض الحروب مثل حرب تشالدرن التى جرت فى ٢٣ أغسطس ١٥١٤ م وانتهت بهزيمة إيران، وقيد بها أخبار سير العمليات الحربية العثمانية يوما بعد يوم المتقدم منها والمتأخر ، وكثرة من هذه المراسلات الملكية الإيرانية والعثمانية لا تزال بأيدينا ولم تتحلّ بالطبع، ولم تحظ من الدارسين باهتمام [١] .

(١) طبع بعض الرسالات المفيدة الحكومية المأخوذة عن دستور الإنشاء لصارى عبد الله أفندى (توفى ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨م) بيد شارل شفر فى كتابه منتجات الآثار الفارسية (باريس ١٨٨٥ م) الجزء الثانى ، ص ٢١٨ - ٢٥٩ و ٢٣١ - ٢٩٠ ، ولها حواش كثيرة .

المؤلفات الأوربية المعاصرة للصفويين

النوع الثالث للمصادر التى لايمكن إغفالها هو الكتابات الأوربية التى كتبها أوربيون قدموا فى هذه الفترة بصفتهم مبعوثين سياسيين أو ممثلين دينيين أو تجارا إلى إيران ، وبسبب حسن المعاملة التى أظهرها الشاه عباس الأول للمسيحيين كان عددهم يتزايد فى أيام حكمه وحكم خلفائه على الدوام ، وأفضل شرح لأحوالهم وآثارهم يبدو لى خلاصة كتبها شارل شفر Charles Schefer فى مقدمته (ص I.CXV) ، وكتاب وضع إيران عام ١٦٦٠[١] تأليف الأب روفائيل دى مانس رئيس المرسلين للتبشير بأصفهان ، وهذا الرجل بسبب حسن أخلاقه ومعلوماته الواسعة وإقامته المطولة فى أصفهان التى استغرقت خمسين عاما (١٦٤٤ - ١٦٩٦ م) يتمتع قوله بالثقة والمرجعية ، والكتب التى ذكرها شفر ألفت باللغات : الهولندية، والإنجليزية والفرنسية ، والألمانية ، والإيطالية ، واللاتينية ، والبرتغالية ، والإسبانية ، وانتشر أهمها فى لغتين أو ثلاث[٢] ، وأشهر مؤلفى هذه الكتب - باستثناء المبعوثين الأوائل البنادقة إلى بلاط أوزون حسن : من قبيل كاترينو زنو، وجوزيفو باربارو، وأمبروزيو كونتارينى ، وقدم أغلبهم إلى إيران فى النصف الأخير للقرن الخامس عشر الميلادى أى قبل ظهور الأسرة الصفوية - هم : أنطونى جنكينسن Antony Jenkinson ، وأخوا شرلى Sherely ، وكارت رايت Cartwriht ، وبارى Parry ، والسير توماس هربرت الإنجليزى Thomas Herbert، ثم أنطونيو دى جوفيا Antonio di Gouvea ، وبوجارسيا دو سيلفا فيجوروزا Dogareiac de Silva Figuerosa ، وأوليـاريوس Olearius، وتيكزيرا Teiceira، وبيترو دلافال Piotro della valle ، وتافرينة Tavernier ، وتيفينو Thevenot ، وآخرهم وأشهرهم جميعا شاردان Chardin ، وتبى دى كروا Petis de Croix ، ولا يتجاوز شفر بإحصائيته القرن السابع عشر ، لكن كروسينسكى Krusinsk ، وهو أحد الآباء الجزويت وتؤرخ فنان

(١) ليرو Leroux، باريس ١٨٩٠ ص ٤٦٥ + XVx

(٢) لا يجب إغفال كتاب" مرآة الممالك" .

ومراسلات التجار الهولندين المقيمين بأصفهان والتى أدرج بعضها دنلوب K.Dunlop فى كتاب برزيه Perzie هارلم Harlem ١٩١٢ م (ص ٢٤٢-٧) يؤرخان تاريخ أواخر العصر الصفوى وقبل هجوم الأفغان (١٧٢٢ م) ثم أحداث الحكم الدموى للأفغان بطور مفصل من هذا العهد حتى نهاية القرن الثامن عشر، وأتى إيران نسبة عددية قليلة من الأوربيين ثم توقفوا وذلك بسبب عدم استقرار أمور إيران وكثرة العراقيل التى وضعت فى طريق البعثات الموفدة والتجار ، ويجب أن تغير الرؤية السياسية له دخل أيضًا فى هذا ، وكان الهدف من إرسال المبعوثين السياسيين الذين كانوا يأتون من بلاد أوربا المختلفة إلى إيران فى سائر العصر الصفوى ، وقبله بقليل هو إقامة دولة متحدة يمكنها مجابهة عدوهم الخطير والقوى أى عدوهم الخطير والقوى أى العثمانيين ، وقد بدأ عهد قوة هؤلاء بفتح القسطنطينية (١٤٥٣ م)، ووصلت أوجها فى عهد السلطان سليم خان المعروف بياوز وسليمان خان الملقب بالقانونى (١٥١٢ - ١٥١٦ م) ، وقد فتح الأول مصر وبيت المقدس ونادى بنفسه خليفة ، ولم يلبث الثانى بعده قليلاً حتى فتح مدينة فينّا .

وقد أرعبت الهجمات العثمانية الساسة الغربيين حتى إن بوسبك Busbecq سفير فردناند Ferdiand لدى العثمانيين قد أفصح عن مكنون قلبه بقوله :(ليس غير إيران بيننا وبين ورطة الهلاك ، وإذا لم يمنع الإيرانيون العثمانيين لاستحوذ الأتراك علينا بسهولة وهذه الحرب التى جرت بينهما وهى لنا مهلة وليست خلاصا قاطعا)[1] ، وفى ١٧٢٢ م حين انقرضت الأسرة الصفوية بعد فساد سنوات عديدة لم تعد إيران فترة ذات أهمية كما لم يعد الأتراك خطرا على أوروبا ، وقد فقد الخلاف المذهبى الذى كان يقوى لمدة قرنين جذور الحرب بين الترك وإيران قدرا من حرارته وقوته بعد سياسة التوفيق التى جرى عليها نادر شاه فبدا نتيجة هذه التغييرات تعقب السياسة الأولى لأوربا أمرا غير لازم وغير ممكن .

(١) تاريخ العثمانيين تأليف كريزى Creasy (لندن ١٨٧٨ م) ، ص ١٧١ - ٢ ، وكتاب سيرة بوسبك ومراسلاته تأليف فورستر ودانيل (لندن ١٨٨١) الجزء الأول ٢٢١ - ٢ .

أهم سمات الأسرة الصفوية

والآن بعد هذا الإحصاء المجمل لما قامت عليه دراستنا للأسرة الصفوية لابد أن نتناول شرح أهم سمات هذه الأسرة ، فمع أن القضية صارت واضحة بشكل عام لكن تاريخ الفترة المذكورة يحوى سلسلة من المسائل اللافتة للنظر . والتى توضع تحت عنوانين هما : القومية ، والصناعة والأدب، ونحن مبادرون لدراستهما مع الترتيب .

القومية

كيف يمكن وصف أعمال السلاطين الصوفية بالقومية ؟

قيل إن إيران صارت ثانية ذات قومية مهمة السلاطين الصفويين بعد ثمانية قرون ونصف وهذا حق ، لكن القومية أسست بحيث تتفاوت من نواح كثيرة عن أنواع القوميات المصطلح عليها الآن بيننا، فى هذه القومية قل تأثير اللغة والعنصر وهما ركنا القومية عن تأثير المذهب ، فلم تشتد الخصومة والعداء فى أى وقت بقدر السنوات الثمانى (١٥١٢ - ١٥٢٠ م) حين كان السلطان سليم والشاه إسماعيل الأول كانا مبادرى الحرب بين البلدين ، وتجاوزت المراسلات الحكومية فى هذه الفترة والتى نجح فريدون بيك فى جمعها أسلوب الكتابة السياسية ، وانتهت إلى الإسفاف والمبالغة السوقية ومنها عبارة (الأوباش القزلباش) وهى ألطف جملة يخاطب بها السلطان العثمانى أعداءه الإيرانيين .

وسبب هذه العداوة الشديدة التى كانت تظهر بوضوح شديد من كلا الطرفيين بنسبة واحدة سوف نشرحه تحت عنوان (المذهب) ، لكن لابد من العلم أن هذه العداوة لم تكن تشمل العنصر واللغة للشعبين. حين دخلت أمريكا الحرب العالمية ظهر فى الصحف أن أهالى بعض البلاد لكى يظهروا شديد كرههم للألمان وما يتعلق بحكومتهم ألقوا بكافة الكتب الألمانية التى وجدوها طعمة للنار ، لكن أحدا من العثمانيين أو الإيرانيين فى القرن السادس عشر لم يقدم على هذا التصرف الصبيانى

لإطفاء نار غضبه ؛ على النقيض ما يجدر ذكره هو أن كلا السلطانيين سليم وإسماعيل تمتع بالذوق والقريحة الشعرية ، كان الأول ينظم دائما شعره بالفارسية ، وكان الآخر يقرض كافة أشعاره بالتركية (١) متخلصا (بخطائى) ، كان عداء العثمانيين للقزلباش بسبب معتقداتهم لا بسبب أنهم إيرانيون ، وكانت اللغة الفارسية - كسابق عهدها- تعد لغة الكتابة ولسان السياسة والأدب لدى الأتراك ، ومع أن عداوة إيران وتوران التى فصل فيها الفردوسى فى الشاهنامة كان يدركها الأتراك والإيرانيون حق الإدراك إلا أن السلطان سليم فى مقدمة مكاتبته العجيبة الآتية المؤرخة بأبريل ١٥١٤ م (صفر ٩٢٠هـ) " راجع ج ١، ص ٣٨١ لمجموعة فريدون بيك " يشبه نفسه بالملوك الأسطوريين القدامى الإيرانيين مثل فريدون ، ويخسرو ، ودارا ، ويسمى خصمه الإيرانى الشاه إسماعيل أفراسياب التركى :

" ... أما بعد فهذا الخطاب المستطاب صدر من جنابنا مآب الخلافة قاتل الكفرة والمشركين ، قامع أعداء الدين مرغم أنوف الفراعين ، معفر تيجان الخواقين ، سلطان الغزاة والمجاهدين من له مجد فريدون وعظمة الإسكندر وعدل كسيخرو ، صاحب الأصل العالى السلطان سليمان شاه بن السلطان بايزيد بن السلطان محمد خان ، إليك قائد العجم والرأس الأعظم والرئيس المعظم ضحّاك الزمان الثوى كداراب أفراسياب العهد الأمير إسماعيل الشهير .. "

ومن ناحية أخرى فقد وجدت بيتا واحدا فى (أحسن التواريخ) فى ذكر وقائع عام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ - ٣ م شبّه الشاه إسماعيل بشكل حاسم بالإيرانيين القدامى :

شعلة تاج الكيانين وعرشهم

عُلوّ لنجم الثوار

(١) راجع تاريخ الشعر العثمانى ج ٢ ، ص ٢٦١ ، تأليف جيب Gebb ، فقد شرح باختصار ديوان السلطان سليم الفارسى ، وقد طبع بول هورن الديوان فى برلين طبعة أنيقة وقدمه إمبراطور ألمانيا فى ١٩١٤ إلى السلطان عبد الحميد خان ، ولدى بضع قطع من أشعار السلطان سليم فى مخطوطة سلسلة نسب الصفويين راجع مجلة الجمعية الملكية الآسيوية لعام ١٩٢١ م ص ٤١٢ فيها موضوعات أخرى .

الاستعمال المفرط للغة التركية فى العهد الصفوى

يفهم جيدا من أسماء القبائل السبع التى تعد أركان القزلباش وهى : (روملو ، شاملو ، وموسيلو) وغيرها ، ومن أسماء القواد المعمين للجيش الصفوى ومن شعاراتهم المكتوبة مدى انتشار اللغة التركية فى هذه الفترة ، طبقا للتاريخ النادر للشـــاه إسماعيل فقد كان الشعار الحربى للجيش الصفوى بالفارسية عبارة (جاويد باد إيران) أى : (عاشت إيران) ؛ وتفيد هذا المعنى الجملة التركية الـتى كانت تُردد أثنـاء القتال : (قربان اولدنعم وصدق الديغم بيروم مرشدم) : أى فداء ومخلص أنا لشيخى ومرشدى .

وبعد وفاة الشاه إسماعيل بقرن حين انتقلت العاصمة من شمال إيران إلى أصفهان كانت اللغة التركية – فيما يظهر – لا تزال تعد أهم لغة فى البلاط ، ويعرف بالقدر الكافى من هذه الأمثلة – التى يمكن زيادة نماذج أخرى عديدة إليها – أن الأحاسيس والمقاصد التى حركت الإيرانيين فى العهد الصفوى وأحيتهم – مع أن نفسها هذه الأحاسيس بلا شبه صارت سبب التوحد والتجانس وهو أساس العقائد القومية – إلى أى مدى تختلف وتتباين مع الفكر القومى الذى رسخ الآن فى أذهان أتباع الاتحاد التركى وإيران الفتاة ، جعل هذان الحزبان الأخيران أول هدف لهما تنقية لغتهما القومية من الألفاظ الأجنبية ، اليوم نادى القوميون فى أنقرة بجلوس خليفتهم باللغة التركية خلاف ما سبق حين كانوا يدعون لخلفائهم باللغة العربية القديمة الاحترام من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن (رضا خان) القائد العام للقوات الإيرانية يسعى إلى ادخال كلمات إيرانية خالصة فى مصطلحاته العسكرية .

المذهب

أصول المذهب الشيعى

مع أن المسلمين يقسمون أنفسهم إلى نحو ثلاث وسبعين شعبة – راجع الملل والنحل لشهر ستان طبعة كورتون Cureton ، ص ٢ – ٣ – إلا أن المباحثات والمناقشات الخاصة بالجبر والاختيار وخلق القرآن وقعت فى الدرجة الثانية من

الاهتمام ، يمكن القول إن الخلاف الأساسى الأصولى يوجد بين أهل السنة وفرقة الشيعة . يسكن الشيعة فى آسيا الصغرى وسورية - يعرفون بها بالمتولى وجمعها متاولة - والهند وسائر البلاد الإسلامية ، لكن بإيران فقط المذهب الشيعى هو مذهب أكثر الشعب والمذهب الرسمى للبلاد ، ويلزم أن نذكر باختصار أصول المذهب الشيعى قبل ذكرنا كيف وصل هذه الدرجة من الاعتلاء فى حدود عام (١٥٠٠ م) بإعانة الصفويين ، ولا يمكن أن نجد مستندا أفضل من كلام الشهرستانى - المؤلف العالم لكتاب الملل والنحل المتوفى فى منتصف القرن الثانى عشر - فى حق التشيع (ص ١٠٨ - ٩) .

نقل عن الشهرستانى

" الذين شايعوا عليا (رضى الله عنه) على الخصوص وقالوا بإقامته وخلافته نصا ووصية إما جلية أو خفيا ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت بظلم تكون من غيره أو بتقية من عنده ، قالوا: وليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم؛ بل هى قضية أصولية هى ركن الدين لا يجوز على الرسول إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله ، ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر والقول بالتبرى والتولى قولاً وفعلاً وعقدا إلا فى حال التقية ، وتخالفهم بعض الزيدية فى ذلك ، ولهم فى تعدية الإمامة كلام وخلاف كثير ، وعند كل تعدية وتوقف مقالة ومذهب وخبط وهم خمس: كيسانية ، وزيدية ، وإمامية ، وغلاة ، وإسماعيلية ، وبعضهم يميل فى الأصول إلى الاعتزال وبعضهم إلى السنة ، وبعضهم إلى التشبيه" .

وجه تناسب التشيع الخاص مع الإيرانيين

إذا أردنا شرح ما سبق بنحو أكثر اختصاراً ووضوحا قلنا : إن كافة الشيعة ينكرون يعادون الخلفاء الثلاثة الأوائل: أبابكر، وعمر، وعثمان، المعروفين بالخلفاء

الراشدين ، ويعتقدون أن عليا ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة والذى عرّف الرسول عمليا وصراحة بأنه خليفته من بعده ، كان لابد من أن يصير خليفة المسلمين من بعده، ومن جانب الله تكون الخلافة حق أخلافه ، وما كان يجب تعيين الأئمة بالانتخاب مطلقا من أسرته بل يعرف كل واحد من الأئمة طبقا لسنة الرسول الذى اختار عليا من الذى يخلفه ، وكانت كثرة من الناس الذين اعتقدوا بهذه الأصول الكلية لكنهم تخالفوا فيما بينهم فى الجزئيات ، واكتفت جماعة من الشيعة بأن يكون الأمام من نسل على ؛ ولهذا اعترفت بإمامة محمد بن الحنفية الذى كان من بطن امرأة خلاف فاطمة ، وعدت جماعة أخرى فيما بينها السبعية أو الإسماعيلية والاثنا عشرية- الذين نتحدث عنهم أساسا هنا - بأن الإمامة تخص أولاد على وفاطمة بنت الرسول ، ثم زاد فى عهد الأمام الحسين عامل آخر على سائر المؤثرات فحسبما يذكر اليعقوبى[1] وغيره من المؤرخين المعتبرين القدامى : فقد دخلت إحدى بنات آخر الملوك الساسانيين - وهو يزدجرد الثالث- فى حبالة نكاح الإمام الحسين وولدت له الإمام زين العابدين الذى يصل نسبه إلى الرسول عن طريق فاطمة من ناحية ، ويتصل بالأسرة القديمة الكسروية الإيرانية من ناحية أخرى أدلة فلا غرو من أن يظهر الإيرانيون إفلاحهم بهذا الحد لزين العابدين وأولاده ويعبدوهم[2] .

اختلاف الشيعة والسنة أساسى لا شخصى

من هنا نلاحظ أن خلاف التشيع والتسنن ليس فقط من ناحية الأسماء والأشخاص وإنما هو منوط بالخلاف والتضاد الموجود أصلاً بين مبدأ الديمقراطية

(١) ألف تاريخه أواخر القرن التاسع الهجرى، وطبع عام ١٨٨٣ م بهمة هوتسما فى مجلدين فى مطبعة ليدن راجع الجزء الأول من تاريخ الأدب فى إيران تأليفى من ص ٢٢٩ والحاشية ٢ .

(٢) أعقل براون العوامل التاريخية فى تقريب التشيع وهو أصلا ابتكار عربى إلى الإيرانيين ، ومنها أن الشيعة العرب وأولاد على كانوا أبرز جبهات المعارضة السياسية للخلافة الأموية والعباسية فوجدت العناصر الإيرانية الناقمة على الحكم العربى متنفسها فى المعارضة الشيعية لذلك اتخذوا التشيع مذهبا ، وأظافوا إليه المعتقدات القديمة الإيرانية كالتقية ووراثة الحكم - كما نذكر بعد هذا بقليل براون - وتقديس العدد ١٢ ، وعبادة الحاكم واعتباره إلهاً والتوأمة بين الملك والدين (المترجم) .

وعقيدة من يعتبر حق الحكم للملوك هو من المواهب والعطايا الإلهية ، كان ولا يزال العرب يعتقدون بالديمقراطية لكن الإيرانيين كانوا على الدوام يعتبرون سلاطينهم لهم مرتبة إلهية أو نصف إلهية ، وعليه فإن يكن تصور وجود حاكم واحد انتخبه الشعب مكروها لهم إلى هذا الحد نعلم إلى أى مـــدى سوف يكون تصـــور إمام أو خليفة أو رسول ينتخب بالطريقة المذكورة مرفوضا ؛ ومن هنا وجدنا الإمامية أو الإسماعيلية مع أنهم كانوا يعيشون فى انصياع فى عهد حكم السلاطين السنة الأتراك كالغزنويين والسلاجقة ، لكنهم كان لهم دائما حصون حصينة فى ولايات إيران (وفى كتب العصر السلجوقى من قبيل سياستنا وراحة الصدور شروح كافية لهذه المسألة)، ومع أنهم كانوا فى راحة فى عهد حكم البويهيين وبعض خانات المغول خاصة غازان وخدا بنده إلى حد ما لكن عهد قوتهم ونفوذهم على سائر إيران يبدأ بالحكم الصفوى .

أصل الصفويين ونسبهم

من هم الصفويون ؟ ومتى اعتنقوا التشيع بهذا الحماس ؛ وكيف نجحوا فى إقرار قوتهم ونفوذهم ؟ كلمة (صفوى) صفة مشتقة من كلمة (صفى) ، وكان أحد المشايخ المعروفين الصوفية واسمه بالكامل (صفى الدين) وتوفى فى جيلان عام ١٣٣٤ م[١] فى سن الخامسة والثمانين ، كان هذا الشيخ يزعم أنه ينتسب للإمام السابع موسى الكاظم من عشرين ظهرا، وإذا راعينا أن المؤرخ والسياسى الكبير رشيد الدين فضل الله ذكر له هذا الانتساب فى رسائله[٢] وطالعنا الكتاب الكبير المسمى (صفوة الصفا) المؤلف بعد وفاته بقليل والمذكور فيه نسبه بناء على قول ولده صدر الدين ؛ فليس ثمة شك فى صحته وأهميته ، وقد نقل المؤرخون - الذين ألفوا فيما بعد تاريخ هذه الأسرة - قول صدر الدين بشكل مباشر أو غير مباشر ، ويصل الشاه إسماعيل مؤسس الأسرة إليه بستة ظهور ، ولكن ليس لدى أى دليل على أن الشيخ صفى كان

(١) صباح إثنين ١٢ من محرم ٧٣٥ هـ ق ما فى ص ١٠ من عالم آراى عباسى . (المترجم)
(٢) راجع شجرة النسب الكاملة لهم فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد يوليو ، والحاشية ١ ، وص ٤١٧ ، ٤١٨ .

يتبع المذهب الشيعى كما كان عند أخلافه بهذه الشدة ، وإنما الدليل الوحيد الضعيف القابل للاهتمام يثبت عكس هذا ؛ لأن رؤساء الأوزبك فى رسالتهم التى كتبوه إلى طهماسب ولد الشاه إسماعيل يذكرون : أنهم سمعوا أن الشيخ صفى الدين سنى ثابت العقيدة ، ويظهرون عجبهم من أن الشاه طهماسب يتابع عليا المرتضى ولا يشايع جده الأعلى ، وكان أول من أظهر اعتقاده الراسخ فى التشيع (خواجه على) حفيد صفى الدين ومن أجداد الشاه إسماعيل [1]، وكان يحادث الأئمة فى مناماته ، وكان حفيده الجنيد وحفيده من بعد الحيدر أظهر عقيدتهما واستقبلا الموت فى ميدان الحرب وهما يجالدان بسيفهما .

بيان أن الصفويين فى البداية كانوا طائفة من الصوفية

كان الصوفية فى أول القرن الخامس عشر لا يعدون مرتبة الإرشاد والمشيخة الصوفية ورؤساء روحيين لجماعة متزايدة من الصوفية ، وبالنتيجة اجتذبت دعاياتهم القوية كثرة من المريدين لا فى إيران وحدها بل فى نواح من آسيا الصغرى تركية . ويعلم من المذبحة الفظيعة التى أنزلها السلطان سليم خان فى بداية هجومه على الشاه، إسماعيل (١٥١٤)[2] بالشيعة فى بلاده – وأزهق فيها نحو أربعة آلاف رجل – مدى تأثير الدعاية الصفوية ومبلغ الأمل الذى كانت تبعثه فى مستقبلهم ، وكان رئيس الأسرة الصفوية – حتى بعد صعوده إلى عرش الحكم – يعد مرشدا وشيخ الطريقة لهؤلاء المريدين والصوفية المخلصين الذين ذكرنا شعارهم الحربى .

(١) المجلة السابقة عدد يوليو ١٩٢١ ، ص ٤٠٧ ، ٨ .

(٢) تاريخ الأدب العثمانى لجيب ج ٢ ، ص ٢٢٧ – ٨ ، وص ٢٥٩ و ٧١ – ٧٣ .

اصطلاح الصوفى الأعظم

استهزأ شارون ورافائيل دومانس وسائر المؤرخين الثقاة بالساسة والكتّاب الغربيين المعاصرين لهم الذين كانوا يسمون سلاطين الصوفية بالتسمية (الصوفى الأعظم) ، ورأو أن الصوفية بعامة كانوا فقراء ومعدمين وضعاف إيمان ومكروهين ومطرودين من مواطنيهم ، ويبدو بعيدا أن الملوك العظام الإيرانييّن قد أعاروهم اسمهم ، إلا أن كبت التاريخ الفارسية فى العهد الصفوى حتى سلسلة النسب التى ألفت فى الوقت نفسه رافائيل دومانس – وبالأخص (أحسن التواريخ) وبعض الكتب المتقدمة عليه – احتسبوا الصوفية خاصة الذين سكنوا فى الأناضول بمنزلة زبدة الجيش الصفوى ، ونرى فى هذه الكتب أن (الفداء والرجولة) وغيرها من الصفات الحميدة عُدّت (لازمة التصوف) ، ونسبت (الأفعال غير الحميدة والعصيان) لمن هم (غير الصوفية) ؛ إذن فلا غرو من أن يشتهر (بالصوفى الأعظم) فى أوربا ليس ملك إيران وحده بل مرشد مثل هؤلاء الدراويش والصوفية الفدائيين الذين أذهلوا السياح البنادقة ، بشجاعتهم ، وعلى أية حال فليس أمامنا سبب أوجه لهذه التسمية غير هذا السبب .

وذاع – فيما يبدو – لفترة فى أوربا أن (الصوفى) كلمة مشتقة من (سوفس) اليونانية ، وهذه النظرية لعلها قائمة على تذكر قصة رجال المعتقد المجوسى الذين بشروا بولادة عيسى ، على أية حال فقد أنكر بجد بليغ هذا السبب لهذه التسمية الدون خوان الإيرانى [1] ، وبعد ذكره كيف أن الشاه إسماعيل قد آثر بعد فتحه تبريز مباشرة لقب (صوف إيران الكبير) يقول : (الصوفى ليس بمعنى الحكيم والعالم كما ظن المؤرخون وردوا اشتقاقها إلى كلمة سوفس اليونانية ، بل إن الصوفى مشتقة من الصوف الكلمة العربية) .

ومن الأحداث الجديرة بالتدقيق فى تاريخ إيران سرعة ارتقاء الشاه إسماعيل خاصة إذا راعينا أيام طفولته التى كانت تمضى بأشد الضنك والفزع ؛ فقد قتل أبوه

(١) طبعة Valla dolid ١٩٠٦ (ورقة aO) يتفق كروسينكى مع هذا الرأى أيضًا ، راجع ص ٦٨ من الترجمة الإنجليزية (لندن ١٧٢٨ م)

الشيخ حيدر فى (١٤٩٠ م) ، وكان إسماعيل إذ ذاك فى الثالثة من عمره - ولد فى الخامس من رجب عام ٩٢٨ هـ.ق الموافق ٢٧ يونيو ١٤٨٧ م - وكان هو نفسه وأخواه وأحدهما سلطان على أخوه الأكبر ، وقتل نحو عام ١٤٩٥ م فى ميدان الحرب فى خطر على حياته بسبب ظلم أمراء التراكمة الآق قوينلو وتطاولهم ، وقد تخلصوا من قبضة الموت أكثر من مرة بعون الصوفية الأوفياء وفروا ناجين بأرواحهم من التهلكة ، وحين كان الشاه إسماعيل فى سن الثالثة عشر يمضى من لاهيجان إلى أردبيل بهدف أن يصبح صاحب سلطة أو يهلك فى ميدان الوغى ، لم يكن معه أكثر من سبعة من الصوفية لكن فى كل مرحلة كان يلحق لمعاونته جمع حتى بلغ جيشه فى طارم ألفا ومائتى رجل، ولما ورد أرزنجان بقصد مهاجمة فرخ يسار حاكم شيران بلغ جيشه ثمانية آلاف ، وخلال عام استولى على تبريز ولبس تاج إيران وطرد عنه مستشاريه الذين كانوا يريدون منعه من نشر المذهب الشيعى وفرضه على رعاياه وأتباعه .

الشاه إسماعيل ينشر جبرا التشيع فى تبريز

حين قيل له إن ثلثى سكان تبريز سنة ، ونشر رسوم التشيع وأدعيته الصريحة والأذان والإقامة خاصة لعن الخلفاء الثلاثة سوف يسبب الثورة قال الشاه : (رب العالمين والأئمة المعصومون معى ولا أخشى أحدا بتوفيق الله تعالى ، ولو تحدثت الرعية بكلمة أشهر سيفى ، ولا أدع أحدا حيًا) ، وكان كلام إسماعيل وفعله واحدا، وما إن تناقلت الأفواه هذا التهديد حتى هتف جميع الناس طوعا وكرها بهتافتهم (زاد ولاقلّ) كان إسماعيل رغم ما كان بيديه من العنف وسفك الدم - كما ذكر السياح البنادقة عنه - يتمتع بكثير من الصفات والأخلاق الجذابة والحسنة ، كان حسبما ذكر (كاترينو زينو) وهو فى سن الثالثة عشر : "بشكل جميل وظاهر ملكى فى الحقيقة .. لم تتخالف صفاته الروحية مع جماله الجسدى ، كان من الفطنة والفراسة القوية والطبع والهمة العالية فى هذا السن الصغير بما لا يمكن تصديقه على الظاهر " ، ويصفه آنجليو بأن الناس كانوا يتعشقونه لصباحة وجهه ولأخلاقه الحسنة ، ويقول فى وصفه حين بلغ الشباب : (جميل صبوح الطلعة مقبول ومتوسط القامة سريع الحركة وحسن القد

وسمين ، وبين كتفيه اتساع ، وشعره يميل إلى الحمرة لم يطلق غير شاربه ، وكان يستخدم يسراه بدل يمناه ، كان شجاعا كالديك المقاتل وأقوى من كل من أمرائه ، وفى سابقو الإصابة بالسهام أسقط سبع تفاحات من عشر ، ثم يقول هذا التاجر المغمور بعد بيان أعمال الشاه إسماعيل فى تبريز : " لا أعتقد أنه ظهر بعد نيرون مثله جبار سفاك مطلقا "(١) لكن بعد قليل يقول فى هذا الأمر فيما يخص قيصرية : "أمر بأن يعلن بأن هذه المدينة لأنها من البلاد الموافقة له فكل من يأتى ليبيع طعاما ومؤونة يأخذ مقابله بسعر معتدل، وكل جندى من جنوده أخذ بالجبر قبضة تبن ولم يدفع ثمنها سوف يقتل" ، ثم يصفه بعد هذا ببضعة سطور : "محبوب كالإنسان ، وشاب ظريف كالغزلان يعمل بيسراه وهو أقوى من سائر أرائه " ، ثم يقول : "يعبده رعاياه ، إن شيخهم إسماعيل يراقبهم ويحفظهم فى ميدان الوغى" .

مقارنة دعاية الصفويين والعباسيين

أقرب واقعة مشابهة تاريخياً يمكن مقارنتها بالنهضة الصفوية – فى رأيى – هى الدعاية التى كان يبشر بها أبو مسلم الخراسانى فى النصف الأول للقرن الثامن الميلادى لإقرار الخلافة العباسية ؛ واقترنت بالنجاح والتوفيق أيضا ، كانت دعاية أبى مسلم وكذلك الدعاية الصفوية ظاهرا وبالإدارة دينية المنحى وباطنا وبلا إدارة عنصرية الخلاف الوحيد بينهما هو أن الثانية واجهت معانٍ قوية وصعبة هو السلطان سليم العثمانى ، وأن الأولى اهتمت بتصفية الخليفة الأموى مروان الحمار ؛ ولهذا كانت دائرة ارتقاء الصفويين وسيادتهم أكثر تحديدا عن العباسيين ، وبينما حكمت الحكومة العباسية على جميع البلاد الإسلامية لم تحكم الحكومة الصفوية غير إيران ، ومع أن الصفويين أرعبوا وأرعشوا فى مدة قليلة العثمانيين فقد كان الخوف – وهو أكثر العوامل تحريكا – هو الذى يجر الإنسان إلى القسوة ، وهو الذى حرض السلطان

(١) نيرون إمبراطور الروم حكم (من ٢٥٤ – ٢٦٨) ، ومع أنه كان فى اوائل حكمه رحيماً ولطيفاً تحول سريعاً إلى أشد البشر جرأة وسفكاً للدم وصار مضرب الأمثال فى قسوة القلب (ياسمى) .

سليم على قتل نحو أربعين ألفا من رعاياه الشيعة ، لكن لا يجب حصر أسباب هذه القسوة فى الخوف بل يجب إدخال الغضب والفشل كسببين كذلك ؛ لأن السلطان سليم كان من بين أولئك الذين يسمون اليوم بالإسلاميين (أى المائلين إلى توحيد البلاد الإسلامية سياسيا) ، وكان يروم لشدة طمعه أن يغدو ليس فقط سلطان أكبر البلاد الإسلامية وأقواها بل حاكما لكافة أرجاء العالم الإسلامى ، كان استيلاؤه على مصر ومكة والمدينة (١٧١٥ م) ، وأخذ لقب الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين - ولم يتورع عن أخذه لنفسه بالوعد مرة وبالوعيد أخرى أو بكليهما - مقدمة لتحقيق حلمه القديم ، لكن وجود الشاه إسماعيل كان عثرة فى طريقه ، لأنه كان قد أقر المذهب الشيعى سدا عظيما بين السنة فى تركيا وفى مصر وشمال أفريقيا والسنة الساكنين فى الشرق فى التركستان وأفغانستان وبلوجستان والهند ، ولم يكف الإيرانيين عدم اعترافهم بالسلطان العثمانى سليم بل رفضوا أساسا مبدأ خلافته ، ولم يتفق النصر فى تشالدران (أغسطس ١٥١٤ م) ، وكان نصيب الترك عن نتيجة حاسمة لأن بعد حرب تشالدران من النتائج المطلوبة وأبقوا جرحا دائما تسببَ فى ضعف القوة السياسية للإسلام ، ومنع تحقيق الأمل الطموح لترك ، وهيأ المجال لإفادة أوربا ، ومن (١٥٠٨ م) حين استولى الإيرانيون على بغداد (١٦٣٨ م) حين سقطت بشكل قاطع فى أيدى الأتراك صارت هذه العاصمة القديمة للإسلام تحت تأثير جزر ومد لحروب كثيرة وتحولت فى أكثر من مرة من هذه اليد إلى تلك الأخرى إلى أن صارت الحكومة العثمانية صاحبة ما بين النهرين بلا معارض بسبب الوهن والضعف لآخر الملوك الصفويين .

الفنون والآداب

فقدان الشعراء الكبار فى العهد الصفوى

من المسائل العجيبة - والتى لا تقبل التفسير فى الوهلة الأولى - فى العهد الصفوى هى القحط الشعرى وفقدان الشعراء المهمين . ارتقت الفنون والعمارة والنقش وغيرها ارتقاءً فوق العادة ، والعمائر العالية العامة التى زيّن بها الشاه عباس سائر

مملكته خاصة أصفهان تلقى من عهدها إلى اليوم بالمشاهدين فى الحيرة والتعجب ، ولقى بهزاد وغيره من الفنانين الذين اشتهروا فى العالم من البلاط التيمورى خلفاء مثل رضا العباسى ولفيفه ، لكن رغم كثرة الشعراء الذين وردت أسماؤهم فى التحفة السامية وسائر كتب التذاكر والتواريخ لهذا العصر يصعب علينا أن نعد واحدا منهم - بستثناء : جامى ، وهاتفى ، وهلالى ، وسائر شعراء خراسان ، وهم فى الواقع بقايا المدرسة الأدبية الهروية - أحد شعراء الدرجة الأولى ، على طول العمر الطوفانى للأمير تيمور وهو سبعون عاما ، إذا استثنينا (حافظ العظيم) ، والذى استحوذ على الجميع ؛ ظهر على الأقل نحو عشر شعراء خدم كل منهم الأدب الإيرانى بشعر ولا يمكن إغفال النظر عنهم ، لكن خلال مائتى وعشرين سنة هى مدة الحكم الصفوى يمكن أن نجد - بصعوبة - واحدا فى إيرن له كفاءة بارزة وقريحة مبتكرة على حدود ما استطعت من دراسة ، وقلت متعمدا (فى إيران) ؛ لأن جماعة من الشعراء المشاهير الإيرانيين ولعل أهمهم عرفى الشيرازى (ت ١٥٩٠ م) ، وصائب الإصفهانى (ت١٦٧٠ م) كانت زينة لبلاط السلاطين المغول فى الهند . كان هؤلاء أولاد المهاجرين والجيران الإيرانيين، ولم يولدوا بالهند بل إنهم هاجروا أنفسهم من إيران للهند ثم عادوا إلى موطنهم الأول بعد حصولهم على الثروة والشهرة ، ومن هنا نعرف أن علة فقر العهد الصفوى من الشعراء المشاهير ليست فى الأغلب فقدان القرائح والطبائع الفنانة بل انعدام المشجع والمربى ، وقد ذكر هذه الحقيقة (رضا قلى خان هدايت) فى مجمع الفصحاء وبادر بذكر هذه المسألة أيضا من المستشرقين الأوربيين الدكتور عدوا إته D.E The ذو التأليفات فى الشعراء الفرس ، لكن بتفاوت هوزان هؤلاء المستشرقين (الجامى) عادة هو آخر شعراء إيران العظام ، واعتقدوا أن إيران لم تلد من بعده أربعمائة عام شاعرا جليل القدر ، لكن رضا قلى خان يضع بعض شعراء عهده من مثل : قا آنى ، وفرزغى، ويغما ، فى الطبقة الأولى، ورأى أنه محق فى هذا التصنيف.

علل هذا الفقر

عجبت من عهد له هذه العظمة والقوة الدائمة ولم يظهر به شاعر عظيم فى إيران إلى حد أنى راسلت رفيقى العالم وزميلى المحترم ميرزا محمد خان قزوينى - الذى يدين دارسو الأدب الإيرانى إلى جهوده ودقة نظره كثيرا - واستفسرت منه مسألتين هما : هل هو مسلّم بهذه القضية ويعدها جديرة بالبحث ؟ وأنّى له أن يحلها ؟ فأرسل ردا كتابه بتاريخ ٢٤ مايو ١٩١١ م ومضمونه كالتالى : -

رأى ميرزا محمد خان

على أية حال ،لاشك فى أن الأدب والشعر الفارسى فى العهد الصفوى تدهور إلى درجة خفيفة ، ولم يظهر حتى شاعر من الدرجة الأولى فى هذا العصر ، وأكبر أسباب هذه القضية كما تفضلتم بالشرح أن السلاطين الصفويين أوقفوا - فيما يبدو - أكثر قواهم على نشر التشيع وتشجيع العلماء الواقفين على أصول هذا المذهب وقوانينه ، يدفعهم إلى ذلك نظرهم السياسى وعداؤهم للعثمانيين ، ومع أن هؤلاء العلماء بذلوا مساعيهم المشكورة فى توحيد إيران مذهبيا - ونتج عن هذه الوحدة الوحدة السياسية للبلاد - وأقاموا أساس إيران الموجود التى يسكنها قاطنون لهم مذهب ولسان وعنصر واحد بوجه عام ، لكنهم من ناحية أخرى لم يكفهم أنهم أهملوا الأدب والشعر والعفان والتصوف أو كل ما يتعلق بالكماليات بحد قولهم (فى مقابل الشرعيات)، ولم يعنوا بتوسيعها والرقى بها بل إنهم سلكوا بشتى الطرق إيذاء ممثلى هذه (الكماليات) واستحقارهم ك لأن هؤلاء الممثلين المذكورين فى الأغلب لم يخضعوا بالكامل إلى قوانين التشيع ومراسمه، وقد خصوا الصوفية بأقسام الشدة والعنف وحكموا عليهم بالنفى والتشريد والقتل والعقاب ، وجعل العلماء إما بأنفسهم أو بحب فتاويهم بضعا آخر ضربة للسيوف أو طعمة للنار ، وعلاقة الشعر والأدب بالتصوف والعرفان خاصة فى إيران واضحة ومبرهن لها ؛ بحيث إن إخماد أحدهما يوجب اضمحلال الآخر ؛ ولهذا فقد ودع الأدب والشعر والعرفان إيران فى العهد الصفوى ،

وانهدمت الصوامع والتكايا والخلوا والخانقاوات المتعلقة بالصوفية بالحد الذى لا يسمع ذكر لهذه الأبنية الخيرية اليوم بإيران جميعها ، بينما كان يرى فى عهد ابن بطوطة مثلاً مثل هذه المؤسسات فى كل مدينة وقصبة وقرية ؛ فيحكى هذا الرحالة المشهور كيف أنه كان يصادف فى كل منزل إحدى هذه العمائر ويقيم بها واليوم لا أثر ولا رسم لهذه الأبنية ، ويتساءل غير المطلع على أحوال العهد الصفوى وأوضاعه متحيرا: هل هذه هى إيران ؟ وهل دين سكانها هو الإسلام ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لا تظهر خانقاة واحدة فى سائر أرجاء أيران ؟ ، ولكن فى بعض الولايات التركية التى لم تمكث تحت تصرف الصفويين مثل ما بين النهرين والسليمانية ، وبلاد الكرد لايزال يوجد كثير من هذه الأبنية نفسها التى كانت موجودة على عهد ابن بطوطة ، لقد ظهر فى العهد الصفوى بدلاً من الشعراء الحكماء الكبار فقهاء مثل مجلسى والمحقق الثانى ، والشيخ الحر العاملى ، والشيخ بهائى وغيرهم وليس فى علو مكانهم شك ، لكنهم كانوا قساة وجفاة ومتعصبين ومتكلفين بلا حدّ

لم يكن لشعراء المديح منزلة لدى الصفويين

أغلب شعراء الشرق المشتغلين بالشعر مداحون، وإذا اعتبرنا مقالة رضا قلى خان صحيحة : وهى أن السلاطين الصفويين الكبار – خاصة طهماسب وعباس الأول – مالوا إلى أن ينظم الشعراء فى مناقب الأئمة الأطهار شعرا بدلاً من نظمه فى مدحهم؛ فهذا أيضا سبب قوى ودليل معتبر لتقليل عدد الشعراء فى إيران . كانت المنافع المادية متوقعة فى بلاط سلاطين المغول بالهند [1] أكثر من بلاط الأئمة ؛ لذا انفتحت أعين الشعراء الطامحين وأقدامهم على الهند أكثر من كربلاء ، لكن الشعر الدينى فى ذكر مصائب آل البيت أو بيان كرامات الأئمة قد ارتقى كثيرا فى إيران ، وأفضل شعراء الرثاء فى هذا العصر محتشم الكاشانى (١٥٨٨ م) ، وفوق القصائد التى كانت تنظم بالأسلوب القديم فى المراثى فقد بقى فى الأغلب عن هذا العصر كانت تتخذ كافة

(١) راجع أحسن التواريخ فى شرح كرم همايون وعطايه للأدباء .

الوسائل الممكنة وتفرض لتحريك الحب والافتداء لآل على والكره والبغض لأعدائهم ، ومن ناحية أخرى فإن عرض تلك المشاهد والمجالس المهيجة للأحاسيس – والتى تسمى بقراءة التعزية ويشبهها المؤلفون الأوربيون بالمسارح الأوربية السابقة الخاصة بتمثيل معجزات كبار المسيحية وأعمالهم ومصائبهم– قد صارت رائجة فيما يبدو فى الأزمنة التالية لهذا العهد . أمضى أوليريوس Olearius وهو كاتب مدقق شهر المحرم ١٠٧٤ هـ (مايو ويونيو ١٦٣٧ م) فى أردبيل وبجوار ضريح الشيخ صفى الدين وأولاده، وذكر شرحا مفصلاً عما رآه وأبان ترتيب العزاء والنواح والصراخ والطعن فى أيام عاشوراء أو يوم القتل ، لكنه لا يشير أدنى إشارة إلى التمثيل والتعزية ، ومن هنا يتحقق أن مسرح التعزية لم يرُجْ أيضا فى ذاك العهد ، ولتوضيح هذه المسألة راسلت اثنين من أصدقائى الإيرانيين هما سيد حسن تقى زاده وميرزا حسين دانش ؛ فرأى الأول أن قراءة الروضة – أى قراءة كتاب روضة الشهداء وسائر الكتب المشابهة بأعلى المنبر – بدأ من العهد الصفوى ، لكن تمثيل التعزية – أو الشبيه – راح بعد الصفويين بمدة طويلة ، ومن المحتمل أن بعض الأشياء قد اكتسبت وقلدت من أوربا ، واعتبر الثانى أن تمثيل التعزية – الذى يعرفه تماما القراء الأوربيون عن طريق ترجمة السير لويس بيلى Sir Lewis pellty فى أواخر القرن الثامن عشر، وأوائل التاسع عشر ويكتب على سبيل الاعتراض الشعر التالى عن الشيخ (رضاى كرد) ؛ ويستنتج أن بغض الإيرانيين وخصومتهم لعمر بن الخطاب مرجعه فى الأغلب إلى زوال الحكم الساسانى على يديه وليس إلى عصبه حقوق على وفاطمة :

وقصم عمر ظهر الضراعمة العجم

أفنى من جسمهم عرقهم وجذرهم

وليس هذا الغضب بسبب اغتصاب الخلافة من على

أفنى من جسهم عرقهم وجذرهم

وفى الخاتمة لا يجب نسيان إجراء آخر من إجراءات الصفويين بعث على استحكام قواعد إيران ومنع من خروج ثروة البلاد وسكانها وهو احترام مشهد وقم ، ودفع السكان والزوار إلى الأماكن المتبرك بها بإيران ؛ وبهذا انحصر مدّ المسافرين والمهاجرين وجزرهم فى داخل البلاد ، وكما ذكرنا فقد كانت الأعتاب المقدسة والنجف كذلك قبل سيطرة الأتراك[1] عليها فى حكم الأماكن الداخلية لإيران جزءاً من الحدود الصفوية .

ملحق

السيد رابينو القنصل الإنجليزى H.L .Rabino أرسل إلىّ مذكرات قيمة تتعلق بالتعزية فى المحرم فى بغداد وتعود إلى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)، ومعى نصّ فقرتين منهما فقط (إحداهما بالإلمانية والأخرى بالفارسية) ، وكانت التوضيحات اللازمة فيما يظهر ضمن المراسلة (بتاريخ ٣٢ ديسمبر ١٩٢٢) التى أرسلت المذكرات المذكورة طيها ، لكن هذه الرسالة للأسف فقدت ، وأظن أن المعلومات المذكورة مأخوذة من إحدى مقالات دورن Dorn ، التى نشره كتاب (الملونوج الآسيوى)، وأنقل المذكرة الفارسية نفسها فيما يلى :

تأسيس تعزية سيد الشهداء فى بغداد فى سنة ٣٥٢ هـ

ورد فى تاريخ ابن كثير الشامى أن معز الدولة أحمد بن بويه فى بغداد فى العشرة الأوائل لشهر المحرم أمر بإغلاق جميع أسواق بغداد ، وأن يلبس الناس السواد للتعزية ، ويقوموا بتعزية سيد الشهداء ، ولما لم تكن هذه القاعدة رسميا فى بغداد ؛ فقد عدها علماء السنة بدعة كبيرة ، لكنهم لم يمكنهم غير التسليم ؛ لأن ليس لهم سلطان على معز الدولة ، وبعد هذا كان يقام كل عام حتى زوال دولة ، الديالمة الشيعية رسم التعزية فى جميع البلاد فى العشرة الأوائل من المحرم ، واستمر فى بغداد إلى أوائل سلطنة طغرل السلجوقى .

(١) راجع كتاب كروسينسكى ، ص ١٥٩ – ١٦١ .

الفصل الثانى

من ظهور الدولة الصفوية إلى عام (٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م)

الشاه إسماعيل وأجداده

دلائل نفوذ الشيخ صفى الدين وعظم شأنه

يثبت التاريخ أن الشيخ صفى الدين المؤثر العزلة العظيم فى أردبيل ، الذى اشتق السلاطين الصفويون اسمهم ونسبهم منه، كما كان فى الحقيقة ذا نفوذ وصاحب قدرة فى عهده ؛ فقد وجد فى بعض الأسر أنها تؤلف كتبا فى أنسابها تزور فيها نسبتها إلى أسرة ملوك قدماء ، لكن الشاه إسماعيل – الذى يصل إلى الشيخ صفى الدين من خلال ستة ظهور وأسس الأسرة الصفوية فى بداية القرن السادس عشر الميلادى – قد أعلى من عظمة إيران وجلالها إلى درجة قلّ أن تبلغها إيران بعد زوال الدولة القديمة والأسرة الأصيلة للساسانيين على أيدى العرب فى القرن السابع الميلادى ؛ لذا لم يكن يناسبها التشبث بتزوير النسبة واختراع الأصل ، ولأن نسب الشيخ صفى الدين– على أية حال – يتصل مباشرة بالإمام السابع للشيعة وهو موسى الكاظم وعلى بن أبى طالب[1] وفاطمة بنت الرسول ، وكان يثبت دعواه مثل السادات فى

(١) سلسلة النسب الكامل باختلاف يسير كما وردت فى صفوة الصفا وأحسن التواريخ ، وسلسلة النسب الصفوى وأغلب كتب التواريخ التى تحدثت عن هذه السلسلة كالتالى : صفى الدين أبو الفتح إسحق بن أمين الدين جبرائيل بن صالح بن قطب الدين أحمد بن صلاح الدين رشيد بن محمد الحافظ بن عوض الخواص بن فيروز شاه زرين كلاه بن محمد شرفشاه بن محمد بن حسن بن محمد بن إبراهيم بن جعفر بن مجد إسماعيل بن محمد بن سيد أحمد الأعر بن أبى محمد القاسم بن القاسم حمزة بن الإمام موسى الكاظم.

عصره ، وما يدل على أن الشيخ صفى كان مرشدا وشيخا واجب الاحترام فى قرنه (القرن الثالث عشر الميلادى) شيئان :

اعتقاد الوزير رشيد الدين فى الشيخ صفى

أول وأهم الشيئين : أن الوزير الكبير رشيد الدين فضل اللّه كان يعتقد فى أدعيته وشفاعاته ، ففى المجموعة النادرة لرسائل هذا الوزير المعروفة بالمنشئات الرشيدية [١] دليلان يثبتان هذا الاعتقاد أولهما : رقة خطابه للشيخ صفى الدين تتحدث عن الراتب السنوى من الغلال والمشروبات والدهن والدواب والسكر والعسل وأنواع أخرى من الأطعمة ، الذى قرره لخانقاته ؛ لكى ينعم به وجوه أردبيل وأعيانها فى الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بشرط أن يدعو بعد تناولهم الطعام بدعاء الخير على سفرة الأكل لصاحب الخيرات وكاتب الرسالة ، وثانيهما: أن رشيد الدين كتب إلى ابنه (مير أحمد) حاكم أردبيل يوصيه بألا يهمل فى رعايته كافة أهالى هذه المدينة بعامة ويعمل بخاصة بحيث (يرضى عليك ويشكرك جناب قطب ، فلك الحقيقة وسباح بحار الشريعة ومساح مضمار الطريقة شيخ الإسلام والمسلمين برهان الواصلين قدوة صفة الصفا شجرة ورد دوحة الوفاء الشيخ صفى الملة والدين أدام اللّه تعالى بركات أنفاسه الشريفة) ، فهذان المكتوبان خاصة الثانى الذى يفيض بالمدح المبالغ والثانى للشيخ صفى الدين يحكيان بالحد الوافى عن مقام الشيخ وشهرته فى نظر معاصريه [٢] .

(١) راجع ما كتبته عن المخطوطة الفارسية للسير ألبرت هوتم شيندلر (K.G.I.E) ونشرته المجلة الملكية الآسيوية فى عددها لشهر أكتوبر ١٩٩٧م ، ص ٤ – ٦٩٣ ، كذلك راجع ما كتبته فى تاريخ المغول فى الجزء الثالث من تاريخ الأدب فى إيران .

(٢) توفى الشيخ صفى فى الخامسة والثمانين عام ٧٣٥ هـ – ١٣٣٤ م ، وقتل رشيد الدين فى السبعين من عمره عام ١٣١٨ م .

الأمر الثانى الذى يثبت رأينا أن أحد الصوفية واسمه توكل[1] بن إسماعيل ويطلق عليه فى العادة ابن البزّاز ألف بعد وفاة الشيخ صفى بقليل كتابا ضخما فى أحواله ، وأخلاقه ، وتعاليمه ، وعقائده ، وكراماته ، ويبدو أن هذا الكتاب وضع بتشجيع وإرشاد من الشيخ صدر الدين بن الشيخ صفى الذى وصل مقام الإرشاد بعد والده ، وظل شيخ الطريقة لثمانى وخمسين سنة (١٣٣٤ - ١٣٩٢ م) . وهذا التأليف النادر والمهم هو أول مصدر نقل عنه المؤرخون كل ما يتصل بسيرة أجداد الأسرة الصفوية ، ويمكن اعتبار آخر تلخيص معتبر له ما قام به أبو الفتح الحسينى فى عهد طهماسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦ م) ، ويحوى هذا الكتاب الضخم مقدمة واثنى عشر بابا وخاتمة ، ويحوى كل باب عديدا من الفصول ؛ فقد انقسم الباب الثامن مثلاً إلى سبعة وعشرين فصلاً ، وقد لخصّ محتويات الكتاب (ريبه Rieu) بما احتفى به من دقة وصحة ، وفى هذا المؤلف موضوعات مهمة كثيرة مخلوطة بشروح صعبة إلا على المريدين المعتقدين ، ويعد بعامة نموذجا لتذكرة العرفاء والأولياء التى يجد الطلاب الأوربيون نموذجها الكامل فى مناقب العارفين للأفلاكى (ترجمة روهوس الإنجليزية وهوارت الفرنسية) [2] ، والتلخيصات المستخرجة من هذا الكتاب المذكورة فى كتب التواريخ الأخيرة للأسرة الصفوية مثل سلسلة النسب تكفى لإرضاء حسن البحث عند القراء ، لكن حين يجرى تحليل كامل لأصل الكتاب وتدرس بدقة الحكايات والوقائع التى صدقها الشيخ صدر الدين نفسه وآمن بها؛ فسوف تظهر نتائج قيمة ، لكن يلزمنا أن نذكر موجزا عن أجداد الشيخ صفى الدين قبل بحث سيرته وسيره أخلافه .

(١) أو توكلى Tukli كما أثبت فى نسخة المستر إليس .

(٢) الترجمة الإنجليزية مدرجة فى مقدمة الترجمة الشعرية للدفتر الأول لمثنوى الرومى والمنتشرة فى سلسلة الكتب الشرقية لترونبر Trubner عام (١٨٨١ م) من ص ٢ - X ٣٥ ، والترجمة الفرنسية بعنوان كبار الصوفية وأولياءهم فى تذكرة علماء الإسلام مجلداً لباريس ليرو Leroux ١٩٢٨ م ، ومجلد ٢ عام ١٩٩٢ م .

أجداد الشيخ صفى الدين

الإمام السابع موسى الكاظم

يؤيد اليعقوبى المؤرخ المعروف [1] أن الأمام موسى الكاظم كان له ولد آخر غير على الرضا الذى تقلد الإمامة من بعده ، وكان هذا الآخر اسمه حمزة ، لكن الاثنى عشر رجلاً الآخرين المذكورين فى سلسلة نسب الشيخ صفى - منهم خمسة باسم محمد بدون أى تمييز وتفريق - منهم من فحول الذكر والغموض بحيث لا يمكن علم هوياتهم .

فيروز شاه زرين كلاه

أقدم جد للصفويين له لقب وصفة هو فيروز شاه زرين كلاه ، وهو ابن إبراهيم بن أدهم الذى كان ملك إيران كما يذكر صاحب سلسلة النسب ، تقرر له حكم ولاية أردبيل وتوابعها وصار هذا البلد من ذاك الوقت منشأ كبار الصفوية ومسكن تلك الأسرة ، أما إبراهيم بن أدهم رغم أنه معروف أنه كان من أولاد الملوك وتخلى عن التاج والعرش ولحق بزمرة الدراويش وصار من الأقطاب وأولياء الله ، وذكر أن وفاته بالشام عام (٧٨٠ م) ، لكن لم يوجد فى أى كتاب تاريخ أن واحدا من أولاده حكم إيران أو غيرها ، وودع فيروز شاه حياته بعد حياة موفقة فى ربخين جيلان .

عوض الخواص

لا نعلم شيئا عن ابن عوض وخليفته غير أنه كان يعيش فى أسفرنجان من توابع أردبيل ، وتوفى بها ولقب ابنه محمد بالحافظ لحفظه القرآن ، يقال إن الجن خطفته فى الثامنة من عمره وربته بينهم سبع سنوات ، وحفظ القرآن بمساعدتهم .

(١) طبعة هوتسما ٢ / ٥٠٠ .

صلاح الدين رشيد وقطب الدين أحمد

وهما اللذان توليا رئاسة الأسرة بعد الحافظ ، ويبدو أنهما كانا يعملان بالزراعة فى قرية (جلخوران) إلى أن أجبر الثانى بعد الهجوم الوحشى للكرجيين إلى الهروب إلى أردبيل بأسرته ومنها ابنه أمين الدين جبرائيل وعمره شهر واحد ، ولم يبقوا بمنجى من هجومهم فى ذاك البلد أيضا فقد تعقبهم الكرجيون ؛ فاختفى الفارون بدار تحت الأرض ورمى أحد الشباب من أقاربه بنفسه على سيوف المهاجمين وألقى بخلية فى عنقه جرحا عظيما ونجا من الموت بصعوبة ، ومكان حفيده الشيخ صفى الدين الذى ولد أثناء حياته يروى أن جده لما حمله على كتفه كانت الأربعة أصابع الصغيرة قد سقطت من يده بسبب قراح الجراح .

أمين الدين جبرائيل

وخلف قطب الدين ابنه أمين الدين جبرائيل[١] ، وكان متدينا وملتزما وورعا ، ومن مريدى الخواجة كمال الدين عرب شاه ، وكان شديد الاهتمام بالزراعة وتزوج امرأة اسمها (دولتى) ولدت له فى عام ٦٥٠ هـ - ١٢٥٢ - ٣ م ولدا سمى الشيخ صفى الدين ، ومع صفى هذا تخرج الأسرة الصفوية من الغموض والإبهام النسبى وتصل إلى الشهرة التامة ، ولا يكتفى مؤلف سلسلة النسب بتحديد سنة ولادته بل يحددها كذلك بقوله : (كان وقت أن ولد قد رحل الشيخ شمس التبريزى عن الدنيا بخمسة أعوام سبقت ، والشيخ يحيى الدين بن عربى قد فارق الحياة قبل اثنى عشر عاماً، والشيخ نجم الدين كبرى منذ اثنين وثلاثين عاما ، وحين رحل مولانا الرومى كان حضرة الشيخ فى الثانية والعشرين من عمره ، وفى الواحدة والأربعين وقت أن مات الشيخ سعدى الشيرازى ، وفى الخامسة حين استولى هولاكو على إيران ... وعاصر

(١) أسقط المؤلف خطأ (سيد صالح) ، وذكر أن أمين الدين جبرائيل ولد سيد صالح هو ابن قطب الدين ودفن صالح أيضاً فى جلخواران (ياسمى) .

الأمير عبدالله الشيرازى والشيخ نجيب الدين بزغوش وعلاء الدولة السمنانى والشيخ محمود الشبسترى والشيخ محمد كجتشى التبريزى ... ، وكان قبل حضرة الشيخ ثلاثة أبناء [١] وابنة واحدة وبعده ابنان آخران [٢] .. وكان عمر الشيخ قدس سره ست سنوات حين لحق أبوه أمين الدين جبرائيل برحمة الله تعالى)

الشيخ صفى الدين (١٢٥٢ - ١٣٣٤ م)

ضخامة صفوة الصفا وموضوعاته

كنا حتى هذا الموضوع فى مضيق الجهل بسبب اختصار المؤرخين ، ولكننا بعد هذا فى مشقة بسبب وفرة الأخبار وتفصيلاتها ، حقا إن صفوة الصفا تحوى كافة المعلومات التى لدينا عن أحوال الشيخ صفى الدين ، لكن هذا التأليف العظيم يشمل نحو مائتى وست عشرة ألف كلمة صيغت بعبارة بسيطة دون حشو وصناعة ، ولن يقل أى تلخيص كامل له عن مجلد ضخم ، لكن للأسف تفتقد ، السنوات التاريخية وشرحت أغلب أحوال الشيخ صفى ومرشده الشيخ زاهد الجيلانى من الناحية الروحية .

وأشد فهرست إيجازا يمكن إعداده لهذا الكتاب كالتالى :

المقدمة (فى جزئين) أخبار ظهور ا .

الباب الأول : (يشمل أحد عشر فصلاً وينقسم فصلان منها إلى أجزاء) فى أحوال الحياة الأولى للشيخ صفى : نسبه ، وأصله ، وطالع ولاته ، وولادته وطفولته ، وطلبه ، للمرشد ، والشيخ المعين ولقاؤه بالشيخ زاهد الجيلانى ، والأيام التى عاشها فى ظل تربية هذا الشيخ الكبير ورقيه إلى مقام الإرشاد وسلسلة شيوخ طريقته حتى عهد الرسول، وأوصاف الشيخ زاهد وكراماته .

الباب الثانى : (ويحوى ثلاثة فصول) : الكرامات التى أظهرها الشيخ صفى

(١) محمد وصلاح الدين وإسماعيل .
(٢) يعقوب فخر الدين ويوسف .

وقت رضاه ووقت سخطه .

الباب الثالث : (فى ثلاثة فصول) الكرامات التى أظهرها الشيخ صفى بدافع رضاه أو بوازع سخطه .

الباب الرابع (ويشمل أربعة فصول ينقسم منها اثنان إلى أقسام فرعية) فى بعض أقوال الشيخ صفى وتأويلاته للقرآن والحديث وأقوال الأولياء والشعر المهم .

الباب الخامس : (فى ثلاثة فصول) فى بعض كرامات الشيخ صفى المتعلقة بالأجنة والمخلوقات الحية والميتة .

الباب السادس : (وليس له فصول) فى الجذبة والسماع لدى الشيخ صفى.

الباب السابع : (فى خمسة فصول) فى الكرامات المختلفة للشيخ مثل الإنصاح عن الأسرار وشرح الوقائع الغيبية ومكالمته للموتى وغيرها .

الباب الثامن : (فى سبعة وعشرين فصلاً) أمثلة أخرى لتقوى الشيخ صفى ، وقدرته، وورعه ، واستجابة دعائه ، وإلهاماته وإصابة نظره . وتصديق ابنه الشيخ صدر الدين له

الباب التاسع : (فى فصلين) آخر مرض للشيخ الصفى ووفاته .

الباب العاشر : (فى ثلاثة فصول) شهرة الشيخ وعظماته وخلفاؤه فى أقطار العالم.

الباب الحادى عشر : (فى فصلين) الكرامات التى أظهرها الشيخ صفى (خاتمة)

صفات تذكرة الأولياء للمؤرخين الإسلاميين

ما يؤسف له كثيرا أن هذا المؤلف الضخم لا يحكى إلا قسم صغير منه السيرة الذاتية للشيخ صفى ، ولكن لا عجب من ذلك لأنه لا يجب توقع أن ينشغل من بعد نفسه متعلقا بعالم ليس فى دنيانا هذه بذكر سنوات تاريخه أو دقائق حياته ، ولكافة تذاكر الأولياء هذه الصفة ، ولا تتناول غير شرح الكلمات الطيبة والأعمال المقدسة والكرامات الباهرة لهؤلاء العظام ، وقد أثبت مكدونالد Macdonald فى كتابه الوضع والحياة الدينية فى الإسلام (مطبوعات شيكا جو - دار العلوم ١٩٠٩ م باريس)

وكليمون هوار فى كتابه العرفاء والدراويش أهل السماع (ليرو ١٩١٨ - ٢٢) أن مدارسة هذا القبيل من الكرامات مفيد للاطلاع على الأحوال الروحانية [١] .

الكرامات

يرتب المؤلف الأخير الحالات الروحية المسطورة فى ترجمته لكتاب مناقب العارفين [٢] كالتالى:

المنام - معرفة الحوادث المستقبلية - الشهود الباطنى - كشف الأشياء المختفية - انتقال الأفكار - نورانية الأجسام الحية والميتة - فتح الأبواب المقفلة - الحضور فى كافة الأماكن (Ubiquit) - الحصانة ضد تأثير السم - التأثير فى الجمادات الواقفة على مسافة بعيدة - الكيمياء - القوة فى البدن - تغيير الهيئة وتلون خطوط الوجه - الشفاء بالوسائل الروحية - إجابة المسائل - اعتناق الإسلام - وعظ الحيوانات - انتقام أولياء الجنبة والجنون - العزلة والرياضة والصوم الطويل - الطلمسات - الغيبة .

ويمكن وجود كافة هذه الحالات أو أغلبها كنموذج فى صفوة الصفا ، وفى سلسلة النسب رغم أنه أقل من الكتاب المذكور فى ذكر هذه الأحوال إلا أنها انتخبت بطريقة جيدة منه ، وسوف يطول الكلام لو فصلنا الحديث فى هذه الحالات ، لكن لابد من ذكر أن بعض الحالات التى ذكرها المريدون والعشاق عن مشايخهم تعد عنيفة عند الغربيين ك لأن بغضهم لا يقل عن قولهم تأثيرا ، وتفقدهم لا يقل عن ترك الصحبة والاعتزال منهم خاصة فى حق من غضبوا عليه ؛ إذ قاموا ضدهم بحركات مدهشة وقاسية (ولا يعد الأوربيون هذه الأخلاق لائقة بالعارف بالله) .

الصفات الخشنة الحانقة للعارفين المسلمين

(١) عدد الجامى فى نفحات الأنس (طبعة ناسولى ص ٣٢ - ٣١) أن أعمال نوى الكرامات على ثلاثة أضرب : الأول : المعجزات الباهرة النبوية ، والثانى : كرامات الأولياء وهى موهبة إلهية ، والثالث : خوارق العادات التى من العاديين المعاديين نتيجة للسحر والشعوذة .

(٢) ألف هذا الكتاب فى نحو ١٣١٨ قبل صفوة الصفا بنحو ثلاثين عاماً ، وأظن أن الثانى مقلد الأول .

فمثلاً قصد الأمير سيامك ولد شروان شاه المعسكر المغولى ، وعير أحد مريدى الشيخ زاهد وهددهم بهدم خانقاتهم وإحراقها بعد عودته ، فلما سمع الشيخ هذا الخبر كرر اسم الأمير ، وقال سوف يموت سيامك ميتة سوداء ، فحققت نبوء ته وغضب سلطان المغول على الأمير فلفوه وفق رسوم البرابرة المغول فى لبادة سوداء ، وأخذوا يضربونه بأقدامهم وأيديهم حتى مات ، ولما أظهر الشيخ زاهد كرامة فى قــراء ة أفــكار غازان خان (حكم إيران من ١٢٥٩ إلى ١٣٠٤ م) أكبره وانجذب إليه حتى إنه أصر على تقبيل قدمه .

طفولة الشيخ صفى

لم تقع حوادث فى حياة الشيخ صفى الظاهرية خاصة بعد أن أصبح مريدا للشيخ زاهد وسكن أردبيل . كان فى طفولته موقرا مؤثرا للعزلة مجتنباً اللعب وأبرز من وقت طفولته ميلاً خاصا إلى الأمور الدينية ونجح فى مشاهدة الظهورات الغيبية للعوالم غير المرئية ، ولما لم يكن يرى فى أردبيل مرشدا ذا بال وحال ، وسمع بنجيب الدين بزغش الشيرازى رغب فى زيارته ، وفى النهاية استرضى أمه ورحل إلى شيراز لكـن هــذا الشــيخ كان قد رحل عن الحياة (فى شعبان ١٧٨ هـ ديسمبر ١٢٩٧م كما يذكر الجامى فى النفحات ، ص ٥٤٨) ؛ فقابل مشايخ تلك الديار خاصة الشيخ سعدى الشعار المعروف ، ولم تقع معاشرته موقع قبوله ، ولم يحسن فى الظاهر معاملته ، ولم يقبل نسخة أشعاره التى كتبها بخطه وقدمها له. وفى النهاية قال ظهير الدين ابن الشيخ بزغش [1] وخليفته للشيخ صفى : اليوم من رفع الحجاب برشدك إلى مقصدك ليس غير الشيخ زاهد الجيلانى الذى له خلوة على ساحل البحر بجيلان قرب بلدك ووصف له حلية جمال الشيخ المذكور .

(١) ورد بسلسلة النسب أن أمير عبد الله هو الذى أرشده إلى خدمة الشيخ زاهد (ياسمى) .

تلمذته على الشيخ زاهد الجيلانى

وصل بعد سنوات أربع إلى خدمة الشيخ ، ولقى منه ترحيبا بالغا ومكان الشيخ إذ ذاك فى الستين من عمره ، وقضى الشيخ صفى فى خدمته اثنين وعشرين عاما الباقية من عمره .

أحوال الشيخ زاهد

يذكر صفوة الصفا أن الشيخ هو تاج الدين إبراهيم بن روشـــن أمير بن بابيل بن شيخ بندار الكردى السنجانى ، ويقال إن أم جده ببابيل كانت من الجن ، وقد وهبه لقب الزاهد شيخه سيد جمال الدين لأسباب فيها اختلاف ، ثم زواج الشيخ زاهد ابنته فاطمة للشيخ صفى فولدت له ثلاثة أبناء أحدهم صدر الدين الذى رقى فيما بعد مرتبة الإرشاد ومؤلف سلسلة النسب المعروف بـ (بيزراده) كان من أولاد الشيخ زاهد ، ولقى فى العهد الصفوى فيما يظهر الاحترام والمقام العالى .

وفاة الشيخ زاهد وخلافة الشيخ صفى له

وحسبما يقول صاحب سلسلة النسب فقد كان الشيخ زاهد يكبر الشيخ صفى بخمسة وثلاثين عاما ورحل كلاهما فى سن الخامسة والثمانين ، كذلك ذكر أن وفاة الشيخ صفى كانت فى عام ٧٣٥ هـ - ١٣٣٤ م ؛ إذن فيمكن إحـصاء عام وفاة الشيخ زاهد على أنه (٧٠٠ هـ - ١٣٠٠ م) ، ومن سند آخر يقول إن ولادة الشيخ صدر الدين حدثت بعد وفاته بأربع سنوات أى فى (٧٠٤ هـ - ١٣٠٥ م) يتأكد هذا الظن السابق ، والخلاصة وصل الشيخ صفى الدين إذ ذاك مقام الإرشاد ثم ترك فى يوم الإثنين ١٢ محرم ٧٣٥ هـ - ١٢ سبتمبر ١٣٤٤ م بعد خمسة وثلاثين عاما مكانه لابنه صدر الدين .

أشعار الشيخ صفى

نظم الشيخ صفى أشعارا باللهجة الجيلانية - وكان بعض من مباحثاته مع الشيخ زاهد بهذه اللهجة نفسها - وأبياتا باللغة الفارسية الرائجة ، وله بعض الرباعيات الدالة على حبه لعلى [1] ، ومع هذا فليس ثابتا عندى أنه وأخلافه أيضا كان له عقيدة راسخة فى المذهب الشيعى ، بل فى (أحسن التواريخ) - وهى نسخة مهمة وغير منتشرة تحكى وقائع حكم أول وثانى ملوك الصفويين (٩٠١ هـ - ١٤٥٩ م / ٩٨٥ هـ - ١٥٧٧ م) وألفت فى عهد طهماسب - دليل يخالف الشائع إذ يرى فى الخطاب المعترض الذى أرسله عبيد خان الأوزبك عام ٩٣٦ - ١٥٢٩ - ٣٠ م إلى طهماسب هذه العبارة (ورقة ١٦٦ - a) : (وأبوكم الكبير المرحوم الشيخ صفى كما سمعت فقد كان رجلاً عزيزا من أهل السنة والجماعة ونحن فى حيرة عظيمة من أجل هذا لأنكم لستم تابعين لطريقة حضرة المرتضى ، ولا طريقة أبيكم الكبير) .

نفوذ صفى فى آسيا الصغرى

ساعد الشيخ صفى الدين فى نشر نفوذ أسرته ما أمكنه وما يدل على قوة نفوذه مولانا شمس الدين برنيقى الأردبيلى الوارد بسلسلة النسب [2] وهو : (أحصيت عدد الطلاب والمشتاقين فى طريق مراغة وتبريز فتوجه إلى حضرة الشيخ فى هذا الطريق وحده ثلاثة عشر ألف فى ثلاثة شهور ، وأدركوا شرف حضرته المباركة وتابوا ، وقسّ على هذا باقى الأطراف) ، وإذا لم نقل إن كل هؤلاء المريدين كانوا قادمين من آسيا الصغرى فلا أقل من أن كثرة من سكان هذه المنطقة كانت منهم، وسكن كذلك من تلك

(١) راجع المجلة الأسيوية عدد يوليو ١٩٢١ م ، ص ٤٠٣ ، ومعنى هذا الرباعى هو :
الكريم الذى يغفر عظيم الذنوب ... يغفر ذنبك يا صفى فأسعد حالاً .
ومن بقلبه نهر حب على ... يرحمه الله مهما أذنب .
(٢) المجلة الآسيوية يوليو ١٩٢١ م ، ص ٤٠٣ ، ٤ .

الأيام أتباع الشيخ صفى فى تلك المنطقة واستقروا بالنحو الذى صاروا به أكبر أسباب قلاقل السلاطين العثمانين[1] .

صدر الدين يخلف أباه عام ٧٣٥ هـ / ١٣٤٤ م :

خلف الشيخ صدر الدين أباه فى الحادية والثلاثين من عمره فى عام ٧٣٥ هـ - ١٣٤٤ م ، وعمل حتى الخمسين من عمره فى إرشاد المريدين ومات فى ٩٧٤ هـ - ١٣٩٢ م ، كان ينظم أيضا بالفارسية ويبدى كرامات منها إرجاعه اثنى عشر مسجدا لأردبيل كان الكرجيون أثناء إغارتهم عليها حدود ٦٠٠ هـ -[2]١٢٠٣ م اقتلعوها ونهبوها ومن مريديه الشاعر المعروف قاسم الأنوار الذى يشك فى قوة عقيدته ونفاه إلى هراة (شاهرخ) لأسباب سبق ذكرها[3] ، ويبدو أن الشيخ صفى بسبب اتساع دائرة نفوذه وإبراز نشاطه قد اجتذب إليه شك حكام الأطراف ؛ والدليل أنه الملك الأشرف حمله إلى تبريز واحتفظ به بنحو ثلاثة أشهر تحت المراقبة ؛ فرأى إذ ذاك مناما قطيعا ؛ فأذن له بالعودة لكنه أراد ثانية أن يقبض عليه ؛ فأجبر الشيخ على الفرار إلى جيلان، وقد قاسى المشايخ والعلماء والفضلاء الآخرون أيضا من جمور هذا الظالم (راجع تاريخ المغول جـ ٤ ص ٧٤٠ - ٢ تأليف دوسون) .

قوته حركت الحسد

من بينهم القاضى محى الدين البردعى الذى شرح بمهارة فائقة ظلم الملك الأشرف إلى جانى بك حاكم صحراء القبجاق حدّ أنه توجه إلى آذربايجان وهزم

(١) راجع شرح . د فرانز بابنجر فى كتابه الدقيق (الشيخ بدر الدين ولد القاضى سيماوى) برلين ولا يبرنج ١٩٢١ م خاصة ص ١٥ من الرسالة المطبوعة على حدة .
(٢) المجلة الأسيوية يوليو ١٩٢١ م ص ٤٠٦ - ٧ .
(٣) المجلد الثالث لتاريخ الأدب فى إيران من تأليفى ص ٤٧٣ - ٦ ، ٣٦٥ - ٦ ، وأصحح خطأ لى فى شعر قاسم الأنوار ومفاده أن قصده هو الشيخ صدر الدين الصفى .

الأشـرف وقـتله ، وبناء عن رواية سلسلة النســب (المجلة الآسيوية يوليو ١٩٢١ م ص ٤٠٥ - ٦) فقد قابل جانى بيك الشيخ صدر الدين وبالغ فى احترامه ، ووهبه اقطاعات من بينها الإقطاع الذى كان يخص فيما سبق مقبرة أردبيل .

صدر الدين يترك مكانه ٩٧٤ هـ - ١٣٩٢ م لابنه خواجه على

سافر للحج الشيخ صدر الدين مثل والده فى أواخر عمره ومعروف أنه أتى بعلم رسول الله معه من أردبيل ثم توفى بعد عودته بقليل (١٣٩٢ م - ٧٩٤ هـ) فوصل مسند الإرشاد وإده خـواجه على فعمل فى إرشـاد المريدين ستة وثلاثين عاما ومات فى ١٨ رجب (١٥ مايو ١٤٢٧ م) فى فلسطين وقبره معروف بها بمدفن الشيخ على العجمى . وكان - كوالده وجده - صاحب كرامات وشعر فارسى ، ويروى عنه سلسلة النسب أكثر من مائتى بيت ، وكان يبدو منه التعصب والميل القوى للمذهب الشيعى وأمره الإمام التاسع محمد التقى فى منامه بأن يرشد أهل دزقول إلى الطريق المستقيم ، ومن كراماته أنه منع نهرهم من الجريان ولم يعد ماؤه ما بقى هؤلاء على غير ولاية على ووصايته وخلافته ، وكانت له سيطرة على روح الأمير تيمور ، فطلب منه أن يؤدب بشدة الأكراد اليزيديين ؛ لأنهم من أعوان معاوية ، ولبسنا من جورهم هذا اللباس الأسود فى عزاء إمامنا المعصوم (المجلة الآسيوية يوليو ١٩٢١ م ص ٨)، وأشهرها شفاعته لسرى الترك وتخليصهم من يد الأمير تيمور ، وقد صار أعقاب هؤلاء الأسرى المشهورين بصوفية الروملو من المريدين الفدائيين والحماة الثابتين للأسرة الصفوية (راجع تاريخ إيران للسير جون ملكم طبعة ٨١٤٥ ج ١، ص ٤٩٦ - ٧ وحواشيها ، ونسبة هذا التدخل للشيخ صدر الدين وأبيه الشيخ صفى الدين خاصة خاطئة من حيث الزمان)

الشيخ شاه (٨٣٠ - ٨٥١ هـ)

الشيخ إبراهيم المعروف بشيخ شاه خلف أباه فى ٨٣٠ هـ - ١٤٢٧ م ، ومات فى ٨٥١ هـ - ١٤٤٧ - ٨ م ، وليس لدينا غير أسماء أولاده الستة ، ولم يذكر

(عالم آرای عباسی) حتی اسمه وحذف من سلسلة أجداد الصفويين[1] ، وكان خليفته ابنه الأصغر سلطان جنيد الذى برزت بظهوره الصفة الحربية لهذه الأسرة ، رحل إلى ديار بكر واعتقد فيه أوزون حسن رئيس الآق قوينلو وزوجه من أخته خديجة بيجم ، وبسبب هذا الاتحاد تجمع له نحو عشرة آلاف غاز صوفى ، فاضطرب وغضب لهذا الحشد الذى - بقول صاحب عالم آراى - كان بعد افتداء المرضد الكامل بالروح أدنى مراتب الإخلاص جهان شاه التركمانى حاكم آذربايجان والعراقيين وسائر الحكام المجاورين وتهيأ للقتال . وقتل شيخ جنيد فى حرب شروان شاه فى ٨٠٦ - ١٤٥٦ م (بناء عن قول بابنجر) ، وحمل جسده برواية إلى أردبيل أو دفن بناء عن روايات أخرى بالقرب من ميدان المعركة فيما يقرب من مزرعة تسمى قوريال أو قروبال أو قوريان .

الشيخ حيدر (١٤٥٦ - ١٤٨٨ م)

الشيخ حيدر الذى يسميه آنجللو (ستشيدر) كان مثل والده الجنيد والذى أصاب مقامه ، اهتم به خاله أوزن حسن الذى أصابه الكبر إذ ذاك وشاهد على جبنيه أمارة العظمة فزوجه ابنته مارتا أو حليمة أو بيجى أغا أو علم شاه بيجم ، وكانت هذه البنت من بطن دسبينا خواتون (كاتن) المعروفة وهى بنت كالويونس آخر أمبراطور مسيحى لطرابزون ، ومن الأسرة النجيبة من يومنمان الكمنينين ، ويقول فى شيخ حيدر التاجر المجهول البندقى الذى وردت رحلته فى كتاب (أسفار الإيطاليين فى إيران فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر) (ترجمة وطبعة تشارلس جرى): " هو شخص برتبة الكونت اسمه سكيدر له مذهب وطريقة تسمى بالصوفية كان أتباعه يعبرونه كإمام ويطيعونه كرئيس "، ثم يقول :" وعد كبير من متابعى هذا المذهب هم فى الولايات المختلفة لإيران : فمثلا جميع أهل الأناضول وقرامان يحترمون هذا السكيدر وهو من أهالى أردبيل التى أدخل منها جماعة فى العقيدة الصفوية ، هذا الرجل فى

(١) ذكر اسمه فى عالم آراى عباسى طبعة إيران ، ويبدو أنه حذف من المخطوطة التى بيد المؤلف (ياسمى).

الحقيقة مثل أسقف وسط شعب راهب وزاهد بوجه عام ، وللمذكور من ابنة اسـم بى (حيد بيك أى أوزون حسن) ستة أطفال ثلاثة أبناء وثلاث بنات " (١) .

بداية مصطلح قزل باش

يظهر هذا الشيخ بغضا شديدا للمسيحيين، ورأى ذات ليلة فى منامه أن مخبرى عالم الغيب يأمرونه بأن يلبس أتباعه بدل القلنسوة التركية تاجا من الجوخ الأحمر فسموا لهذا السبب بأصحاب القلانس الحمراء (قزل باش) ، ويقول هذا التاجر المجهول فى ص ٢٠٦ من أسفار الإيطاليين : يلبسون على رء وسهم القلنسوة الحمراء وعليها العمامة التركية الملفوفة اثنتى عشرة لفة التركية بشكل مخروطى لتدل على المراسم المقدسة الاثنى عشر المذهبية أو أولاد على الاثنى عشر (٢) .

قتل شيخ حيدر فى ميدان المعركة ٨٩٣ هـ - ١٤٨٨ م

قتل شيخ حيدر كوالده فى المعركة التى شنّها على أتباع شاه شروان والتراكمة حلفائه فى طبرسران بالقرب من الدربند ، ولم يتعد إذ ذاك الشاه إسماعيل ولد حيدر عامـه الأول (٢٠ رجب - ٣٨٩ هـ - ٣١ يونيو ١٤٨٨) " قتل بناء على المخطوط المتعلق بالشاه إسماعيل عام ٥٨٩ - ١٤٩٠ م " ، لكنه انتقم لمقتل والده بعد اثنين وعشرين عاما ونقل جثمانه إلى أردبيل .

(١) أسماؤهم فى عالم آراى : سلطان على ميرزا وإسماعيل وإبراهيم لكن أسماءهم غير ذلك فى أحسن التواريخ .

(٢) راجع مذكرات شندلر فى المجلة الأسيوية عام ١٨٧٢ م (ص ١١٤ - ٥) وما كتبه بابنجر عن القزل باش فى رسالة مستقلة ص ، ٨٤ ، ٥ .

الشاه إسماعيل

"كانت ولادته ٨٩٢ - ١٤٧٨ ، وجلوسه ٩٠٥ - ١٤٩٩ - ١٥٠٠ ، ووفاته ٩٣٠هـ - ١٥٢٣ م - ٤ " لم تكن حالة الأبناء الثلاثة للشيخ حيدر الذين وقعوا فى أسر عدوهم بعد وفاة أبيهم تظهر بأية حال بارقة أمل ، صرف السلطان يعقوب ولد أوزون حين مراعاة لأخته أم هؤلاء الأطفال نظره عن قتلهم وأرسل بهم إلى اصطخر بفارس فحبسوا بها تحت مراقبة منصور بيك برناك حاكم هذه الولاية ، وحسبما يذكر آنجيو للو (ص ١٠١ ، ١٠٢ من ترجمة تشارلز جرى نشر جمعية الهوكليت) فقد سجن الأطفال الثلاثة فى الجزيرة الواقعة فى (بحيرة أستومار) والتى يكنها الأرامنة المسيحيون لمدة ثلاث سنوات (يذكر مترجم كتاب آنجيو للو أن أستومار هى بحيرة فان) " وقع هؤلاء الأطفال وخاصة الابن الثانى المسمى بإسماعيل ، وكان صاحب جمال وسلوك حسن موقع حب الأهلين واهتمام بدرجة كبيرة إلى حد أن رستم حفيد أوزون حسن أرسل بعد وفاة عمه يعقوب من يطالب بتسلمهم لقتلهم ؛ فلم يكف الأرامنة أن يعتذروا عن هذه المطالبة ويدافعوا عنهم بل رتبوا زورقا ووسائل هروبهم إلى ولاية كاراباس (قراباغ) . وذكر فى المصادر التاريخية الفارسية أن رستم خلصهم بقصد أن يستفيد فى حربه لابن عمه باى سنقر بالاتحاد معهم وبأشياعهم الكثيرين فيقوى من مركزه ؛ فاستدعى سلطان على الابن الأكبر إلى تبريز واحتفى به عظيم الاحتفاء وأعلى لواء شوكته بالترتيب الملوكى ، واعترف به ملكا وأرسله لصدر ثورة باى سنقر ، وهزم على كثب من (أهر) جيش باى سنقر وأصاب منه مقتلاً .

قتل سلطان على أخى إسماعيل

ولما تخلص بهذا الشكل رستم من يد أعدائه عزم أن يقضى على صديقه وحليفه ، لكن أحد مريدى سلطان على نبّهه فهرب إلى أردبيل ، لكن أعداءه أدركوه على أطراف قرية شماسى ؛ فغلب فى حربه لهم وقتل ، وقد جرت هذه الواقعة فى

عام ٩٠٠ هـ - ١٤٩٤ - ٥ م [١] ، ووصل أخواه إلى أردبيل بسلامة ، وكان المريدون الفدائيون يجهدون في المحافظة على هذين الطفلين وإخفائهم وقت أن كان التراكمة يفتشون عن هذين الهاربين بيوت أردبيل بيتا بيتا ، إلى أن تهيأت لهم وسيلة فأرسلوها إلى جيلان ، ذهبا أولاً إلى (رشت) ، وظلا بها أسبوعا أو شهرا - في رواية ، ثم اتجها إلى (لاهيجان) فاختفى بضيافتهما حاكمها (كاركيا ميرزا على) وأبقاهما بضع سنوات في حفظه وحراسته ، ويروى أنه لما أتى التراكمة إلى جيلان بحثا عن هذين الصبيين أمر كاركيا بإدخالهما قفصا وتعليقه بإحدى أشجار الغابة حتى لا يحنث في قسمه بأن قدميهما حتى ذاك الوقت لم تخطُ تراب ولايته .

أعمال أشياع الشاه إسماعيل الفدائية

يتفق المؤرخون الأوربيون لذاك العهد مع المؤرخين الإيرانيين في ذكرهم افتداء أشياع إسماعيل (صوفية لاهيجان) وتضحياتهم ، يذكر التاجر المجهول الإيطالي[٢] : "كان أتباع هذا الصوفي يعبدونه كإله خاصة جنوده ، وكان بعضهم يقدم ميدان الوغى بلا سلاح معتقدين أن مرشدهم سوف يحفظ حياتهم ويعتني بها في أتون الحرب ... لقد نسوا في سائر إيران اسم الله ولم يذكروا غير اسم إسماعيل في كل لحظة " . ويرى العبارة التالية في أكثر كتب رحلات السواح البنادقة (يحارب الصوفية كالأسود) ، لكن مع كل هذا ورغم ذكر مؤلف التاريخ النادر للشاه إسماعيل في تأريخ حياة سلطان جنيد جد إسماعيل (أتباع هذه الطريقة وشعبها العظيمة تسكن فيما بين أقصى بلاد العرب حتى حدود بلخ وبخارا) إلا أنه يبدو مشكلاً أن أمورهم كانت تتقدم في أول الأمر بهذا الشكل من الظفر والغلبة إذا لم تكن الخلافات الداخلية لأمراء الآق

(١) نقل عن التاريخ النادر للشاه إسماعيل الذي ترجمه وأدرجه بالمجلة الآسيوية لعام ١٨٩٦ م المجلد الثامن والعشرين ، ص ٢٦٤ - ٢٨٣ ، السير دينسون روس .

(٢) ص ٢٠٦ من كتاب رحلات السايح البنادقة في إيران الذي نشرته جمعية الهوكيت عام ١٨٧٣ م في لندن ، ما يرجع ص ٢٢٣ من الكتاب نفسه ؛ وفيها يعرض إلى الشاه طهماسب فينستتيو والساندري في لندن عبارة تشبه الجمل المذكورة بأعلى مبلغ فداء أتباعه .

قوينلو تساعد توسعهم ، وبعد وفاة أوزون حسن ، وكان سلطانا عظيما وعاقلاً (عام ١٤٨٧ م) لم يَعْدُ تاريخ أسرته أن يكون صفحة ملوثة بالدماء يشكل قتل الأخ لأخيه من أعضاء هذه الأسرة فيها كل سطر .

فتوحات إسماعيل وهو فى الثالثة عشر من عمره

وقت أن خلىّ الشاه إسماعيل زاوية عزلته فى لاهيجان وخطا فى ميدان الاستيلاء والتسلط لم يغدُ سنّ الثالثة عشر ، ولم يكن أكثر من سبعة صوفية برفقته ، لكن كلما كان يتقدم فى طريق طارم وخلخال نحو أردبيل كان " أثناء طريقه يلحق بموكبه العالى أرباب الجلادة والصوفية المخلصون يدفعهم حسن عقيدتهم فيه من طوائف الروم والشام فى كل منزل من المنازل " [1] ، ولما أمر سلطان على بيك تشاكارلو التركمانى بإخلاء أردبيل قاد الشاه إسماعيل فى أيام مكوثه بهذه البلد وقته فى صيد الأسماك وأبرز ميلاً مفرعا لصيدها ، لكن فى ربيع عام (١٥٠٠ م) ضمّ إليه أتباع القبائل السبع (شاملو ، وروملو ، واستاجلو ، وتكلو ، ونو القدر ، وأفشار ، وقاجار) الذين يحسبون أركان الجيش الصفوى ، ودخل بجيش معتبر أردبيل .

هزيمة فرخ يسار وقتله بيد الشاه إسماعيل

رأى إذ ذاك قواته مستعدة للجهاد فخفّ إلى قتال الكرجيين الكافرين وغلب فرخ يسار حاكم شروان للانتقام لجده وقتله على مقربة من كلستان وفصل عنقه وجعل جسده طعمة النار ، وأقام منارة من جماجم أعدائه وخرب مقابر ملوك شروان ، وأخرج جثة سلطان خليل آخر ملوك شروان ومكان قاتل جده شيخ جنيدر وأشعل بها النار ، وهذه الأسرة الأصيلة التى خمد بهذا الشكل مصباح سلسلتها ادعى أن نسبها يتصل بأنوشيروان العادل ، ومن أجدادها شروان شاه ممدوح الشاعر الخانقى .

(١) راجع المجلد الثالث من سلسلة تاريخ الأدب فى إيران (فى سيرة الشاه إسماعيل) .

حرب شرور وتتوج الشاه إسماعيل (٩٠٧ هـ - ١٥٠١ - ٢ م)

بعد فتح باكو (بادكوب أو بادكوبه) رأى الشاه إسماعيل الأئمة الطاهرين فى منامه يصرفونه عن حصار قلعة كلستان ويأمرونه بمهاجمة آذربايجان ، وأراد ميرزا ألوند وجيش تراكمة الآق قوينلو منع تقمه لكنهم أصيبوا فى حرب شرور هزيمة منكرة وخسائر فادحة وهرب ألوند إلى أرزنجان ، ودخل إسماعيل تبريز وتتوج بتاج سلطنة إيران ونعرفه بعد ذاك بأنه الشاه إسماعيل لكن المؤرخين الإيرانيين يلقبونه بالخاقان الإسكندرى الشأن ويلقبون ابنه وخليفته طهماسب بالشاه حصن الدين ، وفى هذه الفترة القصيرة ابتلى إسماعيل ومريدوه بالثبات والرسوخ فى عقيدتهم بأحقية المذهب الشيعى وكان شعارهم الحربى يوم هزيمة ملك شيروان (اللّه اللّه وعلىّ ولى الله) ودعوا ميرزا ألوند إلى قبول المذهب الشيعى وإجراء هذه العبارة على لسانه ؛ وسوف يعقدون معه صلحهم .

الجهود القوية للشاه إسماعيل فى نشر التشيع

عزم فى هذا الوقت الشاه إسماعيل أن يجعل بعد اعتلائه الحكم التشيع ليس المذهب الرسمى لإيران وحسب ، بل المذهب المستقل والمنتشر الوحيد بها ، وقد أقضّ هذا الغرم مضجع جميع الشعب حتى بعض علماء شيعة تبريز فقابل العلماء المذكورون إسماعيل قبل تتوجه بليلة وقالوا له : (جعلنا الله فداك ، إن أهل تبريز البالغين مائتى أو ثلاثمائة ألف إنسان كلهم من السنة ، ولم يعلن من عهد الأئمة حتى الوقت أحد هذه الخطبة على الملأ، ونخاف أن يقولوا إننا لا نريد ملكا شيعيا ولو تراجعت الرعية والعياذ بالله ؛ فكيف يمكن تدارك أمرهم ؟) ، فقال الملك : (فقد حُبست لهذا الأمر ومعى رب العالمين ، وحضرات الأئمة المعصومون ولا أخاف أحدا بتوفيق اللّه ، ولو تفوهت الرعية بحرف لأشهرن سـيفى لهم ولا أبقى منهم حيًا) (ورقة ٤٤ أ من تاريخ الشاه إسماعيل) ، ولم يكتف الشاه إسماعيل بالترويج لمناقب على بن أبى طالب وسب الخلفاء الثلاثة : أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، بل أمر بقتل كل من يسمع لعن الخلفاء ولا يهتف (عاش الشاه ولا هان) .

وأمر بعد تتوجه مباشرة - كما يذكر أحسن التواريخ - خطباء بلاده بادخال الشهادة الخاصة بالشيعة فى الأذان والإقامة وهى : أشهد أن عليا ولى الله وحيَّ على خير العمل ، وقد ظلت هذه العبارات فى طى النسيان نحو خمسمائة وثمانية وعشرين عاما منذ أن هزم طغرل بيك السلجوقى البساسيرى وقتله[١] ، وصار عاديا فى الأزقة والأسواق لعن الخلفاء الثلاث جهراً ، وهدد - كما قلنا - حياة المتبرمين لهذا اللعن ، وواجهت العقيدة الجديدة هذه وقت رواجها مشكلات عظمية بسبب قلة كتب التشيع وندرتها ، لكن القاضى نصر الله زيتونى فى النهاية أخرج من خزانة كتبه المجلد الأول من كتاب قواعد الإسلام من تأليفات بلغت يوما بعد يوم شمس حقيقة المذهب الإمامى الاثنى عشرى أوج كمالها ، وأنارت بنورها أقطار العالم وأكنافه وأظهرت طريق الحقائق .

أعداء إسماعيل ومنافسوه (٩٠٧ هـ - ١٥٠١ - ٢ م)

يلزم أن نذكر هنا ما تولد من غضب وحنق بسبب هذه الإجراءات فى أهالى البلاد المجاورة خاصة البلاد العثمانية ، لكن يبدو أكثر فائدة أن ندرج - طبقا لأحسن التواريخ - كشفا بأسماء أمراء إيران وقوادها الذين نادوا بأنفسهم حكاما فيها : الشاه إسماعيل فى آذربايجان ، وسلطان مراد فى القسم الأعظم للعراق ، ومراد بيك بايندرى فى يزد ، ورئيس محمد كَرّه فى أبرقو ، وحسين كيا تشلاوى فى سمنان ، وخوار ، وفيروز كوه ، وباريك برناك فى عراق العرب ، وقاسم بيك بن جها نكير بيك فى ديار بكر ، والقاضى محمد مولانا مسعود فى كاشان ، والسلطان حسين ميرزا التيمورى فى خراسان والأمير ذو النون فى قندها ، وبديع الزمان ميرزا التيمورى فى بلخ ، وأبوا الفتح بيك بايندرى فى كرمان .

(١) البساسيرى قائدة الملك الرحيم البويهى ، وقد شايع المستنصر الفاطمى وأراد عزل القائم العباسى فى ٤٥١ هـ - ١٠٥٩ م ، وقد مضى حتى تأليف أحسن التواريخ فى عام ٧٩٧ هـ - ١٥٧١ - ٢ م على تلك الحادثة ٥٢٨ عاماً .

تغلب إسماعيل على منافسيه الصغار

كان أغلب ملوك الطوائف هؤلاء بلا أهمية ، بل إن بعضهم لا أستطيع معرفتهم ولم يبد واحد منهم مقاومة أمام فتوحات إسماعيل ، انهزم عدوه القديم ألوند آق قوينلو فى صيف (١٥٠٣ م) هزيمة حاسمة وودع الحياة بعدها بعام فى ديار بكر أو بغداد (ذكر لاسياح الأوربيون أن إسماعيل قتله بيده)، وانغلب أخوه مرامد فى الأوان نفسه ، ودخلت شيراز فى تصرف إسماعيل ووقع العلماء السنة المقيمون فى كازرون موقع شديد عقابه فقتل منهم عددا كثيرا ، وخرب مقابر أجدادهم ، ومادة تاريخ هذه الواقعة بحساب الجمل عبارة (رحمة للعالمين) المنحازة كثيرا أى (٥٠٩ هـ ق) ، وفى مقابلها أعد الظرفاء والشعراء مادة (شلتاق سباهى) أو الجندى المجحف لتاريخ تولى إلياس بيك ذى القدر حاكم فاس من قبل الشاه إسماعيل .

استقبلت كاشان - وكانت دائما الحصن الحصين للشيعة إسماعيل - بفرح وسرور بالغين ، واستقبل أهلها فى (فين) المدينة الجميلة ، ورحل منها إلى قم بهدف قضاء الشتاء بها ، لكنه لما سمع أن إلياس بيك " ذاك الصوفى الصافى الطبع الطاهر الاعتقاد " قد قتله حسين كيا الجلاوى ؛ فخرج من كاشان فى ٢٥ فبراير ١٥٠٤ م للثأر منه ، وصل استراباد بعد ذاك بثلاثة أسابيع ولاقى محمد محسن ميرزا ولد السلطان حسين ميرزا التيمورى ، وبعد أن خرّب قلعتى : (كل خندان) ، و (فيروزكوه) ، حبس المياه عن المحصورين فى قلعة أستا ففتحها وأزهق أرواح المحصورين ، وكانوا عشرة آلاف حسبما يذكر أحسن التواريخ وحبس حسين كيا فى حال من الذلة والنكسة فى قفص حديدى ، لكنه نجح فى أن يخلص نفسه بأن طعن نفسه طعنة قاتلة (يذكر تاريخ الشاه إسماعيل فى ورقة ٩٦ أن جثة هذا الرجل أرسلت إلى أصفهان ومُزّقت أرباً فى ميدانها بضرب النار) .

معاملة الأسرى بفظاظة

وكان أشقى منه حظا رئيس محمد كره حاكم أبرقوا الذى تمرد واستولى على يزد المدينة القديمة ؛ فأسره إسماعيل فى قفص ودهن جسده عسلاً لكى يقرضه النحل ليل نهار ، وفى النهاية أحرق حيًا فى ميدان أصفهان .

سفرأ بايزيد الثانى

فى هذه الأيام نفسها قدمت سفارة من قبل السلطان بايزيد الثانى (١٤٨١ - ١٥١٢ م) وقدمت هدايا وتحفا ثمينة وهنئوا الشاه بفتوحاته فى العراق وفارس ، فخلع الشاه عليهم الخلع النفيسة وأبرز لهم مراتب الوداد والإخلاص ، وقبل عودتهم جعلهم يحضرون وقائع قتل عديد منهم الحكم والقاضى المعروف مير حسين ميبدى (له شرح على كتاب الهداية وهو الأفضل للشروع فى الفلسفة) ، وكان جيرانهم بهذه المشاهد ويحكى كلا فيجو مثل هذا الإجراء عن الأمير تيمــور (انظر ســفارة بلاط تيمور فى ١٤٠٣ - ٦ م) نشر جمعية الهوكليت ١٨٥٩ م ص ١٤٩ - ١٥٠) ، وأمر الشاه طهماسب لإرهاب بيرام تيك سفير العثمانيين وإرعابه بقتل جماعة من الكفار فى حضوره (راجع تاريخ الهند وغيرها تأليف Erskine ، لندن ١٥٨٤ م ج٢ ص ٢٨١)، ومن الطبيعى أن يغضب بشدة الرسل العثمانيون من مشاهدة قتل أحد علماء السنة على يد من كانوا فى نظرهم رافضين ومرتدين .

وسوف نتحدث فيما بعد بإيجاز فيما يتصل بعلاقات الشاه إسماعيل بالعثمانيين التى كانت تسوء يوما بعد آخر حتى أفضت إلى الحر بالمعروفة بتشالدران (أغسطس ١٥١٤ م) ، ولكن يلزم قبل هذا أن نختم بما بدأناه من شرح مجمل لفتوحات إسماعيل ولا يسع كتاب بهذا الحجم لهذا الأسلوب والمنهج بتفصيل الكلام فى أعماله العسكرية وحروبه المتتابعه ؛ ولا مناص من الاكتفاء ببيان مختصر موجز لها .

فتوحات إسماعيل فى الغرب ١٥٠٦ - ١٥١٠ م

اهتم إسماعيل فيما بين سنوات ٩١١ - ٩١٥ هـ / ١٥٠٦ - ١٥١٠ م بالولايات الغربية لإيران فدخل أولاً همدان وأسرع (١) إلى زيارة إمام زاده سهل على ، لكن ثورات الأكراد اليزيدين أعادته ثانية ؛ فغلب رئيسهم شير صارم (٢) ، وأسره فى

(١) يذكر التاجر المجهول الإيطالى فى ص ١٥٧من رحلة أن الأكراد هم أكثر أهالى إيران رسوخاً فى الإسلام لأنهم لم يعتنقوا المذهب الجديد الصفوى الذى قبله عامة إيران ، ومع أنهم لبسوا القلانس الحمراء، لكن قلوبهم أضمرت كره أصحابها .

(٢) فى عالم آراى عباس طبعة طهران ذكر هذا الشخص بأنه (صارم) فقط فى ص ٢٣ ج (ياسمى) .

حرب قتل فيها جماعة من خواص أمراء إسماعيل فسلم أسرى الكرد إلى أولاد الأمراء القتلى لكى يجروا فيهم أشد انتقامهم ، وتحالف سلطان مراد آخر أسرة آق قوينلو وملكها الثالث عشر وعلاء الدولة ذو القدر - الذى يسميه السواح الإيطاليون عالى دولى - ورفض علاء دعوة إسماعيل ولم ينطق (على ولى الله) ، ولم يلعن أعداء الدين أو الخلفاء الثلاثة وثار معاديا واستمد السلطان العثمانى .

فتح بغداد (١٥٠٨ م)

لكن إسماعيل لم يثنه ذاك عن عزمه فطوى بلاد ديار بكر : أخلاط ، وتبليس ، وأرجيش ، وفى النهاية استولى على بغداد فى ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م، واستولى على الأماكن المقدسة فى كربلاء والنجف ، وأظهر لأهل الهويزة أنه مع تعصبه للمذهب الشيعى وحماسه الشديد له لكنه لا يمكنه أن يسمح بأن يغالى الغلاة لهذه الدرجة فى حق على .

تأديب غلاة الهويزة

كان العرب الشعشعون المقيمون بهذه الولاية والقائلون بألوهية على يضعون حد سيوفهم بعد ذكر اسم علىّ على بطونهم ويسقطون عليه فلا يصيبهم أذىً كالمسيحيين فى شمال أفريقيا الذين يمارسون هذه الأعمال ، وكان حاكمهم مير سلطان محسن قد مات فى تلك الأوقات ابنه سلطان فياض وادعى الألوهية ؛ فأدبهم إسماعيل أشد تأديب .

انقياد لرستان

وعطف إسماعيل عنانه إلى دزفول وشوشتر ، وعفا عن ملك رستم الذى استسلم له وأظهر بلهجته اللرية الخضوع والاستسلام ، ثم توجه إلى فارس وبقى فترة فى

داراب جرد وانشـــــغل فى صيد الماعز الجبلية التى يؤخذ منها ترياق السم الحيوانى (قيل قتل فى هذا الصيد ٥٦٧٠٠ رأسا) ، وقتل القاضى محمد الكاشى وكان صدر القـضاة وذا رتبة عالية وفوض منصبه إلى سيد شريف الامترابادى الذى كان يصل من ناحية أمه إلى الجرجانى المعروف .

وقائع فارس

بنى فى (قصر زر) ضريحا فى ذكرى أخيه سلطان أحمد ميرزا الذى كان توفى بهذا المكان ، ولما أن أمير نجم الدين مسعود رشتى المعروف بالنجم الأول قد رحل عن الدنيا قبل ذاك بقليل ودفن فى النجف لقب أميريار أحمد الخوزانى الإصفهانى بالنجم الثانى وأجلسه مكانه ؛ فنظم (أميدى) الشاعر قصيدة غراء بمناسبة هذا التنصيب ومطلعها :

ما أبهى جوهرك الجوهر السماوى

فأنت العقل الأول ، وأنت النجم الثانى

نـــورْ عـــــراقى رواق الحـــرم

وأنت لعراق العجم السهيل اليمانى

مهاجمة شروان

قصد إسماعيل من فارس شروان لأن شيخ شاه ولد فرخ يسار رفع علم الرئاسة بها ، ووجد فى هذا السفر جثة أبيه شيخ حيدر فأرسلها إلى أردبيل كما قيل ليدفن بها ، واستولى فى هذا السفر كذلك على (دربند) .

عدوان قويّان أجنبيان : الأوزبك ، والعثمانيون

انشغل حتى ذاك الوقت إسماعيل فى تطويع ملوك الطوائف ومدعيى التاج والعرش وتقوية بناء حكمه فى إيران ومدّ حدود ملكه من الغرب والشمال الغربى باتساع كبير ، ووصل إلى حدود الدولة الساسانية ، ولم يكن قد واجه حتى ذاك الأوان خصميه الوقيين وهما : أوزبك آسيا الوسطى والأتراك العثمانيون الذين أقضوا من بعد مضجعه ومضجع خلفائه ، وقبل أن نبين علاقته بهذين المنافسين الخطيرين يلزمنا أن نذكر شمة من سير إسماعيل وصورته .

سير إسماعيل وصورته بناء عن رواية السواح الأوربيين

إن وصف السواح الأوربيون لذاك العصر لجمال إسماعيل وأخلاقه هو فى العادة أكثر دقة ووضوحا من أقوال المؤرخين الإيرانيين مع أنه يستنبط من كتب التاريخ الفارسية شجاعة وقوة إرادته وقسوته وأعماله التى لا تكل بالحد الكافى . بدأ بقول كاترينوزنو (رحلة السواح الأيطاليين فى إيران نشر جمعية الهوكليت ، لندن ١٨٧٣ من ص ٤٦ -٨) الغزو فى سن الثالثة عشر ، كان له شكل أصل وظاهر ملوكى ، ولا أدرى أى شىءٍ عظيم وأسر كان يختفى فى عينيه ، ويقول فى وضوح كامل: إن هذا الشخص سوف يغدو يوما ملكا كبيراً ، ولم تفترق صفاته الروحية عن جماله الجسدى ؛ لأنه تمتع بفطنة فياضة ونظر عالى الرفعة لا يمكن أن يصدق فى مثل هذه السن الصغيرة ....، ولم يكن لدى واحد من معاصريه قوة حافظته وسرعة انتقاله ولياقته الذاتية).

ويقول أنجيوللو فى المصدر السابق ص ٢٠١ (كان فى عهد صباه صاحب جمال وأخلاق وسلوك مرضى) وفى حربه مع علاء الدولة أو أعالى دولى قوم ذخيرة العسكر وهيأها وأمر بالإعلان عن أن أى إنسان لديه تموين ويريد بيعه يلحق بلا خوف بالمعسكر ، وأذن بأن يعاقب كل من يأخذ متاعا من إنسان ولا يعطيه ثمنه) (المصدر السابق ص ٩٠٢، ٦٩١ ، ١١١) ، ويقول بعد هذا ببضعة أسطر : (هذا الصوفى جميل وحسن الطلعة وكثير القبول ليس بالطويل البائن لكن قوامه حسن التركيب وقده

خفيف متناسق الأعضاء وسمين ، وبين كتفيه اتساع ويميل شعرة إلى الحمرة . أطلق فقط شاربه ولم يطلق لحيته ويستخدم يسراه بدل يمناه . جرىء يشبه الديك البرى ويفوق كل أحرانه قوة . أصاب من عشر تفاحات فى مسابقة رمى السهام سبعا بسهمه، وحين ينشغل بالتدريب يضربون له آلات الطرب وينشدون مدحه) .

ويقول فى موضع آخر: (إسماعيل هو المعبود الخاص لجيشه وأغلبهم يذهبون للقتال بلا أسلحة بأمل أن يستشهدوا فى سبيل شيخهم ، ولما كانت فى تبريز سمعت أن الشاه غضب بسبب عبادته هذه ، ولا يميل إلى أن يخاطبوه بالألوهية (المصدر السباق ص ٥١١) ، ويصفه التاجر المجهول السابق الذكر وهو فى الحادية والثلاثين: (كثير الجمال وصاحب وقار ومتوسط القامة ، طلعته مقبولة وقامته محكمة وكتفاه قليل الاتساع ، ويحلق لحيته ويترك شاربه ، ولا يبدو للنظر ثقيلا غليظا ، محبوب كالآنسات وشاب ظريف كالغزلان ، يعمل بيسراه ويفوق كافة أمرائه قوة ، ماهر فى رمى السهام حدّ أنه يسقط ستة تفاحات من عشر) (المصدر السابق ، ص ٢٠٢) ، ويكتب المؤلف نفسه شرحا مفصلاً عن مذبحة جيش ألوند ميرزا وآل سلطان يعقوب ورجاله ونسائه وثلاثمائة من رجال بلاط تبريز وثمانمائة من الناهبين الطماعين الذين نشأوا فى عهد ألوند ميرزا والمذبحة (العامة لكلاب مدينة تبريز)، وقتل أمه أو زوجة أبيه (لا أظن أن ظالما مثله ظهر من عهد نيرون) .

الخلاصة أن إسماعيل كان مجموعة من الصفات المتناقضة : فكان مرة يبدو شخصا يجذب الناس بجماله الظاهرى وكفائته الفطرية وفتوته وإلى درجة ما عدالته، ويبدو مرة أخرى مكروهاً ومنفورا منه بسبب أعماله وسلوكه الذى سبق ذكر بعض أمثلته حتى إنه كان ممتازا وبلا نظير فى عهده المتصف بالسفك والقتل . كان يظهر شجاعته لا فى ميادين القتال وحسب بل وفى ساحات الصيد . قيل له بعد فتحه بغداد إن عدة من الأسود الضارية قد كمنت فى دغل وسببت فزع سكان النواحى المجاورة؛ فقصد الشاه متجها لصيدها بقوسه وسهامه التى كان بارعا فى استخدامها ببراعة كاملة ، وعجزوا عن منعه عنها ، وفى سنّ الثالثة عشر قضى بالقـــرب من أرزنجان - بالطريقة نفسها - على دبّ وحشى ضخم ، قسّم الكنوز والذخائر الكثيرة التى

صارت من نصيبه من الإغارة على أحد موانئ بحر الخزر ، ولم يأخذ هو نفسه شيئا (أحسن التواريخ ، المخطوط (اليس) ورقة ٤٧ ب ، ٦٢) ، ويقول السياح المذكور بعد شرحه كرمه هذا إن كرمه هذا كان من ضرب السياسة والتدبير الذكى لأن نتج عنه (أن تجمع تحت لوائه من لم يكن من الصوفية لكى ينالوا بمثل هذه الإنعامات من إسماعيل) ، ثم يشرح كيف أن الشاه فصل بيده عنق الأمير المسمى بالموت الذى قبض عليه بتهمة الخيانة ، ويقول إنه رأى بنفسه (الموت) حبيس إحدى الخيام (رحلة تاجر ص ٨٨١ ، ٧٦١ - ٨ ، لكن حبيب السير وسائر كتب التاريخ الفارسية عدت موت الوند طبيعيا)، ثم يذكر بمناسبة قصّ دخول إسماعيل تبريز للمرة الثانية أعمالاً ارتكبها هى أشد قسوة وفظاعة من مسلكه المذكور هذا .

قسوته على السُنّة

ارتكب قسوة لا حدّ لها فى حق السنة ؛ فلم يبق على العلماء البارزين مثل فريد الدين أحمد حفيد العالم المعروف سعد الدين التفتازانى الذى كان شيخ الإسلام لثلاثين عاما لهراة (قتل فى رمضان ٩١٦ هـ - ديسمبر ١٥١٠ م) ولم يرحم شاعرا كبيرا مثل (بنائى) الذى قتل فى منبحة ٩١٧ هـ - ١٥١٢م إلا أن أصعب فظائعه - فيما يبدو - التى ارتكبها فى حق أعدائه بعد موتهم جرت على محمد خان الشيبانى أو شيبك خان كما سنبينه بعد .

ذكرنا أن بعد تطهير إيران من وجود حكام آلاق قوينلو وسائر طلاب تاج إسماعيل وعرشه انشغل بثلاثة من جيرانه هم كالتالى :

علاقات إيران الخارجية فى هذا العصر

التيموريون الذين سيطروا فى حالة مزْرية من الضعف على هراة وقسم من خراسان وآسيا الوسطى ، الأوزبك فيما وراء النهر ثم الأتراك العثمانيون . كانت علاقات إيران على عداء دائم مع الخصمين الأخيرين ، وكان سنة وشديدى التعصب

لكن الصلح والصفاء اَستقر مع التيموريين ؛ الذين بدورهم لم يستريحوا بسبب الخوف من الأوزبك ، وكانت العلاقات الودية مستحكمة ، وكان السلطان حسين بايقرا هذا الملك العجوز الذى كان بلاطه المزين والمضئ فى هراة يعد المركز المشهور للآداب والفنون من جملة السلاطين الذين سعوا فى إجلال التشيع محل السنة فى دائرة حكمه ، لكنه لم يبلغ مقصوده بدرجة الشاه إسماعيل ، وأظهر (بابر) ميله للتشيع إلى حدّ ما ، إما عن عقيدة فيه أو لأسباب سياسة ؛ حتى إن أهالى آسيا المركزية السنة أشاحوا وجوههم عنه ونهضوا لمعاداته (تاريخ الهند تأليف و.أرسكين ج١ ص ٩١٣ - ٢٣٠ ، لندن ١٨٥٤ م) وعليه لم يكن هناك وجه للعداء بين هاتين الأسرتين خاصة بعد أن أظهر شيبانى خان خصومته لكلا الملكين وصار الأوزبك المدهشون بالطبع سبب اتحاد بابر وإسماعيل .

شيبانى أو شيبك خان الأوزبك

يخرج عن هذا الكتاب التفضيل فى ضعف التيموريين وظهر الحكم الأوزبك ، وقد أتى الشرح المفصل لهذه الأحداث فى تأليفات إرسكن[١] وغيره، ويكفى أن نذكر أن شيبانى أو شيبك خان الذى يتصل نسبه مباشرة بجنكيز خان[٢] استولى على سمرقند وبخارا فى (١٥٠٠ م) ثم سيطر بعد هذا بقليل على طاشقند وقرغانة ، وبدأ من ذيّاك التاريخ عهد قوته ، وهاجم خراسان عام وفاة السلطان حسين ١١٩ هـ - ١٥٠٥ - ٦م وسفك فى عرض عام أو اثنين دماء أفراد الأسرة التيمورية ماخلا بابر وبديع الزمان وقدم الأخير إلى بلاط الشاه إسماعيل ولجأ إليه ، ولم يتقابل شيبانى خان والشاه إسماعيل حتى عام ٩١٦ هـ - ١٥١٠ - ١١ م ، لكن بسبب أن الأوزبك قبل هذا التاريخ بعام هاجموا خراسان بقسوة وردّ شيبانى برسالة مستهجنة وتفيض بالسب على الرسالة التى أرسلها إسماعيل يعترض على هجومه بأدب [٣]، فقد شمّر

(١) مثلاً تاريخ مغول آسيا الوسطى تأليف إلياس ودنيسون روس ، لندن ١٨٩٨ م ثم تاريخ بابر الفريد الطبعة الجديدة من ترجمة أرسكين وإضافاته ومراجعة لوكاس أكسفورد ١٩٢١ م .

(٢) هو ابن بوادق بن أبى الخير خان بن دولتى شيخ بن إيلتى أغلان بن فولاذ أغلان بن إيبو خواجه بن بولقاى بن شيبانى بن جودنى بن جنكيز خان بناء عن أحسن التواريخ ورقة ٨٨ ب .

(٣) راجـع ج ١ ص ١٩٧ من تاريخ الهـند لأرسكن ، ونص هذه الرسالة الطويلة موجودة فى أحسن التوازيخ .

إسماعيل عن ساعد قتاله ولم يتهاون فى الرد على هجومه ، وبما إن بقية بلاده كان يعمها السكون المؤقت تقدم إلى خراسان وزار فى طريقه ضريح على بن موسى الرضا .

قتل شيبانى فى حرب ديسمبر (١٥١٠ م)

جرت الحرب الحاسمة فى الأول أو الثانى من ديسمبر (١٥١٠ م) فى (طاهر آباد) قرب مرو وأصيب الأوزبك بهزيمة فادحة بعد حرب طويلة وشديدة وقتل شيبانى ، ولما استخرج جسده من تحت ركام جثث القتلى أمر الشاه ببتر يديه وقدميه وبعث بها إلى أطراف بلاده وحشا بالتبن جلد رأسه وأرسل به تذكارا وهدية إلى السلطان بايزيد الثانى فى القسطنطينية[١] ، وأمر بطلاء قحف جمجمته ذهبا وجعله كأس خمرة وغرادته على حضار مجلس حفله ، أرسل درويش محمد بيد شيبانى المبتورة إلى حاكم مازندران رستم روزافزون وحين كان هذا جالسا بين ندمائه ورجال بلاطه فى سارى رمى درويش محمد اليد على ذيل ثوبه وصرخ : (كنت قلت يدى وذيل ثوب شيبانى خان والآن فيده هى التى بذيل ثوبك !) و فاستولى على الحاضرين الفزع من جسارته حدّ أن أحدهم لم يجرأ على الخروج لقتل هذا المبعوث وحلت برستم صدمة أسرعت به إلى المرض من ذاك اليوم والموت ، وتروى هذه القصة الغريبة بشأن الكأس التى أعدت من قحف رأس شيبانى خان ومفادها: أن أحد مستشارى شيبانى الموثوق بهم ويعرف بخواجة كمال الدين ساغرتشى هرب بسبب إظهاره تشيعه من خطر قتله ولجأ إلى إسماعيل ، وذات يوم أشار إسماعيل إلى هذه الكأس المذكورة فى مجلس لهوه ، وقال له هذه الكأس التى تراها هى رأس سلطانك فقال : (سبحان الله ، كم كان صاحب مجد ولا يزال له المجد إذ إنك وأنت صاحب المجد ترتشف من رأسه الخمر وقتا بعد الآخر) .

ولما قتل شيبانى خان كان فى الواحدة والستين وحكم أحد عشر عاما ، وكان - كما ذكرنا - متعصبا فى تسنّنه ويؤذى كثيرا الشيعة فى بلاده ، وفى ذاك الوقت بعد

(١) طبقًا لتاريخ الشاه إسماعيل (ورقة ١٤١) غضب الأمير سليم الذى وصل الحكم بعد ذلك وأغلظ القول بسبب هذا إلى والده السلطان بايزيد .

غلبة إسماعيل حل نور المصيبة والشقاء على السنة ، ومع هذا فلم يُصب الأوزبك بعد هذه الهزيمة بالتفرق والاضمحلال ، ومع أنهم صالحوا إيران فى الظاهر غير أنهم انتقموا بعد ذلك بعدة شهور لهزيمتهم بانتصارهم فى معركة (غجدوان) وهزم فى هذه الحرب بابر والإيرانيون حلفاؤه ومساعدوه هزيمة فادحة وقتل فى نوفمبر ١٥١٢ م جماعة من قواد الجيش كان منهم (نجم ثانى) . ظل الأوزبك يعدون خطرا دائما على إيران طوال القرن السادس عشر وتفصيلات هجماتهم على خراسان مسطورة فى كتب التاريخ الإيرانى بلا تغيير وبشكل متكرر .

والآن نقوم بشرح علاقات إيران بالأتراك العثمانيين ، وهى أهم من قضية الأوزبك ، وتوضح هذه العلاقات أفضل أن أى كتاب تاريخ فارسى أو تركى مجموعة الرسائل السياسية التى جمعها فريدون بيك بمهارة فائقة ودونها بعنوان منشآت السلاطين فى عام ٩٨٢ هـ - ١٥٧٤ م .

مجموعة المراسلات الحكومية التى جمعها فريدون بيك

حررت المكاتبات التى تبادلها السلاطين العثمانيون والحكام والملوك المجاورين لهم أو جرت بين السلطان العثمانى وولده أو وزيره وولاته باللغة التركية بعضها وبالعربية والفارسية بعضها الآخر ، وللأسف فكثير منها يعدم التاريخ ، وبما إن هذه المراسلات المذكورة لم تقع حتى اليوم موقع الاستفادة أى فى قليل من المواضع فإن من يبادر بتلخيص موضوعاتها أو تحديد مقصودها وغرضها لن يكون بحاجة إلى تقديم عذر له فى عمله ، وبتلخيص ما يتعلق بالعصر الصفوى حتى وفاة الشاه إسماعيل (٩٣٠ / ١٥٢٤ م أى طوال حكم السلطان بايزيد الثانى (٨٨٦ هـ - ١٤٨١م / ٩٨١ هـ - ١٥٢١ م) وسليم الأول (٩١٨ هـ - ١٥٢١ م / ٩٢٦ هـ - ١٥٢٠ م) والسنوات الأربع الأولى من حكم سليمان القانونى (٩٢٦هـ - ١٥٢٠ م / ٩٣٠ هـ - ١٥٢٤ م) فى هذه الرسائل الآتية :

١ - من طرف يعقوب ملك الآق قوينلو إلى السلطان بايزيد وتتعلق بخبر هزيمة الشيخ حيد والد إسماعيل ووفاته (ص ٣٠٩) . هذه المراسلة المكتوبة

بالفارسية بدون تاريخ لكنها حررت - فيما يبدو - بعد قتل حيدر فى الثلاثين من يونيو ١٤٨٨ م ، ويسمى فيها رأس حلقة أرباب الضلال ، ويذكر الكاتب أن القضاء على هؤلاء العصاة واستئصالهم - وهم أعداء الرسول وخصوم الدين والدولة - لابد أن يبعث على سرور عامة المسلمين وانشراح صدورهم .

٢ - مراسلة السلطان بايزيد بالفارسية وبدون تاريخ ، وهى رد على المراسلة السابقة (ص ١١٣) ؛ ويهنئ فيها يعقوب لانتصاره وهزيمة فرقة الضلال الحيدرية .

٣ - من طرف الشاه إسماعيل إلى السلطان بايزيد الثانى يطلب فيها ألا يمتنع أحد مريديه من القدوم إلى زيارته من آسيا الصغرى إلى أردبيل (ص ٣٤٥) ، وهذه المراسلة بلا تاريخ وبالفارسية ، ولأنها تبرز العدد الضخم للصوفية الإيرانيين فى البلاد العثمانية فهى بذات أهمية .

٤ - رد السلطان بايزيد على المراسلة السابقة بالفارسية وبلا تاريخ (ص ٣٤٥ ، ٦) ، ويقول فيها إن بعد التحقق تبين له أن هدف أغلب هؤلاء الزوار ليس أداء واجب مذهبى بل الفرار من الخدمة العسكرية .

٥ - من الشاه إسماعيل إلى السلطان بايزيد بالفارسية وبدون تاريخ (ص ٦٤٣ ، ٧) ، يوضح بهذه المراسلة أنه دخل مضطرا الأراضى العثمانية لتأديب أعدائه ولم يقصد بما فعل المخالفة له أو إبداء التهاون به ، وأنه أمر جنوده بألا يلحقوا أدنى ضرر بأموال الرعية الأتراك أو أرواحهم .

٦ - رد السلطان بايزيد على المراسلة السابقة بالفارسية أيضا وبدون تاريخ (ص ٧٤٣) ، ويظهر السلطان فيه اطمئنانه لفعل إسماعيل وأنه أمر جنوده بمعاونة الشاه فى إتمام مقصوده .

٧ - من ألوند آق قوينلو ملك إيران إلى السلطان بايزيد وسائر هذه المراسلة ما عدا المقدمة العربية بالفارسية وبدون تاريخ (٣٥١ - ٢) ، ويطلع فيها ألوند السلطان بقدوم سفير السلطان (محمود أغاشا ويش باشى) ويعد - حسبما يدعو السلطان - بأن يجهز جيشه للقضاء على العدو المشترك لهما وهو الأوباش القزلباش ، بل إن أعضاء أسرته إذا لم يوافقوا على عزمه ؛ فإنه سوف يسعى ويجتهد لإمضائه بمفرده مستظهرا بالمساعدات المادية والمعنوية للسلطان .

٨ - رد بايزيد على المراسلة السابقة بالفارسية وبدون تاريخ (ص ٣٥٢ - ٣) يحرض فيه ألوند ميرزا ويشجعه ويعده بمساعدته لمواجهة (الطائفة الباغية القزلباش .

٩ - المراسلة المؤرخة بربيع الأول ٩٠٨ هـ (سبتمبر ١٥٠٢ م) ص ٣٥٣ من بايزيد إلى الحاج رستم بيك ، وسلمها له كيوان شاويش وفيها - وهى بالفارسية - يستفسر السلطان عن المعلومات الصحيحة عن أفعال القزلباش ونتيجة قتالهم مع آلاق قوينلو أو البازيدية .

١٠ - جواب الحاج رستم على المراسلة السابقة بالفارسية وبدون تاريخ (ص ٣٥٣ - ٤) حول (القزلباش المزقين للدين) الذين فى طريقهم إلى عقد الوحدة مع مصر بعد هزيمتهم ألوند ومراد آلاق قوينلو وإلى معاداة العثمانيين ، والتقدم عن طيق مرعش وديار بكر .

١١ - من السلطان بايزيد إلى السطلان الغورى المصرى بالعربية وبتاريخ ٩١٠ هـ - ١٥٠٤ - ٥ م (ص ٤٥٣ - ٨) ، وأشار فيها إلى شخص (ظهر فى البلاد الشرقية وقضى على حكامها وتتغلب على أهلها) ويظهر من هذا الرد أنه يقصد الشاه إسماعيل أو شاه قلى .

١٢ - الرد على المراسلة السابقة بالعربية وبدون تاريخ (ص ٣٥٥ - ٦) ، ونرى فى هذه المراسلة إلى تغلب الشالين القزلباش على بلاد المشرق ، ويصف هذا التغلب بأنه آفة تلك النواحى ومصيبتها.

زيادة الخصومة بين إيران وتركيا

كانت تلك فقط مراسلات تعلقت من بين رسائل السلطان بايزيد بالصفويين بشكل مباشر رغم أنه يوجد مراسلات أخرى تفيد الدارسين للفارسية منها حُرِّرت للسلطان

أبى الغازى حسين (٩١١ هـ - ١٥٠٦ م) ، والجامى ، والحكيم جلال الدين الدوانى، وفريد الدين أحمد التفتازانى شيخ الإسلام بهراة (٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م) الذى قتل بعد ذاك بسنوات ثلاث بسبب امتناعه عن اعتناق المذهب الشيعى بأمر الشاه إسماعيل ، وقبل أن نقوم بشرح الرسائل السياسية لعهد حكم السلطان سليم خان لابد من ذكر نبذة من حروب الإيرانيين والعثمانيين ؛ وهى إحدى سمات العهد الصفوى المهمة وصارت باعثًا قوياً على فساد الوحدة الإسلامية وضعف قوى المسلمين ولا نجد فى هذا الباب أفضل من النقل من أول صفحة للشرح الذى كتبه ريتشارد نولس عن ثورة الشيعة بالأناضول (نقلاً عن الطبعة السادسة للتاريخ العثمانى الذى أتمه السير بول ريكون ونشره بلندن عام ١٦٧٨ م ، والعبارة المنقولة من ص ٣١٥ الجزء الأول) ، ويعتبر هذا المؤلف أن سبب الثورة المذكورة هو تحريضات شاه قلى المعروف الذى يسميه الأتراك شيطان قلى وابن حسن خليفة أحد مريدى الشيخ حيدر والد الشاه إسماعيل .

ثورة الشيعة بآسيا الصغرى

يذكر نولس Knolles : (آثر بايزيد بعد قضاء عمر مضطرب ومتشنج الطريق السلمي فى حياته ، وكان يمضى أغلب وقته فى مدارسة الكتب الفلسفية ومخالطة العلماء ، ومع أن مصالح الدولة وميل قواده وطلبهم كانت تجر فى الغالب بايزيد إلى ميدان الحرب على غير إرادته ، لكنه كان يميل بالفطرة إلى الحياة الهادئة الساكنة أكثر من الحرب ، وسلّم إدارة أمور بلاده إلى ثلاثة من كبار باشواته هم : على ، وأحمد ، ويحيى الذين كانوا يتصرفون حسب ميلهم وهوسهم ، ولما مضت سنوات خمس فى هدوء وسكون اشتعل معظم النار من مستصغر الشرر فجـأة فـى آسيا لم يخمد إلا بعد مشقة بالغة وسفك دماء خلق كثير من الناس وتعريض الحدود الشرقية للمخاطر ، والآثار المقدسة الحالية بدورها باعث على اضطراب خواطر سكان نواحيها العابدين للخرافات . وكان سبب هذه الحوادث شخصين إيرانيين مزورين هما : حسن خليفة ، وابنه شاه قلى ؛ فقد فر الاثنان إلى الأناضول وأظهرا الزهد والورع وأصابا بين سكان الولاية القساة الفظاظ شهرة تامة، وجمعا جـماعة من المريدين المجانين

" أشبعت أدمغتهم بأصول المذهب الجديد " فخالفا أساساً أحقية خلفاء الرسول فى الخلافة، ثم أثارا فى الناس ثـورة لا يزال بعـضها يغلى حتى اليوم ، وخمد بعضها الآخر بسفك دم كثير ومشقة بالغة) ، ونرى بعد هذه العبارات شرحاً مفصلاً فى ذكر الثورة الخطيرة التى انهزم فيها الأتراك مرات عديدة وقتل بها جماعة من القواد منهم الوزير الأعظم خادم على باشا ، وانتهت بتفريق الثوار وطردهم إلى داخل إيران ، وبدلاً من أن يحترم إسماعيل المستغيثين به ويكافئهم قتل جماعة منهم فى تبريز لأنهم أغاروا فى طريقـهم كما يذكر نولس (ص ٢٤٤ من الفصل المذكور) على قافلة ، لكن أغلب المؤرخين المحدثين الأتراك يعللون ما فعله بهم هو أنه كان يريد أن يظهر نفسه أمام بايزيد محايداً وبريئاً من تحريض الثوار ومساعدتهم (راجع الإمبراطورية العثمانية تأليف عبد الرحمن شرف ج١ ص ٩٦١ – ٧ الطبعة الثانية – إسلام بول ١٣٥١ – ١٨٩٧ – ٨ م ، Von Hammer's Gresch.d. Osmanish Reich ج ٢ ص ٣٥٩ – ٦، وص ٣٩٣ – ٤) ويذكـر نولس : (ألقى بشاه قلى فى النار حيّاً لإرهاب الآخرين) ، لكن المؤرخين العثمانيين يذكرون أن شاه قلى وعلى باشا قتل معاً فى حرب جفيك تشاى بين سيواس وقيصرية ويوافقهم أحسن التواريخ أيضاً ، ويقول نولس : (لم فر شاه قلى أمر يونس باشا " الصدر العظم للسلطان سليم الذى حكم عليه بالموت عام ٩٢٣ – ١٥١٧ " بالتعجيل فى البحث عن أتباع المذهب الإيرانى فى آسيا الصغرى وإهلاك من حمل سلاحه فى الثورة الأخيرة بأبشع قتلة، ووسم من بقى حياً بحديد على جبهته لكى يعرفوا بعد ذلك ، ونفاهم مع الفارين وأتباع الشاه قلى وأبناء القتلى إلى أوربا ، وفرقهم بدداً فى مقدونية وأبيروس والبلوبونى ، فإن عاد شاه قلى الملتجئ بإيران وجمع جيشاً جديداً لم يلحقوا به ولم تشب ثورة ثانية . كان هذا شرح بداية ونهاية لثورة عظيمة قلبت البلاد العثمانية ولو انتهز شاه إيران هذه الفرصة بالكامل لاستولى بيسر على الشطر الأعظم من ولايات بنى عثمان الآسيوية) ، ويذكر نولس أن تاريخ هذه الأحداث هو ١٥٠٨ م ، لكن أحسن التواريخ يحددها بتاريخ ٩١٧ هـ – ١٥١١ – ١٢ م قبل وفاة بايزيد بعام .

ومن عجب أن المؤرخين الإيرانيين سكتوا عن ذكر هذه المذبحة العامة للشيعة المقيمين بالأراضي العثمانية ، لكن هذه المذبحة -حسبما يذكر فون هامر- هي من أفظع الأعمال التي وقعت باسم الدين حتى تجاوزت الفظائع التي ظهرت في هيئة التفتيش الديني في إسبانيا ومذبحة سان بارتولومي ، لكن لا عجب من أن بعض المؤرخين العثمانيين لم يذكروها لأن ذكرها لا يجلب لهم فخاراً، ويبدو أن نولس أخطأ حين اعتبر هذه الواقعة من أحداث حكم بايزيد الثاني لأنه لا يمكن قبول أن أكثر من مذبحتين مهمتين وقع في هذه الفترة ، وقعت واحدة منهما في عام ١٥١١ بعد جلوس السلطان سليم ، وكان نيكولو جيوستينياني Nicolo Griustiniani شاهد عيان لها في ٧ أكتوبر من هذا العام (راجع ج ٢ من كتاب فون هامر ص ٣٠٤) ، ويبلغ عدد القتلى - حسبما يحصي سعد الدين سلاك زاده وعلى أبو الفضل بن أدريس بتليسي - أربعين ألفا ، والتفصيلات الدقيقة التي أوردها أبو الفضل وأثبت فون هامر أصل شعرها الفارسي بالاتينية كالتالي :

أرسل السلطان الحكيم مراسيمه
وكتابة العلماء إلى كل أرض وصقع

حتى يقسموا أتباع هؤلاء القوم
ويثبتوا أسماءهم اسمًا اسمًا

ويأتوا إلى الديوان العالي أسماء
من عمره السابعة حتى السبعين

فما سلم أهل الإحصاء دفاترهم ظهر
أن العدد سبعون ألفًا شيخًا وشابًا

وإذا ذاك أبلغ المأمورون
أمرًا وال في البلاد

أن يقتل بالسيف الماضى كل
من وصلوا إليه من هؤلاء

فبلغ عدد قتلى هذه الديار أكثر
من أربعين ألفًا بحساب القلم

ونصادف الآن المراسلات التالية بمراجعتنا منشآت فريدون بيك ، وهى المتصلة بعهد حكم السلطان سليم وتتعلق بعلاقته بإيران .

المراسلات الفارسية للسلطان سليم

١٣ - من السلطان سليم إلى عبيد خان الأوزبكى بالفارسية بتاريخ سلخ المحرم (٢٦٠ ق) (٢٧ مارس ١٥١٤ م) قبل حرب تشالدران بخمسة شهور (ص ٣٧٤ - ٧) ، ويظهر فى هذه المراسلة المطولة التى كتبها محمد بيك السلطان سليم فكره بقوله: (قد بلغت أرواح أهل الشرق حناجرهم بسبب صوفى لئيم بخس أثيم أفاك سفاك) ، ويدعو عبيد خان إلى توحيد مساعيه معه للانتقام منه لقتله أبيه شيبك خان .

١٤- رد الرسالة السابقة بالفارسية بتاريخ سلخ جمادى الثانية (٩٢٠ ق) (١٢ أغسطس ١٥١٤ م) ، ويشرح فى هذه المراسلة عبيد خان كيف انتقم لأبيه (وقتل الكلب الصغير الذى هو نائب الكلب الكبير وقائده - أى الشاه إسماعيل - ولقبوه لفرط الجنون بالنجم الثانى) ، ويعد السلطان العثمانى بمعونته فى قلعه وقمعه (الشرذمة القليلة) (والزنادقة الأوباش والملاحدة القزلباش) .

١٥ - من السلطان سليم إلى الشاه إسماعيل بتاريخ صفر ٢٩٠ ق (أبريل ١٥١٤ م) من ص ٣٧٩ إلى ٣٨١ ويدعو السلطان فى هذا المكتوب الفارسى والذى استعمل به الرجز والإهانة العظيمة الشاه إسماعيل إلى الندم على زندقته وجرائمه خاصة لعن الشيخين أبى بكر وعمر ، وإلا فسوف ينقض عليه ويستخلص ما غصبه بالجبر والعنف .

١٦ – من السلطان سليم إلى محمد بيك آق قوينلو بالفارسية بتاريخ سلخ صفر ٢٩٠ ق (٢٥ أبريل ١٥١٤ م) ص ١٨٣ – ٢ ، وتشمل الرسالة تهنئته وأسرته وتمجيدها وأتباعه الذين لم يتطرق إلى أساس تستنهما خلل ويدعوهم إلى قتال الزنادقة القزلباش .

١٧ – الرد على المراسلة السابقة بالفارسية المؤرخ بسلخ ربيع الثانى ٢٩٠ ق (٢٣ يونيو ١٥١٤ م) ص ٢٨٣، ونعرف من هذه الرسالة أن سفير السلطان سليم بهذه الرسالة بالرد عليها من يسمى أحمد خان ، كما نستنبط أن الكاتب كان قلقًا كثيراً من سقوط مراسلته فى يد الغير .

١٨ – الرسالة الثانية للسلطان سليم إلى الشاه إسماعيل بالفارسية وبلا تاريخ ص ٨٣٢ ، وفيها يدعى سليم الخلافة وينسب الكفر والردة إلى إسماعيل ، وأسرته ويدعوه إلى التوبة ويرضى بأن تكون إيران ضمن البلاد العثمانية .

١٩ – الرسالة الثالثة للسلطان سليم إلى الشاه إسماعيل من أرزنجان بالتركية بتاريخ (سلخ جمادى الأولى ٢٩٠ ق / ٢٣ يوليو ١٥١٤ م) ، ويطلب فيها السلطان مبارزة قرينه ، ويظهر عدم رغبته فى سبه وشتمه .

٢٠– رد الشاه إسماعيل على المراسلات الثلاث للسلطان سليم بالفارسية وبدون تاريخ (ص ٣٨٤ – ٥) ، ويبدو أنه الرد نفسه الذى يذكره كريزى Creasy فى كتابه تاريخ الأتراك العثمانيين (طبعة ١٨٧٧ م ص ١٣٦ – ٧) ؛ لأن كاتب هذا الرد يقول : كأن الكتاب السلطانيين بادروا إلى كتابة هذه الرسائل وقد غيب وعيهم الحشيش والأفيون ومهروها بحقه مملوءة بالمعجون الخاص وهو مركب من المخدرات المذكورة كخاتم السلطنة ، وأرسلوها مع رسول السلطان المسمى (شاه قلى أغا) .

٢١– الرسالة الرابعة للسلطان سليم إلى الشاه إسماعيل المؤرخة بسلخ جمادى الثانية ٢٩٠ ق– ٢١ أغسطس ١٥١٤ م ، ويدعوه فيها إلى قتاله .

حرب تشالدران فى أغسطس ١٥١٤ م

وبعد إرسال هذا المكتوب المطول بقليل أى فى أوائل رجب (٢٩٠ ق) (أغسطس وسبتمبر ١٥١٤ م) جرت حرب عظيمة بين العثمانيين والإيرانيين فى تشالدران التى تبعد عن تبريز بنحو عشرين فرسخًا؛ وقتل بها ثلاثة آلاف تركى وألفا إيرانى ، لكن المدفعية التركية أنهت المعركة لصالح العثمانيين ، وأجبر الشاه إسماعيل - رغم شجاعته التى بدأها هو ورفاقه الفدائيون - على أن يولى دبره وينسحب ويخلى تبريز ؛ فاستولى العثمانيون على هذه المدينة فى ١٦ رجب ٢٩٠ - ٦ سبتمبر ١٥١٤ م وقتل من الطرفين جماعة من المشاهير : فمن جانب العثمانيين: حسن باشا رئيس الروملو ، وقائد الجناح الأيسر للجيش العثمانى وحسن بيك حاكم المورة وأويس بيك من قيصرية وقياس بيك من لتاقيا وعدد كبير من الأعيان والرؤساء المدنيين والعسكريين ، ومن الجانب الإيران :ى مير سيد شريف الشيرازى من الدعاة الشيعة ، وأمير عبد الباقى أحد نرية العارف الشهير شاه نعمة الله كرمانى، وسيد محمد نجفى ، وخان محمد خان وبضعة كثيرين .

إجراءات السلطان سليم بعد فتح تشالدران

وعجل السلطان سليم الذى بلغ منه الغرور لهذا الفتح بتسيير كتب الفتح المهولة إلى ولده سليمان وخان كريمة ورؤساء الكرد والسلطان مراد آخر أسرة آق قوينلو وشاه رستم الكرستانى وحاكم أدرنة وغيرهم ، ونصوص هذه المكاتيب مثبتة فى منشآت فريدون بيك (ص ٣٨٦ - ٦٩) ، لكنا نصادف فى (ص ٣٩٦ - ٤٠٧) شرحًا تزيد أهميته التاريخية أكثر وهو : يوميات مفصلة لتحركات الجيش العثمانى من الثالث من المحرم ٢٩٠ (٢٠ مارس ١٥١٤ م) حين خرج من أدرنة حتى آخر هذا العام نفسه (نوفمبر وديسمبر ١٥١٤ م) ، وعاد إلى أماسيا لقضاء الشتاء وقطع هذا الجيش مائة وخمسين نزلاً من أدرنة حتى تبريز عن طريق إسلام بول وقيصرية وسيواس وأرزنجان وتشالدران وخوى ومرند ، وعاد إلى أماسيا فى ثمانية وخمسين منزلاً عن طريق نخجوان وجسر جوبان وبيبورت ، وأقيمت منارات من جماجم الأعداء

فى ميدان الحرب وقتل فى قرية ساهيلان قبل دخوله تبريز خالد بيك ومائة وخمسون من القزلباش أتباعه ، وحسبما يذكر المؤرخون الفرس فى عهد الشاه إسماعيل تصرف الترك فيما يظهر فى تبريز بالسلم والاعتدال ، ومكث السلطان سليم أسبوعا واحداً السادس إلى الرابع عشر من سبتمبر ١٥١٤ م فى تبزيز ، ودعا بديع الزمان ميرزا ولد حسين بايقرا الذى فر مع جماعة من الصناع الماهرين إلى الاستقرار فى بلاده وصحبهم إلى العاصمة العثمانية ، وعاد الشاه إسماعيل إلى تبريز بعد أسبوعين أو ثلاثة من رحيل السلطان، وحسبما يذكر السير جون ملكم فى تاريخ إيران الجزء الأول ص ٤٠٥ : (تركت هذه الهزيمة المرة فى الطبع الدموى للشاه أثراً عميقاً ومستديماً ، ومع أنه كان لطيف قبل ذاك فلم يره أحد بعد ذاك وهو يضحك) ، ولكنى لم أجد دليلاً على قول فى كتب التاريخ الفارسية التى راجعتها ، ومع أن هذه الهزيمة كانت حاسمة ، لكنها لم تترك فى الواقع آثاراً باقية لها ؛ لأن الجيش التركى عاوده الحنين إلى الوطن ؛ فأظهر استياءه وأجبر السلطان العثمانى على أن يعود به إلى تركيا ويخلى إيران ولم ينشغل السلطان باستثناء القضاء على الأسرة الصغيرة لذى القدر الساكنة فى كرماخ قرب أرزنجان فى ربيع ١٥١٥ م فى الغزو والحرب فى حدود الدولة إلا فى السيطرة على مصر والشام وجزيرة العرب .

أرسل الشاه إسماعيل بعد دخوله تبريز رسالة مؤدبة يعتذر فيها للسلطان سليم حملها إليه نور الدين عبد الوهاب ، ويبدو أن السلطان لم يرد عليه ، لكنه كاتب بعد ذاك لعدة شهور لآخر رجب ٩١٢ ق - ٩ سبتمبر ١٥١٥ م) عبيد خان الأوزبكى يحرضه على القضاء على الشيعة (منشآت فريدون بيك ج١ ص ٤١٣ - ٤ ، ٤١٥ - ٦) تستغرق الوثائق المتعلقة بحكم السلطان سليم نحو ٤٨ صفحة من مجموعة فريدون بيك التى تنتهى إلى الصفحة رقم ٥٠٠ ، لكنا لا نلاحظ ما عدا موضعاً مهماً يتعلق بالشاه إسماعيل غير إشارات وجملاً معترضة ، وهذا الموضع المهم هو قطعتا شعر تركى وفارسى ، ويبدو أن هذا الشاعر الكاره لوطنه هو خواجة الأصفهانى الذى كان سنيًا متعصبًا وعجل لبلاط شيبك خان وذكر أحسن التواريخ أنه مات ضمن وقائع عام ٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م، وهذه الأبيات التالية نختارها من قصيدته الفارسية للمثال .

القصيدة الفارسية التى نظمها فى تهنئة السلطان سليم

ألا أيها القاصد السعيد المنظر

إنى أتطلع بضراعة صوب الشاه المظفر

فقل له يا ملك سائر العالم

إنك اليوم فى الصرامة بك مسلّم

أساس الدين فى وضعت

وشرع المصطفى قد أقررت

تجدد الدين بهمتك

ووقعت الدنيا تحت منتك

فإن غدا الشرع هو المستقيم

فذاك بفضل مجد السلطان سليم

إن بلاد فارس والأتراك بسبب خوفك

فى ارتعاش حين أسقطت التاج عن رأس القزلباش

ألقيت تاجه عن دراه مجده

قالق الآن بشجاعة رأسه عن جسده

إن القزلباش كالأفعى

ترى مالم تدق رأسها نفعًا

أنت اليوم بأوصافك الشريفة

لله وللرسول خليفة

هل ترضى أن المجوس والبربرى
يسبون أصحاب محمد ؟

فإذا لم تقتلعه قويًا صارمًا
عاد رأسه بيدك سالما

فإن نعم الأمن فى دار سلامتك
شكوتك لله يوم قيامتك

وقد قرأت فى أحاديث الرسول
أن ذا القرنين كان قيصر الروم

وقد جعل ذا القرنين علمًا يدوم
لأنه ضم ملك فارس إلى الروم

صار قرناه فى الدنيا ملكًا مسودًا
وغدا حكمه فى الشرق والغرب سيدًا

فهلم وحطم لنصر الدين الأوقان
وضم إلى عرش الروم ملك إيران

وفاة السلطان سليم فى ٩٢٦ هـ - ١٥٢٠ م وجلوس سليمان خان

توفى السلطان سليم فى ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م ، وحكم بقول صاحب أحسن التواريخ ثمانية أعوام وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وخلفه ابنه سليمان خان الذى يلقبه العثمانيون بالقانونى والأوربيون بذى الجلالة ، نظم أمينى الشاعر الإيرانى فى جلوسه قصيدة بحيث يتحصل عدد ٩٢٦ من كل مصارعها ، وإليك البيت التالى الوارد بأحسن التواريخ كمثال :

أعطى الزمان ملك المجد
إلى كاوس العهد سليمان الثانى

وبعد بضعة أعوام حين فتح السلطان جزيرة رودس نظم شاعر إيرانى آخر اسمه نيازى فى ذكرى هذا الفتح قصيدة سامقة مطلعها :

فى البداية علا شأن عرشه به
ثم حدث له فتح رودس يا نيازى

والمصراع الفارسى الأول يحوى تاريخ جلوس سليمان (٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م) ، والثانى يحسب تاريخ فتح رودس .

وفاة الشاه إسماعيل ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م

توفى الشاه إسماعيل يوم الإثنين ١٩ رجب (٩٣٠ هـ) - ٢٣ مايو (١٥٢٤) ، ودفن بجوار أجداده فى أردبيل ، وكان عمره أنذاك ٨٣ عامًا ، حكم منها أربعة وعشرين عامًا وخلّف أربعة من أبناء: طهماسب الذى خلف والد فى الحكم وتاريخ مولده ٦٢ من ذى الحجة ٩١٩ هـ (٢٢ فبراير ١٥١٤ م) - والقاس المولود فى ٩٢٢ هـ - ١٥١٦ م ، ووسام ، وبهرام اللذين ولدا بعد القاس بعام فضلاً عن خمس بنات .

وفى أيام حكم إسماعيل كان السيف يعمل أكثر من القلم حتى إنه لم يكفه إزالة منافسيه الإيرانيين بل وسع من حدوده توسيعًا كبيراً ؛ فقد شمل حكمه - حسبما يذكر أحسن التواريخ - آذربايجان والعراق العجمى وخراسان وفارس وكرمان وخوزستان ، كما دخلت أحيانا تحت حكمه ديار بكر وبلخ ومرو ، وكان فى ميدان الاقتتال أسداً جسوراً وفى مجلس الاحتفال سحاباً للؤلؤ نثواراً . وقد بلغ جوده كرمه حد أن الذهب النفيس كان يستوى فى ناظره مع الرمل الرخيص ؛ فكان لا يكفى عطاءه فى يوم واحد حسبما تقتضى همته العالية ذخائر المنجم وبفائن البحر ؛ ولهذا فغلب أن كانت خزينته خالية ، كان ذا ولع مفرط بالصيد ، وكان يجندل وحده غالبًا الأسود . كان المنادى ينادى أن من دَلَّ على أسد فسوف ينعم عليه من قادة الجيش

بجواد مسرج ، ومن دلّ على نمر أعطى جواد بلا سرج ، وكان الشاه يتقدم وحيدا ليصيد هذا الأسد أو النمر .

حروب إسماعيل الخمس الكبيرة

جرت في أيام حكمه حروب خمسة كبيرة :

الأولى : مع فرخ يسار في موضع اسمه جاباني.

والثانية : مع ألوند في شرور.

والثالثة : مع السلطان مراد في آله كولاغى قرب همـــدان.

والرابـعة : مع شيبك خان في حوالي مرو.

والخامسة : في تشالدران مع السلطان سليم وتوايخها على الترتيب : ٩٠٦ / ١٥٠٠ ، ٩٠٧ - ١٥٠١ ، ٩٠٨ - ١٥٠٣ ، ٩١٦ - ١٥١٠ ، ٢٩٠ هـــــ - ١٥١٤ م ؛ وكانت الغلبة له فيها جميعا ما عدا الأخيرة ، ويحـــسب تاريخ وفاته من كلمة (ظل) وكلمة (خسرو دين) كما ذكر هذا الشعر في تاريخ وفاته :

إسماعيل الذي يستغيث به الفلك

لما استتر في النقاب كالشمس

ترك الدنيا وصار كلمة (ظل)

تاريخ وفاته فصار ظل التاريخ شمسًا

ملك صادر مثل شمس العالم مضيئًا

أزال غبار الظلم عن وجه الأرض

وتاريخ وفاة ذا الغضنفر ابحث عنه

في كلة (خسرودين) لأنه كسرى الدين

الأدباء المعتبرون المعاصرون لإسماعيل

ساد - كما ذكرنا - قحط عظيم العهد الصفوى من حيث الأدب ووجود الشعراء الكبار ، لكن ظهر بعد الشاه إسماعيل علماء الدين والفقهاء الكبار المقام ، فحين بلغ المذهب الشيعى الذى جعله إسماعيل هو مذهب إيران الرسمى أوج كماله استقرت أصوله ، أما أغلب الأدباء والشعراء المشاهير الذين ذكر المؤرخون - مثل صاحب أحسن التواريخ وغيره - وفاتهم فى هذا العصر فهم يعدون فى الحق جزءاً من جماعة الفضلاء الذين تجمعوا فى بلاط حسين بايقر التيمورى ووزيره الفاضل أمير على شير النوائى مثل هاتفى ابن أخ جامى الكبير وتوفى ٩٢٧ هـ - ١٥٢١ م وأمير حسنى معمائى (٩٠٤ هـ - ١٤٩٨ - ٩) ، وبنائى الذى قتل فى قارشى فى المذبحة التى تسبب فيها نجم الثانى أحد أمراء الشاه إسماعيل (٩١٨ هـ - ١٥٢١ م) ، وهلالى الذى قتله الأوزبك فى هراة عام ٥٣٩ هـ - ١٥٨٢ م بتهمة ميله للتشيع والحكيم المعروف جلال الدين الدوانى (ت ٩٠٨ هـ - ١٥٠٢ م - ٣) ، ومير خواند المؤرخ المتوفى فى سن السادسة والستين عام ٩٠٣ - ١٤٩٧ - ٨ وحسين الواعظ الكاشفى المتلون غير الثابت صاحب التفسير والأخلاق والروايات وأشهرها (أوار سهيلى) ، وقاسمى الذى نظم مغازى إسماعيل فى كتاب اسمه الشاهنامه ولم يطبع هذا الكتاب ، وتندر نسخه المخطوط (راجع فهرست ريبه ص ٦٦٠ - ٦٦١) ، وتمت هذه المنظومة بعد وفاة إسماعيل بعشر سنوات ، ومعلوم أن هذا الشاه ليس كأغلب من سبقه من الملوك الإيرانيين قلما كان يقع تحت نفوذ تملق السرفاء وتأثير الشعراء المتاجرين بشعرهم .

الفصل الثالث

أوج الدولة الصفوية وحضيضها
من عهد الشاه طهماسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦ م)
إلى عهد شاه سلطان حسين (١٩٦٤ - ١٧٢٢ م)

جلوس الشاه طهماسب فى ٢٣ مايو ١٥٢٤ م

لم يزد طهماسب أكبر أولاد الشاه إسماعيل وقت جلوسه على عرش أبيه عن عشرة أعوام ، وحكم إيران اثنتين وخمسين سنة وستة شهور ، ومات فى ١٤ مايو ١٥٧٦م ، وكان مؤرخو عهده يلقبونه (غوث الدين) ، وتاريخ جلوسه مثبت فى هذا الشعر :

طهماسب يا ملك العالم الذى جلست
بعد الملك الغازى على العرش الذهبى بنصر الله

أخذت مكان أبيك وسيطرت على العالم
فصار تاريخ جلوسك (أخذت مكان أبيك)

الجدير بالاهتمام من كتب تواريخ عصره كتابان وحسب ، استخرجا منهما المعلومات الآتية : أولهما : سيرة كتبها هو عن نفسه وضمت الأحداث من يوم جلوسه فى الإثنين ١٩ رجب ٩٣٠ هـ (٢٣ مايو ١٥٢٤ م) إلى واقعة تسليمه المخزى للأمير العثمانى بايزيد الذى كان التجأ به (٩٦٩ هـ - ١٥٦١ م) ، ثم أحسن التواريخ لحسن بيك الروملو ، وهو تأريخ جيد وينتهى فى (٩٨٥ - ١٥٧٧ - ٨) بعد موت

طهماسب بعام ، وتذكرة الشاه طهماسب التى ألفت تقلد (بابر نامه) فى الظاهر تقل كثيراً عن بابر نامه أهمية وفائدة، ولا تتميز كثيراً عن (رحلة ناصر الدين شاه) التى لقيت اهتماماً أكثر من الحد لكنها توضح – إلى حد ما– أخلاق طهماسب ، وهذه التذكر. تفضل الصفحات الجافة للتواريخ الرسمية المحصورة فى ذكر الوقائع الحربية والمذابح التى لا نهاية لها ، وتحرم القارئ من الوقوف على الأحوال الاجتماعية والدينية للحكومة والشعب ، وتسمح للمرء بأن يعرف الحالات الداخلية والأخلاق الباطنة لهذا المؤلف الملك ، ويصف السير جون ملكم فى تاريخ إيران ج١ ص ٥١١ – ١٣ وأرسكين فى تاريخ الهند فى عهد حكم بابر وهمايون ج٢ص ٢٨٥ (لندن ١٥٨٤) هذا الشاه طهماسب بالتعصب والزهد الخشن .

أخلاق طهماسب

رأى ملكم رأياً حسناً فيه ؛ فيصفه بأنه لطيف وكريم ، وفى موضع آخر : (يبدو أنه كان صاحب حزم وفهم ، وإذا كان لم يتميز كثيراً فى خصاله الحسنة وهمته العالية فقد كان فى المقابل مبرأ ومنزهاً عن الرذائل والمساوئ الكبيرة)، وصل إليه فى قزوين فى نوفمبر ١٥٦٢ م أنتونى جنكنسن الذى يحمل كتاب توصية من الملكة إليزابيث ، لكنه لم يحتف به كثيراً (لمعرفة أصل هذا الكتاب العجيب راجع تفصيلات أوائل الرحلات التى جرت فى روسيا وإيران ونشرتها جمعية الهاكلويت Haklyt – IXXII ، لندن ١٨٨٦م ص ١١٢ – ١١٤ ، ٤١١ – ٧) ، ويصف سفير فينسيا المقيم فى بلاط الشاه واسمه فينستيور الساندرى فى عام ١٥٧١ م بقوله (عمره ٤٦ ، وحكمه ١٥ عاماً) وقوله : (متوسط القامة، وحسن التركيب ، وطلعته مقبولة ويميل شيئًا إلى السمرة ، غليظ الشفتين ، ورمادى اللحية) ، ويقول : (يظهر من أخلاقه أكثر الحزن والجنون ودليل هذه الصفة يكثر فمثلاً لم يبرح قصر السلطنة أحد عشر عاماً، ولم يشغل نفسه خلاف الناس بالصيد وسائر الأعمال) ويقول فى موضع آخر : هو مبتكر ونفر من الحرب وكثير الجبن ، يصرف أغلب همته فى مراعاة خاطر النساء وكنز الأموال من سن القوانين وتنفيذها وبسط العدل ونشره (لئيم وبخيل) (له مهارة فى البيع والشراء كتاجر حقير) . ثم يقول أخيراً: (على الرغم مما ذكرناه ،

آنفًا وكان يجب أن يوجـــب نفـــور الناس منه فى الحق إلا أن الشعب يحترمه بقدر لا يمكن تصديقه ، وبسبب أن نسبه ينتهى إلى على معبود الإيرانيين الخاص فإن الشعب لا يعبده كملك بل كإله ، ويذكر أمثلة عديدة من أنواع هذا التعظيم والتبجيل أو العبادة والتعبد ، والتى لم تنحصر فى عامة الشعب بل أعضاء الأسرة الحاكمة ورجال البلاط وسكان أبعد مناطق البلاد، وكانت بينهم متداولة ومرسومة) .

اعتقاد طهماسب فى المناهات

أحد أعمال حكم طهماسب هو تقليل الضرائب الفادحة التى فرضت على الشعب ويرجع سفير فنيسيا سبب ذلك إلى اعتقاده فى المنامات ويقول : (ذات ليلة ضغطت الملائكة على حلقه وقالت له : هل يليق من ملك ملقب بالعادل ومن نسل على أن يخرب بيوت الشعب لكى يعمر خزانته ؟ ثم أمروه بأن يعفى الشعب من هذه الضرائب) ويكفى هذه المسألة لتعريف طهماسب لأنه بنفسه يذكر فى تذكرته بضع رؤى كان يسدى إليها أهمية كبرى : فمثلاً يرى فى منام (حدود عام ١٥٢٨ م) عليًا بشره بالنصر على الأوزبك ، ثم يأمره بعد هذا بعام أو اثنين فى هراة بتجديد الحرب ، ويقول فى هذا الأمر : (اعتقادى أنا العبد الضعيف طهماسب الصفوى الموسوى الحسينى هو أن من يرى بلا منام حضرة أمير المؤمنين صلوات الله عليه يحدث كل ما يأمر به) ، ومرة أخرى رأى فى العشرين من عمره منامين متتابعين وطلب فى المنام الثانى من الإمام على الرضا أن يصدق المنام الأول ويؤيده ووصل قصده وتاب عن الخمر وغيرها من الكبائر وأغلق جميع الحانات ومحلات البوظة ودور اللهو فى سائر بلاده ، وأنشد هذا الرباعى فى ذكرى هذه الواقعة :

سرنا فى وراء الزمرد المسحوق (أى شراب القنب المخدر)

وفترة أخرى تلوثنا بالياقوت الرطب أو الخمر

وما حدث لنا من تلوث من كل قسم

غسلناه بماء التوبة واسترحنا

توبة طهماسب

ذكر أحسن التواريخ ضمن وقائع عام ٩٣٩ هـ - ١٥٣٢ - ٣ م توبة طهماسب واستغفاره هذا.

هلاك الجيش العثمانى بسبب ثلوج غير متوقعة

فى هاتيك الأيام نفسها انتهز السلطان سليمان العثمانى - كالعادة- فرصة انشغال إيران بحرب الأوزبك ، وبدفع حملاتهم المتكررة عن الولايات الشمالية الشرقية فدخل أذربايجان وصار فيها أسيراً لثلوج شديدة غير منتظرة ؛ فهلك جمع كبير من الجيش العثمانى ، وحدثت هذه الواقعة فى شهر أكتوبر، واعتبر هذا الهلاك لجيش خصمه القديم من (الرحمة الإلهية وشفقة حضرات الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم)، وسجّل هذه الواقعة فى رباعى متكلف ورد بأحسن التواريخ وعالم آراى عباسى:

قدمت صوب السلطانية هذه الخميلة العجيبة
فرأيت ألفى ميت بلا قبر وكفن

قلت من قتل كل هؤلاء العثمانين
فثارت رياح السحر قائلة :أنا

منامات أخرى

سجل بدقة طهماسب بضعة منامات أخرى فى تذكرته ، فقد ظهر له أربيل جده الشيخ صفى الدين وتحدث معه (ص ٦٠٤ من تذكرته) ، وفى منام أخرى تبشره روح شهاب الدين وتقوية (ص ٦٢٣ من التذكرة نفسها) ، كما ذكر بضعة منامات أخرى بطريق الإبهام فى ذيل وقائع سنة ٩٥٧ هـ - ١٥٥٠ م وسنة ٩٦١ هـ - ١٥٥٤ م (ص ٦٣٥ - ٦ من التذكرة) .

علاقاته الأسرية السيئة

لم يكن طهماسب محظوظًا كثيرا من ناحية علاقاته الأسرية على الرغم من أنه من الملوك الآسيوين لذلك العصر خاصة العثمانيين لا يمكن اعتبارهم أكثر حظًا منه ؛ فقد كان له ثلاثة أخوة أصغر منه هم : سام، وبهرام ، والقاس، وثار عليه الأول والثالث وألقى بسام فى السجن عام ٩٦٩ هـ / ١٥٦١ م - ٢ م وقتله خليفة طهماسب فى ٩٨٤ هـ - ١٥٧٦ - ٧ م ، وكانت مشكلة القاس أشد سوءًا لأنه كان ثائرًا كما كان خائنًا ، ولم يكفه اللجوء إلى السلطان سليم والتوجه إلى القسطنطينية بل حرضه على مهاجمة إيران وسعى أشد السعى فى المشاركة فى الحرب ضد بلاده ، وفى همدان نهب منزل زوجة أخيه بهرام فى ٩٥٥ هـ - ١٥٨٤ م ثم اتجه إلى إيزد خواست ، وذبح أهلها ، لكنه انهزم فى السنة التالية بيد أخيه بهرام ووقع بأسره وسلم إلى طهماسب فحبسه بقلعة الموت كما ذكرت تذكرة طهماسب ، لكن أحسن التواريخ يعد القلعة (قهقهه) وليست الموت ، ويذكر أنه هلك بها بعد أسبوع يذكر طهماسب فى هذه الحادثة (رأيت بعد أيام عدة أنه لا يأمنني ودائمًا فى قلق وهم ؛ فأرسلته برفقة إبراهيم خان وحسن بيك يوزباشى إلى القلعة فحملاه إليها وحبساه بها ، وبعد هذا بستة أيام غافلته جماعة كانت تتحفظ عليه فى القلعة وكان منهم ثلاثة قتل القاس أبيهم فألقوا به من فوق القلعة انتقامًا لقتله أبيهم وأمن العالم بعد موته) ، وإذا افترضنا أن طهماسب نفسه لم يرتب أسباب هذه الحادثة ؛ فيمكن أن نتصور بمشقة أنه تم بدون رضاه ، وفى هذا العام نفسه مات بهرام فى الثالثة والثلاثين .

خيانته لبايزيد ابن الملك العثمانى

وأسوأ من هذه قضية بايزيد الشقى ولد السلطان العثمانى ؛ فقد عزل هذا الشاب من حكم ولاية كوتاهية ، وبسبب وشاية زوجة أبيه الروسية واسمها - خرم - وكانت تغرض إلى أن يكون ابنها سليم ولى العهد (الذى تلقب بعد بالأحمق) طرد وطنه فلجأ ببلاط طهماسب فى عام ٩٦٧ هـ - ١٥٩٩ - ٦٠ م فقدمت سفارة من

السلطان العثمانى إلى قزوين وطلبت تسليم بايزيد وأطفاله ، وحسبما يذكر جنكسن - راجع الرحلات الأولى طباعة الهاكلويت ج١ / ١٤١ طبعة لندن ١٨٧٧ - فقدمت هذه السفارة قبل وصوله بأربعة أيام أى ٤ أكتوبر ١٥٦٢ م ، فنقض طهماسب عهده الذى اتسم له بسبب خوفه من الدولة العثمانية وبسبب رشوة أخذها أيضاً ، وأمر أو رضى بأن يقتل الأمير التعيس وأطفاله الصغار وأرسل - كما يذكر جنكسن - رأسه كهدية ملوية جداً إلى أبيه القاسى القلب السيئ الطينة ، وأخمد طهماسب ضميره وإحساس الندم فى نفسه بسبب خيانة ضيفه وتسليمه إلى عدوه ونقض عهده وميثاقه ، وسلم الأمير إلى رسل أخيه سليم ولم يسلمه مباشرة إلى والده ، ونعرف من تذكرة طهماسب نفسه كم بلغ هذا الملك من السوء ، ونرى الشرح الكامل لهذه الواقعة فى نهاية التذكرة المذكورة ص ٦٤٢ - ٩ ، وهى كالتالى :

الشرح الذى أورده طهماسب نفسه لهذه الخيانة

فى هذا الوقت قدم من عند حضرة السلطان على أغا وجاءت الهدايا التى أرسلها كل من الأمراء والجماعة ومعها ما يقابلها من هدايا غير هديتنا التى لم تحظ بالقبول فى هذه المرة ومعها رسالة كلها كناية وعتاب مكتوبة لنا ، فقلت تسلمت سلطان بايزيد وأبناءه الأربعة وتحفظت عليهم لأجل خاطر حضرة السلطان وسليم خان ، وكما قلت من قبل إننى لن أسلم بايزيد للسلطان إلا إذا وصل أمر منه أو رسل من سليم ؛ فسوف أسلمهم لرسله حتى لا أكون نقضت عهدى، فلما أتى رسل السلطان قلت : " أهلاً وسهلاً يا حضرة الباشا ويا حسن أغا ، سوف أفعل ما يأمر به حضرة السلطان ولن أعصى له أمراً ، وسأطيع كل ما يأمر به، لكنى أريد مكافأة لى وأننى أنتظر من السلطان فى باب المحبة ألا يصيب السلطان بايزيد وأولاده بأذى ، وليس من حاجة للذكر أن هذه النية الطيبة لم تغير من مجرى هذه الحادثة الدموية ، لكن موافقة ملك الشيعة وتسليمه لطلب السلطان الآمر تسبب فى أن تقوى بشكل مؤقت العلاقات الإيرانية العثمانية وتتحول إلى المودة ، ويبدو انعكاس هذا الصلح والسلام أيضاً فى كتابة جنكنسن وفى المراسلات السياسية التى تختم الجزء الأول من منشآت فريدون

بيك : ففى هذه المراسلات كتب السلطان لأول مرة إلى طهماسب بأدب واحترام ، لكن لا يرى إشارة صريحة إلى هذه الواقعة المذكورة .

همايون الإمبراطور الهندى فى إيران

الحادثة الأكثر شهرة وقبولاً للاطمئنان هى مقدم همايون ولد بابر إمبراطور دهلى الذى طرد من بلاده والتجأ فى ١٥٤٤ م إلى بلاط طهماسب ، يروى ملكم (تاريخ إيران ٥٠٨ - ٩) بوجد وشغف تأمين استقباله لكن إرسكين (تاريخ الهند فى عصر بابر وهمايون ٢٨٠ - ٢) ، ولا يأبه بالوثائق والمستندات الرسمية بقدر (الأسطورة الساذجة التى بلا زينة) للجوهر الملازم لهمايون (ترجمة ميجور شارلز المنشورة بلندن ١٨٣٢ م) ويبدى رأيه متمثلاً بأمثال عدة أن (همايون قاسى فى هذه الرحلة إهانات جمة ومشقة بالغة) ، ووقع عليه فى الحق ضغط كبير لكى يقبل المذهب الشيعى وإذا لم تشفع له سلطانوم خانم أخت الملك وقاضى جهان الوزير ونور الدين الطبيب لعانى مشقات أكثر ، ويرز اليوم أحد صور القصر المعروف بـ (تشهل ستون) أو ذى الأربعين عموداً بأصفهان مجلس لقاء طهماسب وهمايون .

العلاقات الخارجية لإيران فى عهد طهماسب

كان لطهماسب مثل والده علاقات بثلاثة بلدان : تركيا ، وأوزبكستان ، وما وراء النهر، وأسرة سلاطين دهلى المعروفين بالمغول الكبار . فى شطر عظيم من عهد حكمه (أى حتى ٩٧٤ هـ - ١٥٦٦ - ٧ م) جلس السلطان سليمان الكبير على العرش العثمانى وحكم تركيا من هذا التاريخ إلى سنتين قبل موت طهماسب سليم خان الثانى ، وفى العامين الأخيرين من حياته (٩٨٢ - ٤ هـ -١٥٧٤ - ٦ م) تولى الحكم السلطان مراد الثالث ، أما حكام الأوزبك فهم عبيد خان إلى وفاته عام ٩٤٦ هـ ، والذى لم يتهاون فى خصومته ، طهماسب وبدءاً من هذا التاريخ عرّف (دين خان)

نفسه كأحد أكبر خصومه ولم يقصر هذا الخان عن إثارة الولايات الشرقية لإيران والأتراك العثمانيون عن الإغارة على الحدود الغربية لها أدنى تقصير .

وكان من سلاطين (المغول الكبار) بابر المتوفى ٩٣٧ هـ - ١٥٣٠ - ١ م) ، وهمايون (المتوفى ٩٦٢ هـ - ١٥٥٥ م) وأكبر الذين عاصروا توصيته أيام حكم طهماسب حسبما يذكر صاحب أحسن التواريخ ضمن وقائع عام ٩٨٢ هـ - ١٥٧٤ - ٥ م قدمت إلى إيران سفارة من الدون سباستيان ، لكن لم يُحتف بها .

الحرب مع العثمانيين

لم تنعم إيران فى هذا العهد بكبير صلح وراحة لوقوعها بين عدوين : بين الترك من الغرب والأوزبك فى الشرق وجرت حروب على الحدود الشمالية الشرقية والشمالية الغربية بشكل متتابع وإن اختلف كل منها عن الأخرى من حيث النتائج لكن من حيث الوضع والترتيبات لم يلحظ فيها أدنى تغيير ، وقع أهم حروب السلطان سليم فى السنوات التالية : فى عام ٩٤٠ هـ - ٩٤٢ هـ (١٥٣٤ - ٦ م) استيلاء العثمانيين على بغداد من أيدى الإيرانيين وفتح آذربايجان فى (٩٥٠ - ١٥٣٤ - ٤) و ٩٥٣ - ٩٥٥ هـ (١٥٤٦ - ٨ م) إبان لجوء ألقاس أخى طهماسب إلى العثمانيين حيث أحرق سليمان نخجوان وهاجم آذربايجان للمرة الرابعة كانت القوات العسكرية التركية فى هذا الوقت فى عهد رقيها ، ولم تشكل خطراً على إيران وحسب بل وعلى دول أوربا العظيمة، وشكرت دول أوربا إيران تفريقها لقوى العثمانيين وتبديدها لها وإشغالها . وكان بوسبك Bosbeck سفير فردناند فى بلاط سليمان يقول (ليس بيننا وبين هاوية الهلاك غير الإيرانيين) (راجع تاريخ الأتراك العثمانيين ص ٢٠٢ ، لندن ١٨٧٧)، ويصف كريزى كثرة عدد الجنود وقوة المدفعية العثمانية واستعدادها فى هذا الوقت ، ويذكر (هذه الملاحظات والسمات تعود إلى مهارتهم وحذقهم فى إقامة المتاريس وسائر الفنون الهندسية والعسكرية) ، ومع أن الإيرانيين كانوا من حيث ترتيب الجيش والاستعداد الحربى أدنى كثيرا من العثمانيين ، لكن لابد من الثناء

عليهم ؛ حيث إن السياسة العثمانية دأبت فى ذاك العهد أن تدعو دائمًا الأوزبك والتركمان وسائر الطوائف السنية على الثورة وقت تحرك الجيش التركى على القزلباش الأوباش ، ومن المراسلات السياسية التى بقيت عن عهد سليمان ووالده سليم يتضح بجلاء ويستنبط هذه الخطة المذكورة : فمثلا الرسالة الموجهة فى أواخر عام ٩٦٠ هـ - ١٥٥٣ م لأحد رؤساء التركمان ، ووردت فى ص ٦١٢ - ٣ فى منشآت فريدون بيك حملها أربعة سفراء هم: محمد، ومير أبو تراب ، ومير طومطى ، وسندوك ، وفى عودتهم بعد الحج أتوا بلاط السلطان وأسعده بالإجراءات التى رتبوها ضد إيران .

قتال الأوزبك

والحروب التى جرت مع الأوزبك كان لها هذا التسلسل نفسه خاصة حتى وفاة عبيد خان الذى كان قائدًا خطيرًا وهولا وولد شيبك خان وأحد ذرية جنكيز خان . توفى هذا الخان فى ٩٤٦ هـ - ١٥٣٩ - ٤٠ م فى الثالثة والخمسين بعد حكم ثلاثين عامًا ، ولم ينهزم غير مرة واحدة فى الحروب السبع التى خاضها مع الإيرانيين حسبما يذكر أحسن التواريخ .

المجازر الدينية

أضيرت طوس ومشهد خاصة هراة فى هذه الحروب كثيراً ؛لأنه تقريبًا كانت تحدث مجازر دينية بعد هذه الحروب . قتل شاعر هلالى فى ٩٣٥ هـ - ١٥٨٢ - ٩ م بهراة لتعصبه للأوزبك السنة كما قتل الشاعر بائى فى قرش فى ٩١٨ هـ - ١٥١٢ - ٣ م فداء للعنف والتعصب للتشيع ورد بأحسن التواريخ ضمن وقائع سنة ٩٤٢ - ١٥٣٥ - ٦ وصف مذبحة الشيعة التى جرت فى ٢٠ رجب ٩٤٢ هـ - ١٤ يناير ١٥٣٦ م حين انتصر عبيد خان على أهل هراة كالتالى : (كان يقتل كل يوم بأمر من هذا الخان العديم الإيمان نحو ستة أشخاص بسبب تشيعهم بناء عن إبلاغ الجهال فى (الإسواق الأربع) بهراة ، وكان القرويون الملحون والمدنيون الخائنون يقبضون على

كل شخص يعادونه ويسوقونه إلى القاضى قائلين إنه لعن أبابكر وعثمان فى عهد قزلباش ؛ فكان القاضى يحكم بقتل هذا المظلوم بشهادة هذين الشاهدين الجاهلين ، وكان يجر إلى هذه الأسواق ويقتل ، وبلغت من شؤم فعلهم أمواج المحن وأمواج الفتن إلى أعلى درجاتها ، ووقع السلب والنهب بأطراف خراسان)

حرب الجرجيين

قاتل الإيرانيون فى هذا الوقت الجرجيين بلا انقطاع خاصة فى السنوات (٩٤٧ هـ - ١٥٤٠ - ١ م) و (٩٥٠ - ١٥٣٤ - ٤) و (٩٥٨ - ١٥٥١) و (٩٦١ - ١٥٥٤) و(٩٦٣ - ١٥٥٦) و (٩٦٨ - ١٥٦٠ - ١) ، و (٩٧٦ - ١٥٦٨ - ٩) ، وتمت هذه الحروب فى أقصى عنفها وقسوتها أو ما يجدر ذكره أن كتاب إيران لهذا العصر كانوا يسمون الجرجيين المسيحيين بالمجوس (وهم أتباع زردشت) ، كما يتضح من هذا البيت الذى يشرح أول حرب من هذه الحروب .

فى ذلك الجبل سكن أولئك الوحوش
موطن المجوس الخاطفين للخلق

وعفى فى هذه الحرب - حسبما يذكر أحسن التواريخ - عن الجرجيين الذين اعتنقوا الإسلام وقتل من رفضه كما يقول فى ذكره حرب عام ٩٥٨ هـ - ١٥٥١م : (أحاط بالكفار الفجار الغزاة المظفرون وبما علا ودنا من بلادهم ، واستوى كل جبل وتل كان يفر إليه هؤلاء الضالون بالسهل بسبب ضرب الشجعان ليخرج متنفس من هؤلاء المشركين من دائرة القهر والتمكين ، والله محيط بالكافرين حيا ، وانتقل من المقتولين إلى القاتلين الأهل والعيال والأموال بالإرث الشرعى) .

الحروب الصغيرة والثورات الدخلية

وفضلاً عن هذه الحروب الكبيرة ، كانت الحروب الأخرى تشغل حكومة إيران كذلك من مثل الحرب من أجل قمع الحكام المستقلين بجيلان وآخر شخص من الأسرة القديمة لحكام شروار الذين ادعوا أن نسبهم يصل إلى أنو شيروان ، لكن أمرهم ولى إلى الانحطاط والضعف في هذه الفترة ، ومع أن آخر عضو لهذه الأسرة واسمه شاهرخبن سلطان فرخ بن شيخ شاه بن فرخ يسار قتل في ٩٤٦ هـ - ١٥٣٩ - ٤٠م بأمر طهماسب أى أن أحد أعقاب هذه الأسرة واسمه برهان ثار بعد ذلك بتسعة أعوام على إسماعيل ميرزا ، وانهزم في جيلان خان أحمد وهو الحادى عشر من الأسرة التى ظلت تحكم المائتين وخمسين سنة وحبس في قلعة (قهقهة) عام (٩٧٥ هـ - ١٥٧٦ - ٨ م) وفي (٩٨١ هـ - ١٥٧٣ - ٤ م) استولت جماعة من الأوباش على تبريز ، ولم ينقض أمرهم إلا بعد إهلاك مائة وخمسين منهم وكانت عقوبات وتأديبات وحشية كثيرة تجرى كذلك .

العقوبات الوحشية

اتهم مظفر سلطان حاكم رشت بالخيانة فزينت مدينة تبريز وطافوا به الأزقة والأسواق بنى سخرية العامة واستهزائهم ، ثم أحرقوه في النهاية فى قفص حديدى وشنق الأمير سعد الدين عناية الله الخوزانى معلقًا بقفص حديدى أيضًا ، وأحرق بطريقة مخصوصة ووحشية وسلخ جلد خواجه كلان غوريانى المتعصب لمذهبه السنى واستقبل عبيد خان وأتهم أنه ذكر الشاه بإهانة واستخفاف ؛ وشنق في ميدان هراة . غضب السلطان على ركن الدين مسعود كازرونى وكان من أجلَّة العلماء والأطباء وألقى في النار ، وأتهم محمد صالح ممدوح الشعراء وحافظ الأدباء ونظم (حيرتى) قصيدة في مدحه بتهمة إهانة الشاه فخيطوا فمه ووضعوه في دن وأسقطوها من منارة عالية .

ضعف طهماسب وعيبه

يذكر صاحب أحسن التواريخ أن طهماسب فى شبابه كان يميل كثيراً إلى الخط والنقش وركوب الحمير المصرية فصار مرسوماً ركوب الحمير بالنتيجة ، وكان كل واحد يتنافس مع غيره فى تزيين حماره وإعداد لجامه وبرزعته الذهبية ، وقد هجاه بسبب هذا المزاح الخاص أحد الشعراء الوضعاء والأغمار وله تخلص عجيب هو (بوق العشق) فى بيته الآتى علا بشده أمر الكاتب والنقاش والقزوينى والحمار بلا تعب .

كان الشاه يبدى كثيراً من التطهر

فكان يعتبر أغلب الأشياء نجسًا

وكان يخرج من فمه اللقمة التى

لا يمضغها ويلقى بها فى الماء أو النار .

ولهذا السبب فمن المقبول لديه أنه كان لا يحب تناول الطعام وسط الناس ، وكان الاهتمام والتدقيق البالغين فى قص أظافره وقضاء يوم راحة بعد أخذ حمامه .

الثورات التى حدثت بعد موت طهماسب

توفى طهماسب فى الثلاثاء ١٥ من صفر ٩٨٤ هـ (١٤ مايو ١٥٧٦ م) فى سن ٦٤ عامًا بعد حكم ثلاث وخمسين سنة ونصف سنة ، وحسبما يذكر أحسن التواريخ كانت فترة حكمه أطول فترات الحكام المسلمين جميعًا باستثناء المستنصر بالله العباس ، وقد ذكر هذا الكتاب أسماء أحد عشر من أولاده ظل تسعة منهم على الأقل بقيد الحياة بعد أبيهم وكان أكبرهم هو محمد خدابنده ذا الخمسة والأربعين عاماً ، ومع أنه جلس على العرش بعد هذا بعام واحد ، لكنه ترك الحكم وقت وفاة أبيه بسبب ضعف بصره لأن هذا النقص سواء كان طبيعياً أو عارضاً لا يناسب فى الشرق خاصة فى إيران أن يكون بالملك والأعمى لا يعد جديراً بالسلطة ؛ فانتهز أخوه الصغير حيدر غيبة أخوته

عن العاصمة وقت أن كان إسماعيل - وهو أحد أخوته - محبوساً بقلعة قهقهة ، وكان الآخرون يسكنون الولايات النائية وعزم الاستيلاء على العرش ، ولكن أتباع إسماعيل بن طهماسب كانوا تجمعوا فى قزوين بعد تسعة أيام من وفاة أبيه وخطبوا خطبة الملك له فى مسجدها الجامع ؛ فالتجأ حيدر فزعاً بدار حريم السلطنة ، ثم قتله بها مؤيد إسماعيل .

الحكم القصير والدموى للشاه إسماعيل الثانى

كانت فترة حكم إسماعيل الثانى ودموية ؛ فقد كان يعامل المتهمين بادعاء تاجه وعرشه بأقسى وأفظع مما كان به السلاطين العثمانيون مع أعدائهم ، فقد بدأ بإهلاك أخويه سليمان ومصطفى ، ثم أقام فى قزوين بعد إتمام التشبيع الفخم لجثمان والده ودفنه بمشهد حفلاً غاية فى العظمة بمناسبة تتويجه ، وقد شارك من بقى بأخوته فى هذا الاحتفال كل فى مقامه المخصص ، ونفذ إسماعيل خطة قتلهم جميعاً : ففى الأحد ٦ من ذى الحجة ٩٨٤ هـ (٢٤ فبراير ١٥٧٧ م) قتل هؤلاء الأمراء :سلطان إبراهيم ميرزا الشاعر والفنان والموسيقى والخطاط . ابن أخيه محمد حسين ميرزا الشاب ذا الثمانية عشر عاماً الذى فقد لتوه بصره ، سلطان أحمد ميرزا وابنه محمد باقر ميرزا الذى لم يتعد العامين ، أمام قلى ميرزا وسلطان أحمد ميرزا ، ثم صرف همه إلى الأمراء الساكنين بالولايات القاصية وأهلكهم جميعاً منهم مثلاً بديع الزمان ميرزا وابنه الصغير بهرام ميرزا زكانا بخراسان ، وسلطان على مسرزا الساكن فى جنجة وسلطان حسن ميرزا فى طهران ، وبالصدفة - حسبما يذكر إسكندر المنشئ مؤلف عالم أراى عباسى - لم ينتج من نار كيد إسماعيل وشرر خبثه بعناية الله الكاملة غير ابن أخيه عباس ميرزا الذى كان طفلاً صغيراً ، فمع أن عباس لم يتجاوز سنواته الست لكنه كان حاكم هرات اسمياً (ولد بغرة رمضان ٩٨٧ هـ - ٢٧ من يناير ١٥٧١ م فر هرات) فأرسل إسماعيل السفاح على قلى خان شاملو فى مهمة إلى هراة ليقتل عباس ، لكن هذا الرسول آخر تنقيذ مأموريته إما بدافع الرحمة أو بسبب عقيدته الدينية حتى ينقضى شهر رمضان المبارك ، ولكن حينما مضت الأيام وصل البريد ونشر بشرى وفاة إسماعيل .

الموت المتضح للشاه إسماعيل الثانى

كانت طريقة مـوت هذا الملك كمثل وقائع حياته يجللها العار؛ ففى ليلة الأحد ١٣ رمضان ٩٨٥ هـ(٢٤ نوفمبر ١٥٧٧ م) – ولم تناسب قط شرب الخمر خرج للتنزه بصحبة حسن بيك حلوا تشى أغلى الذى كان يحبه بشدة وبضعة من فاسقى الحاشية ، وظلوا يسيرون فى الأزقة والأحياء حتى الربع الأخير من الليل ، ثم ذهب وقت السحر إلى بيوت حسن بيك هذا، وكان متصلا بقصر السلطنة واستراح به ، وفى الصباح حين تجاوزت فترة نومه حدها المعقول ذهبوا مضجعه فوجدوه ينام نومته الأبدية ، قالت جماعة إنه مات مسموماً ، وقالت أخرى إنه أعطى دواء ثم خنق ، لكن جماعة ثالثة تعتقد أن الشاه لأنه كان يتعاطى لعلاج القولون خليطاً من الأفيون فقد زاد تلك الليلة جرعته عن الحد فمات ، ولكن الناس سعدت بموته حتى إن أحدهم لم يكلف نفسه مشقة اكتشاف حقيقة وفاته وطريقة قتله ، ويبدو أنهم لم يعاقبوا حسن بيك الذى وجدوه نصف مشلول فى حجرة الشاه (تاريخ إيران الملكم ، ص ٥١٦ – ٧)

سلطنة محمد خدابنده (١٥٧٧ – ٨٧ م)

أجلس على العرش سلطان محمد خدا بنده مع أنه كان أعمى وسبق أن ترك الحكم بعد وفاة أبيه طهماسب ، وكان عمره إذ ذاك السادسة والأربعين ويحكم ولاية فارس لأن ابنه الصغير عباس ميرز – الذى أشرنا إلى نجاته من الموت – كان يحكم فى هراة بدلا منه ، وابتدأ السلطان بالسير إلى قزوين ، وكان ممن استقبله فى مدينة قم حسن بيك روملو مؤلف أحسن التواريخ ، وهو تاريخ مهم لم يطبع ، وما ذكره عن الأحداث السابقة أكثر قبولاً للتصديق والصحة من أى كتاب آخر ، وقد ختم كتابه هذا بتاريخ هذه السنة المذكورة ؛ وذلك سبب أن بعض موضوعاته ناقصة ولابد من السعى إلى إكمالها بالاستعانة بمصدرين آخرين هما : (خلدبرين) أو الخلد الأعلى ، وعالم آراى عباسى ، لأن مؤلف أحسن التواريخ كان مضطراً من أجل الحفاظ على حياته إلى أن يمضى حياته بالاحتياط التام وسط تلك الأوضاع المتغيرة والأحوال المتلونة لذلك العهد الخطير .

وفى قزوين قدم سليمان باشا حفيد السلطان أبى سعيد التيمورى إلى بلاط حدابنده وعرض عليه هذا الشعر وترجمته

أيها الملك فيك قبلة ملوك العالم
والفلك مسخرين لك والعالم مسلم لك

خيط الملك صار واحداً بعهدك
والحمد لله فهو محكم مع أنه واحد

قتل برى خان هانم

ولدت برى خان هانم بنت الشاه طهماسب ، وكانت محل اهتمام شديد ولا نظير لها فى جمالها وطموحها ولياقها من أم شركسية ، ولعبت أدواراً سياسية كثيرة فى الفترة التى سادت الاضطرابات فيها بإيران بعد موت أبيها ، وقصدت أن تكون حاكمة لإيران فى الباطن إذ لم يكن بمقدورها أن تكون حاكمة فى الظاهر ؛ فقتل خليل خان أفشار بأمر خدابندا هذه المرأة وخالها شمخال خان وشاه شجاع طفل إسماعيل الثانى ، ونتيجة لهذه المذبحة القاسية انحصر الأمراء الصفوية فى خدابنده نفسه وأولاده الأربعة حمزة وعباس وأبى طالب وطهماسب ، وقتل الولد الأول الذى يحسب حيناً من بين الملوك الصفوية – لأنه حكم فى الظاهر فترة قصيرة فى أيام حكم أبيه الأعمى – على يد دلاك شاب اسمه خداويردى فى ٢٢ من ذى الحجة ٩٩٤ هـ (٤ ديسمبر ١٥٨٥ م) ، وصار بعده أبوطالب الابن الثالث ولى العهد بدلاً من عباس ميرزا الذى كان الابن الثانى وكان عباس إذ ذاك فى خراسان لكنه ظهر على ساحة الصراع مباشرة بصحبة مربيه وحارسه مرشد قلى خان استاجلو وعاقب من دفع إلى قتل أخيه حمزة وسمل عيون أخويه الصغيرين لكيلا يودا له خطراً ثم رمى بهما فى سجن قلعة الموت ، وترك بعد عشرة سنوات من الحكم تاجه وعرشه فى ذى الحجة ٩٩٨هـ (أكتوبر ١٥٨٧ م) ؛ فرقى الشاه عباس العرش الذى أغرقه فى بحر الفخار ، كان هو وأخوته الثلاثة من نسل إحدى السيدات المرعسيات المازندريات .

جلوس الشاه عباس الأول ١٥٨٧ - ١٦٢٩ م

هذه المرأة فى أخلاقها المسترجلة أو فى نهايتها الدامية تشبه أخت زوجها برى خان هانم لأنها وأمها وجماعة من أقاربها وأهل قبيلتها قتلوا على يد بضعة من أعيان القزلباش ، وكان سبب قتلها أن القزلباش كانوا غاشبين بسبب نفوذها وتسلطها على زوجها المسلوب الإرادة المسالم ، ومن طريقة الأمر والنهى التى كانت تتعامل بها معهم، فأظهروا رأيهم فيها بهذا الشكل :

أخلاق السلطان محمد خدابنده

ولد خدابنده فى ٩٣٨ هـ - ١٥٣١ - ٢ م ، وكان فى السادسة والأربعين حين مات والده طهماسب فى ٩٨٤ هـ - ١٥٧٦ - ٧ م ، وبعد عشر سنوات حكم بعد أخيه إسماعيل وظل حيًا نحو تسع سنوات بعد تركه الحكم ومات ١٤٠٠ - ١٥٩٥ - ٦ . يقول فيه رضا قلى خان هدايت فى ملحقات روضة الصفا يشرح أخلاقه : (كان يعرف جميع العلوم المتداولة ويغير عديل فى العقل والكياسة والفضل والفراسة والجود والسماحة والتقرير والفصاحة ، وكان يظهر حلمًا زائدًا عند القتل والقتال والسخط والنكال ، ولم يكن يرضى ما أمكنه عن قتل امرئ ، وأول طعنة له ضربها فى جسد الدلاك خداويردى - لقتله حمزه ابنه - كانت بحكم الشرع ، وكان يقلل من الجلوس فى البلاط بسبب ضعف بصره ، وكان ينفذ أن أحكامه بنفسه وقت مكوثه فى الحرم ويمهر من أجل ضبط الأمور الأوامر بخاتمه بنفسه .. ، وفى الجملة كان خدابنده ملكًا صوفى الخصال أو صوفيًا ملكى الجلال) .

سادت أيام حكمه الاضطرابات ليس بسبب المشاكل الأسرية وحسب بل بسبب الهجوم الأجنبى ؛ فقد شجعت الاضطرابات الأسرية واختلال أمر الأسرة الصفوية الذى ظهر بعد طهماسب أعداءها الأجانب كالعثمانيين والأوزبك وقبائل كريمه التتار والجرجيين وغيرهم ، وفكروا فى الاستفادة من هذا الاختلال .

الشاه عباس (١٥٨٨ - ١٦٩٢ م)

لم يتعد الشاه عباس الأول أول يوم له فى الحكم عام ٩٦٦ - ١٥٨٨ [١] السادسة أو السابعة عشر من عمره، ومات بعد ستين سنة عمراً فى جمادى الأولى ١٠٣٨ هـ - يناير ١٦٩٢ م ، وحكم ٤٣ سنة قمرية ويجمع المؤرخون على أن إيران وصلت فى عهده إلى درجة من القوة والعمار والشوكة لم تنلها فى أى عصر سبق .

مخاطر بداسة حكم الشاه عباس

وقع الشاه عباس فى بداية أمره فى معرض الأخطار ومضيق المشكلات ، فلم تقع بلاده كالعادة فى جهة الغرب موقع هجوم العثمانيين وفى الشرق عرضة لحملات الأوزبك وحسب بل رفقت بداخل إيران بضع ولايات راية الثورة وانفرط عقد الأمن فى سائر البلاد بسبب تنافس كبار القزلباش وطمعهم ، كما كان الشاه الشاب نفسه من البداية تحت سيطرة أميرين من القزلباش هما : مرشد قلى خان وعلى قلى خان أشبه بألعوبة الطفل ، فأتى مرشد قلى بالشاه إلى قزوين وأجلسه على العرش وبقى على قلى فى خراسان ؛ لكى يحول دون هجمات الأوزبك ، وفى النهاية لقى مصرعه على أيديهم بعد تسعة شهور من المقاومة وظن الشاه أن مرشد قلى يعرقل إرسال الإمداد إلى منافسه على قلى ؛ فأمر ذات ليلة وهو فى معسكر (شاهرود) فقتلوه ؛ وبذلك خلص نفسه من ضغط هيمنته عليه ؛ ثم صار بعد ذلك ظاهراً وباطناً حاكما مستقلاً ، ولما تحقق له أنه لا يستطيع أن يحارب أعداءه فى الشرق والغرب فى وقت واحد ؛ عرض مصالحة العثمانيين بكمال الحيطة ، وبعد النظر ، واستسلم لشروطهم الجائرة لعله يتمكن من ممانعة تقدم الأوزبك وهجماتهم ، ويراقب أفعال أمرائه المعارضين ، وأحوالهم والقزلباش العصاة ؛ لأن هذه المنافسة والاختلاف كانت تسبب ضعف البلاد وهزيمة الجنود .

(١) حسبما يذكر عالم آراى ولد بغرة رمضان ٩٨٧ هـ - ٢٧ يناير ١٥٧١ م أو ٩٧٩ هـ - ١٧ يناير ١٥٧٢ م ، ومادة تاريخ جلوسه كلمة (ظل الله) .

الصلح مع العثمانيين

كانت من بين شروط الصلح مع الأتراك العثمانيين أن يخلى لهم بلاد آذربايجان وكرجستان من مثل : تبريز ، وجنجة ، وقارص ، ونخجوان ، وشكلي ، وشماخي ، وتفليس ، وجزء من لرستان التى كان العثمانيون استولوا عليها فى الحرب التى دامت أكثر من اثنتى عشرة سنة (٩٨٥ – ٩٨٨ هـ –١٥٧٧ – ١٥٩٠ م) ، ويمنع لعن الخلفاء الراشدين الأوائل ويرسل ابن أخيه حيدر ميرزا رهينة إلى القسطنطينية ، فتوجه الأمير برفقة فرهاد باشا القائد العثمانى إلى إسلام بول وتوفى بها بعد عامين .

ثم انشغل الشاه عباس بالسيطرة على شيراز وكرمان وجيلان جزم من آباد لرستان ، وأدب بشدة يعقوب خان ذا القدر وسائر العصاة ، وفى هذا الوقت قدم إلى خراسان لنهبها عبد المؤمن خان والأوزبك وأصيب الشاه بطهران وهو بطريقه لمنعهم بالحمى وعجز عن الحركة ، وحين كان الشاه مريضًا أغار برابرة الأوزبك على مشهد وذبحوا جماعة من أهلها ، وفى ١٠٠٢ هـ – ١٥٩٣ – ٤ م ابتليت سبزوا بهذا البلاء ، ولكن عبد المؤمن خان الأوزبك قتل على يد رعيته بعد هذا بنحو أربع سنوات ، وكان أن تمكن الشاه فى هذه الأحوال نفسها عن مهاجمة الأوزبك فى أبريل ١٥٩٨ م والصمود أمامهم وطردهم من خراسان وإشاعة الأمن والهدوء فى هذه الولاية فى نهاية الأمر ، وفى خريف هذا العام نفسه حين عاد إلى قزوين كان الأخوة الثلاثة الجنود المغامرون الإنجليز المسمون بالسير روبرت شرلى ينتظرون قدومه ، ونصادف سيرتهم الأقرب إلى الأسطورة فى أكثر من كتاب قيم مثل كتاب (الأخوة شرلى : مذكرة تاريخية فى سير السير طوماس شرلى ولاسير أنتونى شرلى والسير روبرت شرلى من تأليف أحد أفراد هذه الأسرة ، لندن ١٨٨٤ م) ، وقد اصطحب هؤلاء اثنى عشر إنجليزيًا كان واحد على الأقل منهم مصمم مدافع ، وكانوا ذوى فائدة جمة لتنظيم جيش عباس وتشكيله . كان الجيش الإيرانى يعدم المدفعية ويواجه صدمات شديدة من قبل المدفعية العثمانية ؛ فنظم هؤلاء الإنجليز مدفعية مضبوطة ورد فى كتاب برجاسس بيلجريمز : (وترتعد فرائص الدولة العلية العثمانية التى سببت فزع العالم المسيحى بسبب مدفع واحد من إعداد شرلى وتخبر بحدوث وقائع قريبة ، تعلم الإيرانيون الغزاة

العلم والصناعة الحربية من شرلى ، وصار من لم يكن يعرف سابقا كيف يستخدم المدفعية يتملك خمسمائة مدفع وستين ألفى بندقية ، وأصبح الإيرانيون الذين كانوا قبل هذا يشكلون خطرا عظيما على الأتراك بسبب السيوف أكثر خطراً الآن بسبب الضربات التى يوجهونها من مسافة بعيدة وخلطات الرصاص التى يستعملونها) .

تشكيل فرق الشاهسون

من أجل قصر يدى الأمراء ذوى الأطماع والعصاة القزلباش وتأسيس قوى واحدة مؤلفة من العشائر المسامة (شاهسون) أى (محبّو الشاه) يرتبطون بالشاه بالحب والمودة الشخصية وليس بدافع القرابة القبلية وتشكيل قوات من المشاة تشبه - إلى حد ما - (المينكى تشرى) التركية ظهر بالجيش الإيرانى انتظام وتناسق كاملان .

الانتصار على العثمانيين

بدت بعد هذا بعام أو اثنين مقتضيات تجعل الشاه يظهر ما أسَرّ من سر قديم ويفكر فى استرداد المدن التى اقتطعها العثمانيون من إيران فى السنوات ما بين وفاة طهماسب وجلوس عباس ، وكان عهد حكم السلطان محمد الثالث الضعيف على وشك الانتهاء ، وكان العثمانيون قد اتجهوا إلى الضعف بسبب حروبهم المتتابعة مع النمسا وثورة جلال فى آسيا الصغرى المعروفة بالثورة الجلالية (راجع فى سيرة جلال الملحد صحائف الأخبار لمنجم باشى ، النص التركى طبع إسلام بول ١٢٨٥ ج٣ ، ص ٤٧١ ، ومع أنه وجماعة من أتباعه قتلوا فى ٩٢٥ هـ - ١٥١٩ م بالقرب من سيواس ، لكنه أسس طريقة ظلت موجودة وقوية من بعده حتى الشطر الأكبر للقرن التالى له) فى الوقت الذى بدأ فيه الشاه عباس الغزو ؛ فاستعاد بقوة المدفعية تبريز (١٠١٠ هـ / ١٦٠١ - ٢ م) "وهذه الآلة الحربية نفسها هى التى كان يسخر منها فيما مضى الإيرانيون ويقولون إنها لا تليق ولاتجدر بالشجعان " ، وفى ١٠١٢ هـ -١٦٠٣ - ٤ م

وبعد هذه السنة بعامين انهزم القائد العثمانى تشغاله زاده سنان باشا (سيجالا) قرب سلماس ، وأجبر على الانسحاب حتى شهروان وديرا بكر ، وتوفى بهذه المدينة بسبب حزنه الشديد ، وفى الوقت نفسه سقطت بغداد وشروان بأيدى الإيرانيين إلا أن بغداد فى عهد عباس تنقلت من يد لأخرى للفريقين أكثر من مرة ، وبمناسبة انتصار إيران واسترداد هذه المدينة من العثمانيين سنة ١٦٢٥ م بتودلت أشعار مشهورة فى الأدب التركى - إلى حد ما - بنى - حافظ باشا والسلطان مراد الرابع (راجع جيب فى تاريخ الأدب العثمانى ج ٣ ص ٢٤٨ هـ - ٥١٢ ، واقرأ هذه الأشعار فى ج ٦ ، ص ١٩٠ -١)

الشروح المملة للمؤرخين الإيرانيين لحروب هذه الفترة

إلى حد علمى ، لم يؤلف حتى الآن كتاب تاريخ متسلسل ونقدى يتعلق بحروب إيران مع العثمانيين والأوزبك وجرجستان ، لكن هذه المادة كثيرة الأهمية بالنسبة للمؤرخين العارفين بالفارسية والتركية .إن الوقائع الحربية الكثيرة الموجودة فى كتب التاريخ لهذه الفترة من مثل عالم آراى عباسى تجعل مثل هذه الكتب صعبة ومملة أى تلك التى تهتم بالموضوعات الحربية على وجه الخصوص ، حتى هذه الكتب المذكورة تعد ضائعة وفاسدة من وجهة نظر التاريخ الحربى ؛ لأنها تضم فى كل صفحة تفصيلات لا جدوى منها ولا تعرف أساسًا حدود الفصول ومقاصدها ، أما الموضوعات الكثيرة التى نرمى إلى معرفة تفصيلاتها فقد سكتت هذه المصادر عنها ، وإنما نصادف اتفاقًا بشكل موجز إشارات إلى الأوضاع الدينية والاجتماعية لهذه الفترة ، وفيما يتصل بانتزاع جزيرة هرمز الواقعة بالخليج الفارسى من قبضة البرتغاليين الذين انهزموا أمام القوات المتحدة الإيرانية والإنجليزية فى مارس (١٦٦٢ م) نرى بالطبع تفصيلات ما وقع فى المصادر الإنجليزية لهذه الفترة .

صفات الشاه عباس وإصلاحاته

وفيما يتعلق بالتعمير والتجميل بمدينة أصفهان فى عهد عباس وكثرة عدد السياسيين والتجار والوفود المرسلة الأجنبية الذين كانت تجذبهم إلى عاصمة إيران حب الشاه للحرية وكرمه للأجانب غير المسلمين فقد أشرنا فى المقدمة إلى أن هذا الجزء والموضوعات المشابهة له ورد بتفصيل شديد فى الجزء الأول لتاريخ (عالم آراى عباسى) ، فقد استغرق نصف هذا الكتاب مقدمة مفصلة تشمل اثنتى عشرة مقالة ، المقالة الأولى الأكثر حجمًا من غيرها فى ذكر الملوك الأمجاد والأجداد المشاهير ، وفى نسختى المخطوطة له (تشمل نحو مائتى صفحة) مقالات أخرى مع أنها أكثر إيجازًا ولا تتعدى غالبًا صفحة أو اثنتين ، لكنها تحوى أكثر من الأولى موضوعات شائقة ومبتكرة ؛ وعلى سبيل المثال منها: فى ذكر توجه حضرته واستغراقه فى البلاط الإلهى والكيفية التى ورثها من أجداده الكرام ، وفى إصابة رأيه وعلمه الوهبى وحسن تدبيره المطابق لصحيفة التقدير ، وفى جدارة رتبة هذا الملك الميمون وذكر مخاطرته التى انتهت بالسعادة ، وفى الإنصاف والرفاهية لعباد الله وأمن الطرق المفضى إلى رياش البلاد ، فى نفاذ أمره وقهره ونار مزاجه ، وهى حكم إلهية غير متناهية ، وفى القواعد التى سنها فى أمور الحكم والصلح ، وفى بساطته وطبيعته الزاهدة وعدم تكلفه وجمعه الضدين ، وفى ذكر إحقاقه حقوق الحزم والتنائى عن أملاك ذوى الحقوق ، وهذا مسلك طلاب الحقيقة لعالم الفتوة والمروءة ، وفى تعرفه أحوال سلاطين العالم وطبقات بنى آدم وخصائص الممالك والمسالك والأقاليم السبعة ، وفى ذكر ماله من المرافق الخيرية وإنشاء العمارات العالية فى البلاد ، وفى بيان المعارك والحروب والفتوحات أيام دولة الميمونة ، وفى ميلاده وطفولته وبعض أحوال أعيانه وعلمائه ووزرائه وأطبائه وخطاطيه ونقاشيه وشعرائه ونواب بلاطه .

شدة الشاه وقهره

بالمقالة السادسة المتصلة بنفاذ أمره وقهره ، يذكر إسكندر المنشئ مؤلف الكتاب أنه لم يكن بمقدرة مخلوق قط أن يغفل لمحة عن تنفيذ أوامره : فإذا أمر - مثلاً - أبًا بقتل ولده كان يطيع أمره على الفور كأنه أمر الله ، وإذا تهاون فى تنفيذ الحكم كان ينعكس الحكم فيأمر هذه المرة الابن بقتل أبيه ، ولو تعلل الابن ؛ أمر ثالثًا بقتل الاثنين؛ وبمثل هذه السياسة كان ينفذ أمره بأعلى درجة من السرعة ، ولم يكن أحد يجرأ على التردد فى تنفيذ أمره الماضى .

الحضور الإجبارى لإيقاع العقاب

كان أمر قواد الجيش بالحضور لكل مجلس عقاب ، وجعل كل حاكم وأمير مسئولاً عن انتظام الطرق والشوارع بولايته ، كان يعاقب الكذاب بشدة ، وكان يجرى عامة الظن بأن كل من يكذب عليه ؛ فسوف يكشف الله للملك عن كذب هذا الكذاب ، لكنه من ناحية أخرى يسلك كامل البساطة والمحبة فى معاملته لرجال بلاطه: فكان يهتم بمطالبهم ودعاواهم الحقة ، ويغض بصره عن زلاتهم وخطاياهم التى جرت عن سهو وبدون قصد .

خلط الشاه اللين بالشدة

مع أنه لم يكن محترزًا ومجتنبًا لمجالس اللهو والخمر ، لكنه كان يميل بشدة إلى اطلاعه دائمًا بأجداث البلاد والسلاطين المجاورين بدقيق المعلومات ، وكان يهتم بكامل الاهتمام بتوسيع إدارة كتاب الوقائع والجواسيس ، كان ماهرًا فى اللغة ، ولم يكن يقدر الشعر وحسب بل كان يبادره نفسه بقرضه فى بعض الأحيان ، ومن بين البلاد التى احتفظت بالعمران من توجيهاته عاصمته أصفهان ثم مشهد التى خلصها كما قلنا فى حرب الأوزبك الوحشيين وأبلغها أعلى درجات الاحترام والاعتبار ، كذلك مدينة

أردبيل مرقد أجداده وكاشان التى أسس بقربها سدًا اسمه قهرود ، واستر آباد وتبريز وهمدان ومازندران التى كانت برأيه كثيرة القبول وبنى بها عمارات فخمة وشق طريق شوسه من استر آباد إلى أشرف ، ونرى شـرحا لهذه الطـريق فى كتاب اللورد كرزن (ج١، ص ٣٧٦ - ٨) ، أما عن فتوحاته فقد وصل جيشه من ناحية الشمال الشرقى إلى رو وتسا وابيورد وأندخود إلى بلخ ، ومن ناحية الشمال الغربى تجاوز نخجوان وأيراوان ، وجنجة وتفليس ودربند وباكو .

رجالات عصره

لا يمكن أن نورد شرحًا جامعًا هنا لسيرة الكبار الذين ذكرهم إسكندر بيك ، ويذكر المذكور فى أكثر من موضع من كتابه أنه كان مشغولاً بالتأليف فى عام ١٠٢٥ هـ - ١٦١٦ م وذكر بالتفصيل أحوال معاصريه لكن أهمهم كالتالى:

من طبقة رجال الدين والعلماء مير محمد باقر بامداد ، والشيخ بهاء الدين العاملى ، ومن الخطاطين : مولانا إسحاق سياوشانى ، ومحمد حسين تبريزى ، ومير معزى كاشى ، ومير صدر الدين محمد ، ومن الفنانين والنقاش: مظفر على زين العابدين ، وصادق بيك ، وعبد الجبار وغيرهم ، ومن الشعراء : ضميرى ، محتشم ، وولى وحشى ، وحسين معمائى ، والأخوان طيفور ، وداعى ، والهى ، وملك قمى ، وحاتم كاشانى ، وصبرى ، روزبهانى ، وحسابى ، ونور أصفهانى ، وحالتى ، وهلاكى، ومظهرى كشميرى ، ومر فرغى ، وطبخى ، وسلطان الفقراء وكاكا ، وشرمى وكان الثلاثة الأخيرون ، وحافظ قمى ، وحافظ قزوين ، وميرزا محمد أستاذ محمد مؤمن صاحب الكمان وشهسوار ذو العود وشمس ذو النفير ، ومعبصوم عازف الكمان ، وسلطان محمد عازف الطنبور ومثله حسين الطنبورى سلطان محمد صاحب الصنج وغيرهم من القصاص ومنشدى الشاهنامة : مثل حيدر ومحمد خزسند الأخوان من أصفهان ، وبما أن شهرة هذه الطبقة من المطربين وأهل النغم لم تكن ثابتة ؛ فقد ذكرت هنا أسماءهم بالتفصيل لأبين مقدار اهتمام العامة بالموسيقى .

ولا جدال في جدارة الشاه عباس بلقبه (الكبير) ، وقد غض المؤرخون الغربيون البصر عن قوته وفظاظته مثـــل الســير دون ملكم (تاريخ إيران طبعة ١٨١٥م ج١، ص ٥٥٥ - ٦) رغم أنهم لم يبرروها بعذر .

ما علق بذيل حكمه من نقط سوداء

لكن ما حدث من أحداث مؤلمة متعاقبة بعد ذلك مثل قتل أخيه الأكبر صفى ميرزا وسمل أخ له آخر اسمه خدا بنده ميرزا تضع صفحة سوداء في جريدة ملكه المترعة بالافتخار ، وحدثت وفاة الشاه عباس في أوائل عام ١٦٢٩ م فخلفه على عرض إيران حفيده سام ميرزا الذى استعار اسم أبيه المسكين وسمى نفسه به : أى صفى .

وتروج رواية بين المسلمين مفادها : أن سليمان النبى حين توفى كان يتكئ على عصاه ، ولم تعلم لوفاته الجن التى كانت تعمل صاغرة لأمره في بناء الهيكل إلا بعد أن أكلت دابة الأرض تأكل عصاه فخرّ بجسده ، وهذه القصة تصدق على الحكم الصفوى في القرن الذى تلا الشاه عباس ، فقد جعل عباس الأول بقوة عقله وجسمه إيران قرينة الأمن والأمان والعمار بحيث حفظ على أخلافه رغم ضعفهم وعدم كفائتهم إدارة إيران لمدة قرن تالٍ.

خلفاء الشاه عباس الأول

من هذا التاريخ إلى أن هجوم الأفغان هذه الأسرة في عام ١٧٢٢ جلس أربعة من أخلاف الشاه عباس على العرش وهم : حفيده الشاه صفى الذى ذكرناه آنفًا ١٦٢٩ م إلى ١٦٤٢ م وحفيده الشـــاه عبـاس الثانى من ١٦٣٢ إلى ١٦٦٦ ، ثم ابنه صـفى باســم الشاه سليمان من ١٦٦٦ إلى ١٦٩٤ ، وأخيراً الشاه حسين من ١٦٩٤ م إلى ١٧٢٢ م .

الشاه صفى (١٦٢٩ - ١٦٤٢ م) ، وكان ظالما سفاكا

يقول كرسينسكى (ص ٤٤ من الترجمة الإنجليزية ، لندن ١٧٨٢ م) فى الشاه صفى : (لم تعهد إيران بوجه التحقيق عهداً يماثل عهده فى سفك الدم والقسوة) وأيضًا : (كان عهده سلسلة لا تنقطع من الفظاظة وسفك الدماء) ، لكن هانوى يقول : (كان الشاه قليل التدخل فى أمور الدولة إلى حد أن الإيرانيين كانوا يفهمون بمشقة أن لهم ملكًا وإلا ما قضى أغلب وقته فى إصدار الأوامر الوحشية وما لوث زيل حكمه بدماء الأبرياء ، ويقول أيضًا : (فقد كامل جنونه قندهار وبغداد ، وكانتا المدينتين العظيمتين على حدوده) .

الشاه عباس الثانى (١٦٤٢ - ١٦٦٦ م) كان ملكًا طيبًا لو لم يكن يفرط فى شراب الخمر

وحسبما يذكر (كروسينسكى ج ١ ، ص ٢٠ من كتابه السابق) الشاه عباس الثاني: لم تر من هذه الأسرة بعد الشاه إسماعيل الأول وعباس الكبير مثل هذا الشاه ، فمع أنه كان يفرط فى شرب الخمر مثل أبيه وأجداده وتجاوز مرات حدود الرحمة ، وكان يتسكع لياليه بالجد الذى يستوجب اللوم والمؤاخذة ، لكنه أظهر نفسه فى الحقيقة لائقا الذى لبسه) ، ويقول : (كلما تقوم فى الحكم كانت الرعية والحاشية ترغبه والأعداء بجواره ترهبه ، آثر العدل ولم يكن يبقى على الحكام والعمال الذين كانوا يسيئون استخدام سلطاتهم ، ويجحفون بالشعب ، ونرى أمثلة عدة لأعماله هذه فى رحلة تاورينه ؛ كان عباس الثانى يتمتع بروح عالية وكبيرة وبرعاية للأجانب ، وكان يدافع عن المسيحيين بشكل ظاهر ، ولم يكن يسمح قط بأن يصيبهم أذى بسبب دينهم) ، ويقول : (لا يملك أحد غير الله تعالى ضمائرهم وعقيدتهم ، وأنا أحكم فقط على أشكالهم وظاهرهم وجميع الرعية هم أهل البلاد بالتساوى لهم اتباع ما يفضلون من دين والملك مأمور أن يفيد كلا منهم من عدله بدون تفاوت ، كان حكمه بوجه عام آخر لمعة من عظمة الأسرة الصفوية لأن ؛ الشاه سليمان - كما يذكر كروسينسكى (ص ٥٧ - ٨)- لم يرث صفات أبيه عباس الثانى الحميدة ، وكان منحط الخلق ولا يتميز حكمه إلا فى

أحكامه القاسية والوحشية التي يـصعب على المرء ذكر واحد من ألف منها ؛ فكان لا يأمن أحد من جلسائه على روحه وماله وقت أن يسكر ويغضب ، فقد كان يقطع الأيدى والسيقان والأنوف والآذان ويفقأ العيون ويفتدى بأقل تصرف له مجنون له بالأرواح ، كان من يقع من بداية مجلس لهوه محل اهتمامه أكثر من غيره من الحاضرين ، كان يذهب ضحيته فى نهاية المجلس ، وهذا ما رواه السير جومن شاردان ورآه رأى العين فى بعض مجالس الشاه المذكورة ، كان من يحضر هذه المجالس يشعر بالفزع والخطر إلى حد أن عظماء البلاط كان يقول : حين رجعت من مجلسه تحسست أكثر من مرة رأسى لأرى ما زالت فوق كتفى أو زالت. اتجهت إيران من عهد هذا الملك إلى الضعف والاضمحلال ، فقد كان أبعد عن مصالح الملك إلى حد أنهم لما أطلعوه على خطر العثمانيين ، وقالوا له : إذا لم يستعد بجيشه من وقته ويهيئ نفسه لملاقاة الأتراك فسوف ؛ يهاجمون أفضل ولايات إيران حين يفرغون من أمر مصالحة المسيحيين ؛ فأجابهم هذا الشاه : (لا خوف لدينا إذا تركوا لنا أصفهان) .

الشاه سلطان حسين المتعصب الشارد (جلس ١٦٩٤ وخلع ١٧٢٢م، وقتل ١٧٢٩ م)

كان الشاه حسين آخر ملوك الصفويين لأن الملكين اللذين حكما بعده وهما طهماسب الثانى ، وعباس الثالث – كانا يحكمان بالاسم وألعوبة فى يد نادر شاه ، وقد خالف هذا الملك أجداده تمامًا فى أخلاقه ؛ إذ إنه من فرط رحمته لم يكن يصدر حتى فى وقت الضرورة أنسب الحسم والعقاب . أصابه الفزع يوما ضرب فيه بطة ببندقيته حتى إنه اعتقد أنه ارتكب حقيقة جريمة ونطق العبارة التى تقال فى العادة فى إيران وقت سفك دم إنسان وهى بالتركية (قانلو اولدم) أى تلوثت بالدم ، وكان يأمر غالبًا بالتصدق على الفقراء بمائتى تومان كفارة لفعله الذى هو جرم عظيم فى رأيه ، وكان يتصف بالزهد وعليمًا بالفقه ؛ ولهذا وقع تحت نفوذ المشايخ الشيعة بصورة عظيمة واجتهد كثيرًا فى القيام بالآداب الدينية وتلاوة القرآن إلى حد أنه حصل على لقبه له (الملا) أو الزاهد حسين ، كان يبذل كامل سعيه فى النهى عن المنكرات فى

البداية ، لكن بعد ذلك بناء عن إصرار جدته وواطؤ الندماء الشاربين للخمر والخصيان الطامحين لوثوا بالخمر شفتيه ، فأخذ يتأثر بها بالتدرج حتى إنه لم يعد يراعى أمور الدولة ويترك جميع المشاكل لتصرف الندماء والخصيان ؛ فيصرف الأمر كل منهم بالنحو الذى يريد ، فكانوا يبرمونها بأشد أنواع الأنانية والطمع ؛ لأنهم كانوا موقنين من أن الملك الذى فقد بعجز سلك تدبير الأمور تمامًا ولا يتفتح التماسات الشاكين ويسلمها إلى حاشيته للتحقيق فيها لا يمكن أن يتأتى منه خوف وخطر عليهم (كروسينسكى- ص ٧٦) .

فى هذا الكتاب علينا- قبل أى شىء - الحديث عن الأدب الفارسى ثم شرح تاريخ إيران بعد ذلك باختصار شديد إلا فى المواضع المتصلة بالتغيرات الأساسية الحاسمة فى معنويات الشعب ، ولا يلزم بالطبع الدخول فى تفصيلات الفترة الأخيرة للحكم الصفوى خاصة فى وجود بضعة مؤلفات مهمة وعالية تعود إلى ضعف هذه الأسرة الكبيرة وزوالها ، ونذكر من هذه المؤلفات المتاحة للقراء الإنجليز ، والتى تقص أحوال إيران فى ذاك العصر هذه الكتب

أفضل المؤلفات التى ألفها المعاصرون لتأريخ هذا العصر

مكث بإيران وروسيا من نوفمبر ١٦٣٦ م إلى فبراير ١٦٣٨ م آدم إلياريوس السفير من قبل فردريك دوق لقلستاين ، ألف رحلته باللاتينية ثم ترجمت أولاً إلى الفرنسية ونقلها جون ديفيس إلى الإنجليزية ، والنسخة الإنجليزية طبعة ١٦٦٩ تحت يدى .

١- إلياريوس (١٦٣٦ - ١٦٨٣ م)

كان إلياريوس أو الشلاجر - حسب نطق اسمه الأصل - كان رجلا فطنًا ودقيقًا، ويبدو أنه كان يتقن التركية والفارسية ، وكتابه أحد أفضل الوثائق عن تاريخ إيران فى القرن السابع عشر .

٢- برافائيل دومانس (١٦٤٤ - ١٦٩٦ م)

وهو رئيس البعثة الإرسالية الكابوشنية المقيمة بأصفهان ، ولد عام ١٦١٣ م وقدم فى ١٦٤٤ م إلى إيران وتوفى عام ١٦٩٦ م ، وكتابه هو (حالة إيران ١٦٦٠م) وأخرجه السيد العالم شيفر منشورا فى باريس ١٨٨٠ وهو يشرح شرحًا قيما إصلاحات إيران بعد أولياريوس بفترة قليلة ، لكن عبارته تشبه عبارة أولياريوس فى جفافها وخشونتها .

٣ - شاردان (١٦٤٤ - ١٦٧٧)

ولد شفاليه شاردان فى عام ١٦٣٤ م وسافر مرتين إلى إيران وقلت فى كل مرة ستة أعوام (١٦٦٤- ٧٠ و ١٦٧٧) ، وأقام عام ١٦٨١ م فى لندن ، ومات بها فى ١٧١٣ ولدى نسخة من رحلة شاردان ، وهى التى نشرها الالم لون جلس فى باريس ١٨١١ فى أجزاء عشرة ، ويرى فى ص ١٥١ إلى ص ٤٤١ من الجزء العاشر تحت عنوان : ملاحظات تاريخية عن إيران من أقدم الأزمنة إلى العهد الحاضر شرح يثير الحيرة أضافه ناشر الكتاب ، وأوجز فيه تاريخ إيران إلى عهد فتح على شاه .

٤- الشيخ محمد على حزين (١٦٩٢ - ١٧٩٩ م)

ولد الشيخ على حزين الذى يصل بنسبه إلى الشيخ زاهد الجيلانى مرشد الشيخ صفى الدين جد السلاطين الصفوية بأصفهان عام (١٦٩٢ م) ، وبعد أن قضى الشطر الأعظم من حياته بهذه المدينة رحل إلى الهند فى ١٧٦٣ م أو لم يعد مرة أخرى وألف كتابه فى ١٧٤١م ، ومات فى بنارس ١٧٧٩ م بعد عمر طويل ، ونشر النص الفارسى لكتابه وترجمته الإنجليزية عام ١٨٣٠ - ١م ف.ث . بلفور ، ومع أن المؤلف شهد الواقعة الفظيعة التى حلت بأصفهان عام ١٧٢٢ م ، لكن شرح الحصار الذى ضربه على هذه المدينة الأفغان والآلام والمحن التى عاناها أهلها أقل تأثيراً وتفصيلاً وتدقيقًا مما كتبه كروسينسكى والمشاهدون الأوربيون . لكن من ناحية أخرى فإن ترجمة أحوال الأمراء والأعيان والعلماء والشعراء المعاصرين للمؤلف يضفى قيمة خاصة على كتابه .

٥- كروسينسكى (١٧٠٠ - ١٧٢٢ م)

كان كروسيسكى رئيس الجزويت بأصفهان لنحو عشرين عامًا قبل ١٧٢٢م ، وألف كتابًا مهمًا جداً اسمه (تاريخ ثورة إيران) عن الأسرة الصفوية من البداية إلى ١٧٢٧ م ، ذكر بتفصيل كامل هجوم الأفغان وأحداثه .

٦- هانوى (١٧٤٣ - ١٧٥٠ م)

جونانس هانوى الذى أقام بإيران عام ١٧٣٤ م ، ألف ونشر مجلدين لكتاب عنوانه ، الشرح التاريخى للتجارة الإنجليزية وألحق به رحلته فى عام ١٧٥٢م ، ثم ضم إليها مجلدين آخرين بعنوان الثورة الإيرانية : شمل الأول ذكر أحداث عهد الشاه سلطان حسين وهجوم الأفغان وسلطنة مير محمود وخليفته أشرف ، وحوى الثانى تاريخ نادر المستعمر المعروف من ولادته ١٦٨٧ م إلى وفاته ١٧٤٧ م ، وألحق به بعض وقائع أيام عادل شاه السيئ الحظ قائم المقام ببلاطه ، وفى القسم الأول من تاريخه اقتبس هانوى موضوعات كثيرة من كروسينسكى ، لكن يعد المرجع المستقل والمهم للفترة الأخيرة من ١٧٢٧ - ١٧٥٠ م ، وفى كافة تاريخ نادر شاه فضلاً عن أن أسلوب تحريره فى سائر كتابه حى مشوق للقراء .

الفترة الأخيرة للأسرة الصفوية لا تشجع المؤرخين الإيرانيين على إثبات وقائعها

لا يتضح القسم الأخير للفترة الصفوية إلا من خلال كتاب عدد من الرحالة والكتّاب هم الذين ذكرتهم آنفًا بسبب أنهم كانوا مرجعى الوحيد، أما من أراد صورة عامة لتأريخهم ويستفيد استفادة كاملة فعليه أن يراجع مقدمة شيفر على كتاب نومانس الذى مضى ، وكتب التاريخ الأوربية فى هذه الفترة - وبناءً على قول دون ملكم (تاريخ إيران ١ / ٥٦٨ - ٧٠) وأدلته - أكثر فائدة و إيضاحًا من الكتب

الإيرانية فيقول ملكم : (يمكن بمشقة أن تجد عهداً له مثل هذه الأوضاع السيئة غير المناسبة لهذه الفترة الأخيرة ، فقد مضت مدة تقرب من قرن بدون أن تحدث حادثة سياسية عظيمة بل لم يكن يفيد إيران هذا الأمن والهدوء غير العادى الذى كان سائداً ، حقًا أن الأمراء والنجباء والحكام كانوا غير مهتمين بخطر الحرب الأهلية والصراع الخارجي ، لكن أرواحهم وأموالهم كانت لعبة فى يد عدد من السلاطين الضعاف والقساة والفسقة . كان الخطر يحيط بالطبقات الدنيا يأكل من الطبقات العليا ، لكن الأمراء كانوا يفقدون يوماً بعد يوم استعدادهم الحربى وطباعهم القتالية وما جمعوه أيام السلام والأمن بالبلاد فقد تماماً قيمته فى اليوم الذى لم يعد بإمكانهم الدفاع فيه عن إيران ، ويمكن القول : إن الشعب كان يحافظ على وجوده على أساس الشهرة التى حصلها فى الماضى إلى أن فقده ذات يوم ما حصّله وعلى أثر توسع مناسب ، لكنه فى الحق انحطاط فاسد لم يستطع أن يحرك ساكنًا ويدفع الفقر والعجز والخراب الذى نزل به نتيجة هجوم عدد من الأفغان ، لقد أظهر نصر الأفغان إيران حقيرة فى الأنظار إلى حد أننا لا نعجب من أن المؤرخين الإيرانيين تحاشوا ذكر وقائع تلك الفترة الأخيرة المخزية وحوادثها المؤلمة ، ويبدى على حزين الرأى نفسه تماماً فيقول : مضت قرون بلغ العمار والهدوء وكمال جميع النعم الدنيوية فى بلاد إيران التى تشبه الجنة نصاب الكمال وتهيأت إيران لضرر الحاسدين ، ولم يفكر الأمراء الغافلون والجيش المرفه الذين لم يستلوا سيوفهم نحو قرن للحرب فى هموم علاج تلك الفتنة ، وقصد فتح قندهار وثورة الأفغان تحت قيادة "مير ويس " إلى أن وصل مجرد المذكور " ولد مير ويس " بجيش موفور إلى بلاد كرمان ويزد فنهب وخرب وقصد أصفهان ، وكان هذا فى أوائل عام أربع وثلاثين ومائة بعد الألف) .

ويروى هانوى القضية الطريقة نفسها ، فى قوله : لم تتمتع إيران قط بالهدوء التام أكثر من بداية هذا القرن (الثامن عشر) . كانت المعاهدات التى عقدتها مع الجيران تراعى بدقة وتحفظها من كل هجوم أجنبى ، ورغم الضعف وثورة الشعب التى هى النتيجة الطبيعية للأمن الممتد فلم يكن يشعر بخوف خطر من طرف أهالى إيران نفسها، فهذه البلاد التى كانت فريسة كل تلك الثورات فى العهود السابقة قد استقر

فى هذا العصر أساس أمنها واستحكم سلامها فى الظاهر ، بحيث حير خبر هزيمتها جميع العالم ، وكان القائم بهذه الحادثة العظيمة شعباً لم يكن حتى حكامه يعرفون شيئًا عن أحواله وحازوا اليوم فقط بسبب شهرة الشعب الذى خضع لحكمهم شهرة كبيرة ويعرف هذا الشعب باسم وعنوان عام هم "الأفاغنة" .

عيوب سياسة الشاه عباس

قلنا سابقا إن سياسة الشاه عباس الكبير كانت عاقلة وبعيدة النظر، لكن يجب الآن أن نفسر مقالنا هذا ؛ فمع أن الشاه عباس زاد من قدرة حكمه كثيراً، لكن هذا الأمر فى النهاية انتهى إلى ضعف الشعب وانحطاط أخلاق حكامه، فقد كان الملوك السابقون يصحبون فى ركابهم من عشيرتهم وأقاربهم الطامحين ورؤساء القبائل القوية وسكان المدن المتآمرين جماعة ، لكن الشاه عباس جعل نفسه بدل كل هؤلاء السائس المدبر الوحيد ، وبدلاً من أن يصل بأولاده إلى المناصب العليا الإدارية ويشركهم فى الحروب حرمهم من نعمة البصر أو قتلهم أو حبسهم بين جدران الحرم ، وفى هذا المكان - كما يذكر مكرونسكى (ص ٦٥ - ٧٠) -كانوا يقضون حياتهم بمشقة وبؤس وجوع ومحرومين من لذات الملك ورفاهيته وتنقصهم التربية المناسبة ، فكانوا يخضعون لنفوذ الخصيان ، وفى النهاية كان هؤلاء الخصيان يصحبون أصحاب القوة العليا فى البلاد . وقد أشرنا آنفًا كيف أزال النجباء والكبار ورؤساء القبائل وقام بتأسيس " الشاهسون " لكى يقوموا بمعارضة القبائل السبع التى كانت تحمى فى السابق أجداده ، وأمر عجيب آخر يدل على أن الشاه عباس كان يرعى تماماً مبدأ (فرق تسد) : أنه نظم - معتمداً فى سائر المدن الكبرى- جماعتين تعادى إحداهما الأخرى وتضادها على الظاهر وبشكل مصطنع ، ويسميهما كروسينسكى بلنج وفلنج أو بلوك وفلوك أو الحيدرية والنعمتية ، وكان هذان الحزبان ينشغلان بمقاتلة أحدهما للآخر والتعطش إلى الحرب والدم بينهما كما يذكر كروسينسكى إلى حد أن الولايات المختلفة كانوا منشغلين بمقالة بعضهم بعضًا ، لا يفكرون فى إبعاد النفور

والخصومة بينـــهم عن ولايــتهم ، ثم يذكر (ص ٩٢) (رغم أنه لم يكن معهم سلاح لأنه لم يكن متصورا أن يستخدموا السلاح غير العصى والأحجار ، لكن تقاتلهم كان يشتعل حينا ويبلغ سفكهم للدماء مبلغا يجبر الشاه بإدخال الجنود شاهرين أسلحتهم ليفرقهم ، ومع هذا التدخل فقد كان أمر تفريقهم صعبا كما حدث عام ١٧١٤ م فى أصفهان حين دعت الضرورة إلى قتل ثلاثمائة شخص منهـم أثناء القتال حتى تخمد نار الحرب ويفترق المتصارعون بعضهم عن الآخر) .

تغلب المشايخ ، وكان أعظمهم الملا محمد باقر المجلسى

فى عهد الملا أو الشيخ حسين آخر الملوك الصفوية - وكان حسن النية وعاثر الحظ - نشـأت ونمت علاوة على الخصيـان طبقـة أخرى وزادت قـوة ، لم تكن قوتـها مفيدة كثيراً للعالم الدينى أو المصالح القومية ، وكانت هذه الطبقة هى علماء الدين الكبار الذين كان يترأسهم ويفضلهم الملا محمد باقر المجلسى قاتل الصوفة والكفار ، وكان شخصًا مهيبًا مهولاً ، وسوف نذكر بعد تفصيلاً لسيرته ، ويقول مريدوه والمعتـقدون فـيـه إن بعد مـوته (١١١١ هــ / ١٦٩٩ - ١٧٠٠ م) بقليل حدثت حوادث وفتن كان أشدها وأسوأها ما حدث عام ١٧٢٢ م ، ويصـــرحون أن فقدان مثل هذه الشخصية العظيمة ترك إيران فى معرض المخاطر ، لكن من لديهم عقل التحقيق وقوة النقد أكثر من هؤلاء ســوف يعد تلك الحوادث مـسـببة - إلى حد ما - عن فظائعـــه وأتباعه وقتلهم الناس بلا أدنى اهتمام.

الفصل الرابع

موجز تاريخ إيران فى القرنيين (من ١٧٢٢ إلى ١٩٢٢ م)

بعد تردد كبير وتدقيق كثير صممت فى النهاية أن أضع شرح قرنين من تاريخ إيران فى فصل واحد ، ولو كان هذا الفصل تاريخًا سياسيًا لإيران فلا بد أن يكون خطوة غير مناسبة ؛لأن هذه الفترة الطويلة شهدت هذه الوقائع الآتية : هجوم الأفغان وتخريبهم ، والظهور المشابه للبرق والأفول المفاجئ لذاك الفاتح المثير للحيرة والذى اسمه نادر شاه ، وظهور كريم خان زند الذى نهض وسط عالم من الثورات والشقاء والفقر ويعد عامة من أفضل حكام إيران ، وظهور خليفته لطف على خان الذى كان شابًا ظريفًا وجميلاً وعاثر الحظ ، واستقرار الدولة القاجارية فى خلال هذه الأحوال ، من بين الأحداث المهمة الأخرى حادثتان تجدران بالملاحظة ولا يجب نسيانهما : ظهور المذهب البابى نشوءه حتى عام ١٨٤٤ م والثورة السياسية لعام ١٩٠٦ م ، فقد حدثت هاتان الحادثتان تغييراً عميقًا فى الحياة العقلية وانتشار الأدب الفارسى ، ويحق لكل واحدة منهما أن تكون موضوعًا لكتاب مستقل وكبير ولا يسعها فصل واحد ، قد ألفنا هذا الكتاب للأدب لا للسياسة ، ويعد التاريخ جزءًا فرعيًا منه ، ولو كان القراء الأوربيون حتى أكثرهم علمًا يحفظون ضمن ذخائر معلوماتهم نبذة من تاريخ الشرق لتوجب هذا المختصر التاريخى ؛ ولهذا يلزم زيادة وبسط الحديث فى عهود الانتقال أو العصور التى كان العلم والفضل فيها فى ذروة الارتقاء أكثر من تلك الفترات التى ثار فيها الصراع والتنافس غير المجدى بين العقائد أو الأفكار المتضادة أو الطباع الطامعة ، وهذان القرنان اللذان ندرسهما يعدان من جنس هذه الفترات الثانية ، ففى هذه الفترة لم تتغير اللغة الأدبية تغيراً مهمًا ؛ لأنها ظلت فى الحق فى صورة ثابتة فى

القرن الرابع عشر الميلادى ؛ بحيث إن غزليات حافظ يمكن أن نقول بسبب حسنها الذى يعدم نظيره إنها نظمت بالأمس فقط ، وقد ابتكرت إلى أواسط القرن التاسع عشر عدة من الأشكال الجديدة الشعرية والأساليب الأدبية وقل ظهور فكر جديد يغير جنون تشيع العهد الصفوى إلى ظهور البابية فى ١٨٤٤ م ، لكن تأثير ذاك المذهب وأهميته فقد كان بدورهما أقل من الناحية الأدبية من ثورة ١٩٠٦ م ، وفوق ذلك فإن تفصيلات هجوم الأفغان وظهور نادر شاه وحكم الأسرة القاجارية موجود فى المصادر الانجليزية، وذكرنا أسماء بعض هذه المصادر فى نهاية الفصل السابق ، وهى من الحسن إلى الحد أننا يمكننا بمشقة أن نحرر ونؤلف ما يماثلها ، وإذا أردنا الإيجاز فى نقل شرح ما بها وإدخال هذا الكتاب ؛ فلسوف يبدو مبتوراً ناقصاً ؛ ولهذا فضلنا أن نكتفى بذكر مجمل لأبرز وقائع هذين القرنين المذكورين فى هذا الفصل .

هجوم الأفغان ١٧٢٢ - ١٧٣٠ م

أخلاق الأفغان

خلافا للعرب والمغول والتتر والترك الذين قهروا لإيران كل لنفسه فإن الأفغان رغم اختلافهم عن إيران من الناحية المادية لكنهم يعدون جنساً إيرانياً فى الظاهر ، ومن أقارب الإيرانيين وفى سائر بلادهم الوحشية والجبلية تروج اللغة الفارسية ، وقد لاحظ جيمس دار مستتر أن بلهجتهم الرائجة المسماة (البشتو) أصولاً وبقايا من اللغة الأبستاقية كتاب الزردشتيين المقدس ، والأفغان أكثر جسارة وأضرى قتالاً وأشد خشونة من الإيرانيين ، لكنهم يقلون عنهم فى الفضل والفن وهم سنة متعصبون ، وهذا الاختلاف يطفى أن يبدى علة النزاع بين الشعبين فى ذاك العهد، وبسبب التعصب استطاع الأفغان أن يلبسوا هجومهم رداءً دينياً .

شرح ثورة قندهار

استولت إيران فى ١٧٠٧ م على قندهار التى كانت دائمًا علة الصراع بين الصفويين ومغول الهند وسلمت حكمها لرجل جرجي اسمه جرجين خان كان يحكم باستبداد عظيم ، وساء ظن هذا الحاكم بأحد رؤساء الأفغان واسمه (مير ويس)، وكان شديد التأثير على أهل وطنه فنفاه إلى أصفهان كسجين للحكومة ، وكان هذا المذكور يتمتع فى الظاهر بحرية تامة فى هذه المدينة ، وكان يستقبله الشاه حسين بلا مانع، ولما أن لديه فراسة ودقة نظر كاملة وقوة دسيسة فسرعان ما أدرك بوضوح التخريبات المختلفة بين رجال البلاط الذين سبب تنافسهم فى النهاية اضمحلال الدولة وأشعل بمهارة وذكاء كاملين نار سوء الظن التى كان كل أمير وحاكم إيرانى فى معرض لهيبها، وكان من اليسير أن يحقق سوء الظن برجل مسيحى ومن بخباء جرجستان بشكل أسرع وأسهل من غيره رغم أنه لم يكن بيد مير ويس ظاهراً وعملياً أى دليل على عصيان جرجين وخيانته ، ولو قال فى حقه إنه يميل إلى تجديد حياة وطنه أكثر من ميله إلى سعادة إيران وقوتها .

مير ويس فى مكة

وبعد أن غرس مير ويس بذرة الشك وسوء الظن هذه وصار موضع اهتمام البلاط الإيرانى الكامل استأذن للحج ، وفى أيام إقامته بمكة بادر لتحقيق مقصودة بخطوة مهمة أخرى ؛ إذ استفتى كبار العلماء هل يجبر الرعية السنة الذين يحكمهم ملك رافضى أو شيعى على طاعته وأنهم أحرار فى مقاومته إذا سنحت الفرصة وإذا لزم الأمر دافعوا عن أنفسهم بالسيف ؟ فجاء ت فتوى العلماء مطابقة للشق الثانى ووفق مراده ، فحمل ويس هذه الفتوى معه إلى أصفهان ومنها إلى قندهار ؛ لأن الحكومة سمحت له فى ١٧٠٩ م بأن يعود إلى موطنه وأوصت جرجين خان بالإحسان إليه ، لكن سرعان ما ولّد الفساد ضد هذا الحاكم وانتهز هو وأتباعه فرصة انشغال عدد كبير من الجيش الإيرانى الحدودى بإحدى النواحى المجاورة وهاجم جرجين حين كانت

بقية الجيش خارج القلعة فأهلكه ، وكثرة من الجنود واستولى على المدينة وأفادته فى هذا الظرف فتوى العلماء أيما فائدة ، وأزال بها تردد أتباعه الضعاف القلب وتعذيب ضمائرهم الذين تعللوا فى البداية حتى لا يثوروا على الحكومة الإيرانية ، بل جعلهم يتحدون مع مواطنيه الأكثر ثورة الآخرين ؛ فانتخبوه ملكًا لقندهار وقيادة جيشها الوطنى .

ظفر الثوار

أرسلت الحكومة الإيرانية – بعد محاولات عدة بذلتها بقليل من الاهتمام للتغلب على المدينة والثوار – جيشًا من ثلاثين ألفًا بقيادة ابن أخ جرجين خان المقتول للاستيلاء على قندهار ، وكان فى البداية النصر للحكومة واقترح الأفغان الاستسلام ، لكن خسرو خان رفض بشدة ؛ فاضطر الثوار يدفعهم اليأس إلى إعادة كل ما لديهم من جد وجهد ؛ وكانت النتيجة موت قائد الجيش وهزيمة الجيش الإيرانى هزيمة حاسمة ، ولم ينج من الجيش إلا نحو سبعمائة . وقدم بعد عامين جيش آخر بقيادة رستم خان من إيران فغلبه الثوار أيضا ودخلت قندهار بأكملها فى سيطرة الثوار .

مات فى ١٧١٥ م مير ويس الذى مهد بالشكل المذكور فى ظرف ست سنوات أساس الحكم الأفغانى ؛ فترأس بعده أخوه مير عبد الله ، ولما كان بناء على شروط السلطة الإيرانية قام مير محمود ابن أخيه مير ويس بقتله ؛ وأعلن نفسه مباشرة ملكًا .

ثورات أخرى ضد حكومة إيران

ولما انكشف بهذا النحو ضعف حكومة إيران تأسى آخرون بأفغان قندهار منهم الأفغان الأبداليون بهراة وأوزبك ما وراء النهر والأكراد اللجزيين وعرب البحرين ، ومع أن صفى قلى خان نجح ومعه ثلاثون ألفا فى هزيمة الأوزبك ، لكنه لقى بعد ذلك مباشرة الهزيمة على يد الأفغان الأبداليين .

استيلاء الأفغان على كرمان

وبدأ مير محمود في ١٧٢٠ م هجماته فعبر صحراء سيتسان واستولى على كرمان لكن القائد الإيراني لطف على خان طرده عنها بعدها بأربعة شهور ، وعاد هذا القائد إلى شيراز وشمر ساعده لتنظيم (جيش لم يُر مثله في إيران منذ سنوات) ، وكان يهدف إلى هزيمة الأفغان واستعادة قندها ، ر لكن لسوء الحظ زلزلت إحدى الدسائس في البلاط التي كانت ترتب في سرعة تامة أسباب تخريب الحكم الإيراني مكانته ؛ فاستيق كالمساجين إلى أصفهان وتبدد جيشه الذي جمعه ونظمه بهذه السرعة وتلك الدقة فتجددت في الأفغان بسبب ما حدث روح جديدة ، وصار نصر اللكزيين ونهبهم في لشماخي وظهور علاقات عـجيبة وغريبة في السماء مبعث رعب الإيرانيين أكثر مما سبق ، ولم ينتـج عن الأمر العام للشـاه حين للتوبة والاستغفار والإنابة إلا زيادة الرعب في قلوب العامة .

اتحاد الزردشتيين والأفغان

بدأت السنة المشئومة ١٧٢٢ م بالمحاصرة الثانية وفتح كرمان بيد مير محمود والحادثة الجلية لهذا الأمر مفادها أن جماعة من الزردشتيين وافقوا واتحدوا مع مير محمود ، وكانوا بقية معدودة من الإيرانيين القدماء ظلوا على دين زردشت ، وسكنوا في الأغلب في يزد وكرمان خاصة في رفسنجان وقصبتها بهرام آباد . لماذا اتحد هؤلاء وهم غير مسلمين مع المسلمين الأجانب وخالفوا مواطنيهم المسلمين ؟ من الصعب الإجابة المقتنعة على هذا إلا بأن التعصب والقسوة من جانب الملا في الشيعة تسببا في مبادرة الزردشـتيين إلى هـذه الخطـوة غير العادية ، والأعـجب من هذا لو صدق - ما ذكره هانوي (ثورة إيان ج١ ، ص ١٨٦) - أن رجلاً زردشتياً من أفضل قواد مير محمود رغم أن اسمه مسلم هو نصر الله ، لكنه كان من عبدة النار ؛ لأن السلطان كان استخدم اثنين من الهرابذة لكي يحافظا على إشعال النار المقدسة بجوار مرقده .

تقدم الأفغان نحو أصفهان

سلك مير محمود طريق يزد من كرمان ، لكنه لم يستطع الاستيلاء على يزد؛ فتقدم منها إلى أصفهان ، ورفض بسخرية مبلغ خمسة عشر ألف تومان قدمت له هدية بشرط عودته ، وسكر فى النهاية فى جلون آباد على بعد ثلاثة فراسخ من العاصمة الصفوية . وبعد مباحثات واستعراض الآراء المختلفة طرح الجيش الإيرانى أصفهان وتقابل فى ٧ مارس وبعده بيوم بالجيش الأفغانى ؛ولقى هزيمة فادحة بسبب خيانة والى عربستان فى الأغلب .

حرب جلون آباد ٨ مارس ١٧٢٢ م

أنهت حرب فى الأحد ٨ مارس ١٧٢٢ م التى جرت بين الإيرانيين والأفغان أمر الأسرة الصفوية نهاية قاطعة ، كما أنهت حرب القادسية فى ٨٣٥ م أمر الدولة الساسانية ، وكما أنهى صراع جيش الخليفة مع الجيش المغولى فى خارج بغداد عام ١٢٥٨ م أمر الخلافة العباسية ، وبين هذه الحروب الثلاث نقطة تشابة كثيرة العجب وهى عظمة المدافعين وجلادهم أمام حقارة المهاجمين وضعفهم الظاهرى .

مقارنة عجيبة

ذكرت المشابهة بين حرب القادسية وحرب بغداد فى صفحة من كتاب الفخرى (راجع ترجمة هذا الجزء ص ٤٦٢ الجزء الثانى التاريخ الأدب فى إيران للمؤلف نفسه وراجع النص الأصلى ص ٧٩-٨ فى طبعة (هلورد AHLWRDT) ، وستلفت النظر ما ذكره هانوى (ثورة إيران ١/ ص ١٠٤ - ٥) فى هذا الصدد أيضًا : (كانت شمس جديدة قد ظهرت فى الأفق حين وقف كلا الجيشين ينظر أحدهما إلى الآخر بالدقة التى هى من خواص هذا الظرف المدهش . خرج جيش إيران بأشد زيناته البلاطية لمعانًا كأنه ذاهب إلى مسرحية أو حفلة وليس إلى ميدان القتال ، وكانت

النفائس وألوان الأسلحة والألبسة وجمال الخيول المطهمة والذهب والجواهر التى سترت بعض السروج والجلال والفخامة لخيام الجيش تظهر سائر الجيش الإيرانى كثير الفخامة والزينة . وعلى الصعيد آخر كان ينتظر عدد أقل كثيرا غير التعب ووهج الشمس لونهم وخمش جلودهم ، بلغ لباسهم من الاهتراء والقدم فى هذا السفر إلى حد أنه كان يقيهم بمشقة من البرودة ، ولم تكن خيولهم تزدان بغير الجلد والبرنز ، ولم يكن لديهم ما يبرق ويلمع غير السنان والسيف) .

التشابه والاختلاف بين هجوم العرب والمغول والأفغان

تتشابه الحروب الكبيرة والحاسمة من أكثر من جانب : ففى هذه الحروب الثلاثة زالت واختفت أسرة جليلة تاريخية استترت درجة انحطاطها المعنوى تحت ستار جلالها الظاهرى ، وكانت صورة قوتها وجلالها جليلة ؛ لأنها لم تكن حتى وقتها تجد معارضة ، زالت بسبب هجوم شعب مقاتل وجسور قل أن سمع به إنسان ، وكان يفضل الحيوانات المتوحشة قليلاً ، وفى المواضع الثلاثة اجتثت الفساد الانحطاط فى مدة تقل طولاً وقصراً جذور حكم كل أسرة حتى حسّم وقوع الواقعة الحاسمة الأخيرة ، ومع درة شدة هذا الفساد والانحطاط أو ضعفها ودائرة اتساعها حتى آخر يوم من أيام القوة لا تعلم بالضبط ، لكنها تتضح فى نظر المؤرخ المحنك ، وتختلف على حب أخلاق المهاجمين ومهارتهم النتيجة اختلافاً كثيراً ، فقد شكل العرب فى القرن السابع الميلادى حكومة عظيمة استمرت ستة قرون ، وأحدثوا تعبيرات عميقة فى طبيعة البلاد الجغرافية وسكانهم التى دخلت تحت سيطرتهم ، واتسعت دائرة فتوحات المغول حتى عن العرب لأنهم سيطروا على ما بين الصين والتبت من ناحية ، وألمانيا وروسيا من ناحية :أخرى ، لكن درجة الاتصال والالتصاق لهذه الدولة العظيمة قلت كثيراً عن دولة العرب ، واختلف انتصار الأفغان - وهم موضوع بحثنا - عن النهب والسلب قليلاً ، ونتج عنه نحو ٧٥ سنة من الثورات والفتن والقلاقل (١٧٢٢ - ١٧٩٥ م) ، وقد أُجلت هذه الفترة مدة حكم نادر شاه المماثلة للبرق فى عهد قصير ، وقد دام حكم الأفغان على إيران عليا نحو تسعة أعوام (حاصر محمود كرمان فى يناير ١٧٢٢ م ،

واستولى على أصفهان فى أكتوبر من العام نفسه ، وقتل أشـــرف ابن عمه الذى خلفه على يد البلوج فى ١٧٣٠ م) .

وبعد مضى سبعة أشهر على حرب جلود آباد استسلم السلطان حسين العاثر الحظ بكلوهن وبشكل يثير الشفقة ، يقال إن الإيرانيين فقدوا فى هذه الحرب كل مدفعيتهم ومؤنهم وأموالهم وخلفا خمسة عشر ألف قتيل فى ميدان المعركة من خمسين ألفا واستولى فى ١٩ مارس محمود على القصر الأثير للشاه وفرح آباد متنزهه ، وكان يبعد عن أصفهان ثلاثة أميال وجعله معسكرًا له ، وبعد ذلك بيومين استولى الأفغان على حى الأرمن فى جلفار ، وأخذوا ضرائب نقدية وجوارى وقصدوا منها الاستيلاء على أصفهان ، لكنهم بعد أن عجزوا مرتين فى ١٩ ، ٢١ مارس عن ذلك ؛ شمروا عن همة لحصارها .

فرار الأمير طهاسب من أصفهان إلى قزوين

وبعد ثلاثة شهور هرب الأمير طهماسب ميرزا الذى انتخب خلفًا لوالده من المدينة المحصورة وسار إلى قزوين ، ومع أنه لم ينجح تمامًا ، لكنه انشغل بها بجمع الجنود وإعداد وسائل إمداد أهل أصفهان .

القحط فى أصفهان

وبدأ القحط بعد ذاك بقليل وضاق أهل أصفهان وطالب الجميع بالخروج ومهاجمة المحاصرين ، ولكن خروجهم اليائس لم يحقق شيئًا بسبب خيانة والى عربستان الثانية . كان هذا الشخص فى سائر تلك الأيام السوداء شيطانًا يطارد الشاه التعيس ، وكان رجال البلاط الإيرانى كأنهم أصابهم نوع من الجنون جعلهم يطمئنون إلى كل خائن ويشكون فى كل شجاع ووطنى من الولاة مثل لطف على خان ؛ فكانوا يخفضون درجاتهم ويفضلونهم ، وخلال نحو أربعة شهور قبل استسلام أهل المدينة افترسهم قحط غير عادى انتهى بهم إلى أكل الكلاب والقطط وأجساد الموتى ؛ وهلك خلق كثير ،

وأتى التفصيل المؤسف لهذه الأحداث فى كتب كروسينسكى وهانو وما كتبه موظفو الشركة الهولندية المسماة Dutch East India المقيمون - إذ ذاك - بأصفهان ، والنص الإصلى لهذه الكتابات الأخيرة نقله Dunlop فى كتابه القيم المسمى (إيران (Persie) (هارلم ١٩١٣ م ، ص ٢٤٢ - ٥٧) .

استسلام أصفهان فى ٢١ أكتوبر ١٧٢٢ م

فى آخر سبتمبر ١٧٢٢ م تهيأ الشاه حسين إلى تسليم عاصمته إلى الأفغان ، لكن محمود أطال المحادثات أربعة أسابيع أخرى لكى يقلل من عدد المحصورين عن طريق الحصار والقحط ويضعف قواهم الفكرية ، حتى سمح فى ١٢ أكتوبر فى النهاية للشاه بأن يمشى مترجلاً إلى فرح آباد الذى كان من قبل متنزهاً محبوباً وأثيراً له، وصار إذ ذاك معسكراً لأعدائه القساة الجفاة ؛ لكى يقدم التاج إلى محمود الذى لبسه بعد ستة أيام .

ولما سمع طــهـماسب بقزوين خبر اعتزال والده لبس تاج الملك ، لكن القائد الأفغانى أمان الله خـــان بعد أن اســـتولى فى طريقه على قم وكاشان طرده فى ٢٠ ديسمبر من قزوين .

استمداد طهماسب الرس والأتراك

فى هذا الوقت توسل طهماسب بوسيلة لا رجاء منها ولا صلاح : وهى الاستنجاد بالروس والعـثـمـانيين، وكـانت هاتان الدولتـان ترنوان بعين الطمع إلى بلاد إيران المحتضرة ، وأخذت إحداهما جيلان والأخرى تفليس ، وعقدت معاهدة فى ٢٣ سبتمبر ١٧٢٣ م يتخلى بموجبها الشاه طهماسب مقابل طرد الأفغان من إيران وتجديد استقرار الحكم الصفـوى عن جــيلان ، ومازندران، وجرجان ، وباكر ، ودربند ، وما يتبعهما لروسية ، ولم يمض وقت حتى استولى الأتراك على أيراوان ونخجوان

وخدى وهمدان لكنهم طردوا من تبريز . وعقدت فى يوليو ١٧٢٤ م فى إسلام بول معاهدة بين روسيا وتركيا لتقسيم إيران (راجع مواد هذه المعاهدة الثمانى فى ج١ ، ص ٢٠٠ من كتاب هانوى ثورة إيران) .

قسوة الأفغان وسفكهم الدماء

انشغل محمود بسفك الدماء فى أصفهان : ففى ١٧٢٣ م قتل نحو ثلاثمائة من النجباء ورؤساء المدينة ، ووصلت قسوته حد قتله مائتى طفل من أسر القتلى ، كما أهلك نحو ثلاثة آلاف من الحرس الملكى ومعهم جماعة ممن كان يشك فيهم أو يخشى نفوذهم وقوتهم . وفى السنة التالية (١٧٢٤ م) نجح أحد قادته - واسمه زبردست خان - فى السيطرة على شيراز التى فشل فى أخذها زميله السابق نصر الله ، وفى أواخر هذه السنة تأهب محمود لمهاجمة يزد التى لم تستسلم حتى ذاك الوقت فقتل مسلمو هذه المدينة عدداً كبيرا من الزردشتيين خشية أن يقتدوا بالزردشتيين بكرمان وينضموا للأفغان .

قتل محمود لبقية الأسرة الحاكمة ، وقتله بيد أشرف

قلق محمود فى هذه الأوقات من عصيان ابن عمه أشرف وتمرده الزائد، كان كما اشتهر يعذبه ضميره ومضرباً وغير مستريح بسبب ما قام به من فظائع ؛ فتنزع بالتزهد ، لكن الزاهد زاده سوء خلق وجنوناً حتى إنه قتل جميع من بقى من الأسرة الملكية فى ٧ فبراير ١٧٢٥ م ما عدا الشاه حسين ووالديه الصغيرين ، ومن هذا الوقت تزايد اختلال أموره حتى قتله فى ٢٢ أبريل (١٧٢٥ م) ابن عمه أشرف وجلس على عرشه ، وكان محمود فى السابعة والعشرين من عمره حين مات ، ويقال فى وصفه : إنه كان رجلاً متوسط القامة وسفاحًا ، وكانت رقبته من القصر بحيث يظن أن رأسه نمت فوق كتفيه ، ووجهه نحيف وأنفه عريض ولحيته خفيفة وحمراء ، كانت نظراته ومنظره وحشياً وشكله جافًا وغير مقبول ، وكان يغض بصره الأحول الأزرق إلى الأرض كمن يغوص فى بحار الفكر .

وفاة بطرس الكبير وهجوم العثمانيين على إيران

صارت فى هذا الوقت روسيا جاراً قليل الخطر بسبب موت بطرس الكبير ، لكن العثمانيين كانوا يتقدمون دائماً حتى تحجوان فى النهاية فى ٣١ أغسطس ١٧٢٥ م فى فتح تبريز ، بل وتقدموا حتى قبل أصفهان بثلاثة منازل ، لكنهم رجعوا قبل وصلهما واستولى على قزوين ومراغة فى ١٧٢٦ م لكن أشرف هزمهم قرب كرمان شاه ، وكان رسول أشرف وهو عبد العزيز خان قد وصل وقتذاك إلى إسلام بول ، وكان يدعى بغرور أن ملكه هو خليفة الشرق والسلطان العثمانى هو خليفة الغرب ، وكان كلامه سبب تكدر الحاشية العثمانية ، ولكنه أنجح محادثات السلام بالتدريج .

محادثات العثمانيين والأفغان

كان الجنود والشعب التركى يكره كثيراً حرب الأفغان ؛ لأنهم كانوا لا يعرفون سبب قتالهم للسنة شركائهم فى المذهب وإعادة الأسرة الشيعية مرة أخرى إلى عرشها بالنتيجة ، من ناحية أخرى فقد أوجب العلماء الحرب بأن تشتيت الخلافة أمر مضر للإسلام ؛ ومع ذلك فقد أعدت معاهدة صلح فى النهاية فى سبتمبر ١٧٢٦ ك (راجع موادها التسع ج١ ، ص ٢٥٤ – ٥ من كتاب هانوى) ووقعت بهمدان .

ظهور نادر شاه

لم يزل هذا الخطر تماماً حتى حدثت واقعة أخرى وصارت فى قليل من الزمن شؤم سوء على الأفغان ، وكان هذا الخطر هو ظهور نادر قلى الذى عرف فيما بعد بنادر شاه وهو من النوابغ الخارقين والمتهورين والسفاحين ، ولم ير نظيره فى إيران ، كان حتى ذاك الوقت فى نحو الأربعين ولم يسمع عنه شىء ، لكنه خرج فى هذه السنة من مكمنه وهو قلعة طبيعية عرفت فيما بعد ذاك بـ (كلات نادر) أو قلعة نادر ، وهزم جيشاً من الأفغان ، واستولى على نيسابور باسم طهماسب ، وكان الشاه يقيم مؤقتاً

فى فرح آباد ، وكان رئيس قبيلة قاجار واسمه فتح على خان يستقبله ويحميه بحب مخلوط بالغرور والتكبر .

قتل فتح على خان القاجارى

بعد هذا النصر زار نادر السلطان الهارب واستجلب له حب الشاه ، وفى مدة قصيرة أوغر صدر الشاه على فتح على ورتب أسباب قتله ، وفى ١٥ مايو من السنة التالية (١٧٢٨ م) دخل الشاه طهماسب ونادر بجلال عظيم نيسابور .

فتح نيسابور

فى هذا الأوان كان نادر يسمى طهماسب قلى أى عبد طهماسب ، وأبدى أهل نيسابور كامل سعادتهم ، ولم يطل الوقت حتى رحلا عن نيسابور إلى مشهد ومنها إلى هراة ، وأرسل الشاه سفيرا إلى إسلام بول ، وأتى إيران فى المقابل سفير تركى اسمه سليمان أفندى .

هزيمة أشرف فى الدامغان

كان أشرف قد جمع جيشًا قوامه ثلاثون ألفًا واستولى إذ ذاك على يزد وكرمان واتجه إلى خراسان لملاقاة طهماسب ، لكنه هزم فى الثانى من أكتوبر فى الدامغان من نادر هزيمة حاسمة ، وجرت الحرب الشديدة الثانية فى السنة التالية فى مورجه خوار قرب أصفهان ؛ وانهزم الأفغان ثانية واضطر اثنا عشر ألفا منهم إلى إخلاء أصفهان .

إخلاء أصفهان وقتل الشاه حسين بيد الأفغان

لكن أشرف قبل إخلائه المدينة التى ولت وجهها إلى الخراب على يده قد قتل الشاه حسين التعيس ونهب أغلب حريم الشاه وخزانته ، وحين دخل أصفهان الشاه طهماسب الثانى فى ٩ ديسمبر لم يجد غير أمه العجوز فرت بلباس الجوارى واختفت، وكان الشاه يبكى فى كل خطوة يرى فيها ما حدث فى المدينة من خراب ونهب .

هزيمة الأفغان قرب برسوبليس وموت أشرف فى ١٧٣٠ م

تقدم نادر بعد أن استجاز الشاه طهماسب فى تحصيل الضرائب بتوقيعه يطارد الأفغان فى الجنوب ووصل إليهم قرب برسوبليس وغلبهم ثانية ؛ فهرب أشرف من شيراز إلى ولايته ، لكن البرودة والجوع ومهاجمات سكان الولايات الواقعة فى طريقه بددت قواه وأجبر على التخلى عن أسراه وأمواله . وفى النهاية قتله واحد من البلوج ، وانتهت الفترة المنحوسة لسيطرة الأفغان التى دامت بإيران ثمانية أعوام بهذا النحو فى (١٧٣٠ م) .

عهد نادر إلى قتله فى عام ١٧٤٧ م

مع أن نادر شاه لم ير الوقت مناسبًا إلى عام ١٧٦٣ م لقبوله لقب سلطنة إيران ، لكنه كان يعد الحاكم الحقيقى لإيران من عام ١٧٣٠ م نفسه ، ولا يناسب المقام الحديث بدايته الحقيرة وصراعاته الأولى ، وقد ورد شرح هذا فى تأليفات هانوى وملكم وسائر المؤرخين الإيرانيين .

عدم كفاءة طهماسب

تبين من اليوم الأول أن الشاه طهماسب ملك غير كفء ، وكانت الخطوة الوحيدة المستقلة التى بادر بها لأظهار كفائتة الشخصية هجومه على الجيش العثمانى ، والذى أفضى به إلى هزيمته القادحة وضياع تبريز وهمدان منه ، وفى يناير ١٧٣٢ م عقد معاهدة مهينة جداً له مع الأتراك وتخلى بموجبها عن جرجستان وأرمنية إلى العثمانيين بشرط أن يمده هؤلاء بالمساعدة فى طرد الروس من جيلان وشروان ودربند .

حكم عباس الثالث

عاد نادر محنقاً تماماً فى أغسطس ١٧٣٢ م إلى أصفهان واحتال ؛ فأسر طهماسب وحبسه ونادى بابنه الذى لم يتجاوز إذ ذاك ستة شهور ملكاً باسم عباس الثالث ، وأرسل قبل كل شيء رسالة يتوعد فيها أحمد باشا حاكم بغداد وأعلن الحرب فى شهر أكتوبر.

وفى أبريل فى العام التالى (١٧٣٣ م) اقترب نادر بعد فتح كرمانشاه إلى بغداد ومعه ثمانون ألف رجل ، لكنه هزم فى ١٨ يوليو فأجبر للراحة وترميم جيشه على الانسحاب حتى همدان ، وبدأ فى الهجوم فى الخريف ، وحطم الجيش العثمانى فى الحرب العظيمة التى وقعت فى ٢٦ أكتوبر وقتل (توبال عثمان) ، وكان شاباً ظريفاً حسن الرأى وأخمد الثورة التى شبت فى فارس من أجل تجديد سلطنة طهماسب المخلوع ، وفى ١٧٣٤ م هاجم جرجستان واستولى على تفليس وجنجة وشماخى واستبعاد من الروس جيلان ودربند وباكو ورشت ، وهزم ثانية الأتراك قرب أيروان فى السنة التالية (١٧٣٥ م) ، واستولى على أيروان وأرضروم .

انتخاب نادر للسلطنة

أعلن نادر وفاة الشاه عباس الثالث لأعيان الجيش وممثلى الأمة الذين تجمعوا فى بداية العام التالى الموافق ٢١ مارس ١٧٣٦ م ، ودعاهم إلى رفع طهماسب المخلوع

ثانية إلى العرش أو اختيار سلطان آخر فى ظرف ثلاثة أيام ، وكان المقصود من الشخص الثانى هو نفسه ، وكان اختياره مقصد أغلب الجنود وقواد جيشه وأجبرت أقلية المجتمعين التى لم تكن تميل إليه إلى القبول ؛ فأعطوه متفقين تاج إيران فقبله نادر بشروط ثلاثة : هى أن تكون السلطنة وراثية فى أسرته ، وألا يجرى فى أية حال كلام عن تجديد الحكم الصفوى ، ولا يساعد أحد من هذه الأسرة إذا ادعى السلطة، وأن تقف وتترك سائر الأعمال الخاصة بالشيعة وأهمها سب الخلفاء الثلاثة وتعزية الحسين ، ولم يستسغ الإيرانيين الشرط الأخير ، ولما طلب نادر فتوى كبير الدينيين أجاب بجرأة شديدة : أن هذا الشرط (يخالف مصالح المؤمنين الحقيقيين) ؛ فانتهت حياته بسبب هذه الجرأة ؛ لأن نادر أمر بخنقه ، ولم يكتف نادر بهذا بل استولى حين دخل قزوين على الأوقاف . وأنفق عوائدها على جيشه قائلاً : يلزم الجيش لإيران أكثر من الأوقاف، وفى نهاية تلك السنة عقد معاهدة مع العثمانيين تملك بمقتضاها جميع الولايات التى ضاعت من قبل ، وفى ديسمبر من العام نفسه توجه بمائة ألف جندى إلى أفغانستان والهن ، وجعل ابنه رضا قلى نائب سلطنة إيران .

شهد العامان التاليان لهذا التاريخ (١٧٣٧-٩ م) أعظم فتوحات نادر العسكرية فقد حدث فيهما فتح الهند والاستيلاء على لاهور ودلهى وعودة نادر إلى إيران بغنائم نقدية وعينية من أقوال الهنود العاثرى الحظ ويقدرها (هانوى) بنحو (٨٧٥٠٠٠٠) ليرة أو مائة وعشرين مليون جنية إنجليزى (ثورة إيران ٢ / ص ١٨٨) .

فتح نادر فى الهند (١٧٣٧ - ٩ م)

فى عام ١٧٣٨ م استولى على قندهار وكابل وبيشاور وعبر نهر السند فى أوائل السنة التالية استولى على لاهور وحطم فى فبراير ١٧٣٩ م جيش محمد شاه المؤلف من نحو مائتى ألف مقاتل فى صحراء كرنال ، ودخلت دهلى فى يده بدون قتال ، لكن ثورة نشبت بعد ذلك بأيام عدة وهلكت جماعة من الجيش الإيرانى ؛ فأمر نادر بإنزال مذبحة بأهلها انتقاماً ؛ فقتل مائة ألف وعشر مدنى فى مذبحة استمرت من الثامنة قبل

الظهر إلى الثالثة بعد الظهر لم يكن نادر شاه يتوقع قط بالاحتفاظ بالهند تحت سيطرته ؛ فترك بعد جمة الغنائم الكبيرة التى ذكرنا مقدارها العرش والتاج إلى محمد شاه ، وحذره بأنه سيعود إذا اقتضى الأمر وعاد إلى إيران فى مايو وانحرف عن خط سيره لتأديب أوزبك خيوه وبخارا واستولى على بخارى فى نوفمبر ١٧٣٩ م .

وفى غياب نادر قتل رضا قلى طهماسب الحزين مع أغلب أفراد أسرته فى سبزوار ، وبدأ يظهر رغبته فى أنه لن يفقد منصبه بعد عودة أبيه ، وسوف يحتفظ بالسلطة لنفسه على الدوام .

ثورة رضا قلى وسمله

لما أخبر نادر بأن ابنه يتآمر على حياته أمر بسمل عينيه ، لكنه فارقه من بعد ذلك ما لازمه من حظ وإقبال عظيم ؛ إذ زاد كره الناس له بسبب قسوته الزائدة وظلمه وجوره وحرصه ، وأهم من هذا كله إقرار المذهب السنى فى إيران .

رأى نادر فى الدين

من جملة تجديده ترجمة القرآن والتوراة والإنجيل إلى الفارسية ، وأمر بأن يقرأ عليه فى طهران التوراة والإنجيل ، وقد قامت جماعة من النصارى بترجمتهما بأمره وأخذ وهو يستمع إلى العهد القديم والجديد يأولهما ويفسرهما من باب الاستهزاء ، وقال: إنه حين تسنح الفرصة والمجال سوف يشرع ديناً جديداً (ربما يقلد السلطان المغولى أكبر) ، سوف يحل محل اليهودية والنصرانية والإسلام .

غدت خططه الحربية بلا تأثير كذلك فلم تؤد حربه مع اللجزيين فى ١٧١٤ -٢ م إلى نتيجة وفشل فى أخذ الموصل فى حربه العثمانيين التى أنهمك فيها ١٧٣٤ م ولابد أن نعتبره مهزومًا ، أخمد بصعوبة شديدة وإهراق دماء كثيرة الثورات التى شبت فى فارس وشروان ، مع هذا أخمد ثورة طائفة القاجار فى استراباد فى سنة ١٧٤٤م ،

وهزم فى أغسطس١٧٤٥م الأتراك على حدود إيران ، وعقد معهم صلحًا ناجحًا فى ١٧٤٦م وفى السنة التالية قصد نادر كرمان وأحل بها ضرابًا وخسرانًا كبيرين واتجه منها إلى مشهد قد خلها فى آخر مايو ١٧٤٧ م، وفى هذه المدينة دار برأسه فكر فاسد وهو أن يـقتل كافة قواده وجـنوده الإيرانيين (لأن أكثر جيشه كان من التركـمان والأوزبك أى السنة) .

قتل نادر فى ٢٠ يوليو ١٧٤٧ م

لكن غلامًا جرجيًا أفشى هذا السر لدى بعض قواد إيران فعزموا طبقا المثل الذائع الفارسى (يتغنون به قبل أن يتعشى بهم) ؛ فدخل صالح بيك ومعه أربعة شركاء ليلاً خيمة نادر وخلصوا بلادهم من امرئ رغم أنه خلص إيران فى الظاهر من نير الأفغان فى البداية ،لكنه سلك من بعد مسلكًا فظيعًا وخيم العاقبة . بلغ نادر وقت موته واحداً وستين عاماً وحكم أحد عشر عاماً وثلاثة شهور (١٧٣٦ - ٤٧ م) .

القلاقل بعد وفاة نادر

خلف نادر حفيده على قلى خان الملقب بعادل شاه ، لكن أخاه إبراهيم غلبه وقتله فى السنة التالية ، لكنه بدوره قتل فى السنة التالية على يد أحد أتباع شاهوخ حفيد نادر ، وكان شاهوخ ولد رضا قلى العاثر الحظ ومن بطن إحدى الأميرات الصفويات وهى بنت الشاه سلطان حسين جلس ؛ إذ ذاك على العرش ، ولم يمنع شبابه وجماله وحسن خلقه ولطف من سوء الحظ ؛ فبعد جلوسه بزمن قصير سمل عينيه وعزله سيد محمد الذى ينتسب من ناحية أمه إلى شاه سليمان الثانى من سلاطين الصفوية ، وقتل سيدا بدوره الفظائع والفوضى العامة والتى سادت إيران فى هذه الفترة ، ولبس شاهوخ التاج ثانية ، لكنه عزل ثانية ثم نصب أخرى وصار فى مشهد حاكم خراسان بالاسم . وقد منح هذه الولايات الاستقلال الاسمى أحمد خان الأبدانى مؤسس الدولة

الحالية الأفغانية (والذى عرف بأحمد شاه الدرانى فيما بعد) قبل خروجه من إيران ؛ وذلك لكى تكون مانعاً وحائلاً بين بلاده وإيران وانقضى باقى عمر حكم شاهوخ الأعمى الذى استمر نحو خمسين سنه أو إلى عام ١٧٦٩ بدون واقعة وحادثه تذكر .

الأسرة الزندية (١٧٥٠ - ١٧٩٤ م)

الأخلاق الحسنة لكريم خان زند

يقول السير جون ملكم (١١١ / ٢ و ٥٨ / ٢ من الترجمة الفارسية) : (لا يعرف تاريخ إيران إلينا من وفاة نادر شاه إلى عهد أغا محمد أى نقطة بارزة إلا حياة كريم خان زند ، وسوف يشعر بهذا أيضًا المؤرخ الذى يقارن العهد السعيد لهذا الملك بفترات الملوك السابقين واللاحقين له ، وكأن شخصاً بعد سفر مضنى جداً يصل إلى ولاية عامرة وآمنة من الحوادث وتفيض بالسعادة والمرح ، وإن شرح أعمال هذا الشخص الذى ولد فى طبقة وضيعة ووصل أعلى مقام بلا أية جناية واستعمل قوته بالعدل والإنصاف الكامل يبدو فى مثل هذا العهد عجيبًا جداً ؛ بحيث لا تساوى فى غير غرابته إنسانيته وعدالته) .

جعل حاكم زند من شيراز مقر حكمه وسعى بجهد عظيم فى تعميرها وتزينها حتى إن اسمه يذكر فى هذه المدينة حتى اليوم باحترام ، ولم يحكم كريم خان فى أى وقت سائر بلاد إيران ولم يطلق على نفسه لقب السلطنة ، وقنع بلقب الوكيل أو نائب السلطنة . فى بداية أمره كان هو وأحد رؤساء قبيلة بختيار اسمه على مردان خان نائبين بالاشتراك لسلطنة شخص يعدونه صدقًا أو كذباً حفيداً للشاه السلطان حسين وضما إليه أصفهان وأجلساه على عرشها ، وبعد قليل قتل على مردان فصار كريم خان الحاكم الحقيقى لإيران الجنوبية ، وكان منافسه أزاد أفغان المستقر بشمال إيران الغربى وأذربيجان ، ثم محمد حسن خان أبا أغا محمد خان قاجار ، وولد فتح على خان الذى قتله نادر فى بداية ظهوره ، وكان محمد حسن فى هذا الوقت مستوياً على ساحل الخزر ، وكان أزاد أول منافس أزيل من رأس مثلث المنافسة ، غلبه كريم

خان فى البداية وأجبره على إخلاء أصفهان وشيراز معًا ، لكنه سقط فى الفخ فى مضيق كماريج أو كمارج حين كان يتعقب بلا هوادة غريمة ، وفقد جماعة من أتباعه وفر هو نفسه ، وبعد أن لجأ بباشا بغداد ، وألقى هراكليوس ملك جرجستان فى النهاية بنفسه على ذيل فتوة كريم خان ؛ فأكرمه كثيراً ووهبه أعلى درجة بين حاشيته ، وأظهر له من الثقة والطمأنة حتى أحال منافسه المنشق إلى محب موافق ، وبعد ذلك بنحو أربعة أعوام من حرب كماريج أى ١٧٥٧ م وقع كريم خان موضع هجوم شديد من منافسه الآخر محمد حسن خان قاجار ، لكن هذا بعد نجاحه الأولى طرد إلى داخل مازندران ثم غلبه وقتله شيخ على خان قائد كريم خان فى ١٧٦٠ م ، وحكم من هذا الوقت إلى عام ١٧٧٩ م سنة وفاة كريم خان إيران جميعها رسميا ما عدا خراسان التى كان يحكمها بالاسم شهرخ الأعمى بدون أن يشكل خطراً على جيرانه ، وأهم حروب حكم هذا الملك انتزاع البصرة من أيدى العثمانيين فى ١٧٧٦ م .

فتح البصرة على أيدى الإيرانيين

كان فاتح البصرة هو صادق خان أخا كريم خان وظل يحكمها إلى وفاة أخيه، لكنه تركها إذ ذاك إلى العثمانيين ، وعاد إلى إيران واشترك فى النزاع الأسرى والصراعات العائلية فى تلك الأيام .

وفاة كريم خان وفرار أغا محمد خان فى ٢ مارس ١٧٧٩ م

إذا وضعنا مأخذ المقارنة النتيجة التالية فإن أهم واقعة حدثت بعد وفاة كريم خان هى فرار أغا محمد خان قاجار الذى كان يعيش لسنوات طويلة حبيساً ، وتحت المراقبة فى شيراز فى أيام طفولته جب ذكره بأمر عادل شاه حفيد نادر ؛ ومن هنا سمى (أغا) اللقب الخاص بالخصيان ، وبعد هزيمة أبيه محمد حسن خان ووفاته أسر كريم خان هذا الولد فى ١٨٥٧ م واستاقه إلى شيراز ، لكنه كان يعامله بكامل الرأفة

والعطف ويظهر له فتوته ومروئته إلى الحد الذى لا يناقض حالة حبسه حتى إنه سمح له بأن يصطاد بحرية فى أطراف شيراز بشرط أن يعود إلى المدينة قبل أن تقفل بواباتها .

وحين كان فى عودته عصر يوم ١٢ من صفر ١١٩٣ هـ (١ من مارس ١٧٧٩م) إلى المدينة أخبرته أخته – التى تسكن القصور الملكية – أن كريم خان فى الاحتضار، فأطلق أغا محمد أحد الطيور المحبوبة له وتذرع بفراره لكى يقضى الليل خارج المدينة ، ولما سمع بأن كريم خان تنفس آخر أنفاسه بعد السحر بساعتين اغتنم فرصة اختلال الأوضاع ؛ واتجه إلى الشمال وطوى بسرعة مراحل الطريق حتى وصل أصفهان فى اليوم الثالث ؛ ثم دخل مازندران وجعلها مركز تحركاته التى انتهت بعد خمسة عشر عامًا إلى هدم الأسرة الزندية وانتقال السلطة إلى الأسرة القاجارية ، ولا يلزم هنا شرح صراعات الأمراء الزندية ، وكيف أنها استأصلت شأفة الأسرة الزندية خلال عشرة أعوام (١٧٧٩ – ٨٩ م) ، وكيف وحد وربط أغا محمد القوى القاجارية بتحمله الخارق ودقة نظره السياسى .

أخلاق كريم خان

جلس على العرش فى عام كريم خان نفسه أربعة من أسرته واحد بعد الآخر ؛ هم: ابنه أبو الفتح ، وحفيده على مراد ، وابنه محمد على ، وأخوه صادق ، قتل على مراد الذى وصل الحكم مجدداً صادق خان مع كافة أولاده ماعدا جعفر خان فى مارس ١٧٨٢م ثم توفى على نفسه فى يناير ١٧٨٥م بأصفهان ، وخلفه جعفر ، وذكر حاجى سليمان كاشانى المتخلص بصباحى تاريخ جلوسه فى شعره التالى:

سنة جلوسه المبارك الميمون بالضبط
وهى بداية تاريخ سرور العهود

كتبها قلم صباحى : من القصر السلطانى
جرح على مراد وجلس جعفر خان

فحروف (قصر سلطانى) تشكل (٥٥٠) بحساب الجمل ، فإذا طرحنا منها (٣٥٥) عدد حروف على مراد ثم جمعنا عليها عدد حروف جعفر خان (وهى ١٠٠٢) تصير (١١٩٩) تاريخ جلوسه المطابق لعام (١٧٨٥) الميلادى .

لطف على خان آخر سلاطين الأسرة الزندية

قتل جعفر خان فى ٢٥ ربيع الثانى ١٢٠٣ هـ (٢٣ يناير ١٧٨٩ م)، وجلس مكانه ابنه لطف على خان الجميل والسيئ الحظ ، يشرح السير هاروفرد جونس بردج H.G.Bridge Sir الذى زار شيراز أول مرة فى ١٧٨٦ م شخصية هذا الملك وجماله بقوله المؤثر وهو كالتالى : (إذ شرحت وقائع عهد سلطنة لطف على خان والمصائب التى حلت به والشقاء الكثير وأطلت فى شرحى فأملى أن يسامحنى القارئ ، حين اعتلى العرش أظهر لى حبًا واهتمامًا عظيمًا ولم يتوار ، وهرب صار من فخرى أن أشاركه الجلوس على سرج من اللباد تحت خيمة حقيرة ، كانت خصاله الحميدة تزيده إعزازًا فى عيون الرعية شجاعته وثباته وجرأته وبراعته التى كانت تبدو منه فى أيام شقاء حظه يمكن أن تظل .

مضمون قصائد وغزليات ما بقت اللغة الفارسية ، كان فى أيام عزته ونعمته جوادًا ومحبوبًا وفاتنًا ، وفى أيام سوء حظه ومصيبته عظيمًا وجادًا بحيث لا يدانيه فى ذلك إلا قليل من البشر . كان شابًا ذا أبهة وصرامة وثبات ثم تقع له هذه الواقعة على يد من كان يثق به ، وهو الموجود الشريف الذى كان أمل بلاده وفخرها ، ويمضى عمره حتى النهاية لكل تحقير وإهانة تزلزل كل إنسان ويحرم ولده الصغير من عضو ذكورته وتدفن بناته فى التراب ، وينتهك عرض زوجته وشرفها ، وكل هذا من التقدير الإله ، ومع أننا لا نستطيع أمام محكمة الله أن نشكو منه أو أن نعارضه ، لكن لدينا رخصة لأن نعتبر به) .

شجاعة لطف على خان ورجولته والمصائب التى حلت به

مما يسعدنا أن بقى لنا مثل هذا المديح غير المغرض فى حق لطف على المسكين الذى يعد آخر بطل عاثر الحظ وسط سلاطين إيران ؛ سه القاسـى وعدوه الدموى أغا محمد خان ؛ لهذا لم يكن لديهم الجرأة على إظهار أحاسيسهم وعقائدهم الحقيقية مهما كانت ، فلم يكتبوا كلمة فى مدح هذا الملك المقتول وإلا صاروا أسرى غضب هذا القاجارى الفظ . مع أن الأسرة الزندية لم تدم ، لكنها بدأت بشرف وانتهت بشرف ؛ فقد كان الرجل الأول لهذه الأسرة أحد أفضل الطبقات العريضة والطويلة لسلاطين إيران ، وكان آخرها أحد أشجع ملوك إيران .

الأسرة القاجارية من ١٧٩٦ م فصاعداً

بما أن تفصيلات تاريخ القارجاريين جميعها فى متناول القراء الإنجليز ؛ فإن أردنا إيجازه ؛ فسوف يكون غير مناسب ولازم فى هذا الكتاب . توج أغا محمد خان رسمياً فى ١٧٩٦ م ، وقتل فى العام التالى ، فلم يلبس تاج إيران على هذا أكثر من خمسة عشر شهراً ، لكن عملياً فإن بداية حكمه لابد عدها من يوم وفاة كريم خان أى ١٧٧٩ م ، ولكنه كان يقول دائماً : طالما لم يخضع إلى جميع الإيرانيين الساكنين بداخل الحدود القديمة لإيران فلن أطلق على نفسى اسم الملك ؛ ولهذا رضى بأن يدعو نفسه ملكا بعد الاستيلاء على جرجستان ، وبين السـير جـون ملـكم فى تاريخه ص ٣٠٠ - ٣٠٢ صورته وسيرته بعبارة قديرة (قتل أغا محمد خان فى الثالثة والستين وحكم أغلب إيران فيما يزيد عن عشرين عاماً ، لكنه حكمها مدة قليلة بلا معارض فى سائر بلادها . كان نحيف القامة ؛ بحيث يبدو من بعيد ولداً عمره نحو خمسة عشر عاماً ، كان يشبه امرأة عجوز متغضنة الوجه بوجهه الضعيف الخالى من الشعر ، ومع أن وجهه لم يكن مقبولاً قط ، لكنه كان يبدو مهاباً حين يجتاحه الغضب ، كان الغضب يجمح به فى الغالب ، وكان يعلم هذا جيداً؛ ولهذا لم يكن يحب أن ينظر إليه

أحد ، جرى له فى عنفوان شبابه عدا شديد حتى إن سلكه وعمله فى بقية حياته كان قائمًا على تنكره أيام عجزه وعهد شقاء حظه وعثرته. وكان أول جنونه ميله للتسلط ، وثانيه الخسة واللؤم ، والثالث الانتقام ، وكان يفرط فى هذه الحالات الثلاث الجنون ، وكل منها يتمم الأخرى ، لكن الصفتين الأخيرتين إذا تصادفتا مع شهوته للانتقام ؛ فكان يعزل نفسه ويترك الطريق مفتوحًا له ، كان ماهرا للغاية فى معرفة أخلاق الآخرين وأحاسيسهم وإخفاء أسراره ؛ ولهذا انتصر على أعدائه وحقق أمانيه ، لم يكن يلجأ إلى العنف طالما كفته الحيلة مع أعدائه ، وكان تدبيره يؤثر فى الحرب أكثر من سيفه ، لما سئل أكثر وزرائه ثقة وكفاءة : هل أغا محمد نفسه كان شجاعًا أو غير ذلك ؟ فقال : لا شك فى شجاعته ، لكنى لا أذكر أن ظهر مجال وفرصة لإثبات شجاعته ، فإن رأسه لم تدع أمرًا مشكلاً لديه قط) .

فتح على شاه ١٧٩٧ - ١٨٣٤ م

وصل العرش بعد أغا محمد خان ابن أخيه فتح على شاه ، وكان رجلاً مأسورًا للنسوة وطالبًا لكثرة الولد ، وكان رجلاً مهملاً ولئيمًا فوق العادة بجمالى وجهه ولحيته الطويلة ، لكنه لم يكن دمويًا إذا قيس بعمه ، ويقال على رغم أنه كان مضطرًا - كما كان التقليد- إلى حضور جلسات قتل المجرمين ، لكنه كان يشيح وجهه دائمًا حتى لا يرى المدان الشقى الحظ وهو فى حال الاحتضار . كان له تمكن من الشعر إلى حد ما ، وبقى عنه غزليات كثيرة تخلص فيها بـ (خاقان) كان أهم وقائع حكمه من الناحية السياسية تنافس الإنجليز والفرنسيين ؛ فقد قدم إيران من طرف الإنجليز وفد برئاسة ملكم وهرفورد جانس بردج ومن طرف فرنسا جوبير والجنرال جاران (١٨٠٠ - ١٨٠٨ م) ، وأفضى الخطر المتزايد لروسيا إلى المعاهدتين المنحوستين ، (جلستان) عام ١٨١٣ ، وتركمان تشاى (١٨٢٦ م) وانتهى القتال مع العثمانيين فى سنة ١٨٣٢ م إلى معاهدة أرضروم ، وسائر الوقائع المهمة لحكمه هى : إذلال حجى إبراهيم خان وموته والقضاء على أسرته فى نحو عام (١٨٠٠ م) ، وقتل جر يبايدوف والروس المقيمين بطهران فى ١١ فبراير ١٨٩٢ م والموت المفاجئ لعباس ميرزا ولد الشاه فى

السادس والأربعين عام ١٨٣٣ م ، وظل أبوه حياً بعده نحو العام ومات فى الثامنة والستين فى ٢٣ أكتوبر ١٨٤٣ م ، وخلّف ٥٧ ولداً ٤٦ بنتا لكى ينوحوا عليه فى موته .

محمد شاه ١٨٣٥ - ١٨٤٨ م

خلف فتح على شاه حفيده محمد شاه ولد عباس ميرزا الذى توج فى آخر يناير ١٨٣٥ م ، وكان لمحمد شاه منافسان ومدعيان : أولهما ظل السلطان ، ثم أخوه القائد ، وتيسر لجيش إيران القضاء عليهما بدون مشكلات كثيرة لقيادة السير هنرى ليندساى بتون S.H.L.Bethune ، ورغم أن الشاه كان له الحق فى أن يمتن للإنجليز والروس ويشكرهم لأنهم هيأوا أسباب ارتقائه العرش ، لكن بسبب أن هذين المساعدين القويين أخذا يتخلان فى شئون إيران بسبب هذه المساعدة ؛ فقد صارا علاقة مشئومة وسابقة خطيرة لإيران ، وحدث فى هذا العام نفسه عزل أبى القاسم المعروف القائم مقام ، وكان أقوى وزراء الملك وقتله ، ولا يزال الإيرانيون يعتبرون أبلغ المترسلين وخلفه رئاسة الوزارة حاجى ميرزا أغاسى المعروف بالصدر الأعظم الذى لا تزال تدور عنه حكايات مضحكة (راجع كتاب جوبينو واسمه الأديان والمذاهب الفلسفية فى آسيا الوسطى ٢ / ص ١٦٠ - ٦ ، باريس ١٨٨٦ م) ، ولا يلزمنا القول فى الحصار الطويل وغير المجدى للإيرانيين لهراة وتنافس الروس والإنجليز الذى شب لذلك السبب ، كذلك لن نتحدث عن السير ج. ماكينل الذى كان الوزير المفوض للإنجليز فى إيران من ١٨ إلى ١٨٤١ م واستدعى فى هذه السنة والمتنازعات العثمانية والإيرانية بشأن ترسيم الحدود فى ١٨٤٢ م والمذبحة التى أوقعها العثمانيون بالإيرانيين المقيمين بكربلاء فى ١٨٤٣ م ؛ فقد فصل فى هذه الوقائع ج.واطسون وغيره من مؤرخى إيران ، ولا يستحق فى نظرنا الاهتمام بغير ثورة الإسماعيلية فى (١٤٨٠ م) وظهور المذهب البابى فى ١٨٤٤ م .

الإسماعيلية فى القرون الحديثة

نكرنا فى المجلد الأول لهذا الكتاب نقاطًا حول أصل طائفة الإسماعيلية أو السبعية وعقائدهم ، وذكرنا أيضاً سقوطهم على يد هولاكو خان وسط القرن الثالث عشر الميلادى فى الجزء الثانى لهذه السلسلة ، ومع أن قوتهم كانت متجهة للضعف فى إيران لكنهم لم ينتهوا تمامًا وظهروا بين الفنية والأخرى فى صفحات تايخ إيران ويشير إليهم كثيراً ناسخ التواريخ فى الجزء الخاص بالقاجاريين ، وأول إشارته ضمن أحداث ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م المتصلة بموت شاه خليل الله ولد سيد أبو الحسن خان الذى ترأس فى ذاك العهد هذه الطائفة فى يزد ، وكان أبو الحسن حان حاكم كرمان فى العهد الزندى ، ثم آثر العزلة بعد فصله فى محلات بقم ، وكان أتباعه الكثيرون كانوا يرسلون له من الهند وآسيا الوسطى النذور والعشور والخضوع ، ويروى أن من عجز منهم عن إرسال نذره وماله له كان يلقى بهما فى البحر اعتقاداً منه بأنهما سوف يصلان إلى يد إمامه ، لكنهم كانوا يخفون للمثول أمامه وقت الاستطاعة، ويعتبرون أن الثواب والافتخار هو المثول بأشخاصهم أمامه بل الاستسلام له بالعبودية والخدمة .

قتل شاه خليل الله (١٨١٧ - ١٨٣٢ م)

جعل شاه خليل الله ولده من يزد محل إقامته ، لكنه قتل بعد سنتين من إقامته فى النزاع الذى شب بين أتباعه الشيعة بهذه المدينة بتحريض الملاّ حسين ؛ وعاقب الشاه هذا المحرض وزوج إحدى بناته لأغا خان ولد إمام الإسماعيلية المقتول وخليفته وجعله حاكم قم وأتباعها ومنها المحلات.

ثورة أغا خان فى ١٨٣٩ أو ١٨٤٠ م

وفى موضع آخر ضمن وقائع علم ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م أو ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠م جرى ذكر أغا خان هذا ، ويبدو أن التصرف المبتكر والإهمال الذى ظهر من عبدالمحمد

مجلاتى – الذى كان أغاسى حرضه – جعل أغا خان يثور ؛ فاستولى على قلعة (بم)، لكنه اضطر إلى التسليم إلى حاكم كرمان فيروز ميرزا فعفا عنه وأرسله إلى طهران ؛ فتلقاه أغاسى بقبول حسن وفوض إليه حكم ونواحيها ثانية ، ولكى يستريح أغا خان كان قد أرسل عياله وأمواله إلى كربلاء عن طريق بغداد ، ثم بدأ فى شراء الجياد القوية والسريعة وتجنيد الفرسان الشجعان والفدائيين ، ولما تمت استعداداته اتجه إلى كرمان من الصحراء بهدف أن يتجه إلى مكة عن طيق بندر عباس وأرضى وإلى كرمان عن سفره . ولما علم الأمير بهمن ميرزا بهاء الدولة بمقصده تعقبه وأدركه وحدث عراك بينهما ؛ فقتل ثمانية فرسان من جنود الأمير وستة عشر من أتباع أغا خان فى كامل الاتساع وكثرة النعمة ويقيم فى بمباى إلا فى الأوقات التى يسافر عنها أسفاره المتتابعة الطويلة البعيدة .

ناصر الدين شاه ١٨٤٨ – ١٨٩٦ م

لما دنت وفاة محمد شاه كان ناصر الدين ولى عهده يقيم فى تبريز وقامت وقت غيبته أمه " عهد عليا " من يوم موت الشاه إلى مجئ ناصر الدين بتصريف الأمور فى طهران ، وأجبر ميرزا أغاسى على ترك الوزارة لكره الشعب له واللجوء إلى ضريح شاه عبد العظيم ، وبدأت القلاقل فى العاصمة وحدثت ثورات شديدة فى بروجرد ، وكرمانشاهان ، وكردستان ، وشيراز وكرمان ، ويزد ، وخراسان ، وفى النهاية دخل العاصمة الشاه الذى لم يزد إذ ذاك عن السابعة عشر فى العشرين من أكتوبر ١٨٤٨ م ، ولبس تاجه ليلتها وجعل تقى خان المعروف بأمير النظام رئيس وزرائه ، وهذا الرجل رغم وضاعة نسبه – كان أبوه طباخ القائم مقام – أحد أعظم الرجال وأشرف وزراء إيران فى القرون الأخيرة وأكفأهم وأذكاهم ، ويصيح واطسون بحماسة بالغة أن (لا يمكن أن نسمى الجيل الحديث الإيرانى ضعيفًا وفاسدًا ؛ لأنه كان حريا بأن يظهر رجلاً مثل أمير النظام) ، ويقول بشأنه روبرت كرزون فى كتابه (أرمينة وارضروم) : (كان هذا الرجل أكثر استلفاتا للاهتمام من كافة المسئولين العثمانيين والإيرانيين والروس والإنجليز النين كانوا حاضرين إذ ذاك فى أرضروم ، ولا يمكن أن يقارن به

واحد منهم . قام بأعمال جليلة وبارزة لإيران فى السنوات الثلاث وتزروهم . ولا حاجة إلى تكرار الفاجعة المؤسفة لقتله التى تمت بلا أدنى رحمة وشفقة حين كان معتقلاً فى فى قصر (فين) الجميل القريب إلى كاشان ، ولكن لا يمكن السكوت عن وفاء زوجته وكانت شقيقة الشاه ، يقول واطسون (تاريخ إيران ، ص ٤٠٣) : (لم يظهر من أية سيدة تربت فى بلاطات ملوك أوربا وأثبت تاريخ العالم أحوالها ، ومع أن أزواج هذه السيدات كانوا ألمع مثال للزوجية والتقوى والجلال ، مثلما ظهر من المحبة والتضحية من زوجة الأمير الكبير فى حق زوجها المسكين ، ومع ذلك فوق العناية التى لا تكل ولا تمل التى كانت منها له فقد خدعها صاحب الدولة على خان ، وقد أفنى هذا الرجل حياتها فى النهاية فى ٩ يناير ١٨٥٢ م ، مع أنه كان رهن توجيهات الوزير لدرجة كبيرة).

ثورة البابية في ١٨٤٩ - ١٨٥٠ م

لم يحب البابيون تقى خان قط ، وسعوا بأعظم ما لديهم فى قتله ، وكانوا يعدون موته السريع معجزة من الله وانتقاماً ؛ لأنه كان يعد المسئول عن قتل الباب فضلاً عما أجراه من خطوات ضدهم وقتل الباب فى تبريز فى يوليو ١٨٥٠ م لكن هذا الباب - الذى لم يعد أن يكون سجيناً بلا حيلة - أشعل شعلة لم تنطفئ حتى الآن ، وألهبت نارها السوداء والفظيعة على وجه خاص السنوات الأولى من حكم ناصر الدين .

جوبينو

لا يمكننى أن أشرح بصورة أفضل وأدق مما شرحه وبينه بتحقيق لا يدانى الكونت جوبينو فى كتابه الذى لا نظير له (الأديان والمذاهب الفلسفية فى آسيا الوسطى) تاريخ أمر البابية فى شيخ طبرسى- ومازندران- وزنجان- ويزد- وتبريز- وسائر البلاد فى سنتى ٤٩ ، ١٨٥٠ م ، فقد استفدت شخصياً من ذاك الكتاب أكثر من كل مصدر عن إيران ؛ لأنى اطلعت من خلال هذا الكتاب ، ومن خلال اللقاء الذى تم لى صدفة ومن حسن حظى بأصفهان معهم على كيفيات المذهب البابى وتاريخهم ؛

ولهذا قد انفتح عليّ بين جماعة المستشرقين أول باب للشهرة . ظل جوبينو فترات فرنسا بلا قدر مثل الرسول في قومه ، لكن بعد أن نسته فرنسا فترات أسست ألمانيا جمعية اتحاد جوبينو عام ١٨٩٤ م ، ونشرت بضعة كتب في سيرته ومؤلفاته .

المؤامرة

رأت فترة قتال البابية وسفك دمائهم حين دبر ثلاثة منهم لقتل ناصر الدين شاه في ١٥ أغسطس ١٨٥٢ م فبدأت مذابحهم حتى قتل من رؤسائهم ثمانية وعشرون يختلفون أهمية منهم قرة العين الشاعرة المعروفة والبهية المطلعة ، وذات الطبع الفياخي التي ماتت بقسوة التعذيب ، ومن بقي من الرؤساء البابية انتهى أمرهم إلى النزوح عن أوطانهم أو النفي إلى بغداد ، ولم يَرجُ هذا المذهب من ذاك التاريخ فصاعداً داخل حدود إيران ؛ وإنما راج خارجها وصار مركز الدعاية له في : بغداد ، وأدرنة ، وقبرص . وعكا .

حرب إيران والإنجليز (١٨٥٦ - ٧م)

لا يلزم هنا ذكر علل الحرب القصيرة لإيران مع الإنجليز ووقائعها (١٨٥٦ - ٧م) وكان علتها استيلاء الإيرانيين على هراة . بدأت هذه الحرب باستيلاء الإنجليز على جزيرة خارك في خليج مارس في ٤ ديسمبر ١٨٥٦ م ، وانتهت بمعاهدة باريس بتاريخ ٤ مارس التي عقدها اللورد كاولي وفرخ خان مع أن الحرب استمرت شهراً بعد عقدها بسبب نقص وسائل الإعلام ، وكان إنهاء هذه الحرب مفيداً جداً للإنجليز ؛ لأن الثورة الهندية ضدهم بدأت وقت تبادل وثائق المعاهدة .

إنشاء التلغراف

انكشفت من تجربة هذه الحرب ضرورة وجود علاقات للمعلومات أفضل بين إنجلترا والهند ؛ ولهذا تأسس بإيران فى ١٨٦٤ م التلغراف واتسع بصورة كاملة بين سنتى ١٨٧٠ و ١٨٧٢ م ، ويعد تأسيس هذه المؤسسة أهم عامل لثورة إيران كما يذكر السير برسى سايكس الذى يضم كتابه تاريخ إيران أوضاع إيران من ١٨٥٧ إلى ١٩٢١ م.

عوامل أخرى للتجديد

من بين العوامل التى أثرت فى تجديد أحوال إيران التوسع فى الطباعة ، وكان أول من أنشأ آلتها الوحيدة فى تبريز فى ١٨١٦ م عباس ميرزا ، ومن نتائجها نشر الأدب وترويجه ونشر الصحافة التى بدأت ببطء من ١٨٥١ واتسعت أيام ثورة ١٩٠٦ إلى ١٩١١ م ، وبعد الثورة الروسية اتساعًا كاملاً ، ثم تأسيس دار الفنون وترويج العلوم والفنون الأوربية ، ثم الرحلات الثلاث للشاه إلى أوربا فى سنوات ١٨٧٣ ، ١٨٧٨ ، ١٨٨٩ م لكن يدور الشك فى أن الشاه نفسه أو رفاق سفره هل استفادوا من المشاهدات التى حصلوها أثناء رحلاتهم فى أوربا بالحد الذى يستفيد من شرح رحلاته الأدب الفارسى استفادة أدبية ؟

قتل ناصرالدين شاه فى ٥ مايو ١٨٩٦ م

تجاوز ناصر الدين شاه وقت جلوسه العرش فى ٢٤ ذى القعدة ١٢٤٦٤ هـ (٢٠ أكتوبر ١٨٤٨ م) سن السابعة عشر ، وفى ٥ مايو ١٨٠٦ م المطابقة لعام ١٣١٣ هجرى قمرى كان سنة حكمه الخمسين ، وقبل هذا الوقت بأربعة أيام حين كانت الاستعدادات اللازمة للاحتفال بالسنة الخمسين لحكمه خر صريعاً برصاص ميرزا رضا كرمانى أحد تلامذة جمال الدين الأفغانى فى ضريح شاه عبد العظيم . الوقائع التى أدت إلى هذا الحادثة وأسبابها وأهميتها ذكرتها بالتفصيل فى كتاب تاريخ ثورة إيران ١٩٠٥ – ١٩٠٩ م .

بذور الثورة

نشرت الثورة من تاريخ آخر رحلة للشاه إلى أوربا بل ونمت لأن امتيازات مضرة فوضها فى رحلته المذكورة ، وغدت هذه الامتيازات - خاصة امتياز الطباق (١٨٩٠ م) - سبب تحريك السخط السياسى ، وبدأ أول مظهر لهذا السخط فى ثورة الطباق (١٨٩١ م ووصل ذروته فى ثورة ١٩٠٥) والعلاقات السياسية لإيران مع الدول الأجنبية خاصة روسيا والإنجليز هو المادة العلمية والمرتكز لكتب التاريخ السياسى من مثل تاريخ سايكس ، لكن بإمكاننا أن نوجز تاريخ عهد ناصر الدين بغض النظر عن هذه الكتب كالتالى :

كانت السنوات الأربع الأولى لحكمه (١٨٤٨ - ١٨٥٢ م) تحوز الأهمية بسبب ثورة البابية ، وكذلك السنوات الست الأخيرة لحكمه (١٨٩٠ - ١٨٩٦ م) بسبب الغليان السياسى الذى انتهى فى عهد خليفته بالثورة العامة ، لكن السنوات الوسطى فى عهده كانت فترة الأمن والهدوء النسبى فيما يبدو ، ومن حسن حظى سافرت إلى إيران فى أواخر هذه الفترة (١٨٨٧ - ٨ م) ووفقت فى مشاهدة بقايا العصر الوسيط لتاريخ إيران ، ولم تقع واقعة غير مقبولة ، ويقال إن هذا الأمن بلغ هذه المرتبة بسبب تأديب الأشرار واللصوص وعقابهم الصارم المذهل فى بداية العهد ، لكنى حين سافرت لم أشهد شيئًا من ذلك النوع من التأديب ، ولم أسمع طوال فترة إقامتى بإيران أية حادثة خاصة من هذا القبيل . لكن خارج مدينة شيراز بدت لى أعمدة تشبه العفاريت من الصاروج يبدو من خلالها الهيكل العظمى للإنسان وتشهد بفترة حكم عم الشاه معتمد الدولة المتميزة بالشدة والخشونة ، لكنى رأيت بنفسى هذا الامير رجلاً مؤدباً وظريفاً وعالما مفتوناً بالكتب ، كانت البيئة - كما قلت - بيئة القرون الوسطى : كان يسمع بمشقة كلام فى السياسة والتقدم ، وكانت المباحثات غالباً تتجه إلى العرفان وعلوم الدين ، وكانت أكثر المناقشات السياسية حماسة هى التى تتصل بالخلفاء الراشدين أى سياسة القرن السابع الميلادى ، ولم يتولد ميل ضعيف لفهم ما يجرى خارج إيران إلا عن طريق صحف إيران والاطلاع على صحيفة (اختر) المنشورة بالعالم خارجنا غير البريد الذى يصل مرة كل أسبوع .

السنوات الثورية من سنة ١٨٩١ م فما بعدها

كم كانت متفاوتة ومتغايرة هذه الأوضاع القلقة لعام ١٨٩١ م والثورة الغضبى لعام ١٩٠٥ إلى ١٩١١ والخطر الروسى الذى بدأ فى عيد الفصح لتلك السنة نفسها وأشلت الأوضاع العانة بشكل الموت والحرب العالمية التى جعلت من إيران ميداناً لهجوم ثلاثة جيوش أجنبية وساحة للدسائس التى لا حد لها ، أنقذ إيران سقوط الإمبراطورية الروسية من كابوس ظل يجثم عليها مدة قرن ، وكان هذا السقوط يبدو للنظر أنه انتقام لعدم احترام الروس لضريح الرضا المطهر فى أبريل ١٩١٢ م ، ومن ناحية أخرى فإن انتهاء معاهدة إيران والإنجليز التى خرج بمقضاه الجيش والمستشارين الإنجليز من إيران تركها لحالها لكى تسير وترتب بحد قدرتها وإيراداتها مستقبلها .

خلفاء ناصر شاه

حين خر ناصر شاه بضربات البندقية جلس على عرش إيران ابنه مظفر الدين شاه (١٨٩٦ - ١٩٠٧ م) ، ومنح الدستور للشعب الإيرانى وخلع حفيدة محمد على شاه على أيدى الوطنيين المنتصرين فى ١٦ يوليو ١٩٠٩ م ، وكان يسعى لهدم أساس الدستور وهو الآن يعيش فى نواحى إسلام بول ، وضعفت الأسرة القاجارية بعد قتل ناصر الدين شاه انتزعت صلاحيات من القاجاريين وسقطت فى يد الشعب .

القسم الثانى

الشعر الفارسى فى القرون الأربعة

الفصل الخامس

ملاحظات عامة حول الشعر الأخير خاصة الشعر الدينى

ثبات لغة الأدب الإيرانى وعدم تغيرها

ظلت اللغة الفارسية الحالية - بوجه عام ، ومن كل ناحية - حتى اليوم على حالتها نفسها من أربعة قرون خلت ؛ ونقصد بهذه اللغة لغة الأدب ، أما لغة السوقة وما يروج على ألسنة الطبقات غير المتعلمة فقد ظلت متداولة - فيما يبدو - أثناء هذه الفترة، لكنها لا تتمتع بالأقدمية . إلا أن الأشكال الأدبية الجديدة الموجودة اليوم لم تكن بهذا القدر من القدم ولا تتقدم بداية ظهورها عن أواسط القرن التاسع عشر ، وقد تحدثنا مباشرة فى الأجزاء الثلاثة السابقة عن هذا الجزء بعد كل فصل تاريخى عن الحالة الأدبية لكل فترة فى فصل مستقل ، لكن فى هذا الجزء لم نر ضرورياً بسبب العلة المذكورة أن نفصم عرى الأحداث التاريخية وأحدها عن الآخر ، وفضّلنا أن نخصص القسم الأول من هذا الكتاب لتأريخ موجز لسائر الدورة موضع البحث ، ثم نذير القسم الثانى والقسم الثالث لوصف الأدب من شعره ونثره ؛ لأن لكل من الشعر والنثر من حيث طبقاتهما تقسيمات خاصة به .

الاهتمام الشديد بالشعر

إن طريقة تنظيم هذه التقسيمات مشكلة شغلت ذهنى فترة ؛ لأن - تقريباً - جميع من ألف شيئاً فى الأدب الفارسى عطف اهتمامه بما يزيد عن الحد إلى الشعر

وتجاهل بوجه عام عن المجالات الأخرى ، وهى أكثر إيجابية وإن كانت أكثر ابتذالاً وجفافًا: فعلى سبيل المال ، تجاهلوا التاريخ وتراجم الرجال والإلهيات والعلوم الدينية؛ لأننا إن نظرنا إلى الأدب فى أبسط معانيه وقصرنا فقط على المؤلفات التى تتسم بالصنعة والجمال بما فيها من النثر والنظم ؛ فلسوف تتبدى للنظر نظرية المؤلفين السابقين الذين اهتموا وحسب بالشعر والنثر البديعين معقولة، ولكن لو أخذنا بالعكس الأدب بمفهومه الواسع واعتبرناه مظهرًا لروح أمته وفكرها ؛ فلسوف يختلف الأمر . مع هذا فلسوف نبدأ بالحديث عن شعر هذه الفترة قبل دراسة الأشكال المختلفة للأدب الحديث الإيرانى .

طبقات الشعر الفارسى

علينا أن نحدد هنا ستة أنواع للشعر :

١ – الشعر التقليدى الكلاسى .

٢ – شعر المناسبات والشعر المنظوم لأحداث معينة .

٣ – الشعر الدينى من الترجيعات المبسوطة مثل شعر محتشم الكاشانى ذى البنود السبعة حتى الشعر العامى الذى كان ينشد فى مجالس التعزية فى شهر المحرم .

٤ – الشعر القليل لكنه يفيض بالحماس الذى أخرجه البابيون (أتباع الباب) من عام (١٨٥٠ م) فصاعداً ، ويمكن وضعه خاصة ضمن الشعر الدينى .

٥ – الشعر المحلى أو التصفيات التى نظمها المطربون والمغنون ويصعب تحديد بداية ظهوره وتاريخ قدمه .

٦ – المنظومات السياسية التى ابتكرت بعد ثورة (١٩٠٦ م) ، وقد درسته فى كتاب آخر لى مستقل هو (الصحافة والشعر فى إيران – كمبردج ١٩١٤ م) ، وسوف أقدم شرح الشعر الدينى فى هذا الفصل على دراسة الشعر غير الدينى التى سوف أؤجلها للفصول التالية :

١- الشعر التقليدى

هذا النوع من الشعر الذى يستوى شكله وهدفه المعنوى فى كل وقت ، وظل على حال واحدة تقريباً لمدة خمسة أو ستة قرون كأن لديه إطاراً وحدوداً خاصة لا يمكن أن تتغير بشرط ألا يرد ذكر لوقائع القرن أو رجاله أو تاريخ نظمه ، شكل أن نخمن بعد قراءة قصيدة أو غزل أو رباعى هل ناظم هذا الشعر كان من عصر الجامى (ت ١٤٢٠ م) أو كان من الشعراء المعاصرين لهذه الفترة المدروسة من قبيل القاءانى وغيره ؟ وقد درست فى واحد من المجلدات السابقة ما يتصل بسمات التصنيع لهذا القسم من الشعر ؛ ومع أن ابن خلدون يعتقد أن صناعة النظم والنثر إنما هى فى ألفاظ لا فى المعانى إلا أننا نجد فى الأشعار الجديدة التى نظمت بهذا الأسلوب إشارات نادرة إلى الاختراعات والعادات الجديدة من مثل شرب الشاى أو السجائر أو النارجيلة وإشارات إلى السكك الحديدية والتلغراف والصحف ، وقد أظهر بعض من الشعراء الكبار لهذا العصر الجديد مثل قاءانى وداورى فنونهم الشعرية فى أشكال جديدة من النظم من قبيل نظم المسمط الذى لم يعد يستعمل بعد القرن الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين .

النقد الأدبى الذى غفل عنه الإيرانيون

يبدو أن العبارات التى قيلت فى بداية القسم السابق شديدة الإغلاق ويلزمها توضيحات ؛ لأن المحققين الأتراك والهنود يعتقدون أن بعض الشعراء الإيرانيين الأخيرين ابتكروا نوعًا من الابتكار أو (التجديد الشعرى) ؛ بحيث يظهر محدداً ومبشراً بهذا جديد فى مجال اتساع الصناعة اللفظية وتقسيم الفترات الأدبية ، لكن الإيرانيين أنفسهم ليس لهم معرفة بالنقد الأدبى ، ربما مثلما يهتم المرء بصحته إلا حين تضيع ، كذلك الأمم تدخل النقد والبحث الدقيق فى الأدب حين لا تكون مستعدة وغير قادرة عن إيجاد أدب جميل يمثلها ، وحسبما يذكر جيب (تاريخ الأدب العثمانى ٤ / ٤) فلأن الجامى ، وأمير على ، شيرنوائى، وعرفى شيرازى ، وفيضى

هندى، وصائب أصفهانى قد أثر كل منهم واحداً بعد الآخر فى الشعر العثمانى وصاروا رواداً أدبيين له ؛ فقد ألف أساتذة النقد العثمانى حولهم موضوعات كثيرة .
وأفضل وأكمل نقد لشعر أعاظم الشعراء الإيرانيين ألف من البداية إلى أواخر القرن السابع عشر فى رأيى كتاب للأسف ألف باللغة الأردية واسمه (شعر العجم) لشبلى النعمانى، والجزء الثالث من أجزاء هذا الكتاب الأربعة - المؤلف فى ٥ - ١٣٢٤ هـ / ٧- ١٩٠٦ م - يدرس سبعة شعراء إيرانيين عاشوا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين وهم : فغانى (ت ٩٢٥ / ١٥١٩) ، وفيضى (١٠٠٤ / ١٥٩٥ -) ، وعرفى (٩٩٩ / ١٥٩٠) ، ونظيرى (١٠٢١ / ١٦١٢ - ٣) ، وطالب آملى (١٠٦٣ / ١٦٢٦ -٧) ، وصائب (١٠٨٠ / ١٦٩٩ أو ١٦٧٠) ، وطالب كليم (١٠٦١ / ١٦١٥) ، كان سائر هؤلاء الشعراء إيرانيين جلبهم إلى الهند تشجيع السلاطين المغول واهتمامهم الكريم بهم باستثناء فيضى الذى يقول شبلى فيه : (إنه الشاعر الهندى الوحيد بعد أمير خسرو الذى لا يمكن تمييز شعره الفارسى عن الشعراء الإيرانيين) ، وأشهر هؤلاء الشعراء السبعة عرفى وصائب لكنهما لقيا فى الهند احتراماً وشهرة أكثر مما لقياه بإيران . وقد علل هذا الأمر أحد معارفى الإيرانيين بقوله إن الأجانب يفهمون بسهولة شعر هؤلاء الشعراء المذكورين ؛ ولهذا لقوا هذه الشهرة ، لكنهم لا يستطيعون فهم أفضل الشعراء وأعلاه للشعراء المعروفين الإيرانيين ، وأنا على استحياء عظيم اعترف بأننى أوافق الأجانب فى هذه الخصيصة وأجد صائب على وجه الخصوص كثير الأهمية والجاذبية سواء من ناحية سلاسة العبارة أو صناعة حسن التعليل وإرسال المثل . كنت أدرس منذ نحو أربعين عامًا أى (١٨٥٥ م) القسم الفارسى لكتاب الخرابات ، وهو مجموعة من غزليات منتخبة من الشعر الفارسى والعربى والأردى ، وبه أبيات منفردة أيضًا وأخذت فى نقل الأشعار التى تتميز بالجمال فى نظرى بدون ذكر اسم قائلها من هذا الكتاب وتدوينها فى دفتر ، ومع أن شعراء الـ (٣٤٤) غزلية والأبيات المنفردة التى فصلتها كانوا مجهولين غالباً إلا أن أكثر من عشر هذا العدد (٤٥ غزلية) كان من نظم صائب .

اجتذاب الهند لشعراء إيران فى عهد أول ملوك المغول

اجتذبت الهند فى الشطر الأعظم للقرن السادس عشر والسابع عشر الميلادى بسبب حسن استقبال همايون وأكبر وخلفائهم وتشجيعهم حتى عهد أورنجزيب وكان رجلاً متعصباً وحزيناً ومثلهم النجباء العظماء مثل بيرام خان خانان وولده عبد الرحيم الذى نال اللقب نفسه (خان خانان أى خان الخانات) بعد قتل والده فى ١٦٥١ م ، اجتذبت عدداً كبيراً من الشعراء البارعين الإيرانيين إليها ؛ فوجد فيها الشعراء المذكورون ما حرموا منه فى وطنهم من الاحترام والتبجيل ، يحصى (بداونى) نحو مائة وسبعين شاعراً أصل أغلبهم إيرانى مع أن بعضهم ولد بالهند ، ويذكر شبلى واحداً وخمسين شاعراً هاجروا من إيران إلى الهند فى عهد(أكبر) واستقبلهم فى بلاطه، وأعد (أسبرنجر) بدوره قائمة منفصلة بأسمائهم ، ونفهم من الشعر التالى الذى يذكره شبلى كم تغلبت على شعراء إيران رغبة السفر إلى الهند والوصول إلى النعمة والعزة فيها ، فيقول صائب مثلاً :

ليس من رأس ليس فيها رقص الجنون بك تعزم السفر الهند الذى يملأ كل قلب

ويقول أبوطالب كليم :

أنا أسير للهند ونادم على عدم السفر إليها فإلام تصل بالطير المذبوح رفرفة جناحيه .

يذهب كليم إلى إيران نائحًا بسبب شوق رفاقه طوى المنازل على أقدام الآخرين مثل الجرس .

إن عين حسرتى فى قفاى بسبب شوقى إلى الهند حتى إنى لا أرى من يقابلنى إذا سرت بالطريق

ويقول فى هذا الباب أيضًا على قلى :

ليس فى إيران منطقة لتحصيل الكمال

فلا يروح سوقة ما لم يقدم إلى الهند

ويقول درويش اسمى وهو شاعر إيرانى في ذكر عناية خان خانان ولطفه بالشعراء :

ذاك الشيرازى العميق الشعر قد بلغ بيمن

مدحك صيت كماله من الشرق إلى الغرب

تعرف بمدحك إلى طرز جديدة كلا

وجه الجميل الذى يلقى من الماشطة جمالاً

لقى من فيض اسمك (فيضى) مثل الملك

الذى طوى العالم كله بسيفه الهند

ووصل (نظيرى) بمدحك العميق

حد أن الشعراء الآخرين

ينظمون في مدح مدحه لك قصائد

بديعة تجعل قلب الشاعر يقطر دمًا

إن أهل النظر يحملون سوداء شعر (شكيبى)

ككحل أطفهان حين يحمل تحفة إلى خراسان

لقى (حياتى) حياة جديدة بمدحك أجل

إن العرض حين يقوى طبعه يصير جوهرًا

أنّى أن أشرح شعر (نوعى) و(كفورى)

وهما حيّان بمدحك حتى القيامة

لقد بلغ (نوعى) من نعمائك

ما بلغ الأمير مُعزّى من نعم سنجر

هؤلاء الشعراء الإيرانيون فى القرنين السادس عشر والسابع عشر أوجدوا أسلوباً سماه المرحوم الأستاذ (إته) لكمال مناسبته بالربيع الهندى للشعر فى إيران، وطالما كانت الفارسية تعد اللغة الأدبية للهنود ، فقد ظل عدد كبير من الشعراء الهنود مقلدين لهؤلاء الشعراء المذكورين ، ولن أكتب شيئًا عن هؤلاء المقلدين الهنود الذين مهروا بمهارة كاملة فى استخدام الألفاظ الأجنبية ، ويمكنني فقط أن أذكر عدداً قليلاً فى هذه الصفحات من كافة الشعراء الإيرانيى الأصل الذين عاشوا فى إيران أو الهند .

جفاف الأدب فى القرن العشرين

يعد القرن الثامن عشر الميلادى خاصة المدة الفاصلة بين انتهاء الدولة الصفوية وتأسيس السلطة القاجارية (١٧٢٢ - ١٧٩٥ م) من أفقر العصور الأدبية ، ويعد هذا العصر ظهر فى القرن التاسع عشر شعراء مثل : قاءانى ، ويغما ، وفروغى ، ووصال وأولاده نافسوا فى شعرهم كبار الشعراء السابقين لهم .

٢- شعر المناسبات أو الأحداث

نماذج لشعر المناسبات أو شعر الأحداث

لابد من عَدّ شعر الشعراء غير المشهورين من جملة أكثر الأشعار فائدة ، وهو الشعر الذى ينظم فى أوقات معينة ، ولا يمكن الحصول على مثل هذه الأشعار فى الدواوين العادية للشعراء أو فى صفحات كتب التاريخ المعاصرة ، ونستشهد بالأبيات التالية من (أحسن التواريخ) الذى لم يطبع حتى اليوم :

فى عام ٩٦١ هـ / ١٥٥٣ - ٤ م توفى ثلاثة من سلاطين الهند : محمود الثالث من الكجرات ، وإسلام شاه أفغانى من دهلى ، ونظام الدين من الدكن ، وبونت هذه الأحداث وتاريخ وقوعها فى الشعر الآتى :

أتت المنية لثلاثة ملوك فى عام واحد
وكانت الهند بعد لهم دار الأمان

أولهم محمود شاه الكجرات
الذى كان شابًا كدولته

وثانيهم إسلام شاه سلطان دهلى
الذى كان صاحب القران فى الهند

وثالثهم نظام الملك برهان
الذى كان ملكًا عظميًا فى الدكن

فإن تسلنى عن تاريخ وفاتهم جميعًا
فخذه من (زوال خسروان) أى زوال الملوك

والشعر التالى الذى نظمه مولانا قاسم بها مادة تاريخ السلطان همايون (٩٦٢ هـ / ١٥٥٤ - ٥ م)

همايون ملك بلاد المعنى
لا يذكر أحد من يماثله ملكًا

سقط فجأة من سطح قصره
فضاع عمره العزيز هباء

فرقم قاسم تاريخ وهو
(سقط الملك همايون من السطح)

وينشد حيرتى الذى مات فى كاشان عام ٩٦١ هـ / ١٥٥٣ - ٤ م وانتقل إلى الآخرة هذه الأبيات يهجو فيها أهل قزوين :

حل الوقت الذى يستريح فيه الفلك
من الدوران حين تستظل بظلك يا ظل الله

أيها الملك بقيت تسعة أشهر أنا العاجز
فى قزوين محطمًا ومنهكًا ومحروجًا وحزينًا

وجدت فى وضيعها وشريفها مذهب السنة
ورأيت فى صغارها كبارها آثار الخروج

فى معابرها غسل الفقير والغنى أقدامهم وفى مساجدها
عقدوا أيديهم على صدورهم وهم يصلون

وفى عهدك مثلك أيها الملك فإن عقد اليدين
فى الصلاة عمل يستحق السجن أيها الملك العظيم

قاضى هذا البلد من نسل خالد بن الوليد
ومفتيها من أبناء (سعيد) الفَسْل

قتل سيف الملك الغازى أخوة هذين وآباء
هما ورفاقهما وأقاربهما وعشيرتهما

قل أيها الملك العالم يا مولاى الموفق
إن هذه الجماعة دعاة لعدونا

إذا لم يتيسر القتل العام لأهل قزوين
فيمكنك القتل الخاص من أجل رضا الله

فليس هذان رعية يوجب قتلهما
تقليل الضريبة ويمنع زيادة الدخل

بل كل منهما يأكل مالاً
من مال الديوان ويتملك إقطاعًا ورواتب

وعيب هذه الأشعار المنظومة لمناسبات معينة يكمن فى أننا لا نعرف بالتحديد ملابسات نظمها أو الهدف منها ؛ فلا يمكن أن نقف بالكامل على معاينها وتلميحاتها . فما الذى فعله أهل قزوين بهذا الشاعر حتى ثار يعاديهم بكل هذه القسوة والهجاء المقذذ ؟ ومن هو القاضى والمفتى اللذان خصهما الشاعر بالهجاء ؟ ومن هم أقاربهما وعشيرتهما الذين قتلهم الشاه ؟ ومن العدو الذى كانوا يدعون له ؟ لأننا لا نعرف وقت نظم هذه الأبيات ، هل كان فى عهد الشاه طهماسب أو الشاه إسماعيل ؟ لا يمكننا أن نجيب على هذه الأسئلة بإجابة شافية ، لكن ما ستلفت النظر هو أن المذهب السنى غلب على أهل قزوين وقت نظم هذه الأشعار .

٣- الأشعار الدينية

الأشعار الدينية لمحتشم وأتباعه

من كثرة الشعراء الذين أوقفوا شعرهم فى العهد الصفوى على نظم الأشعار فى ذكر مصائب الأئمة وأخلاقهم وصفاتهم الحميدة محتشم الكاشانى المتوفى عام (٩٦٦ هـ – ١٥٨٨ م) الذى يفوق الجميع أهمية . كان مشغولاً أيام شبابه بنظم الشعر الغزلى ، لكنه صرف قوته فى عهد كهولته – فيما يبدو – إلى خدمة مذهبه ، وأدرج رضا قلى خان فى مجمع الفصحاء (الجزء الثانى ، ص ٣٦ – ٨) نموذجًا لكل من القسمين من شعره ، ولكننا سنهتم بالنوع الثانى .

عدم اعتناء الشاه طهماسب بشعراء المدح

يذكر صاحب (عالم آراى عباسى) ضمن قص سير شعراء طهماسب : (كان لحضرة الخاقار - جعل الله الجنة مثواه - فى أوائل عهده اهتمام بليغ بحال هذه الطبقة ، وفى أواخر حياته حين كان يبالغ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لم يكن يعد هذه الطبقة العليا من الصلحاء وزمرة الأتقياء ؛ لأنها فى اعتباره طبقة مذهبها المبالغة دلم يكن يهتم بهم كثيراً أو يسمح له بعرض قطعاتهم وقصائدهم، وكان مولانا محتشم الكاشانى نظم قصيدة عزاء فى مدح حضرته وقصيدة أخرى فى مدح مخدرة زمانها الأميرة (برى خان هانم) ، وأرسلهما من كاشان فعرضتهما هذه الأميرة ؛ فقال الشاه والجنة مثواه أنا لا أرضى بأن يتلوث لسان الشعراء بمدحى والثناء علىّ وينظمون القصائد فى ملك الولاية والأئمة المعصومين عليهم السلام ، فيتوقعون الصلة الأولى من أرواح حضراتهم المقدسة ، ثم يتوقعونها منا ، فهم ينظمونها فى سلك البلاغة بفكر دقيق ومعانى عالية واستعارات بعيدة عن الواقع ، وينسبونها إلى الملوك وأكثر قولهم حسب مضمون (أحسنه أكذبه) ليس صادقاً لكن لو نسبوا شعرهم إلى حضرات الأئمة ؛ فإن شأن ماليهم أعلى مما يقولون ، المهم أن مولنا محتشم لم ينل صلى من جنابه الأشرف ، وبناءً على هذا نظم محتشم شعره ذا البنود السبعة المعروف فلقى هذه المرة صلة لائقة فشمر شعراء عهده عن سواعد همتهم يقلدونه حتى راجت أشعار من هذا الشكل نفسه (ذى البنود السبعة) فى مدة قليلة ، وهذه الأشعار مندرجة فى أغلب التذاكر التى دونت أشعار محتشم خاصة (خرابات) تأليف ضياء باشا (المجلد الثانى ، ١٩٧ - ٢٠٠٢) ، وهذا (التركيب بند) المذكور يضم اثنى عشر بنداً ، وكل بند مركب من سبعة أبيات وبآخر كل بند بيت له قافية خاصة ومجموع أبياتها ستة وتسعون ، فى هذا التركيب تتسم لغة محتشم الشعرية بالسهولة والصراحة الفائقتين وتخلو من الصنعية البديعية والتلاعب بالألفاظ المبالغ فيها الذى يغضب بعضاً من الأوربيين ، بل تترجم الأحاسيس الصادقة الدينية ، وكنت أود أن يتسع المقام لذكر هذا التركيب بأكمله لأنه نموذج لأشعار كثيرة نظمت تقليداً له .

الأحاسيس الطبيعية المندرجة فى هذا القسم من الأشعار

وسواء اعتبرنا أشعار محتشم من جملة الأشعار الجميلة الفارسية أو لم نعتبرها، فمن المسلم به أنها نموذج بارز لأشعار التعزية والمراثى وحكاية عن تأثر الشيعة عند تذكرهم مصائب أهل البيت ، تتميز أشعار محتشم بميزة قصائد ناصر خسرو- الذى كان يعيش قبله بنحو خمسة قرون – وهى الإخلاص والصدق ، وخلافًا للشعر المتكلف الخلال الظاهر لأغلب شعراء إيران الذين هم أكثر شهرة فى بلادهم من محتشم ، فشعر محتشم طبيعى كثيرا يفيض بالأحاسيس والصدق .

ومن المراثى التى نظمت للأمام الحسين القصيدة التى أنشأها أحد أكبر الشعراء فى العصر الأخير لإيران وأولاهم أخلاقًا وهو قاءانى (ت ١٨٥٣ م) ، وصرفت نظرى عن ذكرها بسبب جِدة شكلها وبسبب عدم تدين قائلها :

ماذا تمطر ؟ دمًا ؟ من رأى ؟ وكيف ؟ ولماذا بالليل والنهار ؟
من الألم ؟ أى ألم ؟ ألم سلطان كربلاء

الأشعار الدينية التى أغلبها بالعامية

خلق تذكر المصائب التى حلت بالإمام الحسين فضلاً عن المراثى المنظومة والمنثورة التى ذكرنا آثاراً كثيرة أغلبها بالعامية واللغة السوقية، ولا ينحصر العزاء فى شهر المحرم على التعزية أو العرض المسرحى الدينى الذى أظهر ما لا يقل عن أربعين فصلاً منه (وبعضها يتعلق بذكر بشخصية الرسول والأولياء والمقدسين قبل الإسلام) ، بل إن أغلبه يقوم على قراءة الروضة أو ذكر الوقائع المؤلمة لكربلاء ، يقال إن سبب تسمية قراءة الروضة باسمها هذا يرجع إلى أن أقدم وأشهر كتاب لهذه التعزية هو كتاب (روضة الشهداء) من تأليف حسين الواعظ الكاشفى ، فقد كان يقال لقراءة هذا الكتاب (قراءة الروضة) فى البداية ، ثم أطلق هذا الاصطلاح على قراءة كتب أخرى فى الموضوع نفسه من مثل (طوفان البكاء) أو (أسرار الشهادة) ، وكان

يرتب هذه المجالس فى المحرم الأغنياء والأعيان والنجباء وموظفو الحكومة أو التجار فى الغالب ، و يدعون إليها بضعة نفر من قراء الروضة ، ثم يقدمون للمدعوين عشاءً كثير الأصناف أو قليلة . ولدى مثنوى قصير اسمه (كتاب السفرة فى ذم الريا) ، وقد ذم مؤلف الكتاب رجز المضيفين وحرص الضيوف بكلمات لاسعة .

تعزية المحرم فى نظر الأوربيين

يعتقد بضعة من الدارسين الأوربيين الذين نظروا إلى هذه العروض المسرحية الدينية بوجهة نظر علم النفس أن هذه المعروض ألفت بمهارة فائقة وأن الممثلين فيها يعرضون فهم عن إخلاص وفهم عميق لما يعرضون ، وقد ترجم السير لويس بيلى sir lewis pelly سبعة وثلاثين مجلسًا أو فصلاً من مجالس هذه التعزية ، وكتب فى مقدمته عليها قوله : إننا لو اعتبرنا مقياس مهارة المؤلف المسرحى الفنية هو التأثير الذى يطبعه على قلوب القراء والسامعين ؛ فلن يعلوها أى عمل تراجيدى آخر . وشرح (ماتيوار نولد) بمهارة كاملة تاريخًا إجماليًا لهذا المسرح الدينى فى كتابه (التجربة والنقد) ، وقد امتدح بشدة ماكولى macualy فى كتابه (امتحان اللورد كليو) هذه العروض ، وقال جيبون gibbon وهو مؤلف منتقد لا يؤمن بدين : (إن بعض هذه العروض يؤثر فى أقسى الناس قلوبًا).

اتساع الرواية

إن البحث والتحقيق فى واقعة كربلاء على أساس أولى الأسانيد التاريخية مثل تاريخ الطبرى ، ولم يفصل فى أحداثها كثيراً وغير الطبرى أو شاغل ومفيد ، لكنه يخرج عن إطار هذا الكتاب ، وقد رأينا البداية الأولى لهذه الرواية المؤلفة فى أقوال أبى محنف لوط بن يحيى الذى كان يعيش فى النصف الأول للقرن الثانى الهجرى (٧٥٠ م) ، ويعلم من بعض الوقائع التى دخلت هذا التاريخ أن شيعة إيران شاركوا بلا إرادة المسيحين فى بعض عقائدهم من بينها اعتقادهم فى الشفاعة ؛ إذ إنهم يعتبرون استشهاد الإمام الحسين أمر ضرورى لطلب غفران ذنوبهم

والشفاعة لهم يوم القيامة مثل صلب المسيح ؛ ومن شواهد هذا التماثل الفكرى إعلان الرسول الفرنجى إسلامه فى بلاط يزيد ، وهو المشهد الذى رأيته فى عروض التعزية، ورأيت أن الممثلين لها حينما كانوا يرون أحد الأوربيين وسط المتفرجين كانوا يؤدون هذا المشهد بكثير من المبالغة والتأثير ، ومن المشاهد الملفتة للنظر قدوم ملك مشرك هندى وأسد ضار لعون الإمام الحسين ، وقد ألفت هذه المشاهد خصيصاً لإبراز قسوة أهل البيت بأجلى صورة ترحم الكافر والوحش على الحسين ، ولم يشفق عليه المسلمون .

٤-الأشعار

بسبب كثرة روايات قراء الروضة لحوادث كربلاء بأشكال شتى ؛ فقد علم بها كافة النساء والفلاحين الإيرانيين ، وكما هى عادة العامة من المبالغة فى كل موضوع بحيث يبتعد عن حقيقة أمره ؛ فقد حدث هذا لواقعة كربلاء رغم أن قراء الروضة لا يعرفون سيرة الشخصيات التى يذكرون أسماءها ، وقد لقى المجتهدون الشيعة الكبار مثل (مجلسى) وغيره عنتا ونصباً لمنع المبالغة الشديدة والغلو الكافر للعامة ، وألفوا رسالات بسيطة على قدر منهم العامة بالفارسية وأطلعوا لأبناء وطنهم على الحقائق حتى لا يظل العلم بحقيقة واقعة كربلاء منحصراً على طلاب اللغة العربية أو الفقهاء .

الإيرانى شجاع

لكن بسبب أن الإيرانيين شجعان بالفطرة ويحبون سماع سير الأبطال فلم يهتموا برسالات الفقهاء التاريخية السابقة وتناقلوا روايات هذه الأحداث بكثير من المبالغة حتى إن بعض الناس أراد أن يتأسى بهؤلاء الشهداء ، أما من ابتعد عن الحقيقة ممن قرأ كتاب (حاجى بابا) تأليف موييه Mtier وظن أن الإيرانيين شعب خائن وخجول ؛ فقد جانبه الحق ، ومن أراد من الأوربيين أن يقف على صفة الشجاعة عند الإيرانيين فعليه أن يراجع كتب الرسل الخواص ، وكانت مهمتهم هى دراسة أحوال الشعب كله ؛ ولذلك فإن هؤلاء الكتاب حجه على سائر العلماء بسبب تخصصهم فى معرفة دقائق

هذا الشعب . فعلى سبيل المثال ، لم يصف أحد من الأوربيين مثل (نابييه ملكم) شجاعة بعض الإيرانين وثباتهم بأنها تتفق والعدل والإنصاف وصف ، وذلك فى كتابه (خمسة أعوام فى أحد بلاد إيران " يزد ") .

شجاعة العربى والإيرانى

يقول ولفريد بلونت عن العرب القدماء : (إن شجاعة هذه الطائفة من جنس خاص ، وربما تختلف عما يروح بيننا من مفهوم للشجاعة ، إن شجاعة العربى ناتجة عن اشتعال أحاسيسه التى تلتهب بسبب مدح النظارة وتمجيدهم له أو بسبب التأثيرات الشخصية وإبقاء الشعر الحماسى عليه)، ويصدق هذا التعريف على الإيرانى لأنه من شعب حساس ويتأثر بالشعر خاصة ، ويعد الإيرانيون الشعر هو السحر الحلال على حد قول صاحب (المقالات الأربع) :

(الشعر صناعة يجعل الشاعر بها المعنى التافه عظيمًا والمعنى العظيم تافهًا ، ويجلى بها الجميل قبيحًا والقبيح جميلاً ، ويثير الوهم القوة الغضبية والشهوانية ؛ فينشأ بهذا الوهم للطبائع انقباض وانبساط ، ويصير هذان سببًا لعظائم الأمور فى نظام العالم) .

ما يرى من تقدم وتجديد غير مهمين فى الأشعار العرفانية للعهد الأخير

يمكن توقع أن أشرح فى هذا المجلد سمة من الشعر العرفانى للصوفية فى العهد الأخير ، لكن مع أن هذا النوع من الشعر لا يزال ينظم لكنى لم أر شعرًا يكافئ ويماثل شعر سنائى ، والعطار ، وجلال الدين الرومى ، ومحمود الشبسترى ، والجامى ، وسائر العرفاء الكبار الذين بحثتهم فى الأجزاء السابقة بالتفصيل ، ربما يندر وجود شىء جديد فى هذا الباب أو شىء طريف يبين المقصود بطريقة أفضل من الأعمال السابقة خاصة فى العهد الصفوى ؛ هذا العهد الذى لم يتناسب وتربية هذا القسم من

الأفكار والمعانى . وبناءً على معلوماتى فإن (الترجيع بند) البديع الذى نظمه (هاتف)، وسوف يرد بآخر الفصل التالى هو نموذج جميع الشعر الصوفى الذى أنشئ فى القرن الثامن عشر ، وعلىّ هنا أن استلفت اهتمام القراء إلى أشعار صفى على شاه وتفسيره المنظوم للقرآن الكريم (سيرته وشعره لم يردا فى مجمع الفصحاء أو رياض العارفين أو بستان السياحة وسائر كتب الفهارس التى بحوزتى) .

٥- التصنيف

التصنيف أو الشعر المحلى

ترك هذا النوع من الشعر أثراً ضعيفًا وباهتًا فى الأدب مثل الشعر المحلى والألحان المضحكة الخاصة بنا ، ولن نحصل على نتيجة تطابق التوقع من دراسته رغم أننا مضطرون الآن إلى الإشارة إليه ، من جملة هذه التصنيفات هذا التصنيف التالى الذى نظم حول وزير وأوله ما معناه :

بنى قصراً واسعًا مبهجًا أمامه فناء مسقف
بناه بالخشب وقطاعات الأشجار

ما أشد جمال هذا القصر وأروعه

القدم المحتمل للتصنيف

حينما كنت فى شيراز فى صيف عام (١٨٨٨ م) كان هذا التصنيف السابق أكثر التصنيفات رواجاً ، لكن من المحتمل أن ظل بالأذهان حتى اليوم على شاكلة أحد الأشعار الهجائية الإنجليزية التى نظمت فى حق عضو معروف بالبرلمان وأوله (سكب اللبن وهو يحمله من الدكانة إلى منزله) ، ولا يخامرنى شك فى أن التصنيف أو الأغانى العامية وجدت أيضًا فى إيران من عهود قديمة جداً قبل الإسلام ، ولعل

(باربد) و (نكيسا) كانا يؤلفان هذا النوع نفسه من التصنيفات من أجل كسرى برويز الساسانى قبل أكثر من ألف وثلاثمائة سنة ، ومن المحقق أن الرودكى بدوره نظم هذا النوع نفسه من الشعر بعد ذلك بأربعمائة سنة فى حضور ممدوحه الأمير السامانى كما أوردت فى المجلد الأولى لهذا الكتاب ، وراح قسم من التصنيف (كان يسمى حرارة) فى أصفهان وقت أن قتل أحمد بن عطاش ، وكان من الإسماعيلية (راجع الجزء الثانى من أجزاء كتابى هذا وراحة الصدور للراوندى الجزء الثانى ص ١٦١ من سلسلة أوقاف جيب) ، وقد نقلت هذا التصنيف من تاريخ السلاجقة المسمى براحة الصدور وآية السرور تأليف أبى بكر نجم الدين أحمد الراوندى .

ونادراً ما نعرف ناظمى هذه التنظيمات ، وقلت المصادر التى أثبتت هذا النوع من الشعر ، وحين كان صديقى المرحوم جرج جراهام قنصلاً فى شيراز عام (١٩٠٥م) أمر من بالغ حبه بانتخاب أربعين تصنيفاً من بين التصنيفات الأكثر تنوعاً ورواجاً فى شيراز ، وأصفهان ، ورشت ، وتبريز ، وغيرها ، وتدوينها لى .

نشرت فى حدود (١٩٠٤ م) اثنتا عشرة أغنية من هذه التصنيفات ، وهى التى أمكن غناؤها على البيانو وكان عنوانها : الترجمة الإنجليزية الاثنتى عشرة أغنية محلية فارسية لقراءتها وغنائها على نغمات البيانو ، اختارها ورتبها بليرفير تشايلد وترجمتها آملا أسترتل ، رتبت فى هذا الكتيب الكثير القيمة تصنيفات بديعة جداً وترجمت إلى الإنجليزية ، ومع أن الترجمة لم تكن صحيحة تماماً لكنها مفهومة ، ونفهم من الفقرة التالية المأخوذة من مقدمتها الموجزة أن جامع هذه التصنيفات كم كان أسيراً ومخلوباً للذة أصوات المطربين الإيرانيين وتأثيرها الذى يفوق الوصف : (ولكن للإنسان الذى يعلم بالكامل ماهية هذه التصنيفات أن يؤثر الإقامة فى المشرق : فالليل الدافئ والمنير فى إيران وأشعة القناديل التى تقع على الأردية البراقة والملونة للحاضرين وظلمة أطراف المكان التى تطير فيها الأشباح السوداء وترقص واللحن العجيب للموسيقى والأغانى الكثيرة الجمال ، والتى تعلو وتهبط بتشابه وتكرار دائمين ، كل هذا لا يقبل الترجمة ، لكنها تترك تأثيراً فى الإنسان بشكل حى ومحسوس وبقدر من السحر والفتنة إلى حد أن الإنسان يتمنى أن يبقيه ثابتاً وقائماً بأى شكل) .

وأغلب هذه التصنيفات أبيات عشقية يرد فيها أشعار لحافظ وغيره من الشعراء المعروفين بين الحين والآخر ، وتقل أنواع التصنيف الهجائى والجدلى أو المحلى كثيرا جداً عن التصنيف العشقى ، لكن موضوعها أكثر لفتًا للنظر ، وأغلبها نهب للزوال والنسيان .

ويلزم أن ألفت نظر القراء إلى مجموعة التصنيفات الفارسية التى جمعها (و. ز. كوسكى) وترجمها إلى الروسية وطبعها فى سان بطرسبرج فى ١٩٠٢ م ، كما نشر أيضا (برزين) تسعة تصنيفات بترجمة إنجليزية على أساس توافقها والموسيقى الأوربية ، وقد أدرجت نموذج هذه الأشعار فى القطعة الثانية الشعرية فى ص ١٧٤ - ٩ من كتابى (صحافة إيران وشعرها الحديث) ، ويبدو من البديهى أهميتها فى التأليف الغنائى والموسيقى بحيث يلزم لمعرفة معانى كلماتها والدراسة الكاملة لموسيقاها الإحاطة التامة بالموسيقى الإيرانية ، وهذا ما ينقصنى أنا للأسف ، وأظن أن عدداً قليلاً من الأوربيين هم الذين مهروا فى هذه الموسيقى عمليًا ونظريًا بل ويمكنهم إحصاء المقامات الاثنى عشر وفروعها الأربعة والعشرين .

٦- الأشعار السياسية الحديثة

فصلت القول فى هذه الأشعار فى كتابى (صحافة إيران وشعرها الحديث) (كمبردج ١٩١٤ م) إلى الحد الذى لا أرى لازمًا ذكرها هنا . هذه الأشعار المذكورة هى وليدة ثورة (١٩٠٥ م) والسنوات اللاحقة لها ، وتحكى فى نظرى الابتكار الحقيقى لقريحة شعرائها ولياقتها وجدتها ، ولو اتسع المجال وبحثت الصحافة الحديثة ؛ فلسوف أدرج نماذج لهذه الأشعار ، لكن لابد من العلم أن الكتابة الصحفية لها الفضل فى نشر هذه الأشعار وذيوعها ، بل إن وجودها يدين لهذه الكتابة بالفضل ، وأهم شعراء هذا النوع من الشعر هم : عارف ، ودخو قزوينى ، وأشرف جيلانى ، وبهار مشهدى ، ولا يزالون أحياء على حد علمى ، والاثنان الأولان منهم شابان ، وقد أدرجت فى كتابى السابق الذكر صورهم ونبذة من سيرتهم .

الفصل السادس

شعراء ما قبل الحكم القاجارى الذين نظموا شعرهم بالأسلوب القديم (١٥٠٠ - ١٨٠٠ م)

ذيوع القريحة الشعرية فى إيران

بإمكان غالب الإيرانيين المتعلمين قرض شعر جديد بالسمع ، وأكثرهم يبادر إلى هذا القرض ، وعدد من يبذل فترة طويلة من عمره فى قرض الشعر ، ويكون له ديوان عدد كبير جداً فى كل زمان ، وفضلاً عن هذا فإن هذا القسم من الأشعار منظوم بقدر من التصنع ، وفى العصر موضع دراستنا يظل أسلوب البيان الشعرى ثابتًا وعلى نسق واحد ؛ بحيث يمكننا أن نختار مائة غزلية لمائة شاعر فى القرون الأربعة الأخيرة ، ونحذف الأشعار التى تشير إلى أحداث عصرها أو تحوى قائليها .

تمييز الشعراء البارعين عن العاديين أمر صعب

لا يمكن لأى ناقد شعرى وخبير بالشعر أن ينظم بترتيب تاريخى هذه الأشعار عن طريق معرفة أسلوبها ، ولو تسامح فى عمله كثيراً أو يستطيع أن يفرق بين غزل أحد الشعراء فى عهد الشاه إسماعيل الصفوى عن غزل أحد المتغزلين فى عهد ناصر شاه القاجارى ، ولا يعاوننا كتاب تذاكر الشعراء فى هذا الاختيار والتفريق ؛ لأن المؤلف منهم يميل أكثر إلى ذكر الذين لا يحبهم ولا يميل إليهم فيبعدهم عن ذكره ويحذف من لا يرون شعره إليه ؛ ولهذا السبب فقد ذكر الشعراء ذوو النفوذ أو أصدقاء

كاتب التذكرة فـي الأغـلب ، أما الشـعراء الأقوى قريحة والأفيض نوقًا دار كلام فى مذهبهم أو الشعراء الهجاؤن أو أولئك الذين ينضر منهم المؤلف أو أنهم لا يأبهون به فهم لا يجدون مكانًا فى تذكرته لذكرهم ، حين يتحدث رضا قلى خان هدايت مؤلف التذكرة الكبرى للشعراء المعاصرين له واسمها (مجمع الفصحاء) عن شعراء عهده يقابلنا غالبًا عبارته هذه : (كان له علاقة خاصـة بى ، وكان لى مع جنابه إخلاص) ، (رأيته فى شيراز) (، كنت أقابله كثيراً وتنفتح على وجهى أنا الضعيف أبواب صحبته) ، (حينًا كنت أقابله) ، (ومكثت فترة فى فارس هو أيضًا ، فتوقفت أنا بها ، فكنت أشرف بصحبته فى الأغلب وتنفتح أبواب المسرة على الأحباب) ، وقس على هذا ، فهل عدة نفر من الـ (٣٥٩) شاعراً المذكورين لهذا الكتاب أدرج شعرهم بسبب رأيه الشخصى فيهم وليس بسبب كفاءتهم واستعدادهم الحقيقى ؟ فى أحد الأيام فتحت فهرست مجمع الفصحاء أمام رفيقى القديم والعظيم الحاج ميرزا يحيى دولت آبادى ذى الفضائل الجمة والاطلاع الواسع على الشعر الفارسى ، وربما حفظ آلاف الأبيات ودرسـناه وسألته : من الذى تعده فى الواقع مهمًا ويجدر الاهتمام من بين هؤلاء الشعراء ؟ فأحصـى من الـ (٣٥٩) شـاعراً المذكورين خمسـة فقط كطبقة أولى واعتـبر صبا كاشانى وفروغى بسطامى وقاءانى شيرازى ومجمر أصفهانى ونشاط أصفهانى ووصال شيرازى والمؤلف نفسه (هدايت) من الطبقة الثانية ، أما سروش أصفهانى ووقار شيرازى فهما الطبقة الثالثة ، بعبارة أخرى اعتبر شاعراً واحداً فقط من بين كل أربعين شاعراً كان فى هذا الفهرس يستحق اسم شاعر وعنوانًا خاصًا .

محك الانتخاب

على كل حال ، فبناءً على ما أسلفنا قوله ؛ لابد من التحيط والتدقيق فى الاختبار ولابد من وجود الشعراء الذين لا ينحصر جمال شعرهم فى شكله الظاهرى ، وتبقى محاسنه محفوظة عند ترجمته ، وراعيت أيضًا فى اختيار هؤلاء الشعراء من اشتهروا فى أوطانهم أو من استرعوا أثناء دراستى انتباهى وتركوا فىَّ تأثيرا خاصًا ، وهؤلاء الشعراء قليلون جداً (فى قولى هذا كلام وهو أن الدارس الأجنبى إلى حد له الصلاحية

فى إبداء النقد والتمييز للشعر الفارسى ، فيمكنه أن يقول إنه يحب الشاعر الفلانى أو لا يحبه ، ولكن ليس له الحق فى نظرى أن يبدى رأيه إلى الحد الذى يجعل به هذا الشاعر من ضمن الشعراء المهرة أو الضعفاء) .

اختلاف ذوق الأجانب عن سليقة الوطنيين

حتى إن ذوق الأتراك والهنود - وهم أكثر معرفة منا بكثير بالشعر الفارسى - يختلف عن ذوق الإيرانيين أنفسهم ، وبديهى أنهم أفضل القضاة على آدابهم ، وألفت اهتمام القارئ بمناسبة هذا الموضوع إلى القصة التالية إلى نقلها (ب.ج.هامرتن) فى كتابه (الحياة العقلية) ص ٨٦ - ٩٤ (لندن ، ١٩٨٠ م) : تعلم أحد الفرنسيين اللغة الإنجليزية من الكتب بدون أن يستطيع الحديث بها أو فهم كلام غيره بها ، ووصل إلى درجة لو تعلم بها إحدى اللغات الميتة لكان أكثر الناس علمًا به ، لكنه بشأن المؤلفين الإنجليز خاصة الشعراء فقد اختلف ذوقه عن نقد الإنجليز وإحساسهم الخاص إلى حد أن هامرتن أمكنه القول إن فهمه وأبناء جلدته للآثار المذكور لا يشبه فهم هذا الفرنسى ، وقد أثبت هذا الأمر أن الفرنسى كان يعتبر الكلمات الخطابية العادية جداً والمتواضعة من بين الأشعار الرفيعة المستوى ، والثانى أن أذنه عجزت عن إدراك الإيقاعات ذات الوقع الجميل الموجودة فى الشعر كشعر بايرون وتنيسن ، فأنَّى أن يدرك موسيقى هذه الأشعار من كانت جميع الألحان الإنجليزية مجهولة لديه وغريبة ؟ . وإذا وضعنا رجلاً تركيًا أو هنديًا مكان الفرنسى وجعلنا الفارسية بدل الإنجليزية وقاءانى بدلاً من بايرون وتنيسن ؛ فلسوف يصدق هذا الحكم على الهندى أو التركى الذى ينتقد الشعر الفرنسى .

من بين الشعراء الذين توفوا فيما بين عامى ١٤٠٠ و ١٦٠٠ م يستحق اثنا عشر على الأقل ذكراً موجزاً العدد نفسه تقريبًا من بين أولئك الشعراء الذين رحلوا بين عامى ١٦٠٠ و ١٧٠٠ م ، ولا يمكن ذكر غير واحد أو اثنين فقط من الشعراء الذين ماتوا بين عامى ١٧٠٠ و ١٨٠٠ م ، ومن بين الشعراء الذين وافتهم المنية بين عامى

١٨٠٠ و ١٨٨٥ م نحصى نحو عشرين ، أما الشعراء الذين توفوا بعد العام الأخير؛ فسوف ندرسهم من بين أدباء العصر الحديث بنحو مستقل ، وما يلى أسماء الشعراء الذين نود ذكرهم بإيجاز وقمت بترتيبهم وفق تاريخ وفاتهم فى الأربعة العهود المذكورة آنف (لأن تاريخ ميلادهم قل أن علم) .

مابين ١٥٠٠ و ١٦٠٠ م (٩٠٦ - ١٠٠٩ هـ)

ذكرت بعض الشعراء المتعلقين فى الحقيقة بهذا العهد فى تاريخ الأدب الإيرانى تحت الحكم المغولى الذى يشكل المجلد الثالث لهذا الكتاب وهم : أمير على شير نوائى (ت ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ - ١ م) ، حسين الواعظ الكاشفى (ت ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ - ٥ م)، وبنائى الذى قتل فى منبحة قارشى (٩١٨ / ١٥١٢ - ٣) ، وهلالى الذى قتل بسبب تشيعه بأمر عبيد الله خان الأوزبك (٩٣٦ / ١٥٩٢ - ٣٠)، وهاتفى أو عبد الله مثنوى كوى (ت ٩٢٧ / ١٥٢٩ أو ١٥٢١) ، ويلزم أن نذكر شيئًا عن الشاعر الأخير فحسب .

١- هاتفى (متوفى عام ٧٢٩ هـ ديسمبر ١٥٢٩ أو يناير ١٥٢١ م)

مولانا عبد الله هاتفى خرجردى خراسانى ترتهن شهرته فى الأغلب إلى أنه ابن أخت الجامى الشاعر المعروف ، وبناءً على الحكاية المشهورة فقد حثه الجامى لكى يمتحن قريحته الشعرية على تقليد الأشعار الآتية التى نظمها الفردوسى فى هجاء السلطان محمود الغزنوى :

الشجرة المرة الجذور
لو تغرسها فى رياض الجنة

لو سقيتها من نهر الخلد
وصببت على جذرها العسل والشهد الصافى

ففى النهاية تثمر ثمرة

لن تكون غير الثمرة المرة

فنظم هاتفى الأبيات التالية فقال له الجامى على سبيل المزحة : (أحسنت ، ولكن كم مرة وضعت بيضاً) :

إن وضعت تحت طاووس

رياض الجنة بيضة غراب أسود حالك

وأطعمت الطاووس وقت احتضانه البيضة

من تين الجنة وذرتها

وسقيته من عين السلسبيل

ونفس جبرئيل فى تلك البيضة

فسوف تفقس فى النهاية الغراب

غراباً ويصنع تعب غراب الجنة عبثاً

وهاتفى من جملة الشعراء الكثار الذين كلفوا بنظم (الخمسة) على غرار نظامى الكنجوى وتقليداً له ، فله كتابان باسمى كتابى نظامى نفسهما ، وهما : ليلى والمجنون وشيرين وخسرو ، ونظم (هفت منظر) يقلد به (هفت بيكر) و (تيمور نامه) بدل (إسكندر نامه) ، والخلاف هنا بناءً على مفاخرة هاتفى أن تيمور نامه بناه على الحقائق التاريخية وليس الأساطير والخرافات ، ولهاتفى مثنوى آخر فى وقائع تاريخ عهد الشاه إسماعيل الصفوى بدأه ، ولكن لم ينهه فقد باغته هذا الشاه حين أوبته من إحدى حروبه فى خراسان ٩١٧ هـ / ١٥١١ - ٢ م بلقائه ، وهذا المثنوى بأسلوب شاهنامة الفردوسى ووزنه واسمه شاهنامة حضرة الشاه إسماعيل .

وينتسب هاتفى - كشأن كثير من الأدباء الذين كانوا يعيشون فى أوائل العصر الصفوى - إلى جماعة الأدباء الذين كانوا فى معية آخر السلاطين التيموريين فى هراة .

٢- بابا فغانى شيرازى (ت ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م)

فغانى فيما يظهر من أولئك الشعراء الذين لقوا فى الهند شهرة واحترامًا أكبر بكثير مما لقوه بإيران وطنهم ؛ لأن شبلى فى شعر العجم (٣ / ٢٧ - ٤٠) (وواله) فى (رياض الشعراء) حين يعداه موجداً لأسلوب جديد فى الشعر يشير إليه (رضا قلى خان) فى (رياض العارفين) بإيجاز ويسكت عنه تمامًا فى تذكرة الأكبر مجمع الفصحاء ، بل إن سيرته فى (آتشكده) و (تحفه سامى) أيضًا ذكرت بإيجاز شديد . كان هذا الشاعر من الطبقة الدنيا وابنا لصانع سيوف أو حسب قول آخر ابن بائع خمر ، وكان يعيش - فيما يبدو - كالدرويش المجذوب المهرطق ، فلما هاجر من شيراز إلى خراسان لم يقدره الناس حق قدره ، بل إن الشاعر الكبير الجامى لم يكرمه لكن السلطان يعقوب آق قويونلو فقد عزز مكانته فى تبريز ، وفى أواخر عمره تاب إلى الله واعتزل فى مشهد بحيث لم يعد بيته الآتى ينطبق عليه :

ذهب فغانى إلى تربته ملوثًا بالخمر فآهٍ لو كفنته الملائكة بكفن جديد

وأوسع انتخاب لشعره ما ورد فى مجالس المؤمنين وأغلبه قصائد فى مدح الإمام على ، والتى نظمها فى أواخر أيامه ، ورغم أنها ذكرت للتدليل على تشيعه إلا أنها مفيدة ، ولكنها تكفى بمشقة لإثبات فضله فى الشعر .

٣- أميدى طهرانى (ت ٩٢٥ / ١٥١٩ أو ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ - ٤ م)

لا نعرف عن أميدى سوى أن اسمه (أرجاسب) ، وكان تلميذًا للحكيم المعروف جلال الدين الدوانى ، ومهر فى نظم القصائد وليس فى الغزل ، ولم يكن على وفاق مع أهل مدينته ؛ فنظم هجاء كثيراً لهم ، وقتل فى عراك بسبب قطعة أرض بتحريك قوام الدين نور بخشى فى طهران ، ونظم أحد تلامذته واسمه (نامى) هذه القطعة فى تاريخ وفاته ومعناها :

أميدى نادرة عصرة المظلوم

الذى استشهد فجأة بغير حق

أتانى ليلاً فى المنام وقال

يا من أنت عالم بحالى الخفى

أكتب فى تاريخ قتلى

آه من الدم المسفوك بغير حق آه

سبق أن قلنا إنه أنشأ يمدح فيها (نجم الثانى) ، ويبدو أن أغلب شعره كان فى المدح ، ومع أنه نظم مثنوى (ساقى نامه) وهو تقليد للشعراء قبله إلا أن نسخة ، كثيرة الندارة وتوجد فى المتحف البريطانى مخطوط منها يشمل سبع عشرة ورقة وقد جمعت هذه الأشعار القليلة بعد وفاته بفترة بأمر (شاه صفى) ، ومع هذا فقد ذكر سيرته أغلب كتاب التذاكر وورد فى (آتشكده) أربعة وعشرن بيتًا له من (ساقى نامه) وسبعون بيتًا من قصائد منها هذه الأبيات الآتية التى وردت أيضاً فى مجمع الفصحاء (المجلد الثانى ص ٧–٨) :

لو انقلب رواق المدرسة فهذا أمر سهل

ولا أضيرت قصور حانة العشق

خرب بناء المدرسة من العالى والسافل

ولكن الخرابات أو الحانات لا تزال معمورة

أنت تركى نصف سكران وأنا طير نصف مذبوح

وشأنك أيسر من شأنى وشأنى أصعب من شأنك

حين تخطو فى الميدان أتخلى عن روحى

وتقطر العرق من وجهك وأنثر الدم من قلبى

في عقب ذاك المسافر من ضعفي وعجزي
انبعث وأحط كالتراب حتى أصل المنزل

بما أن مدحي قد انطوى صفحته فاسمع حكايته
ترى فيـــــه ثـــملاً ومجنـــونا عاملاً

عدوي هو المجنون الكثير الخداع اللدود
لا تأمنـــه ولا تغفـــل عنـــي

لا تغيب على المنصف الناقد للشعر هذه النقطة
وهي أن الفكر المشتت لا يميل إلى النظم

فازت قريحتي بـقصب السبق من كل شاعر
وإذا لم تكن قريحتي معي فأنا في داري محصل للعلم

٤ . ٥ - أهلي ترشيزي أهلي شيرازي

اسما هذين الشاعرين وهما أهلي من ترشيز خراسان (ت ٩٣٤هـ / ١٥٢٧ - ٨م)) وأهلي الشيرازي (ت ٩٤٢هـ / ١٥٣٥ - ٦م) أكثر شهرة وتنوالاً من أعمالهما ، ويجب الفصل بينهما كما أشار (ريبه) ، وقد سكت تماماً عنهما قلي خان ، وأهلي ترشيزي من بين الشعراء الذين تجمعوا حول حسين بايقرا ، وعلي شير ووزيره في هراة ، وهو من ناحية الفكر والذوق مقلد للشعراء سابقيه ، وأسلوب هذه المجموعة من الشعراء الذين كان يقتفي ظهوري ترشيزي (١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م) أثرهم لم ينل في الظاهر قبولاً في إيران لكنه على النقيض لقي احتراماً وشهرة عظميين في الهند ، وأهل ترشيزي صاحب نثر مصنوع ذي طنين ورنين وبسببه نال شهرة فائقة ، وفي رأيي بلا موجب في الهند ، لكن اسمه في إيران غير معروف ، أما أهلي شيرازي فقد مهر على وجه الخصوص في التجنيس وسائر الصناعات البديعة الصعبة .

٦- هلالى (مقتول عام ٩٣٥هـ / ١٥٨٢ - ٩م)

مع أن هلالى ولد فى أستر آباد ، لكنه من نسل الأتراك الجفتائيين وعاش فى أيام شبابه فى كنف تربية على شير فى هراة . انتقد (بابر) مثنويه المعروف (الشاه والدرويش) أو الشاه والشحاذ نقداً لاذعًا ، ثم عابه من بعده (أسبرنجر) ، لكن (إتيه) دافع عنه بحرارة شديدة ، وترجم هذا المثنوى إلى الألمانية ، نظم هلالى مثنويًا آخر باسم (صفات العاشقين) وبضع غزليات ، وقال فيه رافضى قلى خان : (كانوا يسمونه بالرافضى فى خراسان وبالسنى فى العراق) ، وللأسف فقد تابع عبيد الله خان الأوزبك الرأى الأول ، وكان شديد التعصب للسنة ؛ فأمر بقتله بجريمة التشيع ، ومع هذه الحادثة المفجعة ، فمن العجيب أن صاحب مجالس المؤمنين لم يورد اسمه بين الشعراء الشيعة ، وكما يرى فى (هفت إقليم) فإن سبب قتله حسد اثنين من حاسديه اسمهما : (بقائى) و (شمس الدين كوهستانى) ، وكان يقيمان ببلاط الأوزبك وليس بسبب مذهبه . يروى أن عبيد الله خان ندم على قتله بعده مباشرة ، وتدل هذه الأبيات على تشيعه :

محمد العربى شرف الدارين
ومن صار ترابًا على بابه لا يعلوه تراب

سمعت أنه مثل المسيح
بهذا الحديث هذا الفصيح المربى للروح

وهو أنا مدينة العمل وعلى بابها
فما أعجبه من حيث أنا متمسك به كثيرًا

٧- لسانى (ت ٩٤٠هـ / ١٥٣٣ - ٤م)

لسانى شيرازى هو آخر شاعر ذكره مجالس المؤمنين من اثنين وعشرين شاعراً شيعياً، وهو جدير بالذكر بسبب الخلاصة فى مذهبه لا بسبب منزلته الشعرية ، لأن شعره قليل جداً رغم ما يذكر من أنه نظم أكثر من مائة ألفى بيت وصعب العثور عليه ، وإذا كان اسمه ورد فى (آتشكده) و (هفت أقليم) إلا أن رضا قلى خان سكت عن ذكره. عاش أغلب عمره فى بغداد وتبريز ومات قبل تغلب السلطان سليمان خان على تبريز بقليل ، يقول مؤلف مجالس المؤمنين : (بسبب إخلاصه لحضرات الأئمة عليهم السلام لم يضع عن رأسه القلنسوة الحمراء ذات الاثنى عشرة طية إلى أن توجه السلطان العثمانى إلى الاستيلاء على تبريز ، فلما وصل خبر قرب وصلوه إلى مولانا كان إذ ذاك فى المسجد الجامع فى تبريز يواصل صلاته ؛ فاستمع إلى هذا الخبر ، ورفع يديه للدعاء قائلاً : ربى إن هذا الخداع آتٍ إلى تبريز وأنا لا أستطيع أن أشع قلنسوتى عن رأسى ، ولن أهدأ إذ رأيت استيلاءه فاقبضنى إليك وأوصلنى إلى بلاط رحمتك . وقال هذا الدعاء وسجد وأسلم فى هذه السجدة روحه إلى بارئها) :

لو أن قيد (لسانى) ينفصم من عقدته
فإن وجود المحتاج يندفن فى التراب

بالله لم يشرق من مشرف قلبه
غير حب علي وأولاده الأحد عشر

لم يهتم بجمع أشعاره غير أن (شريف التبريزى) أحد تلامذته جمعها بعد موته، لكنها من السوء بقدر أنها اشتهرت بأنها (سهو اللسان) كما يذكر صاحب آتشكده.

٨- فضولى البغدادى (ت ٩٧٠ هـ / ١٥٦٢ - ٣ م)

يعتبر فضولى فى الأغلب من الشعراء الترك ، ويحث هذا الأمر (جيبب) فى الجزء الثالث من تاريخه المفصل الذى ألفه للشعراء العثمانيين بالتفصيل (الفصل

الرابع ، ص ٧٠ - ١٠٧) ، وسبب أنه كان من رعايا العثمانيين أن العثمانيين استولوا من الإيرانيين فى عام ٩٤٠ هـ / ١٥٣٥ م على مسقط رأسه بغداد التى قضى فيها تقريبًا كل عمره . يقول جيب (كان فضولى ينظم الشعر بسلاسة فائقة بالتركية والفارسية والعربية) ، كما يصفه هذا المستشرق نفسه بقوله : (هو أول هؤلاء الأربعة ذوى المقدار السامى ، ولهم فى أقدم عهد أدبى للعثمانيين مقام غالٍ كثيراً ومقيد أسمائهم فى صحيفة الخالدين فى كل عهد وبين كل شعب كان) ، (وإذا كانت منزلته فى قصر الأدب الفارسى وضيعة ؛ فليس مرجع ذلك نقص كفاءته وفهمه فى الفارسية بل بسبب وجود حساد أكبر ونماذج أفضل فى حسن المقال فى هذا الأدب . وعلاقته بالمذهب الشيعى مشهودة من بضعة أشعار له وظاهرة فى (حديقة السعداء) التى ألفها تقليدا لروضة الشهداء للكاشفى فى استشهاد الأمام الحسين) ، وبما أننى أشرت إلى الكتاب الكبير لجيب المتعلق بالشعر العثمان : ى فلابد من إبداء شكى فى بعض كلام ، وهو أن جيب يدعى أن الشعر المعروف بـ (شهر أنكيز) أى المثير للدينة هو من ابتكار العثمانيين ، ولا يوجد فى الأدب الفارسى هذا النوع من الشعر ، لكن سام ميرزا يذكر فى تحفته السامية (ألفها عام ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م) شاعرين هما وحيد قمى وحرفى أصفهانى بادر الأول فى تبريز والثانى فى جيلان ينظم هذا النوع من الشعر ، ومع أن تاريخ نظم هذه الأشعار يتلو نظم الشعر التركى (شهر أنكيز) الذى قام به مسيحى الشاعر فى أدرنة ، ولكن ليس ثمة دليل على أن نبوغ هذا القسم من الشعر تطور فى إيران واكتسى بطراز جديد ، وكانت أشعار (حريفى) الذى كان اسمها (شهر آشوب) أى الفاتن للمدينة من القسوة والهجاء المقذع بمكان ؛ لأن هذا الشاعر المسكين - كما يذكر سام ميرزا - قد قطع لسانه بسبب نظمه له ، يقول سام (نظم شعر شهر آشوب لذاك المكان (أى جيلان) وأهلها ؛ فاتهموه بعلاقة مع مريد له وقطعوا لسانه، لكن هذه المكافأة له كانت بسبب أشعاره الأخرى لا بسبب هجاء أهل جيلان) (١) .

(١) يقصد سام أشعاره الأخرى شعره الشيعى . (المترجم)

٩- وحشى البافقى (ت ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م)

مع أن وحشى ولد فى بافق من توابع كرمان إلا أنه أمضى أغلب حياته فى يزد . ورد فى (عالم أرى عباسى) ، و (آشتكده) ، و (مجمع الفصحاء) مدح كبير لمثنويه (فرهاد وشيرين) وغزلياته ، نظم قصائد فى مدح الشاه طهماسب وأعيان بلاطه ، ويقول صاحب مجمع الفصحاء فيما يتصل بمدح وحشى : (قصائد هؤلاء الشعراء المتوسطين لا تواجه أو تثبت أمام قصائد المتقدمين) ، ولم يوفق وحشى فى إتمام مثنوى فرهاد وشيرين فأتمه وصال بعد قرون من بعده (فى ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٨ - ٩ م) وله مثنويان آخران أيضًا : أحدهما هو (خلد برين) أو الفردوس الأعلى ، والثانى هو (ناظر ومنظور) ، فضلاً عن غزليات وقطع من كثيرة أندرج منتخب لها فى مجمع الفصحاء وآتشكده (ص ١١١ - ١٢٠) . المربع التالى الوارد فى كلتا التذكرتين السابقتين بالجمال والطرافة معًا :

اسمعوا رفاقى شرحًا لاضطرابى
اسمعو قصة همى الخفى

اسمعوا حكاية تشتت
اسمعوا أحد وثنى وحديث حيرتى

فإلى متى يظل شرح هذه القصة المؤلمة خافيا
وقد احترقت احتراقا فحتام إخفاء هذا السر

كنت أنا وقلبى ساكنين بفترة فى حى
كنت ساكن حى محبوب ظالم الحسن

استلب وجهه الفتان دينى وقلبى
وتقيدنا بسلاسل شعره المسلسل

ولم يكن فى تلك السلسلة مقيدا غيرى أنا وقلبى
ولم يكن بين السكان أسير له غيرنا

لم يكن لنرجسيه الغامزتين منهم مريض
ولم يكن لسنبله المتغضن أى أسير

لم يكن له شترون ورواج
كان يوسفا ولكن لم يكن له من يشتريه

وكنت أنا أول من صار مشتريًا له
وكنت باعث رواج سوقه

صار عشقى له سبب جماله وحسنه
وأذعيت فضيحتى من حبه شهرة

ومن كثرة شروحى لجماله فى كل مكان
ثارت فى المدينة ثورة عظيمة من أجل رؤيته

وأصبح له إذ ذاك عشاق حيارى كثيرون
وصار لمن لم يكن له متاع غيرى متاع

وبما أن الأمر صار هكذا فالأفضل أن انشغل بأمر آخر
والأفضل أن أكون طيرا حلو الترجيع فى روضة أخرى

والحسن أن أكون عندليب ورد خد آخر
والأولى أن أبحثً عن حبيب آخر فى أيامى التالية

فأين هذه الزهرة الجديدة الى أصير بلبلها المنشد لها
وأمـــيز روضـــتها بنـــظرة الشباب؟

إذا كان الجنون بوجهك قد بارح لب وحشى
وغادرت قلبه تمنى قامتك الحبيبة

وفارق حبيك متألم القلب سقيم الوجدان
ورحل بقلب شكاء من عدم محبتك له

فحاش لله أن أنسى وفاءك
وأن أسمع حديث الناس المفضى للصلاح

١٠ - محمود قارى يزدى (ت ٩٣٣ هـ / ١٥٨٥م)

١١ - محمود محتشم كاشانى (ت ٩٩٦ هـ / ١٥٨٧ - ٨ م)

سبق أن نكرت أحوال محمود قارى يزدى المشهور بشاعر الألبسة ومات قبل وحشى بعامين وقبل محتشم بثلاثة أعوام فى الجزء السابق لهذا الكتاب بمناسبة ذكر شاعرين هجاءين وهزالين هما : عبيد زاكانى ، وأبو إسحاق أطعمه شيرازى ، وفيما يتصل بمحتشم وهو شاعر أهم فقد ذكرناه فى الفصل السابق بسبب أو أشعاره الدينية التى قامت عليها شهرته ، ورد فى آتشكده نماذج جميلة من أشعاره العشيقة وقصائده فى مدح الشاه طهماسب ، لكن تلك الأشعار لا تصل درجة المراثى التى نظمها فى مقتل الإمام الحسين وسائر الأئمة فى علو مرتبتها أو سماتها الشخصية ، وقدح نقل أغلب هذه المراثى مما أورده مجمع الفصحاء .

عرفى الشيرازى (ت ٩٩٩ هـ / ١٥٩٠ - ١م) وتلاميذه

مع أن عرفى له المقام والرتبة الأدنى فى وطنه عن تركيا العثمانية والهند إلا أننى أعتقد أنه هو الأكثر شهرة وقبولاً لدى الناس من كل ناحية من أى شاعر فى عصره .

ومع أنه ولد بشيراز وتربى بها إلا أنه قضى أغلب حياته فى الهند ومات بها فى السادسة والثلاثين من عمره عام ٩٩٩ هـ / ١٥٩٠ - ١ م ، قيل إنه مات بمرض الإسهال وقيل إنه مات مسموماً ، وعرفى واحد من ثلاثة شعراء مشاهير فى قرنه بحث أحوالهم شبلى النعمانى فى شعر العجم ، أما الآخران فهما بابا فانى الذى من ولايته نفسها وذكرنا سيرته ، والثانى فيضى أخو أبى الفضل الوزير المعروف للسلطان أكبر المغولى الذى يرى شبلى فيه الشاعر الثانى الذى كان ينـظم الشعر الفارسى بحيث لم يكن يفترق عن شعـر الإيرانيين أنفسـهم ، وحسـبما يذكر عبد القادر بداونى فإن عرفى وسنائى قد حاز كل منهما شهرة أعظم من سائر شعراء إيران والهند كل فى عصره ، وتوجد النسخ المخطوطة لديوانيهما فى كل سوق وفى كل مكتبه بينما تندر مخطوطات شعر فيضى رغم أنه أنفق أموالاً طائلة لكى تكتب أشعاره بخط جميل وتذهب مخطوطاتها ، ويقول (جيب) : شاعران يعدان صاحبى نفوذ فى الأدب العثمانى من بعد الجامى هما : عرفى ، وفيضى ، لكن صائب من بعدهما قد سبقهما ، وما تفرد به عنهما جدة أسلوبه المتمثلة فى إيراد اصطلاحات جديدة ومتعددة فى الألفاظ والمضامين الشـعرية وخلع السلطة الأدبية لعلم البديع وإحلال البيان العالى على عرش الأدب مكانه ، ويبدى ضياء باشا فى جزء من مقدمته الشعرية على كتاب الخرابات رأيه فى شعراء إيران ويقول بعد مدح الجامى عن عرفى وفيضى :-

فيضى وعرفى لهما مرتبة واحدة
وهما رأس فضلاء آخر الزمان

لفيضى البلاغة والطراوة
ولعرفى العذوبة الحلاوة

لفيضى المواعظ البالغة والتأثير
ولعرفى القصائد المتينة

أما إذا بحثنا عن الأفضلية
يظل الفضل لفيضى أيضًا

لأن فيضى معجم للغة كلها
إذا لم يكتب حرفًا منقوطًا فى تفسيره

وجد أن الفضيلة وحدها
فى أن يشهدوا له بكثرة تلاميذه

وفاة فيضى المفجعة (١٠٠٤ هـ / ١٥٩٥ م)

ليس لدى دليل على هذه المسألة الأخيرة ، ويبدو التناقض فيها فى شرح بدوانى حين يقص فى كامل الشفق وفاة فيضى الكثيرة الألم والعجز ، ومع أن ورم وجهه وأسوداد شفتيه الذى يحكى عنه عدوه اللدود أى بدوائى يبعث على الظن بأنه مات مسمومًا إلا أن هذا المؤلف المتعصب يذكر بضع مواد لتاريخ وفاته تتسم بسوء الأدب، والتى أنشأها السنة فى ذكرى وفاته وهو المرسوم لديهم بالكفر منها :

لما مات فيضى الملحد قال فصيح فى سنة وفاته : (رحل كلب بحال قبيحة عن الدنيا) ، وأسهل مواد تاريخ موته (بود فيـــضى ملحدى) : أى كان فيـــضى ملحدًا) و (جه سكيرتسى مرد) أى ماجن هذا الذى مات) ، و (قاعدة الحاد شكت) أى حطم قاعدة الإلحاد ، وكلها تنتج العدد (١٠٠٤) عام وفاته المطابق (١٥٩٥ م) ، ويذكر بدوانى : (ولكى يحكم من أساس مذهبه المتزلزل فى نظر الناس ألف تفسيراً للقرآن كان حروف جميعه غير منقوطة) ، ثم يقول بغل كبير : إن فيضى كان سكيراً وقت تحريرا هذا التفسير ، وعلى غير الطهارة الشرعية .

ويقول مؤلف مجمع الفصحاء فى التفسير الذى كان سمع عنه وحسب (تكلف فيه جهداً بلا نتيجة)، ولا يبدى رأيًا طيبًا فى أشعاره ، لكن صاحب (آتشكده) يختلف فيقول فى لطف ورفق (أشعاره ليست سيئة) ، وأكثر شرح قيم تفصيلاً رأيته فى

سيرته ما أورده شبلي النعماني في شعر العجم ، ذكر أنه قلد خمسة النظامي وعناوين مثنوياته هي :

مركز أنوار – سليمان وبلقيس – كل ودمن (وهو أشهرها) – هفت كشور – أكبر نامه ، لكن بعضها ناقص . نظم كثرة من القصائد والغزليات وترجم كثيرا من السنسكريتية ، ومن الأشعار التي قيدها شبلي له لا يبدو لي مؤثراً ولطيفاً مثل الشعر التالي الذي نظمه في رثاء ابنه :

كيف أنت أيها النور المنير لعيني
أنا بدونك شقي فكيف أنت بدوني ؟

منزلي دار مأتم بعد رحيلك
فكيف بنيت مسكنًا لك تحت التراب ؟

كيف أنت أيها الياسميني العذار
والجسد على الشوك والقش وهما فراش منامك؟

مكتبة فيضي

كان فيضي رجلا صاحب اطلاعات ومعارف مختلفة وعاشقًا متيماً للكتاب ، وكان بمكتبته (٤٦٠٠) مخطوطة منتخبة أغلبها بخط مؤلفيها أو نسخًا اشتغل هو بنسخها طول عمره ، كان مكرامًا مضيافًا ، ومن بين الضيوف الذين نالوا من مائدة إحسانه عرفي الشيرازي الذي سنقص من سيرته شيئًا الآن .

عرفی

هو جمال الدين محمد عرفی بن بدر الدين ، ولد وتربی فی شيراز ، لكنه هاجر إلی الهند فی صباه وصار من ملتزمی مقام فيضی كما ذكرنا ، لكنه سرعان ما دبت بينهما الخصومة والعداء يحكی بدوانی:

دخل عرفی علی فيضی يومًا فرآه يدلل جروًا فسأله ما اسم ابن سيدی هذا ؟ فقال (عرفی) ؛ فأجاب عرفی علی الفور (مبارك) ، ويقصد أبا فيضی ، وكان اسمه الشيخ مبارك ، وبعد ذلك اتجه عرفی إلی الحكم أبی الفتح جيلانی وعن طريقه دخل خدمة الرجل العظيم والنجيب وحامی العلم والأدب عبد الرحيم خان خانان ، ولقد حاز عبد الرحيم لقب بعد ذلك علی لقب خان خانان بعد أبيه بيرام خان المقتول فی (٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ - ١ م) ، ثم عرف عرفی بعد ذلك علی السلطان أكبر ورافقه فی ٩٩٧ هـ / ١٥٨٨-٩ م فی سفره إلی كشمير .

أخلاق عرفی الحادة

ومع الحظ المواتی والقريحة الوقادة لعرفی إلا أن غروره وتكبره منعاه من الشهرة والقبول لدی العامة ووفرا له أعداء كثيرين . يذكر رضا قلی خان عنه : لم يقبل أهل عصره سياق أشعاره . فمن يقول البيت التالی ؛ فسوف يكتسب بلا مراء نقد الناس ولومهم :

ما سبب فخر سعد الشيرزی بقبضة تراب شيراز

إذا لم يكن يدری أنها مولدی ومأوای

وليس هذا الأمر وحده الذی يظهر غرور عرفی وصلفه بل ادعاؤه تفوقه علی الأنوری وأبی الفرج والخاقانی وسائر شعراء إيران الكبار ، لقد تسبب غروره نفسه وأخلاقه غير المرضية فی أن ينظر إليه الإيرانيون بعين الإهمال ؛ لأنهم لا يرضون فی الواقع أن يهين كبار أدبهم بهذه الأهانة .

لكن لقى شهرة ونفوذ فائقين فى تركيا العثمانية كما ذكرنا ، وكذلك فى الهند إلى حد أن شبلى أوقف خمساً وخمسين صفحة من كتابه شعر العجم على سيرته وشعره أى أكثر بقليل من فيضى وأزيد بكثير جداً من كل من الشعراء السبعة الذين ذكرهم فى الجزء الثالث للكتاب المذكور ، بل إن شبلى نفسه يوافق على أن غرور عرفى وصلفه أدنياه فى نظرنا ، وكأن الشاعر نفسه كان على علم بهذا الوضع لأنه فى الأبيات الآتية يشكو مراءاة أصدقائه المنافقين بحبه ورياءهم حين أتوا يعودونه فى مرضه الخطير :

سقطت فى هذه الحالة ووقف أصدقاء
الفصحاء حول فراشى مثل المنبر

أحدهم يداعب لحيته ويميل بعنقه قائلاً
من الذى أوفى الزمان له يا روح والدك

لايجب الركون على الجاه والمال الوضيع
فأين عظمة جمشيد وشهرة الإسكندر

ويبدأ الآخر بصوت ناعم مقالته
الحزينة ويمسح عينيه الباكيتين بكمه

قائلاً : عزيزى لنا جميعًا هذا الطريق ولابد
من سلوكه وكلنا مترجلون والده هو الراكب

ويقول ثالث بفصاحة وبلاغة : يا من وفاتك
هو تاريخ (ثورة الأخبار)(١)

(١) بالفارسية (انقلاب جز) التى تشكل حروفها بحساب الجمل (٩٨٦) هو عام مرضه هذا . (المترجم)

تشجع وحذار أن تقلق فإنى

سأجمع كل نظمك ونثرك

وبعد كتابتها وتصحيحها سوف أنشئ

ديباجة فى مدحك كأنها درج الجوهر

وستكون فهرست العلم والفضل مثلك

ومجموعة الصفات الحميدة والفنون على غرارك

سوف أدبجها بالنظم والنثر وأهرقها

عليك مع أن أحصر كمالك لا يقدر عليه إنسان

ألا فليهبنى الله عز وجل الصحة لكى

ترى ما سأنزله على هؤلاء المنافقين

ولا يسع الكتاب التفصيل الذى أداره شبلى على هذا الشاعر من معلومات مفيدة وكاملة ، ويعدد شبلى صفات شعر عرفى وهى ست عنده : قوة الكلام ، وطرافة الألفاظ وجدتها ، والتشبيهات والاستعارات الظريفة ، وتسلسل الموضوعات ..، وسائر آثاره شعرية ماعدا رسالة قليلة الشهرة فى التصوف اسمها (نفسيه) ألفها نثراً، وهى عبارة عن مثنويين يقلدان مخزن الأسرار وشيرين وخسرو للنظامى ، بحد ذكر شبلى وديوان يشمل ستًا وعشرين قصيدة ومائتين وسعين غزلية وسبعمائة قطعة ورباعية التى جمعت فى ٩٩٦ هـ / ١٥٨٨ م قبل وفاته بثلاث سنوات ، يحدد الشعر الآتى مادة تاريخ جمع ديوانه :

هذه التحفة من النقاط

والإعجازية لما اكتملت بالكتابة

هذه المجموعة المزينة المقدسة وجد

تاريخها فى(أول ديوان عرى شيرازى)

وإحدى قصائده الذائعة الصيت فى مدح الإمام على وتحوى (١٨١) بيتًا وردت بالجزء الأول من الخرابات ص ١٦٩ - ١٧٤ ومطلعها :

سحت العالم ومن أسف لم أجد
أية مدينة وبلاد تبيع الحظ فى السوق

ولا يدخل عرفى فى ضمن الشعراء الشيعة الذين ذكر سيرتهم مجالس المؤمنين .

رأى فينسنت سميث القاسي

المجلد الثالث لمنتخب التواريخ لبدوانى هو مصدرنا لمعلوماتنا عن العلماء والفقهاء والحكماء والشعراء الإيرانيين الذين اجتذبهم البلاط الوضّاء للسلطان أكبر ، لكن الكتاب لا يسمح لنا بأن نتجاوز حدود إيران ، لكن السيد فينسنت فى (تاريخ أكبر شاه) يهاجم هؤلاء الشعراء هجومًا شديدًا ولاذعا فى قوله (ص ٤١٥ - ٦ طبعة أكسفورد ١٩١٧ م) : " كان الناظمون أو الشعراء بحد قولهم كثيرين بقول أبو الفضل لنا إنه أكبر مع أنه لم يكن يهتم بهم إلا أن آلافًا منهم كانوا يحضرون دائمًا فى بلاطه ورتب كثير منهم دواوين وهى مجموعة من قصائد متكلفة وغير طبيعية ، وتمتلئ بالتصنع أو رتبوا مثنويات ، ثم أحصاهم المؤلف وانتقد ٥٩ من كبار الشعراء المقيمين بالبلاط ، ويحصى ١٥ لم يحضروا إلى البلاط ، وكانوا يرسلون بشعر مدائحهم من إيران إلى السلطان ، ويذكر أبو الفضل كثيراً من منتخبات التسعة والخمسين شاعراً المذكورين ، ورأيت هذه الأشعار فى ثوبها الإنجليزى ولم أصادف بها أى فكر يليق بالذكر ، مع أن هذه المنتخبات المذكورة تشمل صفحات من آثار أخيه فيضى ملك الشعراء أيضًا والتى سماها أبو الفضل جواهر الأفكار" .

الموضوعات النفسية لكتاب بدوانى

يختص المجلد الثالث لمنتخب التواريخ لبدوانى عن آخره بأحوال الشعراء وفضلاء بلاط أكبر شاه ، ويحوى ذكر : ٣٨ من المشايخ ، و ٤٩ من الفضلاء ، و ١٥ حكيما وطبيبًا ، ونحو ٧٦١ شاعراً ، وأغلب هؤلاء الأشخاص مع أنهم كتبوا بالفارسية بل وولدوا بإيران ، لكن لا يذكرهم أحد فى موطنهم الأصلى .

ومن بين هذه الشخصيات العالية المرتبة المنتسبين- إلى حدً ما- بالقرن الذى بلغنا نهايته الشيخ بهاء الدين العاملى ، والملا محسن فيض كاشانى ، ومير دامار ومير أبو القاسم فندرسكى ، والأنسب ذكر أحوالهم ضمن الفقهاء والحكماء .

٢ - من ١٦٠٠ م إلى ١٧٠٠ (١٠٠٨ - ١١١١ هـ.ق)

عاش أربعة شعراء من السبعة الذين فصل شبلى أحوالهم فى الجزء الثالث من شعر العجم فى الفترة الفاصلة بين التاريخين السابقين : نظيرى (ت ١٠٢١ هـ / ١٦٢١ - ٣م) طالب العاملى (ت ١٠٣٦ / ١٦٢٦-٧ م) ، وأبو طالب كليم (ت ١٠٦١ - ١٦٥١ م) - صائب (ت ١٠٨٨ - ١٦٧٧ - ٨م) ، ولم يذكر قلى خان واحداً قط من هؤلاء ضمن بيانه أحوال كبار عهد السلاطين الصفوية فى نهاية ملحقات روضة الصفا لمير خوند واكتفى بذكر ظهورى (ت ١٠٢٤ / ١٦١٥ م) ، وشفائى (ت ١٠٣٧ / ١٦٢٧) عن هذه الفترة ، وشاعر آخر سكت عنه صاحبا هاتين التذكرتين ، لكنه معروف فى تركيا العثمانية وذو قدر عال هو شوكت بخارى (ت ١١٠٧ / ١٦٩٥ - ٦) ف ، كان حسب قول جيب : (نجمًا يهدى أكثر الشعراء العثمانيين لأكثر من نصف قرن) ، و (حاز شهرة عالمية فى حضور الذهن وكثرة الابتكار الشعرى والمجاز والتشبيهات الطريفة) . وعلاوة على هؤلاء الشعراء السبعة وباستثناء الخمسة شعراء الآخرين الذين مهروا أكثر فى الحكمة ، وسوف نذكرهم ضمن طبقة الحكماء ؛ فسوف نكتفى بذكر ستة شعراء هم أكثر شهرة واحترامًا من منافسيهم الكثيرين وهم : سحابى أستر آبادى (ت ١٠١٠ /

١٦٠١ - ٢)، وزلالى خونسارى (ت فى حدود ١٠٢٤ / ١٦١٥) ، وجلال أسير (ت ١٠٩٤ / ١٦٣٩ - ٤٠) قدسى مشهدى (ت ١٠٥٦ / ١٦٤٦ - ٧) ، وسليم طهرانى (ت ١٥٠٧ / ١٦٤٧ - ٨) ، وأمانى مازندرانى (١٠٦١ / ١٦٥١) ، ومع أننى أرى أن كلمة ريبه : (صائب خالق لأسلوب جديد فى الشعر وأكبر شعراء إيران المحدثين بالاتفاق) لا تخلو من المبالغة ، لكنه بلا مراء هو أعظم الشعراء الذين ظهروا فى القرن السابع عشر الميلادى ، وهو الوحيد فى نظرى الذى يستحق الدراسة المفصلة فى هذا الكتاب ، هذا خلافًا لرأى رضا قلى خان الذى يقول : (ثم كان له طراز غريب فى طريق الشاعرية غير مستحب الآن) .

وفيما يلى سيرة الشعراء السبعة عشر المذكورين ندرجها بترتيب تواريخ وفاتهم مع الإحالة المختصرة إلى الكتب والمصادر المختلفة حتى يراجعها من أراد التفصيلات هذه المصادر المختلفة حتى يراجعها من أراد التفصيلات ، هذه المصادر المذكورة باستثناء فهرست ريبه الذى لا يظهر له عبارة عن المجلد الثالث لشعر العجم لشبلى (وأشرنا إليه بعلاقة ش) - وأتشكده (وعلامته آك) - هفت إقليم والذى ليس عندى غير نسخته المخطوطة (وعلامته هـ.ا.) - و روضة الجنات (ر.ج.) - وروضة الصفا (ر.ص.) - ومجمع الفصحاء (م.ف.) - رياض العارفين (ر.ع.).

(١) سحابى أستر آبادى (ت ١٠٢٠ / ١٦١٠ -٢ م)

ريبه ص ٦٧٢ - آ.ك ص ١٤١-٢ - هـ . أ. فى القسم الخاص بأستر آباد م.ف. المجلد ٢ ص١٢ - ر.ع.ص ٨٥ -٦ جاور فى النجف أربعة أعوام ، ونظم خلاف الغزل رباعيات كثيرة يقال لا يزال ستة آلاف باقية منها .

(٢) نظيرى نيشابورى (ت ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ - ٣ م)

ريبه ص ٧١٨ - ٨ - ش ، المجلد الثالث ص ١٣٤ - ٣٦ - آ.ك.ص ١٣١ -٣- هـ.أ. فى قسم نيسابور شرح مفصل - م.ف.جـ٢ ٨٤ - ٩ - ر.ع.ص ٢٣٦ -٧ عاش

السنوات الثلاثة الأخيرة من عمره فى الهند خاصة فى (أحمد آباد) بالكجرات وتوفى بها ، ونظيرى أحد الشعراء الكثيرين الذين كانوا يعيشون فى خفض من العيش فى ظل عناية عبد الرحيم خان خانان ، ونال منه نفقات الحج عام ١٠٠٢ هـ / ١٥٩٣ - ٤م مقابل قصيدة مطلعها :

لا أسعى من الفضل إلا ما يسعه الدن
من خمر المجوس : وتتمزق الثياب على جسمى

إذا طلبت المعانى رأيت من خفض العيش
فى الدنيا رعايتك : فلا غرو من أن أجد زاد الآخرة بك

كان متعصبا من الناحية الدينية ونظم أشعارا يهجو فيها أبا الفضل ، وكان رجلا ملحداً وقــرض شــعرا فى وصف التبغ نقل شبلى بعضها (ص ١٣٤) .

٣- زلالى خونسارى (ت ١٠٢٤ هــ / ١٦١٥ م)

ريبه ص ٦٧٧-٨ ، هـ . أ . فى قسم خونسار (شرح سيرته مفصل) كان يمدح ميرداماد ، وصنع سبعة مثنويات واحد اسمه (محمود وأياز) بدأه عام (١٠٠١ هـ /١٥٩٢- ٣ م) وأنهاه فى (١٠٢٤ / ١٦١٥ م) قبيل موته وهو أشهر مثنوياته وله مثنويان آخران ذكرهما (ريبه) : أحدهما (مى خانه) أى الحانة ، والثانى (ذره وخوشيد) أى الذرة وشمس .

ظهور ترشيزى (ت ١٠٢٤ هــ / ١٦١٥ م)

قتل ظهيرى وأبوه ملك قمى وهو من الشعراء فى الثورة التى نشبت فى الدكن . وريبه ص ٦٧٨ -٩ ، أ ، ك . ص ٦٨ ٧٠ - ر ، ص . تأخر الجزء الثامن ، وكما يذكر ريبه : فقد قلت شهرة ظهورى بإيران ، لكنه على النقيض جداً بالهند، ويعد من كتاب

النثر المعتبرين وذوى القرائح القوية ، ويقول صاحب أ . إنه يرى أن (ساقى نامه) مثنوى هذا الشعر لا يستحق ما ناله من إعجاب كبير خلاف ما اكتسب من شهرة .

٥ - بهاء الدين العاملى (ت ١٠٣٠ هـ / ١٦٢٠ - ١ م)

يقال له فى العا..ة الشيخ البهائى وأغلى مهارته فى الفقة والحكمة والرياضيات لكنه خلف مثنويين صغيريين هما (نان وحلوا) أى الخبز والحلوى و (شير وشكر) أى اللبن والسكر ، وفى م .ف ، ج، ص ٦-١٠ ، ع ص ٤٥-٩ منتخبات من هذين المثنويين ، ويضع غزليات ورباعيات ، وأفضل كتبه النثرية علاوة على تأليفه الرياضية والفلكية هو (كشكول) المطبوع بالرصاص فى بولاق بمصر وعلى حجر بإيران ، ومن تلامذته البارعين المجتهد المعروف الملا محمد تقى مجلسى (ت ١٠٧٠ هـ / ١٦٥٩ - ٦٠ م) .

٦- طالب عاملى (ت ١٠٣٦ / ١٦٢٦ -٧م)

ريبه ص ٦٧٩ ، ش ، ج ٣ ص ١٦٥- ١٨٨ - أ . ك ، ص ١٥٥ -٦ ، ورد بهذا الكتاب أن طالب صاحب أسلوب شعرى خاص تجنب اقتفاء الفصحاء التالون له ، هاجر إلى الهند أوائل عمره ، وبلغ من الاحترام حد أن جهانجير جعله ملك شعرائه عام (١٠٨٢هـ / ١٦١٩ م) ، ولم يكن بحال يخفض جناحه ، وكان يزعم أنه أتقن العلوم السبعة قبل بلوغه العشرين .

العلوم التى يدعيها طالب

وطأت بقدمى الدرجة الثانية بذروة الأفلاك

ويــــــزيد عـــــدد فنـــــونى عن الآلاف

ولى يد هى اليد البيضاء على الناس
في علم الهندسة والمنطق والهيئة والحكمة

وفوق هذه العلوم طويت أستاذها
وهو علم التصوف أو علم الحقيقة

أما عن وصف خطى فمن كثرة جماله أن صار
كل نقطة من قلمى سويداء أمهل الكتابة

واكتسى بنسبة الشعر لأنى أعلم مثلما تعلم
أن درجتى هذه هى ثامنة هذه السبع الشداد

ويشير الشاعر فى الرباعى التالى الذى نقله شبلى (ص ١٦٨) إلى قصده سفر الهند ، وأنه ترك حظه البائس فى إيران وأن اتحاف الهند بالهندية ليس من عمل العقلاء :

خذ يا طالب وردة هذه الروضة وخلها
خلّها حتى لا يصيبك القلق

لا يحمل أحد الهندية طرفه إلى الهند
فخلْ حظك الأسود بإيران

حب طالب لأخته

كانت له أخت تكبره وتحبه بإخلاص ، وبعد هجرانه الطويل قدمت أخته من إيران إلى آجرا لتراه ؛ ولهذا استجاز طالب السلطان جها نجير مقابلتها بهذه الأبيات :

يا صاحبى المنعم المربى على لسانى الفصيح طلب
هو أن أختى العجوز المتألمة التى أحبها حبى لأمى

مضت أكثر من أربع عشرة سنة وأنا بعيد عنها
ابتعدت عنها فى سفر العراق وأنا مجرم فى حقها بهذا الجرم المنكر

فلم تطق فراقى وهى تعادل أمى
فأتت إلى إجراء وقلبى يخفق كالحمامة شوقًا إليها

ويهفو قلبى إليها فماذا أفعل والشوق قائدى
فإذا تسمح لى بزيارتها فهذا يعادل الدنيا عندى

وله إشارات عشقية كثيرة جداً بالفارسية ، لكن بما أن الأبيات التى تحكى حبه العميق والمخلص لأسرته قليلة إلى حد ما فإن هذه الأشعار تبدو مهمة وجديرة بالذكر.

٧- شفائى (ت ١٠٣٨ هـ / ١٦٢٧ م)

توجد فى المتحف البريطانى لهذا الشاعر إشارة ثلاثة عشر بنداً فى (ورقة ٧ a و ١٣٧٢) راجع فهرست ريبه ص ٨٢٢ ، ٨٧٦ ، لم أستطع أن أجد فى (عالم آراى عباسى) الذى بحوزتى ضمن أحوال شعره أو ضمن ذكر أطباء بلاط الشاه عباس الشرح الذى يشير إليه (ريبه) ، لكن يوجد شرح له فى (ف.) جـ ٢ ص ٢١ - ٢٣ ، وكذلك فى آ.ك ص ١٦٨- ٩ اسمه حكيم شرف الدين حسن ، وكان الطبيب الخاص والنديم للشاه عباس الأول ، ويقول رضا قلى خان : (فضل حكيم فى الطب وحجب الطب شاعريته) ، خلَّف فوق غزلياته وهجوياته مثنوياً اسمه (نمكدان حقيقت) أو (ملاحة الحقيقة) نظمه تقليداً لحديقة الحقيقة للحكيم سنائى الغزنوى .

٨- مير محمد باقر داماد أسترابادى (ت / ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠ - ١ م)

لقب (داماد) هو لقب والده فى الحقيقة ؛ لأنه كان (صهر) المجتهد المعروف الشيخ على بن عبدالعال العاملى ، كان مير داماد المتخلص بإشراق ينظم الشعر ، لكنه اشتهر بالفقه والحكمة أثر من الشعر ، راجع فهرست ريبه ص ٨٣٥ -م.ف. جـ ٢ ص ٧ - ر.ع.ص ١٦٦-٧- آ.ك .ص ٩٥١- فى روضـــات الجنات (ص ١١٤-٦) ، وفى عالم آراى المؤلف فى عهده عام ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦ م ورد شرح مفصل عنه ، وعدّ صاحب قدرة ومهارة فى أغلب العلوم خاصة فى الحكمة ، واللغة، والرياضيات، والطب، والفقه، والتفسير، والحديث، وذكر له اثنى عشر مؤلفًا من كتبه النثرية ، وكان أحد المعلمين للحكيم الكبير الملا صدرا الشيرازى .

٩- مير أبوالقاسم فندرسكى (ت نحو ١٠٥ هـ / ١٦٤٠ - ١ م)

يشتهر بدوره فى الحكمة أكثر من الشعر ، لكنه ذكر فى (م.ف.جـ٢ ص ٦-٧ وفى (ر.ع .ص ١٦٥-٦) وفى (آ.ك.ص ١٤٣ - ٤) وفى فـهـرست ريبـه ص ٨١٦-٥ وأوردت كافى التذاكر إحدى قصائده التى تأثر فيها بناصر خسرو ، وعليه فإن لم تكن أفضل أعماله فهى من أشهرها ، ومطلعها :

إن الفلك بما فيه من النجـــوم اللطيفة
والبهية له صورة بالأسـفل مع علوه

فإن ارتفعت صورته السفلى بسلم
المعرفة فإنها تتحـــد بأصـــلها العـلوى

ولا يفهم هذا القول أى فهم ظاهرى ولو كان صاحبه أبو نصر وأبو على بن سينا لم يكن أبو القـاسم يهتم بمنظره الخـارجى على غـيـر العـادة ، فكان يلبس الخـرق كالدراويش ، ويتجنب صحبة الأثرياء والعلية ويعاشر المشردين والمفضوحين ؛ فقال له

يومًا الشاه عباس لمجرد أنه يلومه لصحبته هؤلاء الأدنياء : (أسمع أن بعض العلماء يعاشرون الأوباش والسفلة ويتفرج على ألعابهم غير اللائقة) .

فأجاب أبو القاسم : (كنت دائمًا وسطهم ولم أر معهم أى عالم) ، سافر إلى الهند وبها وقع تحت نفوذ أحد تلامذة (آذركيوان) كما يذكر صاحب (دبستان) ، وأثرت فيه الأفكار الزردشتية والهندية أو البوذية حتى إنه صرح أنه لن يذهب إلى مكة لأن سفره إليها يستلزم قتل حيوان برئ ، ومع أن قلى خان قد أعلى درجته كثيرا ، لكنه قصر ذكر حاله ربما بسبب أنه كان حكيمًا أكثر منه شاعراً ودرويشًا أكثر من فيلسوفًا ؛ فلم يحسبه واحداً بالضبط ضمن إحدى هذه الفرق ورأوا من الفضل أن يحذف اسمه من التذاكر الخاصة لكل طبقة من هذه الطبقات .

ولا بد من ذكر هؤلاء الأشخاص بين الشعراء الصغار : جلال أسير (ت ١٠٤٩ هـ/ ١٦٣٩ م) ، وقدسى (ت ١٠٥٦ / ١٦٤٦ – ٧) ، وسليم طهرانى (ت ١٠٥٧ / ١٦٤٧ – ٨) أبو طالب كليم وأمانى مازندرانى وتوفى كلاهما فى (١٠٦١ / ١٦٥١) ، ومحمد طاهر وحيد (ت ١١٢٠ / ١٧٠٨ – ٩) ، وشوكت بخارائى (ت ١١٠٧ / ١٦٩٥ – ٦)، وغير صائب الذى توفى فى عام (١٠٨٨ / ١٦٧٧ – ٨) ، ولا يستحق الذكر من بين هؤلاء الشعراء غير كبارهم وهم : الرابع ، والسادس ، والأخير منهم .

١٠ – أبو طالب كليم (ت ١٠٦١ هـ / ١٦٥١ م) .

ولد بهمدان ، لكنه كان يعيش فى الأغلب فى شيراز وكاشان حين سافر إلى الهند ؛ ولهذا أطلق عليه فى الغالب (كاشانى) ، ويذكر قلى خان فى (م ف.) جـ٢ ص ٢٨ شرحًا موجزًا له ، لكن شبلى يفصل فيه البحث فى شعر العجم جـ٣ ص ٢٠٥ – ٢٣٠ . وفى حدود ١٠٨٢ هـ / ١٦١٩ م زار موطنه وبعد نحو عامين عاد إلى الهند وحاز منصب ملك الشعراء فى بلاط شاه جهان ، ورافق هذا السلطان فى سفره إلى كشمير وفتنه حب هذا الملك حتى إنه لم يترك الهند حتى وفاته ، كان رجلاً ذا فطنة ومتزهًا عن الحسد ؛ ولذا أحبه بإخلاص رفاقه فى الشعر ، وكان من أخصهم صداقة له صائب ويمر معصوم وأنشد فيه صائب :

ليس من أخل الشعر من يحب أحدهم
الآخر غير صائب ومعصوم البليغ وكليم

ونظم أبو طالب بمناسبة وفاة ملك قمى الشاعر مادة التاريخ التالى

ملك هذا الذى هو ملك عالم المعنى
من اسمه كان سكة نقد الشعر

ذاع صيته من عالم المعنى
حد أن ملكه يلف من قم إلى الدكن

طلبت سنة وفاته من الأيام
فقالت (كان رأس الشعراء)

لم يكن يجهر أغلب شعراء إيران القادمين إلى الهند طلبا للثروة أو نفقات الحياة بغير السوء عن الهند ، كما يذكر شبلى إلا كليم الذى يقول بسبب ما لقيه فيها من تقدير واحترام :

يمكن أن تسميها بالجنة الثانية بمعنى أن كل من غادر هذه الجنة بات نادماً ، وحين أرسل السلطان العثمانى رسالة إلى (شاه جهان) أى ملك العالم السلطان الهندى ولامه بكبر عن سبب تسمية نفسه بملك العالم وهو لا يزيد عن كونه حاكماً للهند أجاب كليم نيابة عن ممدوحه إجابة لطيفة فى هذا الشعر :

بما أن حساب حروف (هند) و (جهان) أى الدنيا واحد فهذا يبرر مخاطبة الشاه بشاهجان (١) .

(١) أصل العبارة التى يحتسب تاريخ وفاته بالفارسية هى (صائب وفات يافت) ، مع أن مجموع حروفها (١٠٨١) وليس (١٠٨٠) . (المترجم)

ويكتب شبلى شرحًا مشبعًا عن فن كليم ، ويختار أمثلة كثيرة من أشعاره ، ومن جملة فنونه فى اعتباره ابتكار المضمون ونسيج الخيال وإرسال المثل ، ويقترب كليم أقرب فى هذه الصنعة الأخيرة التى تسمى إرسال المثل إلى أسلوب صائب المشهور ، وأذكر الأشعار الآتية على سبيل التمثيل .

يكمن الزمان لحظى
ويتام لص دائمًا وراءه

ويظن قلبى أنه أخفى سر العشق
ويظن الشمع فانوسًا قد أخفاه

لم ينصلح حال الخرب بشعرى
كأنه الخرابة التى لم تعمر مع وجود الكنز فيها

لا يكتسب السفلة الشرفى قرب العلية
ولا يغدو الخيط ثمينًا لنظم الجوهر فيه

لثمت يد كل إنسان ولكن ما الفائدة
ولم يحل أحد عقدة أمرى

إذا عاشرنى ذهب محبته عنى
فهو معى لحظة وهارب منى دائمًا

إذا وجدت القدرة ظهر عجز اليد والقلب
ولا يبقى الصدف مفتوحًا إلا إذا ضاعت لؤلؤته

ويشبه البيت الأخر ببيت لصائب هو :

لا تجتمع الزهرة مع الثمرة قط فى آن واحد
ومحال أن تظهر معًا النعمة والأسنان

ومن أشعار كليم :

صمت الواصل من سفره عن اللجاج
فإذا انتهى الفر خرس الجرس

يستوى القليل والكثير من الدنيا إن قنعت بالمقسوم
ويستوى كوب ماء والنهر لدى العطشان الذى يطلب جرعة واحدة

لا نعرف شيئًا عن بداية الخلق ونهايته
فهذا الكتاب سقطت صفحته الأولى والأخيره منه

ذهب النهر حين علم بأسرار الدنيا
ويغادر الكتب كل من استظهر دورسه

والغزل التالى ذكره شبلى نموذج لذوق كليم نختم به ترجمتنا له :

بلغت المشيب وانتهت ثمالة طبع الشباب
ولم يعد يحتمل ضعف جسدى الرطل الثقيل

لا يقبل ومنع الزمان إعادة الرؤية
والنظر ولا ينظر خلفه من خلف هذه المزبلة

فاز حسن على جيش الربيع

حين شكل خلقك أن تتكيف على الدنيا
أو أن تخليها تمامًا بهمة منك

إن تجرد العنقاء على مذهبنا ناقص
فإن تخلص أحد من مشكلة جسمها ارتهن بتذكر اسمها [(١)]

يكمن الزمان لحظى
وينام لص دائمًا وراءه

إذا تعذر السير بلا عين فلماذا إذن
أغطيت عن الدنيا إذا أمكنك عبورها ؟

لا تدور فضيحة الحياة عن يومين
فأشرح لك يا كليم كيف مضت

يوم تعلقت فيه بهذا وذاك
ويوم تخلصت فيه من هذا وذاك

١١- محمد طاهر وحيد قزوينى (ت ١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ - ٩م)

يقال إنه كان مكافحًا ومعانيًا وليس شاعرًا كبيرًا ، يقول رضا قلى خان : (رؤى ديوانه المكون من تسعين ألف بيت فى شيراز ويشمل الشعر والنثر التركى والفارسى ورسالات فى كل فن لكن ليس فيه جمال) ، وروى له بضعًا من أفضل شعره منه هذا الرباعى الشاهد على تشيعه :

(١) العنقاء طائر خرافى يوصف بأنه (موهوم الاسم مفرد الجسم) ، وهذا المعنى المراد من البيت. (المترجم)

إن طينة واحد خلقت من حب علي

كان مقامه بالدير أو الكنيسة

فإن أدخل النار لم يسترح بها حمل إلى الجنة

ذكر ريبه شرحًا لأهم مجريات حياته ، وكان الكاتب لاثنين من وزراء إيران تولى أحدهما الصدارة بعد الآخر وهما : تقي الدين محمد وخليفه سلطان ، وفي ١٠٥٥ هـ - ١٦٥٤ م صار المؤرخ الرسمي للشاه عباس الثاني ، وفي ١١٠١ هـ - ١٦٨٩ - ٩٠ م وصل الوزارة ، ثم ركن إلى العزلة بعد سبعة عشر عامًا ، وودع الحياة في نحو عام ١١٢٠ -١٧٠٨-٩ ، ويشرح ريبه خمسة نسخ من تأريخه وإحداها مقيدة تحت علامة (or. ٢٩٤٠) حتى يصل إلى العام الثاني من حكم هذا الشاه أي ٣٧٠ - ٤ - ١٦٣٣- وربما يصح قول صاحب آتشكده (إذا لم يكن الخوف من منصبه ما سمع مدحًا من أحد) ، وحسبما يذكر (إتيه) فقد كان وحيد من أصدقاء صائب.

١٢- شوكت بخاري ت ١١٠٦-٧ هـ/ ١٦٩٥ م

لا يزال مغموراً في إيران ولا يرد له ذكر في مجمع الفصحاء ، وورد في رياض العارفين بيتان له مع سيرة موجزة له ، ويصف أحواله العجيبة نقلاً عن الشيخ محمد علي اللاهيجي المعروف بحزين- وكان معاصراً له : بأنه كان يطوف وسط الشتاء عاري القدمين والرأس ، وقد غطى كتفيه بلبادة ، وقد تغطت رأسه بالبرد ، وقد تجرد من كل شيء حتى إنه لم يكن يزيل البرد الساقط على رأسه ، ولا يجدر شوكت بالذكر إلا أنه حاز شهرة في تركيا العثمانية وله تأثير عظيم في الأدب العثماني ، وبالغ جيب في كتابه تاريخ الشعر العثماني في وصف تأثير هذا .

صائب تبريزى (ت / ١٠٨٨ / ١٦٧٧ – ٨)

يعتبره شبلى آخر شعراء إيران الكبار ويفضله على قاآنى أشهر الشعراء المحدثين وأعظمهم ؛ لأنه يرى أن قاآنى قلد الفرخى ومنوجهرى ، أما صائب فله ابتكار فى الشعر ، ويقول قلى خان : (كان له فى الشعر طراز غريب غير مقبول الآن) . على العموم فإن صائب مثل عرفى من الشعراء الذين لم تقدرهم إيران قدر اهتمام الهند وتركيا بهم ، ولكنى أبديت رأيى فيما سبق من صفحات عن فن صائب ومرتبته، . وحسبما يذكر آتشكده فقد ولد ميرزا محمد على صائب فى قرية عباس آباد قرب أصفهان ، وكان أبوه وعشيرته قد هاجروا من تبريز إلى تلك القرية المذكورة بأمر الشاه عباس ، وبعد إتمام دراساته بعاصمة إيران هاجر إلى دهلى وسائر بلاد الهند فى عنفوان شبابه ربما قبل ١٠٣٩ / ١٦٢٩ – ٣٠ ، وصار موضع اهتمام ظفر خان وسائر أعيان الهند ، وبعد سنتين من الإقامة بالهند اقتفى أثره أبوه وكان عجوزًا فى السبعين ليلقاه ويعيده إلى إيران ، فأستأذن صائب ممدوحه ظفر خان لإطاعة أبيه بهذه الأبيات :–

مر جواد سفرى من أصفهان
إلى الهند منذ أكثر من ستة أعوام

ولى والد طاعن فى السبعين له
علىّ حقوق لا حصر لها لتربيته لى

فاجتذبه من أصفهان إلى آجرا
ولاهور دافع شوقه التى فأتاها وهو يبكى

وهذا قبل أن يتجه بأسرع
من السيل الجارف من آجره إلى الدكن

إنه يطوى هذه المسافة البعيدة بدافع
الشوق وقامة منحنية وجسد هزيل

وعليه فأملى أن أستأذن حضرتكم
يا من عتبتكم هى كعبة آمال الزمان

قصده من مجيئه هو الرجوع بى فانثر
الجوهر من شفتيك بالتفوه بالسماح لى بالرحيل

وارفع يدىّ دعائك فى توديعى
بجبهة أنصع من شمس الصباح

ولما دعا صائب إلى أصفهان لقى فى بلاط الشاه عباس الثانى احترامًا ومنزلة عزيزة ، لكن سوء الحظ أغضب عليه الشاه سليمان الذى خلف الشاه عباس . والخلاصة أن صائب بعد طى عمر قليل الحوادث ودع الدنيا فى أصفهان فى عام ١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩ – ٧٠ م وعبارة (مات صائب) هى تاريخ موته (١) .

إعجاب صائب بأشعار زملائه الهنود

من جملة ميزات صائب التى يذكرها شبلى أنه كان يلقى التكريم من شعراء الهند وكان يؤثر أشعارهم بحبه الشديد ، وهذه ميزة قل أن ترى فى شعراء إيران ، ويذكر شبلى ثلاثة عشر بيتًا أعجب بها صائب وضمنها فى شعره من شعر هؤلاء الشعراء وهم : فيضى وملك ، وطالب آملى ، ونوائى ، وأوحدى ، وشوقى ، وفتحى ، وشابور ومطيع ، وأوجى ، وأدهم ، وحاذق ، وراقم ، ويلوم صائب فى الشعر التالى أشخاصاً يعيب أحدهم شعر الآخر وينهض منافساً له :

ما أطيب تلك الجماعة التى يمثل أحدهم
بشعر الآخر إذا جاش فكر خمره الأرجوانية

(١) أصل العبارة التى يحتسب تاريخ وفاته بالفارسية هى (صائب وفات يافت) مع أن مجموع حروفها (١٠٨١) وليس (١٠٨٠) . (المترجم)

لا يضرب أحدهم لترويج متاعه
الشعرى جوهر الآخر بالحجر

وإنما يحذف بعضهم رأس آخر بالزهر
المقتبس من الشعر المزين من فكر أحدهم الغض فى بستانه

إن الشاعر حين يغدو سيفًا من
الماس من برودة طبعه شعر صاحبه

لا يحب من الشعراء أحدهم الآخر
غير صائب ومعصوم البليغ وكليم

كان صائب يجل كثيراً شعر حافظ ويمتدح أستاذيه (ركنا) و (شفائى) ، ويقول فى الأخير :

إذا مرض بأصفهان شعر صائب فليس

له من شفاء غير شعر شفائى البليغ

وكان صائب يفضل نظيرى فى شعره على نفسه وعلى عرفى ، ويعده أعلى منه ، يقول شبلى : (وليس فى ذلك كلام ، ولكن حين يمدح صائب متابعًا ذوق العامة وانعكاس الشهرة ظهورى وجلال أسير أيضًا .. فلا يمكن تحمله ، هذه أول خطوة خطاها صائب فى دنو ذوقه وفتح الطريق للآخرين .. ، وقيل إن بناء الظلم فى الدنيا كان فى البداية قليلاً فزاد عليه كل من أتى من بعد حتى وصل هذه الغاية) (شعر العجم م / شبلى ، ١٩٧٣) مع أن صائب جرب قريحته فى سائر أقسام الشعر ، لكن أستاذيته تتجلى فى الغزل والشعر البديهى أو لارتجالى ، نظم أحد تلاميذه يوماً هذا المطلع الذى لا يؤدى معنى :

اطلب من الزجاجة الفارغة

من الخمر الخمر الفارغة من الزجاجة

فنظم صائب هذا البيت على الفور يصحح به البيت السابق ويجعله ذا معنى :

اطلب الحق من القلب

الخالى من الهم

وفى مناسبة أخرى أنشأ أحد رفاق صائب هذا المصرع الخلى من المعنى ، ويبدو أنه دعا الأستاذ إلى نظم المصرع أو الشطر الثانى له وإضفاء معنى له :

الجرى السير الوقوف

الجلوس النوم والموت

فارتجل صائب الشطر الثانى وجعله يسبق الشطر السابق وقال :

تكون الراحة على قدر كل

سكون فانظر الاختلاف بين

كان صائب يدقق ويحقق فى شعر السابقين سواء من تقدموه أو توفوا فى عصره نفسه وجمع أوراقًا من أفضل أشعارهم لا تزال موجودة - بحد قول شبلى - فى حيدر آباد بالدكن ، ويبدو أن (واله داغستانى) وسائر كتاب السير أفادوا منها ، ويشبه شبلى صائب بأبى تمام الذى جمع أوراقًا كثيرة من شعر الشعراء العرب وسماها بالحماسة ، ويقول عن مرتبة ذوقه تظهر وتتحدد فى الأغلب من الأشعار التى جمعها أكثر من التى نظمها .

بضعة منتخبات من شعر صائب

استخرجت هذه الأبيات من كتاب الخرابات قبل سنوات عديدة (١٨٨٥ م) ودونتها في دفتر ، وكنت إذ ذاك مبتدئًا في الفارسية ، كانت هذه الأبيات تعجبني كثيراً ولا تزال في نظري مقبولة جداً وأرجو أن تحوز رضاء القراء :

- بما أن التعود على الشيء
لا يضر الإنسان فعود نفسك بالتدريج على الموت

- جذور النخلة العتيقة تزيد
عن الشابة ولهذا يتعلق العجوز أكثر بالدنيا

- كل رأس لها ريح مختلف في هذا السوق
وكل امرئ يعقد عمامته بدين مختلف

- ما استفاد الفقراء من الإمام الكامل إلا إفادة
الإسكندر حين أرجعه الخضر عطشانًا من ماء الحياة

- المسبحة بيد التوبة والقلب يفيض شوقًا
إلى المعصية ومعصيتنا تسخر من استغفارنا

- مقام الجوهر الغالي لابد أن يكون بدرج الكنوز
فلا بد إذن أن يكون الشعر العالي من بياض الصدور

- يصل حديث الكفر والدين إلى نهاية واحدة
فالمنام واحد لكن التفسيرات مختلفة

- لا يأمن الظالم سهم آهات المظلوم قبل
أن ينطلق من قوس قلبه المتألم ويصل هدفه

- إذا أقفل باب فتح عشر والأصابع ترجمان لسان الخرس
- سرعان ما يقتبس السذج ألوان مجالسيهم كلام الأخرس يجعل المرآة ناطقة
- الموج غافل عن حقيقة جواهر البحر فكيف يفهم الحادث حقيقة القديم ؟
- مقياس الأصدقاء المزورين هو يوم
الحاجة فجرب صدق أصدقائك بأن تستقرضهم
- الرجل العالم غريب بين أهل الدنيا غربة إصبع الشهادة فى كف المسيحى .
- إن انتظار الموت هو وجود العالم الفانى
وترك الوجود هو الخلاص من انتظار الفناء
- إنك تهتم بالمال أكثر من روحك وعلاقتك بالحطام أكثر عندك من حياتك .
- مع كمال قربى من الحبيب فإن قلبى غافل
والسمك يحيا بماء النهر وهو عنه غافل
- بكاء الشمع ليس بسبب موت الفرشة
بل لأن الصبح اقترب وهو يفكر فى ليله المظلم
- الرحيل عن هذا العالم المهتاج أفضل من الإتيان
إليه والبرعمة تأتى الحديقة متضايقة وتنهب ضاحكة
- إذا استقرت المحبة بين قلبين لا يحتاجان إلى تردد الأخبار بينهما
- حين يكبر المرء يغدو فى حرص
الشباب والنوم يزداد وقت السحر
- الصمت هو الحجة الناطقة لبحر الجوهر
لأن الغواص فى البحر لا تخرج منه نَفَس

- يصنع جردل للخمر أو دن أو قدح فلا تضيع قبضة تراب فى هذه الحانة
- لايشيع الحريص من مال الدنيا والآخرة والنار المشتعلة فى اشتهاءتهم دائم
- أدركتنى السعادة وقت الشيخوخة وبلغنى ظل المجد وقت الزوال
- ترحم الزمان علىّ فى آخر حياتى وأتانى فى الصباح النوم الهادئ
- أشعر بالندم على ما فات وقت الشيخوخة وأعض على شفتى وقت أن ضاعت أسنانى
- إذا كثر تساقط السهام على الحبيب وإن الغصن الرقيق ينكسر إذا كثرت عليه الثمار
- إن كنت أنا المجنون فمن هو العاقل على الأرض وإن كنت أنت العاقل فليس على الأرض مجنون.
- سوف يصيبنى يوم القيامة حزن لأننى سوف أرى ثانية وجوه أهل الدنيا
- كن بغير مكان لأن تغيير المكان ما هو إلا الانتقال من جنس إلى آخر
- لا أنصحك بأن تخلى قلبك من الدنيا بل أخل قلبك من كل ما لا تصل يدك
- إن الوثنية أهون من عبادة الذات فلا تعبد نفسك وأعبد الفرنجة
- إذا لم تخرج قدمك من عالم الصورة فلسوف تظل متالما من هذا الحذاء حتى الموت
- كل شحاذ فى داخل داره سلطان فلا تتجاوز حد بيتك وكن سلطانًا
- خطأ لو سجدت للوردة سجود البلبل لها أنا الذى فى عبادة نارك فراشة
- كل من رفع رأسه كالشمعة بالتاج الذهبى ظل قابعًا فى دموعه حتى عنقه
- كانوا يتأسفون فيما مضى على الأموات والآن يتأسفون فى أيامنا على الأحياء
- إما أن تواجه طوفان الحوادث أو تبنى دارك فى صحراء العدم
- كل لوح قبر يد امتدت من مكان النسيان بالقبور تطلبك
- أبيض شعرى من ضغط الزمان وأخرج اللبن الذى رضعته فى عهد الطفولة
- لو أضحى كل إنسان معززًا بسهولة فى وطنه

ما فارق يوسف حضن أبيه الى السجن

٣- ما بين ١٧٠٠ و ١٨٠٠ م (١١١١ - ١٢١٥ هـ . ق)

فقر القرن الثامن عشر

لعل هذا القرن أفقر قرون تاريخ إيران من ناحية الأدب ؛ لأنه لم يبق منه شعر جدير بالذكر على حدود علمي إلا ذاك الترجيع بند الذى نظمه هاتف الأصفهانى ، والذى سوف نذكره بعد صفحات .

الكتابان المهمان المؤلفان فى هذا القرن ويتميزان بالتفصيل والثقة - لأن مؤلفيهما شهدا الحوادث المؤلمة فى حياتهما فى هذه الفترة حين حدث الغزو الأفغانى وما تبعه من أحداث فقصا بوضوح وتفصيل هذا العهد المضطرب الثائر - إحداهما لشيخ على حزين (ولد ١١٠٣ هـ / ١٦٩٢ م وتوفى ١١٨٠ / ١٧٦٦-٧)، والآخر من تأليف لطف على بيك المتخلص بآذر (ولد ١١٢٣ هـ / ١٧١١ م وتوفى ١١٩٥ / ١٧٨١) ، وكان كلاهما شاعراً خاصة على حزين الذى خلف شعراً كثيراً وألف نحو أربعة دواوين ، لكنى أرى نثرهما أكثر قيمة من شعرهما .

شيخ على حزين

ترتهن شهرة شيخ على حزين واسمه الأصلى محمد بن أبى طالب الجيلانى أكثر بسيرته الذاتية التى ألفها فى الهند فى (١١٥٤ هـ / ١٤٧١-٢ م) بعد هجرته من وطنه بنحو اثنين وعشرين عامًا ، وقد نشر النص الفارسى والترجمة الفارسية لهذا الكتاب ف.ص.بلفور فى (١٨٣٠-١ م) ، ويمكن للقراء الإنجليز الإفادة منه . ولد على حزين حسبما يذكر فى الإثنين ٢٧ ربيع الثانى ١١٠٣ هـ (١٩ يناير ١٦٩٢ م) بأصفهان ويتصل فى سبعة عشراً ظهراً نسبه إلى الشيخ زاهد الجيلانى الذى أشرنا إليه فى أحد الفصول السابقة ، وقد أقامت أسرته فى جيلان وآستار ، ثم لاهيجان إلى أن قدم أبوه أبو طالب فى سن العشرين لإكمال دراسته إلى أصفهان ؛ فتزوج بها وأقام فيها وتوفى أبوه فى عمر التاسعة والستين (١١٢٧ هـ / ١٧١٥ م) ، وخلف

ثلاثة أولاد ينوحون على فقده وكان على حزين أكبر أولاده ، ويمتدح المؤلف أخلاق أبيه وأفضاله ويذكر بضعة أبيات من المرثية التى نظمها فى وفاة والده ، ويقول إن من بين النصائح والوصايا التى أزجاها له أبوه قوله : (لو أمكنك ألا تقيم من بعد فى أصفهان فافعل حتى يبقى فرد من أسرتنا) .

ويقول المؤلف : (لم أستطع أن أفهم كنه نصيحته إذ ذاك إلا حينما وقعت بأصفهان الثورة والاضطراب) .

تذكرة على حزين

بما أن بإمكان القراء الإنجليز مطالعة تذكرة على حزين مباشرة فلا داعى للإطالة فى دراستها أو تحليلها فى هذا الكتاب ، ويكفى القول إن أهمية هذا الكتاب تُعْزى إلى أنه يحلى حوادث عصره ويمكن استخراج بعض الموضوعات الأدبية منه . بدأ فى عام ١١٣٥ هـ / ١٧٢٢ -٣ م بجمع المجموعة الأدبية التى تشبه - فيما يبدو - كثيراً كشكول (الشيخ بهاء الدين العاملى) ، وجعل اسم هذه المجموعة (مدة العمر) ، لكن هذه المخطوطة وسائر كتب مكتبته قد زالت على يد الأفغان بعد عدة شهور حين أغاروا على أصفهان وألف فى هذه الأوقات فوق بضعة تفاسير وحواشى فى الحكمة كتاباً اسمه (فروسنامه) ، وجمع ثانى دواوينه ونشره ، ثم نشر بعد هذا التاريخ بفترة ثالث دواوينه .

وقد أوقف هجوم الأفغان والمصائب الحالة بإيران خاصة أصفهان النشاط الأدبى لعلى حزين فترة ، يقول حزين : فى أواخر أيام الحصار عرض لى حرص شديد ومات أخواى وجدتى وجماعة من أهل الدار وخلا المنزل وانحصر فى ثلاث خادمات عاجزات إلى أن خف مرضى ، وبعد تحسن طفيف هرب فى أوائل المحرم١١٣٥ م- أكتوبر ١٧٢٢ م من أصفهان قبل استسلامها ودخول الأفغان هذه العاصمة بعدة أيام ، مضى حزين حياته فى تشتت بين بلاد إيران لمدة عشرة أعوام ، وما رآه من مدن أو أقام فيها عبارة عن خرم آباد ، ولرستان ، وهمدان ، ونهاوند ، وبزفول ، و وشوشتر ، وفر من هناك مرة عن طريق البصرة إلى مكة وعرج على اليمن وقت أوبته ، كما زار

كرمانشاه وبغداد والعتبات ومشهد وكردستان وآذربايجان وجيلان وطهران ، وعاد من هذه المدينة الأخيرة ثانية إلى أصفهان وكما يقول : (رأيت هذه المدينة المعظمة فى غاية الخراب مع وجود الملك بها ولم يبق ، من كافة سكانها وأصدقائى غير مكة) ، ويقول فى شيراز التى مر بها بعد ستة أشهر : (ولم يكن قد بقى بها أحد من سائر أصدقائى ، ولقيت جماعة من الأولاد المنسوبين إليها فى بؤس ومسكنة) ؛ وقصد بندر عباس من شيراز بلا بهدف أن تنقله سفينة أوربية إلى الحجاز (لأن سفنهم أوسع كثيرا وبها أماكن لائقة ، وهم أكثر معرفة بالبحر وأمهر من أى شعب) ، لكنه عجز عن تنفيذ خطته بسبب مرضه وفقره ؛ لأن أملاكه الموروثة فى جيلان قد ضاعت ولم يبق له غير الضرائب الفادحة المضنية ، وركب مرة سفينة هولندية وصل مسقط رأسه فرآه فى غاية القذارة والتلوث المناخى حتى إنه رجع بعد شهرين إلى بندر عباس ، ثم قصد كرمان ، لكن رأى أوضاعها مختلة بسبب عصيان جماعة البلوج وحوادث أخرى ؛ فعاد إلى بندر عباس ، وأخذ يتحين الفرصة للوصول ثانية إلى بغداد .

كره زين الشديد للهند

لم ير خطته ممكنة التحقيق بسبب الإجراءات الشديدة التى كان يجريها نادر شاه ضد الأتراك والحروب المستمرة ، ولم يأنس فى نفسه المقدرة على أن يرى ثانية التخريب والمصائب تحل بوطنه فركب سفينته فى العاشر من رمضان ١١٤٦ هـ / ١٤ فبراير ١٧٣٤ م إلى الهند ، وقدر له أن يحيا بها خمسة و أربعين عامًا الباقية من عمره رغم الكره الذى كنّه لهذا البلد ويقول بنفسه : (لم أحتسب فترة إقامتى بهذه البلاد من عمرى ، فقد كانت نهاية عمرى وحياتى لحظة وصولى سواحل هذه البلاد) ، ثم يقول بعد هذا بقليل : (لم يكن فىَّ أصلاً طبع التكيف وطاقة تحمل أوضاع سكان هذه الديار وأطوارهم) ، ثم يكتب بعد ذاك القدر : (وكنت على الدوام أتمنى النجاة منها ، وكانت عوارض أحوال إيران أحب إلى نفسى ، وكانت جميع همتى منصرفة إلى العودة إلى بلدى) ، ومع أنه للأسف لم يحقق أمنيته وأجبر على إمضاء بقية عمره الطويل فى هذه الديار المتصفة عنده بالكدر والشناعة والمتسمة بالقبائح والفضائح ،

لكنه لم يذكر من حوادث أيامه بها شيئًا فى سيرته غير الأحداث المهمة من مثل هجوم نادر شاه على الهند والمذبحة الفظيعة التى أوقعها بدهلى فى (٢٠ مارس ١٧٣٩ م) ، وعليه فرغم أن منكراته هذه قد ألفها فى آخر عام ١١٥٤ هـ الموافق بداية عام ١٧٣٢ م فإن موضوعاتها فى الأغلب تتصل بأحداث عمره قبل هجرته من إيران أى بالعشرين سنة قبل تأليفه هذه المذكرات ؛ وهى شرح أحوال العلماء والأدباء المعاصرين له الذين ودعوا الحياة فى عهد حصار أصفهان فى عام ١٧٢٢ م غالبًا ، وكان للمؤلف معرفة بهم ، وهذا الشرح هو أحد ميزات هذا الكتاب الأثير المهمة .

تذكرة (المعاصرين) تأليف على الحزين

ألف تذكرة لسيرة نحو مائة من الشعراء المعاصرين له بعد هذه المذكرات بأحد عشر عامًا (١١٦٥ هـ / ١٧٥٢ م) وسماها " تذكرة المعاصرين " وطبعت هذه التذكرة ضمن كلياته فى لكنهور عام ١٢٠٣ هـ / ١٨٧٦ م ، وتوجد مخطوطة لها فى المتحف بريطانيا العظمى وأماكن أخرى .

لطف بيك آذر

المذكرات الأخرى لشعراء هذه الفترة التى ذاعت أكثر من تذكرة حزين هى الشطر الأخير من (آتشكده) تأليف لطف على بيك آذر ، ويتعلق أغلب هذا الكتاب بسير الشعراء الذين كانوا يعيشون قبل المؤلف ورتبوا بسحب ترتيب أسماء البلاد الهجائى، وورد ذكر بلاد توران والهند أيضًا علاوة على مدن إيران .

ثم ذكرت سيرتين من الشعراء المعاصرين للمؤلف بعد هذا الجزء ، وذكر فى مقدمتها نبذة عن تاريخ الخمسين سنة من الثورات والشقاء الذى حل بإيران من بداية الهجوم الأفغانى حتى استقرار الأمن والنظام فى الولايات الجنوبية على يد كيم خان الزندى ، ويعترف المؤلف بالفقر الشعرى والأدبى فى هذه الفترة ، واعتبر سبب ذلك العجز والتخلف الذى أصاب أحوال الناس ويقول : (بلغ تشعت الحال واختلال الأذهان بالناس حد أنه طبع أنفسهم لقراءة الشعر ناهيك عن قرضه) .

لم يكتب المؤلف إلا سطوراً عدة عن أغلب هؤلاء الشعراء وأكثر شروحه تفصيلاً ما كتبه عن الملا محمد مؤمن المتخلص بالداعي الذي مات في التسعين من عمره عام ١١٥٥ هـ / ١٧٤٢ - ٢ م ، والملا حسين رفيق الأصفهاني ، وسيد محمد شعلة أصفهاني، وسيد محمد تفرشي ، وميرزا جعفر صافي أصفهاني ، وشاب من رفاق المؤلف اسمه سليمان المتخلص بصباحي ، وأكثر من ثلاث عشرة صفحة من آتشكده مقصورة على أشعاره وميرزا محمد على صبوح أصفهاني ، وأغا تقي صبها قمي ، وسيد عبد البقاء الطبيب ، وأبوه هو ميرزا محمد رحيم من أطباء بلاط شاه السلطان حسين الصفوي ، وكان أيضًا من أطباء نادر شاه ، وذكر المؤلف أن مادة تاريخه تجمعها حروف (طوفان هزارجريبي) ، أي الطوفان الذي يعم ألف جريب ، ثم محمد عاشق أصفهاني (ت ١١٨١ هـ / ١٧٦٧ -٨ م) الذي خصص له المؤلف ثماني صفحات ، وأخو المؤلف الشباب واسمه إسحاق بيك وتخلصه عذرى ومات في (١١٨٥ هـ / ١٧٧١ -٢ م) ومادة تاريخ وفاته عبارة معناها (جعل الله الجنة الباقية لإسحاق بيك) .

وسائر الشعراء الذين يذكرهم هم محمد على بيك بن أبدال بيك ، وكان جده رسامًا أوربيًا واعتنق الإسلام ، سيد محمد حسين غالب الذي عاش في الهند أربعة عشر عامًا من أيام شبابه وتزوج بابنة النواب سرا فراز خان ، مير سيد على شقاق أصفهاني ، سيد محمد صادق ابن أخي ميرزا محمد رحيم الطبيب السابق الذكر الذي نظم بضعة مثنويات في الموضوعات القديمة من مثل ليلى والمجنو ، ن خسرو وشرين ووافق وعذراء ، وانشغل في تاريخ الأسرة الزندية ، وميرزا نصير بن ميرزا عبدالله الطبيب (ت ١١٩٢ هـ / ١٧٧٨ م) ، وسيد أحمد هاتف وهم أهم الشعراء المذكورين ، وسوف نحكي طرفًا من سيرته فيما يلي .

ويختم لطف على بيك أوز مذكرته آتشكدة بسيرته ، فكما يذكر ولد في أصفهان في ٢٠ ربيع الأول ١١٢٣ هـ (٧ يونيو ١٧١١ م) وعاش في قم السنوات الأربع عشرة من أوائل عمر ؛ لأن أسرته كانت هاجرت إلى هذه المدينة قم خوفًا من الأفغان ، وفي أول حكم نادر عين والده في حكم وسواحل بحر فارس وأقام بشيراز ، وتوفى بعد هذا بعامين ، وبعد موت والده سافر مع عمه حاجي محمد بيك إلى الحج وعاد إلى إيران

بعد الحج وزيارة العتبات ، وحين رجوع جيش نادر من الند أقام بمشهد ، ثم رافق جيش نادر قادمًا إلى مازندران ، وبعد قتل نادر شاه ظل فترة فى خدمة على شاه وإبراهيم شاه إسماعيل وشاه سليمان ، وكما يظهر اعتزل من هذا الوقت وتجنب مخالطة الناس وقضى حسب تعاليم مير سيد على مشتاق أوقاته فى قرض الشعر ، وورد فى آخر (آتشكده) عدد كبير من أشعاره فى يوسف وزليخا .

مع أن سيد أحمد هاتف الأصفهانى عاصر لطف على بيك أذر وكان صديقًا له لكنه لم يورد فى أتشده أى موضوع خالص عنه إلا مدحه المبالغ عنه حين يقول : (هو فى فن النظم والنثر العربى والفارسى ثالث الأعشى وجرير ، وثانى الأنورى وظهير) وخص نحو عشر صفحات لمنتخبات من شعره ، ولكنى أختار من جميعها وحسب الترجيح بند البديع المعروف له والذى تخلد اسمه بسببه .

"البند الأول "

يا من فداؤك قلبى وروحى
ونثار طريقك هذا وذاك

قلبى فداؤك لأنك الحبيب
وروحى نثارك لأنك الروح

تخليص قلبى منك صعب
ونثر روحى على قدك سهل

طريق وصلك وعر جداً
والآن عشقك بلا علاج

أنا عندك روحى على كفى
وعين تترقب حكمك وأذنى تتسمع أمرك

إن جنحت إلى السلم فهذا قلبى
وإن رمت الحرب فهذه روحى

كنتُ أغزو السير البارحة حائراً
بسبب ثورة العشق وجذبة الشوق

وفى نهاية مطافى لوى شوقى
عنان بصرى صوب دير المجوس

فرأيت حول خلوة عينا منيرة بنور الحق لا بنور النيران

رأيت نادرا فى كل ناحية كما رأى موسى النار فى الطور

كلهم بضو الوجوه حمر الخدود عذب منطقهم ضيقة أفواههم

وحولهم العود والصنج والناى والدف والبربط والشمع والنقل والورد والخمر والريحان

والساقى القمرى الوجه والمسكى الشعر والمطلوب الحلو الكلام والطيب الألحان

وعقد لخدمته المغ وابن المغ المويد والوزير خواصرهم بحزام طاعته

ودخلت إلى ركن مستور وأنا فى حياء بسبب إسلامى

فسألنى الشيخ من أنت ؟ فقالوا عاشق بلا قرار وجائر

فقال أعطوه كأسًا من الخمر الصافية مع أنه ضيف غير مدعو

فصب الساقى عابد النار خمرا نارية فى كل كأس محرقة

فلما شربتها لم يبق بى عقل ولا فهم واحترق الكفر والإيمان معا بسببها

فسقطت ثملا وفى ذاك السكر كنت أسمع من لسانه الذى لا يمكن وصفه

هذا الحديث من كافة أعضائى حتى الوريد والشريان

واحد وليس من إله غيره

واحد لا اله إلا هو

(البند الثانى)

لن أفهم عروتى عنك أيها الحبيب ولو قطعونى بالسيف أشلاء
الحق أن مائة روح رخيصة منا نظير نصف ضحكة من فيك
قصر يا أبى من معنى من العشق فلن ينصاع ابنك لهذا النصح
الناس ينصحونى فليتنى أنتصح وأخلّى عشقك
إنى أعرف طريق حى العافية لكن ما العمل وأنا سقطت فى الأحبولة ؟
فى كنيسة بسبب حبى لراهب قلت له يا من تعلق قلبى بشركك
يا من بفضل زنارك ويربط كل شعرة من رأسى
متى ضلالك عن طريق الوحدة وختام شرك التثليث للإله الواحد ؟
ففتح شفيته العذبتين وقال لى مهرقا من شفتيه السُكرين ضحكة عذبة
إذا كنت تعرف سر الوحدة فلن ترضى بتهمة الكفر لنا
إن الجمال لأزلى أسقط نوراً من وجهه المضئ فى ثلاث مرائى
نقول هذه المقالة وقد صارت فى الناقوس لحنًا عاليًا :
واحد ليس من إله غيره
وحده لا إله إلا هو

(البند الثالث)

ذهب البارحة إلى حى بائع الخمر قلبى يجوش ويثور من نار العشق
فرأى مجلسًا لطيفًا ومنيراً وكان الأمير هذا الحفل هو الشيخ بائع الخمر

وقف أتباعه مصطفين وجلس الشاربون كتفًا بكتف

كان الشيخ فى صدر المجلس وحوله الشاربون بعضهم سكران والآخر مذهول

صدورهم بلا غل وداخهم صاف وقلوبهم تفيض بالقول وتفاهم صامته

ولجميعهم من العناية الأزلية عيون ترى الحق وآذان تسمع السر

يا من فداؤك قلبى وروحى ونثار طريقك هذا وذاك

آذانهم على الصنج وعيونهم على الكأس وبحضنهم تمنى الكونين

فتقدمت بأدب وقلت يا من قلبك مستقر الملائكة

أنا عاشق متألم ومحتاج فانظر إلى ألمى وحاول علاجى

فقال الشيخ ضاحكًا ساخرًا يا من الشيخ مطيع لك

أين أنت وأين نحن يا من جلست ابنة الكرم مستترة حياء منك ؟

فقلت احترقت روحى فاعطنى خمرًا واطفى نارى من ثورتها

كنت احترق البارحة من هذه النار فآه لو كانت الليلة مثل البارحة

فقال ضاحكا هاك الكأس فخذها لاخذها فقال لا تكثر من الشرب

فجرعت جرعة وفرغت من آلام العقل ومحن الوعى

فلما أفقت لم أر غير واحد وما سواه خطوط ونقوش

وفجأة أسمعنى فى صوامع الملكوت الملاك هذا الحديث :

واحد ليس من إله غيره

وحده لا إله إلا هو

(البند الرابع)

افتح عين قلبك حتى ترى روحك وترى ما لا يمكن رؤيته

حين تتجه إلى إقليم العشق ترى كافة الآفاق رياضًا

وترى جميع أهل هذا الإقليم سعداء وترى دوران السماء

ترى ما يتمناه قلبك وما يتمناه قلبك تراه

ترى الشحاذ الوضيع هناك أعز من ملك العالم

وترى أيضًا قومًا عاريي الأقدام وطأت أقدامهم رأس الفرقدين(١)

ترى وجدهم وسماعهم قد طغى على الكونين

وترى شمسًا داخل قلب كل ذرة إذا شققتها

تراني كافراً لو اعتبرت وهبك للعشق كل ما لديك خسارة

تترك روحك إلى نار العشق حين ترى العشق كيمياء الروح

تعبر مضيق الحياة وترى وسعة ملك اللا مكان

تسمع مالا أذن سمعت وترى ما لا عين رأت

إلى أن تصل إلى حد لا ترى من العالم والعالمين غير واحد

وتعشق واحداً بقلبك وروحك حتى ترى عيانًا بعين اليقين أنه

واحد وليس من إله غيره

وحده لا إله إلا هو

(١) الفرقدان نجمان فى صورة الدب الأصغر يسَميان بالجراس ، وأصل الكلمة إسبانية بمعنى الحارس؛ لأنهما يحرسان قواد السفن حين يرقبونهما فلا يضلون .

(البند الخامس)

الحبيب بلا ستار يتجلى من الباب والنافذة يا أولى الأبصار
تبحث عن الشمع والشمس فى كبد السماء والنهار منير جدا وأنت فى ليل حالك
إن خلصت نفسك من الظلمات رأيت كل العالم مشارق الأنوار
تبحث عن العصا لهذا الطريق المنير المعبّد والملك العادل قائدك
افتح عينيك على الروض وانظر تجلى الماء الصافى فى الورد والشوك
نتج من الماء الذى بلا لون آلاف فانظر إلى الشقائق والورد فى هذا الروض
اسلك طريق الطلب وتزود بالعشق من أجل هذا الطريق
تهون أمور عظام بالعشق كانت عند العقل كثيرة الصعوبة
قل (يا حبيبى) بالغدو والآصال واطلب حبيبك بالعشى والإبكار
ولو قيل لك (لن ترانى) فى مائة طريق تسلك فأعد إدامة النظر والاستبصار
إلى أن تصل إلى موضع لا تصله قدم الأوهام وبصر الأفكار
تجد بلاطا بمحفل لا يمنع دخوله جبريل الأمين
ذلك الزاد إن أتيت به لهذا الطريق وذاك الطريق إن جئت إليه هو طريق الرجولة
وإذا لم تكن رجل الطريق مثل الآخرين فقل دائمًا (يا حبيبى) وحك قفاك
إن أرباب المعرفة الذين تسميهم يا هاتف مرة سكارى وأخرى مضيقين
وهم الخمر والكأس والمطرب والساقى والمغ والدير والحسناء والزنار
إنما قصدهم أسرار خفية يظهرونها بالإيماء
إن تعقبت طريقهم فهمت سرهم وهو سر الأسرار وهو :
واحد ليس من إله غيره
وحده لا إله إلا هو

الفصل السابع

شعراء العصر القاجارى

تجديد الحياة الشعرية

بعد فترة السلطنة القصيرة والدامية لآغا محمد خان خواجه الذى استعاد كرجستان وتفليس حكم فتح على شاه ابن أخيه (١٧٩٧ - ١٨٣٨ م) بهدوء ، وعدّ رضا قلى فى مقدمة مجمع الفصحاء تجديد الحياة الأدبية وتحسن الذوق الشعرى وسلامته ناتجين عن تشجيع فتح على ، وكان هو نفسه ينظم الشعر بتخلص (خاقان) وجمع عدداً كبيراً من الشعراء فى بلاطه ، وقد ألفت عن هؤلاء الشعراء بضعة من كتب السير من مثل (زينة المدائح) ، وانجمن خاقان أو جمعية الخان ، وكلشن محمود أى روضة محمود ، وسفينة المحمود ، وتذكرة محمد شاهى ، وقد قدم (ريبه) فى ذيله على فهرس المخطوطات بالفارسية للمتحف البريطانى (ص ٨٤ - ٩١) شرحاً مفصلاً لكل هذه الكتب المذكورة ، وكان أغلبها فى متناول رضا قلى ، من بينها كلشن محمود الذى قص سيرة ثمانية وأربعين من أولاد فتح على شاه ، وذكر منتخبات من شعرهم وظهر بعد هذه الأسرة بفترة شاعر آخر وهو ناصر الدين شاه (١٤٨٤- ١٨٩٦ م) الذى عد شعره مقنعًا للمعنيين ، واستحق منهم - بناء عليه - أن يصدقوا المقولة الذائعة بأن كلام الملوك ملوك الكلام .

العودة إلى أسلوب الشعراء المتقدمين

كان يجب الحديث عن شعراء هذا العهد فى الفصل السابق ، لكن هذا الفصل زاد عن حدود تفصيلاته فلم يسع الحديث عنهم ، بيد أن نقطة الاتفاق والاختلاف بين هؤلاء الشعراء - ومن كان يعيش قبلهم مباشرة من الشعراء - هى أن الشعراء فى هذا العهد أخذوا يقلدون الشعراء المتقدمين دفعة واحدة وأهملوا أسلوب عرفى وصائب وشوكت وغيرهم .

اختلاف ذوق النقاد الإيرانيين والهنود

هذا الاختلاف يثبت من طريقين ، فيقول شبلى نعمانى كما ذكرنا عن الشعر الفارسى يبدأ بالرودكى وينتهى بصائب ، وكان الشعراء المتأخرون مثل قاءانى وغيره مقلدين للأساتذة القدماء خاصة فرخى ومنو جهرى ، ويرى رضا قلى هذا الرأى نفسه ، لكنه تعبير عنه بطريقة مختلفة ؛ فيرى أن الشعر الفارسى اتجه إلى الضعف من عدة قرون وفسد ، وبطل تماماً فى نهاية العصر السابق للقارجاريين ، وأحسن شعراء هذا العهد القاجارى صنيعًا حين تركوا متابعة أسلوب من سبقهم مباشرة أحيوا أسلوب الشعراء القدامى ، ويحصى الشعراء الآتين من المتقدمين الذين كانوا قدوة لهؤلاء الشعراء وهم :

الخاقانى ، وعبد الواسع الجبلى ، وفرخى ، ومنوجهرى ، والرودكى ، وقطران ، وعنصرى ، ومسعود سعد سلمان ، وسنائى ، وجلال الدين الرومى ، و أبو الفرج الرونى ، وأنورى ، وأسدى ، وفردوسى ، ونظامى ، وسعدى ، وأزرقى ، ومختارى ، ومعزى ، ولامعى ، وناصر خسرو ، وأديب صاب ، وقد مات كل هؤلاء الشعراء قبل سقوط الخلافة العباسية وهجوم المغول (وسط القرن الثالث عشر الميلادى) . من بين الشعراء المتأخرين لا تجد غير حافظ الشيرازى الذى حافظ فى عيون أبناء بلده على مقامه العالى بدون ذرة نقصان ، لكن يشك فى أنه ، إلى أى حد - كان أسوة للشعراء ، ويبدو أن الشعراء أقلوا التأثر به وتقليده بسبب تقليده هو نفسه غير المقبول ، ولا ينبغى

التصور أن شعراء مثل جامي وعرفي وصائب قد فقدوا شهرتهم ومكانتهم الأدبية . صار أسلوب حافظ أيضًا في هذا العصر مهجوراً وبلا قدر بل لم يكن لواحد من الشعراء في ذاك العصر قوة الجولان في فضاء طيرانه ، وبعد هذا الوقت فصاعداً اشتد الاختلاف والتباين بين الأسلوبين الهندي والتركساني من ناحية وذوق شعر إيران من ناحية أخرى ، وأحل الحكام الإنجليز اللغة الأردية في الهند محل الفارسية وجعلوها لغة الأدب والتعبير (١٨٣٥ - ٦ م) وعلى هذا النحو انفصلت الهند عن النفوذ الفكري والتأثير الأدبي لإيران الحديثة وحرقت منهما .

يسهل أن نذكر هنا نبذة عن مائة شاعر أو مائتين من شعراء الحكم القاجاري لوجود كتب السير السابقة الذكر وما ألف بعدها في تراجم الشعراء ، لكن يكفينا أن نكتب عن اثني عشر من الشعراء المذكورين الذين تأسوا بالأسلوب القديم دون غيرهم بسبب ما عرضنا إليه من قصد ، ومع أنه يلزم أن نذكر أشعارهم بترتيبهم التاريخي، لكن لا يجب علينا أن نقسمهم طبقات تبعًا للملوك الذين مدحوهم أو عاشوا في فترات حكمهم .

وصال وعائلته

في ربيع ١٨٨٨ أنا كنت بإيران قابلت لحسن حظي بضعة من أفراد العائلة العظيمة لوصال (ميرزا شفيع المعروف بميرزا كوجك) من بينهم ابنه فرهنك وأخوه يزداني ، وقابلتهم بشيراز ، وكان برفقة يزداني ابنه وابن أخيه المرحوم المتخلص بهمت: وكان لوصال ثلاثة أبناء أكبر من هذين : أحدهم (وقار) الذي قابله رضا قلي خان في طهران وهو في سن الثانية والأربعين في ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ -٨ م ، ثم ميرزا محمود الطبيب المتخلص بحكيم الذي مات في ١٢٦٨ هـ / ١٨٥١ م ، والثالث (داوري) الذي أوردت ترجمة لنماذج من شعره في الجزء الثاني من كتاب تاريخ الأدب في إيران ص ١٤-٤٢ ، لكن لا نعرف تاريخ وفاته ، وبما أن أشعاره فيما يظهر لم تنشر فإني أنقل النص الفارسي لما ترجمته هنا ، وهذه الأشعار مستخرجة من

مخطوطة صغيرة تحى منتخبات شعره ، وقد أعطانيها صديقى المرحوم (نواب ميرزا حسن على خان) الذى كان مفتونًا بشعر هذا الشعر وحاميًا له - فى شتاء عام ١٨٨٧ - ٨ م بطهران ، وهذه ترجمة لهذا الشعر (وهو من قالب المسمط) :

أيها الصبى العربى صبحك الله بخير
حان الصباح فهات تلك الخمر صبوحًا

تلك الخمر التى إن أعطيت القطب جرعة
مسح بتاج أجداده قدمك

وتصرى بناته فداءً لمثلك يا بنى
إذا درت حول كأس الخمر كالجدى

إذا لم يكن عندك خمر فاحمله كأسًا
وانهض وتستر كلك بعباءتك كالعربى

العطاء القليل

يذكرنى صديقى الودود (نواب) بواقعة غريبة حدثت فى أوائل عام ١٨٨٨ م حينما كنت ضيفًا عليه بطهران، ويمكن من هذه الواقعة يمكن أن نفهم كم أصبح العمل بالشعر فى إيران اليوم بلا فائدة وثمرة بالنسبة إلى القرون السابقة التى كان يملأ فى الغالب فم الشاعر ذهبًا مكافأة له إذا أثر شعره فى ممدوحه واستلب لبه ، فقد أتى باب النواب شاعر مغمور نسيت اسمه - وربما لم أكن أعرفه من الأصل - وبعد أن استجازه أنشد قصيدة كان نظمها فى مدحه ؛ وبعد فراغه من إلـقائها أعطى تومانا (كان يعادل إذ ذاك ستة شلنات) ، وخرج الشاعر من المنزل وتلوح عليه إمارة عدم الرضا ولام النواب أحد رفاقه بعد ذاك مباشرة ليس بسبب العطاء القليل ؛ ولكن لأنه أفسد أخلاق الشاعر وجعله يعتقد أنه عن طريق الـشعر يمكنه العيش بشرف .

بلا مراء فإن هذا البخل فى العطاء من الأسباب التى جعلت الشعراء يهجرون الأسلوب القديم الشعرى وخاصة نظم القصائد .

السبب الآخر لضعف نظم القصائد

والسبب الآخر هو الدرجة العليا التى أحرزتها الصحافة فى المجتمع بعد الثورة الدستورية (١٩٠٥-٦ م) ؛ لأن الشاعر أخذ يوقف نفسه يوماً بعد يوم على قضايا أمته وينظم شيئًا لمصلحته . ويعرض عن التوجه إلى الخاصة من الممدوحين ، ولابد من عدّ الشاعر البائس الشيرازى ميرزا جها نجير - صاحب الصحيفة الأسبوعية (صور إسرافيل) التى كانت ثمرة لذيذة ملفتة للاهتمام من ثمرات الثورة - أفضل مثال لهذا التحول ، أوردت فى كتابى السابق (ثورة إيران وصحافة إيران الحديثة وشعرها) سيرته وموته وأعماله الأدبية المتعلقة بالنهضة القومية . كنت حتى ذاك الوقت اعتبره شاعراً وكاتبًا ثوريًا إلى أن أرسل إلى بمائتى واثنتين صفحة بلا عنوان وبداية واسم من مخطوطة فارسية صديقى المحترم وتلميذى فيما سبق السيد (أسمارت) وهو من أرفق الممثلين السياسين الذين أرسلتهم بريطانيا حاليًا إلى بريطانيا ، وهذه الأوراق تحوى سير ثمانية وثلاثين شاعر هم أكثرهم من شيراز ، وكان بعضهم لا يزال بقيد الحياة فى تلك السنة (١٩١٠ م) وبعضهم مات فى الأربعين سنة السابقة لتلك السنة ، وحوت فيما حوت ذكر ميرزا جها نجير (ص ٧٤-٧٧) ، وضمت نموذجًا لأشعاره قبل الثورة .

وأحد أشعاره قطعة يخاطب فيها رفاقه الشيرازيين أرسلها إليهم من طهران ، وهى كلها بالأسلوب القديم ، ويشاهد فيها أثر من السمات الحديثة ، وهناك شاعران آخران أيضاً فى هذه المجموعة المفيدة والمتميزة هما : أبو الحسن ميرزا الملقب بالشيخ الرئيس المولود عام ١٢٦٤ هـ / ١٤٤٨ م واشتهر بمقالاته الفلسفية والسياسية ، وكان يعد من الدعاة الجادين للعالم الاسلامى ، وكان يتخلص بـ (حيرت) وأغلب شعره محلى وشعر مناسبات وبالأسلوب القديم .

الشعراء الانتقاليون لعهد الثورة

والشاعر الثاني : هو الصحفي العالي المقدار أديب الممالك المتخلص بأمير فراهاني (ولد ١٢٧٧ هـ / ١٨٠٦ - ٧ م) ، والمنتسب إلى القائم المقام الفراهاني الكبير بثلاثة ظهور، وهكذا كان الشعراء المحدثون لعهد الثورة باستثناء الشباب الذين ظهروا بعد هذا الحادثة المولدة للأحداث ، وكان أغلبهم من أتباع المدرسة القديمة للأدب ، ولكن اتصفوا بالحماس والمرونة في طباعهم حدّ أنهم كانوا يوقفون شعرهم مع الأوضاع الجديدة .

لا يخشى على الأسلوب القديم من النسيان والهجران

لكن هذه الأيام نفسها للانتقال كانت تختلف تماماً عما سبقها من عهود وحدودها واضحة ، وهذه الحادثة التاريخية أو الثورة الدستورية تعد مثل نظائرها الحد الفاصل بين القديم والجديد ، ورسم هذا الحد المذكور في سنتي ١٩٠٦ و ١٩٠٧ م وبالطبع فلا يزال أيضاً قدر كبير من الشعر ينظم بالأسلوب القديم ، أرسل على شرفي إليَّ في نكرى مرور ستين سنة على مولدى (٧ فبراير ١٩٢٢ م) مجموعة تحوى شعراً لستة عشر من شعراء الوقت المعتبرين ، هذا فضلاً عن قصيدة أرسلها مستقلة إلى عماد الكتاب الذى يجب تسميته (بنفنوتو سليني) [(١)] الإيراني الجديد ، فليس لدينا دليل على أننا نخشى على الأساليب القديمة الشعرية من الصمت والنسيان ، إذا كانت قصائد المدح قلت ونقصت في مقابل قصائد العرفان والأخلاق للأسباب التى نكرنا، لكن المثنوى والغزل والرباعي سوف يبقى كل منهم ما ظل العرفان والعشق والأمثال يؤثرون في الشعب الإيراني .

(١) هو الخطاط والنحات والمعروف الإيطالي مات ١٥٧١ م .

تذكرات الشعراء المحدثين

بعد أن مهدت بهذه المقدمة العامة ؛ أقول: يجب ذكر بعض ممثلى شعر نهاية العصر الحديث الإيرانى المعتبرين ، ومعلوماتى عن هؤلاء الشعراء الذين كانوا يحيون قبل عام (١٨٠٧ م) تقريباً مأخوذة فى أغلبها من الكتب الثلاثة الآتية ، وهى من تأليف رضا قلى خان المتخلص بهدايت وكان كاتباً نشطاً لا يكل ولا يمل :

مجمع الفصحاء ، وهو تذكرة عامة وكبيرة عن كافة شعراء إيران ، ورياض العارفين ، وهو مؤلف أكثر اختصاراً من الأول ويخص الشعراء العارفين ، وملحقات روضة الصف لمير خوند التى حتى عام ١٨٥٧ م . وكان هذا التاريخ على وشك أن يتمه مؤلفه فى عام ١٢٨٢ هـ / ١٨٥٥ – ٦ م حين كان عائداً من سفارته إلى خوارزم ، وشرح تلك السفارة لرضا قلى خان طبع ونشر النص الفارسى لها فى كتاب (سفارت نامه) باهتمام (شطر) مترجمة فرنسية فى (١٨٧٦-٩ م) ، ويرى بآخر المجلد التاسع (أو المجلد الثانى للملحقات) الذى ينتهى بآخر حكم فتح على شاه بضع صفحات تخص أحوال الأعيان والشعراء والعلماء وسائر العلية لتلك الفترة وتحوى نقاطاً تتصل بسيرهم لم ترد فى مجمع الفصحاء ورياض العارفين ، ولكن لأن هذه الصفحات المذكورة غير مرقمة ؛ فلا يمكن للأسف إحالة القراء إليها .

تذكرة دلكشا

استقيت أغلب الموضوعات الآتية مما ورد بتلك الكتب الثلاثة المذكورة ، لكن النسخة الخطية النادرة وعنوانها (تذكرة دلكشا) تأليف ميرزا على أكبر شيرازى المتخلص بـ (بسمل) تحت طائلتى أيضاً ، ويبدو أنها من خط مؤلفها وألفت فى ١٢٣٧ هـ / ١٨٢١-٢ م وتذكر أحوال الشعراء المعاصرين ، هذه المخطوطة الجميلة التى كتبت بخط النسخ الجلى البارز بعناوين محددة وبدايات معينة كانت فى الماضى ملك المرحوم شندلر ، وهى الآن تخصنى ، ويذكرها رضا ويذكر مؤلفها فى مجمع

الفصحاء (جـ٢ /ص ٢٨) وفي رياض العارفين أيضًا (ص ٢٤ -٤) ويقول : (كنت حين كان هو مشغولاً بتحرير التذكرة فى مبادئ سن الشباب وساكنًا شيراز ، وكنت ألاقيه حينًا) .

١- سحاب (ت ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ - ٨ م)

هو سيد محمد أصفهانى المتخلص بسحاب ولد سيد أحمد هاتف الذى مضى ذكره فى نهاية الفصل السابق وعرفناه أنه الشاعر الوحيد المهم فى القرن الثامن عشر، ويذكر رضا قلى فى مجمع الفصحاء (جـ ١١ - ص ٢٠٧) أن سحاب كان له فى حضرة الخاقان كمال الاعتبار والاحترام ، وله فوق قصائده الكثيرة تذكرة - للشعراء فيما يبدو - تسمى رشحات سحاب باسم فتح على شاه ويقرب ديوانه من خمسة آلاف بيت ولم أر تذكرته حتى اليوم ، ويحسن أن نورد له هذه الأبيات من شعره فى ذم الغرور ومبالغة الشعراء :

أى حسن حال للإنسان غير كمال النفس
ومن ليس له حسن الحال فما هو كماله ؟

الشعر تافه القريحة أنفه من التافه
وأنا فى حيرة فى سبب الجدال حول هذا التافه

لا يسأل إنسان عن ترتيب عدة ألفاظ
فما هذا القيل والقال أيها البلهاء العارون من الفضل

فلم هذا الخيال للجاه وتمنى المال
من وراء بيت أو اثنين خاليين من المعنى ؟

الشعر أصله من الخيال وحسنه من المحال

أما خيالكم فى الجاه فليس غير المستحيل
لم يبق أحد من بضع كلمات عابثة
لشعر أكثر عبثًا غير العار والخجل

فكيف يتلقى أهل الفطنة والفهم مائة نوع من هذا الكمال
على أنها من شعراء مخلصين فضلاء؟

لو افترض أن النظم بحر وبه منجم الجوهر
فليس للنثر المنصف هذا العطاء الضنين

٢- مجمر (ت ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ - ١١ م)

أورد رضا قلى فى كتابه السابق سيرة سيد حسين طباطبائى أردستانى الذى لقب بمجتهد الشعراء ، دخل البلاط القاجارى بمساعدة ابن بلده ميرزا عبد الوهاب نشاط الشاعر الذى توفى بعد رفيقه بنحو تسعة عشر عاماً ، يبدو أن مجمر توفى فى شبابه ؛ لأن رضا قلى يقول بعد مدح شعره القليل :(لو طال عمره لارتفع أمره كثيراً) . على أية حال ، فهو أحد الشعراء الخمسة من شعراء هذا العصر الذين صنّفهم صديقى الفاضل ورفيقى القديم الحاج ميرزا يحى دولت آبادى فى الطبقة الأولى.

وأشعار مجمر نادرة ، لكن مخطوطة كلياته موجـودة بالمتحف البريطانى ، ولا أجد ما يجدر ذكره من الأشعار التى اختارها (رضا) له ، لكن يمكن أن نمثل له بهذين اللغزين عن الريح والقلم وقد أوردهما صاحب تذكرة دلكشا :

لغز الريح

ما هذا القاصد الميمون القدوم السعيد الجناب الذى يتحرك لـيله ونهاره ويسرع عامه وشهره .

المسك فى ذيله والعبير فى جيبه وعنبره فى جيبه وفى كمه المسك الصافى.

هو سائر بلا قدم ورأس ومجنون بلا عقل وفهم وهو عشاق بلا مأوى ومشرد بلا طعام .

لا يعلم أحد أنه لا يسكن مما به من العشق ولا فهم أحد أنه مضطرب مما لديه من هجر .

يميت الدنيا ويحيى العالم فهو قوى من شيخوخته وطبيعى من شبابه

لغز القلم .

أنا شجرة الورد للنفس الناطقة
أنثر سحاب الجوهر

أهرق السكر وأبعثر العبير معًا
ولى شفة الحبيب وشعر المحبوب

فى نثر الدر وصب الجوهر
له طبع الوزير ويد السلطان

٣- صبا (ت ١٢٣٨ هـ / ١٨٢٢-٣ م)

هو فتح على خان كاشانى المتخلص بصبا ملك الشعراء لفتح على شاه يقول (رضا) فى سيرته التى أوردها فى كل كتبه الثلاثة السابقة : إنه لم يظهر بإيران شاعر يناظره خلال سبعمائة عام ويفضل بعض النقاد مثنويه (شاهنشاه نامه) على شاهنامة الفردوسى ، ومؤلفاته الأخرى هى : (خداى نامه) ، و (عبرت نامه) و (كلشن صبا) ، ويحوى ديوانه ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف ، حكم قم

وكاشان فترة ، لكنه حصر همته فى أواخر عمره فى خدمة السلطان ، تتلمذ فى شبابه على يد ابن بلده (صباحى) ، وكان هذا من معاصرى هاتف وآذر . مات فى ١٢٠٦ هـ / ١٧٠١ - ٢م حسبما يذكر صاحب الفصحاء ، خلف فتح على ابنه ميرزا حسين خان المتخلص بعندليب فى منصب ملك الشعراء ، ولأن أغلب شعر صبا فى المدح فيقل قبولنا له ، لكنه جميل اللحن كثيراً وعذب البيان .

٤- نشاط (ت ١٢٤٤ هـ / ١٨٢٨ -٩ م)

إذا تركنا ميرزا محمد قلى أفشار المتخلص بألفت (١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ -٥م) وآغا على أفشار المتخلص باكاه (ت ١٢٤٤ هـ / ١٨٢٨ - ٩م) وكالأخ الأصغر لبسمل الشاعر وكان رضا قلى يعرفهما شخصيًا نصل إلى ميرزا عبد الوهاب نشاط أصفهانى . ونشاط ذائع الصيت فى خط الترسل كشهرته فى الشعر ، وله يد طولى جداً فى اللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية أيضًا ، وبعد أن أضاع كل أملاكه تقريباً ومن كثرة إنفاقه على الشعراء والدراويش والأدباء واسقباله لهم خوى وفاضه تماماً ، صار منظوم نظر فتح على شاه ، ولقب معتمد الدولة وبلغ الكمال فى نظم الغزل وأشهر مؤلفاته (كنجينه) ، ومادة تاريخ وفاته هذه الجملة (ازقلب جهان نشاط رفته) أى رجل نشاط من قلب العالم.

٥- ميرزا أبو القاسم القائم مقام (مقتول عام ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م)

لقب بهذا اللقب القائم مقام اثنان من العظماء كان الأب والابن : أولهما ميرزا عيسى فراهانى المعروف بميرزا الكبير ، وكان المعاون والوزير لعباسى ميرزا ، وتوفى عام ١٢٤٧ هظ / ١٣٨١ -٢ م ، والثانى ابنه ميرزا أبو القاسم الذى غضب عليه بعد موت فتح على شاه وقتله محمد شاه فى سن السادس والعشرين (يونيو ١٨٣٥ م) والقائم المقام الثانى يفوق من الناحية الأدبية أهمية ، ومع أنه نظم شعرا بتخلص ثنائى إلا أن شهرته فى الكتابة النثرية أعظم ، ويعتبر أهل وطنه مراسلاته المتعددة المنتشرة نموذج حسن العبارة ، ولدى مجموعة لآثار الشعرية والنثرية جمعت بأمر

فرهاد ميرزا فى ١٨٢١ / ١٨٦٤ - ٥ م ، وطبعت على الحجر فى تبريز عام ١٨٢٨ هـ / ١٨٦٥ - ٦ م ، وهذه المجموعة الأغلب أوراق يخاطب فيها أشخاصاً مهمين معاصرين ونادرا ما أثبتت تواريخ إرسالها ، وكثير منها وثائق سياسية تختلف فى أهميتها التاريخية ، وننقل هنا رسالته المدحية (نامه مداحانه) التى كتبها إلى قيصر الروس بمناسبة قتل جريبا يدوف وصحبة فى طهران (١١ فبراير ١٨٢٩ م) ، وهى نموذج لأفضل نثر القائم المقام .

الرسالة الملكية للإمبراطور الأعظم

بشأن طلب العفو عن قتل السفير بالنحو الذى كان أراده أول الدفتر باسم الله العليم والصانع والرب والحى والقدير .

هو الوجود لم يكن له كفوا أحد المبرأ من الكيف والعد، العادل ، العالم ، والقاهر لكل ظالم جعل لجزاء كل خير وشر وقدراً يعذب بحكمته البالغه الأشرار ، ويؤجر الأخيار والصلوات غير المعدودات على الرسل الصادقين والأئمة الميامين وبعد : لا يخفى ولا يستتر على الفطنة المجلية للحقائق للملك ذى الجاه المنصف العادل النجم المبارك أمبراطور البلاد الروسية ومضافاتها - الذى دولته ذات جاه وخطر ورايته رفيق الفتح والظفر أن سفير تلك الدولة أصابه ضرر فى عاصمة هذه الدولة باقتضاء حوادث الدهر وغوغاء أتباعه بجهال المدينة ؛ بحيث وجب ولزم تدبير ذلك وتداركه على ذمتى ولاة هذين الصديقين الحقيقين ؛ لهذا أرسلنا أولاً التمهيد مقدمات الاعتذار وحفاظاً على شوكة ذلك الأخ العزيز واحترامه ابننا الغالى خسرو ميرزا إلى عاصمة الدولة البهية الروسية وقد رقمنا وأذعنا الحقيقة المباغتة لهذه الحادثة ، وجهل أمناء دولتنا بها فى هذه الرسالة الصادقة ، وثانياً نظرا للكمال الوحدة والاتفاق الكائن ما بين هاتين الحضرتين السابقين كالسماء ؛ فقد أثبتنا الانتقام لمقتل السفير المذكور على ذمة سلطنتنا ، وكل من حام الظن حوله من أهالى دار الخلافة وسكانها بإمكان أن يكون له دخل قليل فى هذا الفعل القبيح والعمل الردئ عاقبناه أو نفنياه على قدرا استحقاقه ، بل عزلنا وعلق بنا شرطة المدينة ومتولى الحى بتهمة تأخر معرفتهم بالحادثة وعدم

سيطرتهم على المدينة وأحكامهم للحى قبل وقوعها ، وفوق كل هذا العقاب والمجازاه ما أوقعناه من جزاء بالجناب العالى ميرزا مسيح مع رتبه الاجتهاد التى له فى الدين الإسلامى ، واقتداء زمرة الخاصة والعامة به بسبب التجمع الذى حدث حوله من قبل أهل المدينة أثناء حدوث اغتيال السفير ، ولم نر فى حقه الإغماض لائقا نظرا لاتحاد الدولتين ، ولم تنفع فيه شفاعة أى شفيع ، ولم تقبل فى حقه توسط أية واسطة ، ولما كان الإعلام بهذا التضرر لازماً ؛ لذلك الأوضاع إلى ولدنا المئيد الموفق نائب السلطنة عباس ميرزا، ويحدونا الأمل فى الخالق البارئ أن يجعل مراتب الوداد بين هاتين الدولتين الأبديتين فى ترق وازدياد لحظة بعد لحظة وبتأكد وبتضاعف روابط الصداقة بين الحكومتين على الدوام بتردد الرسل والرسائل والعاقبة بالعافية . تحريراً فى شهر ربيع الأول سنة ١٢٤٥ م .

هذه الرسالة مع أنها أرسلت رسميًا من طرف فتح على شاه ، لكنها كانت من تحرير القائم المقام فى الحقيقة ، ولا شك أن كتابة هذه الرسالة بهذا الأدب والمرون والتواضع إلى الروس كان أمراً ممضاً مؤلمًا كثيرا له ؛ لأنه ضمن الأشعار التى نظمها فى ذكرى تغلب عباس ميرزا وجيش إيران على العثمانيين والروس يقول :

الروم الشؤم والروس المناحيس من الطرفين قصد والسيطرة على أذربيجان ، وبعد عقد الصلح مع الروس (احتمالا فى ١٢٣٤ هـ / ١٨٢٨ م) يظهر فى إحدى رسالاته إلى ميرزا بزرك نورى أسفه من أنه لم يعد يجرؤ على أن يتحدث عن الروس المناحيس (إنى لأخشى أن أقول فى المقدمة كلمة الروس المناحيس).

ميرزا تقى خان الأمير الكبير

وهو أحد الوزراء الآخرين لإيران جاء بعد القائم المقام مع أنه فاقه عظمة وتقوى ، لكنه كان على الدركة نفسها من الشقاء وسوء الحظ وهو ميرزا تقى خان الأمير الكبير الذى سعى فى تسهيل المكاتبات الرسمية أكثر مما سبق ، أما أسلوب القائم المقام المترسل المنشأ مع أنه لم يكتسب إليه كثرة من الجاهلين بأسلوب الكتابة المسجعة والمغلقة للقرن ، لكنه دليل على التقدم العظيم فى الأدب ؛ لأنه خلص النثر وأبعده عن

المحسنات البديعية والصنعة البديعية المنفرة التى كانت تعد لعهود طويلة لسان الفصاحة ومحض الإعجاز ، ويبدو أن هذا هو السبب فى أن إنشاء القائم المقام أحرز فى ذوق الإيرانيين الكبار وفكرهم الذين عاصروه مرتبه امقة كهذه ، ولو طبعت مجموعة من هذه المراسلات بتعليقات ونقد كامل فإن لها أهمية أدبية وتاريخية متميزة لطلاب الأدب الفارسى ، ولظهرت - بلا شك - محاسنها أكثر مما سبق خاصة لدى الطلاب الذين لا تتحدد وتنحصر دائرة دراساتهم بالعهود القديمة كثيرا لتاريخ الأدب الإيرانى .

٦- وصال (ت ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٦ م) وأولاده

سبق ذكرى وصالا ، وبينت أنى قابلت لحسن الحظ -بعض أولاده وأحفاده فى ربيع ١٨٨٨ م فى شيرزا ، وبوجه عام يعتبره أبناء وطنه أحد أعظم الشعراء الجدد وأورد رضا قلى فى كتبه الثلاثة الشاعر فى تذكرة دلكشا شرحًا مفصلاً لسيرته ، وكان الاثنان متصلين به شخصياً خاصة بسمل الذى كان صديقًا حميماً له .

أصله من شيرزا ، واسمه ميرزا محمد شفيع ، ولكن يطلق عليه فى العادة ميرزا كوجك أو ميرزا الصغير، بالغ فى مدحه بسمل كثيراً وامتدح مهارته فى الخط والموسيقى والشعر مدحا غير عادى ، خاصة فى الشعر ؛ إذ يعتبره عديم المثال ، ويثنى بلا حد على أخلاقه ووفائه ، لكنه يصفه بأنه : (كان سريع الغضب إلى حد ما) ، وأشار إلى صفته نفسها هذه رضا قلى أيضا فى روضة الصفا ، وقال إن الشاه لما وصفه بالإسراف فى صفاته المحمودة غضب جداً لقولته ، ويذكر المصدر نفسه أنه نظم اثنى عشر ألف بيت فى الغزل والقصيدة والمثنوى أو أتم مثنوى وحشى وهو فرهاد وشيرين وأبدى فيه كمال فصاحته وفاق وحشى بمراتب ، ومن آثاره مثنوى (بزم وصال) أو حفل وصال ، والآخر ترجمة أطواق الذهب للزمخشرى ، وينقل بسمل - الذى يزعم أنه قرأ جميع أشعاره - عددا من أبياته ولا يتجاوز ما نقله من شعره ٢١٣ بيتا ، ومن المنتخبات التى نقلها الشعر الآتى : وهو نموذج طيب لذوقه ، ومثال بديع للصناعة التى يسميها علماء البديع الفرس (المدح بما يشبه الذم) ، مطلع هذه القصيدة :

كل شيء من البـحر والبـر والفلك والنجـوم أيها الملك يقـرون بأن المالك ظالم

وبمجرد أن صاغ هذه القصيدة وقرأها على رجال البلاط والمستمعين هاج هؤلاء، لكنه يوضح فى الأبيات التالية أن البحر ينوح لأن الشاه جعله يزمجر ، ويهدد بسبب جود الشاه العميم وصراخ الجبل بسبب أن الملك جعل ما فيه من معادن وذهب وجواهر ونفائس يساوى التراب أمام كرمه ، وتشتكى النجوم لأن زوار الملك وضيوفه سواء فى عددهم أو جلالهم قد جعلوها تأفل وتظلم ، وهكذا فى بقية الموجودات ، وبما أن هذه المبالغات والألفاظ البديعة من الصعب الحفاظ على جمالها وتأنقها بعد ترجمتها ؛ فنكتفى بنقل بعض الأبيات من أولها :

كل شيء من البر والبر والفلك والنجوم أيها الملك يقرون بأن الملك ظالم

منها البحر أولا ينوح بسبب الملك قائلاً ضاع منى مائى بسببه وعلا التراب رأسى

أدى هو عوضًا عما أقذفه أنا ولم يقل ما أعطيه هو المرجان والجوهر وليس الحصى

وجلس البحر ورفع الجبل رأسه صارخًا ذا إن الملك المكرام ملأ قلبى ناراً

ما جرى لى لم يجر من البحر ولا من الشاه فأنَّى لمرجانى أن يدانى ياقوته الأحمر

ولعلى الذى يحرم على غير تيجان الملوك يقل لمعانًا عن تاجه الملكى المرصع بالدر

لم تر ذهبى وماله من مكانة عليا لقد تساوى الآن أمام وجود بتراب الطريق

هو الجبل وما به من أحجار صارا أقل من التبن الآن بسبب سخاء الملك وحلمه

ورفع الفلك رأسه قائلاً جلالى أعظم لكن مطره أعظم لأن سقفه أعلى

لا حصر لنجومى لكن أمام جيشه لا تقل عنها أنها نجوم بل قطع الشطرنج على رقعته

والشمس التى هى عين الزمان وقنديله احترق قلبها كالمجمر من مجمره الملكى

لما ارتفع أسد رأيته صوب السماء صار أسدى كالثعلب الأعجف خوفا منه

إنه ليس ملكا بل هو عدو البحر والمعدن ليس ملكًا بل هو مصيبة الفلك والنجوم

وطبع (فرهاد وشيرين) لوصال على الحجر ووردت منتخبات من شعره في رياض العارفين (ص ٣٣٧ - ٣٥٠) ومجمع الفصحاء (٢ / ص ٢٥٨ - ٥٤٨) .

وورد أيضًا بالتذكرة الثانية شرح لسيرة ابنه الأكبر (وقار) الذى لحق بخدمة الشاه ناصر الدين فى طهران عام ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧-٨ م ويذكر مؤلف التذكرة أنه لاقاه بعد عشرين عامًا من الافتراق ، كما ورد أيضًا بالتذكرة نفسها نبذة من سيرة أخوى وقار الأصغر منه وهما ميرزا محمود الطبيب المتخلص بحكيم (١٢٦٨ / ١٨٥١-٢) ص ١٠٢ -٥ ، وميرزا أبو القاسم فرهنك ، لكن هذه التذكرة لم تشر إلى أخويه الآخرين له : وهما داورى ويزدانى ، وفى أوائل ١٨٨٨ حين كنت بمنزل المرحوم نواب ميرزا حسن على خان فى طهران استنسخت لنفسى هذا المسمط البديع الآتى وهو من شعر (داورى) ، وورد به شرح لأحد الأيام صيد الملك ، وبما أنه لم يطبع حتى الآن - ولست أعلم أنه يوجد له نسخة فى بلاد أوربا - فلا أستطيع أن أمنع نفسى عن إثباته هنا ومنحه حياة خالدة ؛ لأن وجوده وبقاءه حتى الآن كان فى معرض الزوال لأننى نسخته على نصف ورقة ممزقة ومنفصلة ووجدته بالصدفة الآن حين كنت أبحث عن شىء آخر :

فارق حضنى فترة هذا الولد الجرئ ولم استدل عليه أو أدرى خبراً عنه

لا ريب أنه كان مسافراً مع الموكب المنصور

فاشتعلت نار شوقى فى كبدى حسرة عليه

كانت البلاى أشد سوءاً من ليل القبر لفراقه

وكانت أيامى أحلك اسوداد من الليل البهيم من آلام هجره

البارحة ولما ينقض هزيع من أول الليل حجت زنجى الليل وجهة بخرقة سوداء

ارتدى لبا مطلبًا بالقار حين طلع القمر كالطاسة الفضية فوق الفلك

فخرج من الباب ذاك الحبيب الجريء المتهور فأزال دفعة واحدة الهموم والآلام من قلبي

عقد خاصرته وعلق خنجره بحزامه وقلبي المسكين يحاذر خنجره الحاد

ارتدى قفطانًا سنجابيًا وتحته جوخ خراساني

فارتفعت عيناي إلى أعلى رأسي جنونًا به حين اتجه إلى بحذائه ذي الرقبة وسرواله

رأسه يمتلئ بالتراب ووجهه مُعفّر بنقع الجيش وعناباه قد جَفَّا لوعثاء السفر

وتشعت شعر ضفيرتين السوادوين وانهدل حول قلنسوته لإهمال تمشيطها

وصارت عيناه السوداوان مثل الكأس الدامي محمرتين

بسبب آلام السهر والإرهاق الشديد

كان معه مجموعة من الورد أتى به من طريق سفره

وعلق رأسه مجموعة أخرى من السنبل الطرى

وكان يحمل حُقَّة مجوهرة من العلل البدخشاني

وكان لديه إبريق من السكر أعجب من الحقة

فلما علم بقلبي المريض المتألم أعطاني دواءه من إبريق السكر

فقلت أيها المحبوب مع أنك قاسيت كثيراً

لكن الحمد لله أن أتيت سعيداً ووصلت هانئًا

نجوت من يد الهموم واشتريك روحك منك

فأفصح لي عما فعلت ورأيت في هذا السفر

ماذا رأيت في الموكب المنصور وسمعت ؟

وكيف كانت النهاية وجرت العاقبة ؟

فقلت لم تحضر ولم تر ماذا حدث

لقد كان مصطاد الملك مزرعة شقائق

كان لكل ركن يجرى به دم نهر دجلة بغداد

وكانت السهام والأقواس لا يحصرها النظر

وكانت السحب تمطر فى كل مكان الرماح والأسنة

ولم تكن السهول والجبال ترى من كثرة ما عليها من صيد

كانت القلوب فى هدأة من الآلام والأحزان

وكانت السهول والصحارى تغص بالورود والياسمين

وكانت طيور القطا البرية تغرد فى كل صوب

وكان المصطاد كصحراء "الختن" بسبب الغزلان بها

كل هذا كان بسبب حظ الملك المجدل للأسود

لأن سعده كان عظيمًا وحظه عاليًا

ما أشد جمال المنظر وما أورع الصيد فقد ازدات الصحراء كالنقش

صارت الدنيا كالربيع النضر مع أنها بالشتاء

وامتلأ كل ركن بالغزلان والمصطاد بالصيد

وهذا المسمط يفيض بالحماس والتشبيهات والزخارف اللفظية ؛ فمثلا وصفه للازم الملك الذى قدم لتوه من صيد الشتاء وعاد من خدمة الملك وأسرع لملاقاة حبيبه ، حتى إنه دخل عليه بحذائه وسرواله وضفيرتيه المبعثرتى الشعر ويملأها الغبار ، ولا تزال عيناه محمرتين من أشعة الشمس وإرهاق الصيد وقلة النوم ، ولم يأت من السفر إلا بالورد والسنبل (أى خداه وضفيرتاه) والياقوت البدخشاى (وهو شفتاه) ، وحقه الجوهر (أسنانه) ، ويعد هذا مشهداً يموج فيه الماء ويزدان بالألوان .

وشرح هذا المسمط الدائر حول الصيد يذكرنا بالكتاب الخالد للسيد بونكر Bunker المسمى " بافاريان باتو " Bavarain battue ، ويلزم العلم أن مذبحة جنكيز خان المغولى فى القرن الثالث عشر الميلادى لحيوانات الصيد – ولا تزال شهرته تطبق الآفاق – كانت من العظم بحيث يستحيل أن نجد ما يماثلها فى أوربا ، ولو أمكن مقارنتها ؛ لظهرت أعلى من أى شبيه ومثيل .

وصف فرهنك لباريس

وصلنى وأنا بلندن اثنتان من قصائد فرهنك أخى داورى قبل أن ألقاه بشيراز بسنة أى عام (١٨٨٧ م) ؛ أولهما : قصيدة فى مدح الملكة فيكتوريا بمناسبة العام الخمسين لحكمها وطلب منى أن أترجمها حتى تعرض على الملكة ولم تتحقق الأمنية والقصيدة الثانية : التى نظمها فى شهر مايو من العام نفسه (شعبان ١٣٠٤ هـ) فى وصف باريس ، ومع أن أغلبها فى المدح والثناء لكنها فى النهاية تحوى أفكاراً وملاحظات شديدة إلى حد ما عن أسلوب الحكم الجمهورى ، وتفترق كثيرا عن شعر فرهنك الوارد بمجمع الفصحاء (٢/ ص ٣٨٤ – ٨) وتمتلئ بالألفاظ الفرنسية ، يبدو أن الشاعر تعمد الإتيان بها لمجرد الفكاهة والمزاح ، وتحوى هذه القصيدة (٨٧) بيتا ولا يمكن إثباتها بالكامل ، وأثبت وكفى بدايتها ونهايتها :

افتح عينيك وأقبل وانظر إلى الأنوار تحيط باريس من الأبواب والجدران

افتح بصيرتك التى ترى الأسرار لكى نرى الأسرار فى كل ناحية

أظهر الله تعالى إليهم سر الأحرار والحرية

كلهم سادة أحرار وليس فيهم عبد بل كلهم أحرار

كل سكان المدينة كأنهم ملوك سواء نساءهم ورجالهم وصغارهم وكبارهم

كلهم يمتلكون النعمة والثروة وجميعهم يحوزون المال والقوة الكبيرة

سائرهم لديهم الأعمال والأشغال وليس فى بلادهم عاطل

جميعهم أصحاب مناصب وأشغال وكلهم رؤساء وقواد

مدينة مزدانة كالفردوس الأعلى وهى روضة مثل رياض الربيع
لا تجد فرقًا بين الليل والنهار من كثرة المشاعل والشموع والقناديل
انظر فى كل ناحية تجد صفوفًا من القمريات الوجوه والورديات الخدود
وأزقتها جميعًا كأنها جنة إرم ونمت على جوانبها أشجار السرو والصنار
ترى فى الشوارع والأزقة آلافًا من الكراسى والمقاعد
كل العربات تمتلئ بالأحبة وكل السيارات تغص بالحسان
ما أجمل هذه العربات كأنها حجلة الحور!
وما أبدع تلك السيارات البديعة السير !
يوجد ما لا يحصر من الترامواى والحافلات
من أول المدينة إلى آخرها فى الشوارع والأزقة والطرق
كأنها حجلة من قصور الجنة تحمل على اليمين واليسار
حجلة أو حجرة عروس تمتلئ بحور الجنان وجلس بها صفوف
فى كل ناحية تمر بها تجد الورد والنسرين وكل جهة تراها ترى الزهر والمزاهر
صارت باريس من وردها وعطرها وريحانها طبلة العطار
لن تصدق كلامى طالما لم تأت ولم تشاهد بعينك
هم صادقون فى مقالهم وفعالهم والصدق هو شعارهم الدائم
يصدقون فى كل سوق لهم فى بيعهم وشرائهم
لا يتفوه أحد بكلام هازل ولا يسمع أحد كلامًا بذيئًا
يؤثر بعضهم على الآخر بلطف ومحبة ومودة
وكل سكانها على المسيحية وكل بلادهم مسيحيون

كلهم رجال دين ونصارى ذوو فطنة فى مذهبهم ودينهم

كل القساوسة يبذل قصارى جهده فى الكنيسة لخدمة دينه

ارتدى أحدهم الطيلسان على رأسه والآخر عقد زناره على خاصرته

رأيت فى كنيسة نوتردام المعتكفين يؤدون صلاتهم

ونقشت صورة بشكل عيسى على لوح وعلى مسوح رهبانهم

يسجد الجميع لهذه الصورة ويتوجهون إلى الحائط المعلقة عليها قبلة لهم

كلهم بسبب الصدق والإخلاص يتمتعون بدينهم

جميعهم أطهار منزهون وطيبو الخلق ولكنهم بصفات عيسى وأحرار

سائرهم متمكنون فى أعمالهم وأحرار فى شغلهم

يتشاورون وقت المشورة ويتعاونون وقت المحادثة

كلهم عاقل وفطن ومدبر وعالم وواع ومفكر

لكن مع هذا العلم والصناعة أحكى لك سراً وصدقه

إن حكمتهم وطنهم كاذب ولم ير أحد مريضًا فيهم يتحسن

وتذهب جماعة من العقلاء والعلماء فى صحبة واحدة إلى البلاط

فيجلسون متحدى الكلام فى مجلس منعقد لهم جميعًا

يتحدثون فى كل أمر ويتشاورن فى كل باب

يتشكل المجلس المنعقد من سبعمائة منهم كلهم عاقلون يقومون بالمهام

وصار اسم هذا المجمع وهذا المجلس (جمهورية) فى كل الأقطار

كل حكومة يديرها جماعة من الجمهوريين

بعد لويس فيليب ونابليون لم يعترف أحد بالملكية

كل واحد منهم ملك فى حكومة وكلهم سلطان يدير ملكه

لا يصعب عليهم أمر بسبب العلم والمعرفة

كل ما يقوله هذا ينصت إليه ذلك ولا ينكر أحدهم قول الآخر

نظمت هذه القصيدة فى شهر شعبان سنة ألف وثلاثمائة وأربع من الهجرة

ويجبرنى ضيق المقام على ترك بعض الشعراء المهمين من مثل آغا مح . سن الأصفهانى المتوفى ١٢٧٠ هـ / ١٨٦٨ - ٤ م ، وآغا محمد عاشق الأصفهانى الذى مات فى السبعين عام ١٢٨١ هـ / ١٨٦٤ م وميرزا محمد على سروش سدهى الملقب بشمس الشعراء المتوفى فى ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ -٩ م ، وآغا محـــمد على جيـــحون يزدى الذى لا يستطيع أن نصل إلى شىء من حياته إلا ما استنبط من شعره ، ولكن المسلم به أنه ألف فوق قصائده المتنوعة الكثيرة نثريا اسمه (نمكدان) أو الملاّحة يقلد (كلستان) سعدى وطبعت كلياته فى ١٣١٦ هـ / ١٨٩٩ م فى بمباى وتشمل ٣١٧ صفحة ، وممن يجب من الشعراء لكن شهرتهم غلبت فى فنون وعلوم أخرى رضا قلى خان هدايت المؤرخ الذى ذكرناه مراراً فى هذا الفصل (ولد ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠م، وتوفى ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ -٢م) ، وميرزا تقى سبهر كاشانى الملقب بلســان الملك مؤلف ناسخ التواريخ وبراهين العجم وحاج ملا هادى سبزوارى الفيلســـوف المولود (١٢١٢ هـ / ١٨٩٧-٨ م) ونظم قدراً قليلاً من الشعر بتخلص (أسرار) ، ومات فى ١٢٩٥ هـ / ١٨٩٧ م وغيرهم من بقايا المدرسة الكلاسيكية فى العصر الحديث وأهـــمهم قاطبة قاءانى ثم يتلوه (يغـما) و (فروغى) و (شيبانى) ، وسوف نفرد لكل منهم حديثاً .

٧- قاءانى (ت ١٢٧٠ / ١٨٥٣ - ٤)

قاءانى باتفاق الجميع هو أهم شاعر ظهر فى إيران فى القرن التاســع عشر ، ولد فى ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧-٨ م فى شيراز لأنه طبقًا للأشعار الواردة فى نهاية كتابه(بريشان) وتاريخ إتمام هذا الكتاب هو (٢٠ رجب ١٢٥٢ هـ / ٣١ أكتوبر ١٨٣٦ م) كان عمره إذ ذاك يقل عن الثلاثين بنحو ثلاثة شهور :

الشكر لله لعونه لى فقد جمعت أوراق كتابى برشان أو (المفترق)

لم أقتبس فيه شيئًا من أحد وما أدرج فيه هو من فكرى الخاص

ما عدا بضعة أبيات عربية وفارسية جرت على لسان قلمى

خاصة إذا عنت إشارة فى طى العبارات إلى شىء ما

وذلك حتى لا يعيبنى حاسد ولا يستولى على حقى الباطل

وقد مضت من شهر رجب عشرون يوما عام اثنين وخمسين ومائتين وألف

وكان عمرى يقل عن الثلاثين بنحو ثلاثة

أشهر لكننى كنت مصابًا بالإعياء الشديد

كنت أكثر انحناء من الهالة بسـبب كثرة

الهموم كأنى شيخ فى التسعين فى الواقع

لكن همومى هى هموم العشق وحده لأنه ليس غير العشق ما يغيثنى

إن سعادة العالم كلها تنحصر فى هذا الهم

والعاشق سعيد فى دنياه بسبب هذا الهم

ويزيد الهم حلاوة كلما زاد ويصبح حلواً كالسكر المكرر

كل ما أضاء هذا الهم فى قلبه هان فى نظره ملك الدارين

فيا ربى أسعد قلبى بهذا الهم وحرر قلبى من هموم الدنيا

اسمه حبيب ، وكان يتخلص بهذا الاسـم فى البداية ويسـتـخدمه فى أشعاره ، ولما وصل هو وميرزا عباس بسطامى الذى كان يتخلص فى أول أمره ب (مسكين) إلى معية ميرزا شجاع السلطنة وإلى خراسان وكرمان غير هذا الأمير المذكور تخلص حبيب إلى قاءانى وهو اسم ابنه أكتاى قاءانى ، وبدل تخلص مسكين إلى فروعى ، وهو اسم ابنه الآخر فروع الدولة أو ضياء الدولة .

ولد قاءانى فى شيرزا ، وكان أبوه ميرزا محمد علي شاعراً أيضا ، ويتخلص بكلشن ومع أن قاءانى كان صغير السن وقت وفاة أبيه ، لكن ما يقوله فى كتابه (بريشان) : (مع أن ثلاثين سنة كاملة مرت على وفاة والدى لكن أتخيل الآن أنه لم يمر عليها أكثر من أسبوعين) ، هذا القول لا يتفق مع ما سبقت الإشارة إليه : وهو ذكره حين أنهى كتابه المذكور بأن عمره يقترب إلى الثلاثين ، وأدرج فى تذكرة دلكشا شرح عن قاءانى ووالده ، لكن للأسف أبيض فى نسختى الخطية الرقمان الأخيران لتاريخ وفاة (كلشن) أبيه وحذف هذا التاريخ تماما فى الشرح الموجز الذى ورد فى مجمع الفصحاء .

ولا يمكننى أن أذكر شيئًا كثيراً عن حياة قاءانى القليلة الأحداث والهادئة ، ويبدو أنه أمضى أغلب أيامه فى شيرزا وحين كنت مقيما بهذه المدينة فى ربيع ١٨٨٨ م نزلت بالغرفة نفسها فى منزل نواب حيدر على خان التى كان قاءانى يقيم بها عادة من باب احتفائهم بى ، وكما ذكرنا فقد أقام قاءانى فترة فى كرمان أيضا ، أمضى سنوات آخر عمره فى طهران ، وفى هذه الآونة قدم نفسه شاهرا للشاه بغير منازع ، وتوفى فى نفس هذه المدينة أيضا (١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ - ٤ م) ، وآخر قصائده قصيدتان في تهنئة ناصر الدين شاه على نجاته من مؤامرة ثلاثة من أتباع الباب قصدوا قتله ، وأنا ذكرت هذه الحادثة فى كتابى (مذكرات سائح) ج ، ص ٣٢٥ - ٦ .

محاسن قاءانى ومعايبه

قاءانى واحد من أكبر شعراء إيران جمالاً فى اللحن وعذوبة فى البيان وسيطرته على الألفاظ تثير الحيرة ، ولكن ينقص شعرة الهمة والنية العالية والمبادئ النجيبة الشريفة . فلم يكفه أنه كان يمدح الأقوياء وقت قدرتهم ويتملقهم ، ثم يذمهم ويهجوهم إذا ضعفوا وعزلوا بل كان على أهبة لاستعمال التوريات والكنايات الجديرة باللوم والعذل بل إيراد أكثر الهجاء عنفًا وأشد السباب فبحًا فى شعره أيضا ، مدح فى قصائد عديدة بالتفصيل محايد صفات حاج ميرزا أغاسى رئيس وزراء محمد شاه وفضائل أخلاقه ، لكن بعد عزله وتنصيب الأمير الكبير هجاه ومدح الأمير فى قوله:

نُصِّبَ عادل تقى مكان ظالم شقى يفخر به المؤمنون الأتقياء

ومن كناياته نسوق هذه القصيدة نموذجًا شائقًا :-

أتانى ضاحكا يجرى وألصق شفتيه بشفتى لكى أشبعه قبلات

فاستحييت فى الحقيقة أن أقبل شفتيه الحمراوين كالشقائق بشفتى المنكرتين

فشفتاى اللتان تشتهان دودة العلق لا يجدران

لتقبيل شفة أكثر من الدم الصافى حمرة

فقلت له أيها التركى الذى تستحق آلافا

من القبلات إننى قانع بالنظر إلى شفتيك

فعبس وقال دع عنك هذا الكبر فأحسن بك أن نتولاك لا نتبرأ منك

إن الشاعر إذا رفض القبلات العذبة كالطفل إذا ترك الجوز المنقى

أنت مداح الملك فما يضيرك لو كنس تراب طريقك جميل بضفيرتين مجلدتين

قبلنى بلطف وإلا افتضحت وانكسرت عند الحسان

ولك الخيار أن تتعقب كل أعضائى بالتقبيل فقبلنى من رأس حتى ..

وماذا يضير القبلات لو تبعتها الأحضان وأشكرك إن قبلتنى وصاحبت قبلاتك

إن وجهى وشفتى كلاهما يلقيان بالتقبيل وها أنذا وها أنت فقبل شفتى أو قبل

فقلت له أيها التركى اترك هذا الكلام وأقصر من هذا الغمز والرمز والدلال والإيماء.

وبالطبع نشعر بلطافة لغة قاءانى لو قرأنا شعره بالفارسية ، لحسن الحظ فيمكن الحصول على ديوانه الآن بسهولة لأنه طبع مراراً ، وأنا راجعت طبعة طهران (١٣٠٢ / ١٨٨٥ – ٥) فى الأغلب وحينا طبعة تبريز ١٢٧٣ / ١٨٥٧) ، وراجعت (المنتجات الخاصة بامتحانات اللغة الفارسية ونيل درجة الافتخار (المطبوعة بالهند عام ١٩٠٧) .

وقاءانى – كأغلب شعراء الحكم القاجار –ى مهر فى نظم القصيدة والتركيب بند .
وهذه الغزلية له بديعة فوق العادة وجميلة الإيقاع واللحن (إذا قرأتها بالفارسية) :

لى حُبَيِّبُ رند ومبنذل جرىء وفتان جميل الطبع حسنه

طرته عبير قامته حرير عارضة ربيع طلعته رياض

هو نقاش روحى كأنّ من البداية وجهه وشفتيه جذبا حقًا

فتات الياقوت وغسلاها بماء الخلود ثم حلاها فى السكر

هذا الولد فى قمار العشق ومالى وذهبى وفضتى وتحقق قول الفتيان عنى

قبل أن ينحو خط شاربه وجهه كان قاسيًا صعب المرأس

وما نبت شعره فى وجهه إلا أن يتحدد مصيرى من خط شاربه

ولما تنفس خط شابه تجمد خاطره فتبدل صفاء حسنه إلى حزن

نكهة محياه ذهبت بالرياض والورود وبرعمة من شفته حرقة آلام كثيرة

كان لون شعر عارضى قاراً فتحول إلى لون اللبن فى فراقه

أنا فى سن الشباب وهرم عمرى وحول الفلك قطن الدهر نسيجًا

أطلب من الله من كل هذه الدنيا قفصًا من المكان ونفسًا من الزمان

حتى أحقق مراد قلبى بهما بلا قرين سوء وحبيب قبيح

يتنفس الربيع بجمال منشأ الخمر القانية حينًا بشط النهر وحينًا بأعلى الجسر

حينا تحت السرو وحينا جنب الورد ومرة فى صحن الروض وأخرى تجاه الزرع

لما ميز المرء اللب من القشر لم ير غير الحبيب مهما نظر

الملك ملكه حيثما ذهب المرء سواء كان الحرم أو الكنيسة

ولما قال الملك لى (يا حبيب) أنظم غزلية وما يحصد الإنسان إلا ما غرص

زين العابدين هذا هو جمال المجد والجاه طوع الأمير ومحب الشاه

هو شرف الملك وملجأ الرعية وملك فى لقائه وملك فى طباعه

كذلك شعره فى مدح الأميرة (مهد عليا) يثير الحيرة من حيث وزنه ولطافته :

نما البنفسج ونبتت من الأرض تجاه الجداول .

أو فصلت الحور العين شعرات من ضفائرها

إذا لم تعاين من الحجر كيف تكون قوة الشرر

فانظر أوراق الشقائق وسط مزارع الشقائق

فهى تشبه الشرار حين ينفجر من حجر الجبل

والشعر الذي صاغه في مدح الأمير الكبير ميرزا تقي خان يبلغ الدرجة نفسها

لا يهب نسيم الخلد إلا من الجداول لكى يحل هواء الرياض به رائحة المسك

وتنفست المزارع الخضراء فوق التراب حتى غدت المزارع رياضًا لا حصر لها

وبدلاً من المبالغات البعيدة عن الفكر وغير المفهومة غالبًا - التى كانت عزيزة الجانب مرعية لدى الشعراء السابقين - فإن قاءانى يفضل أن يزين شعره بالنقاط العادية والرسوم الرائجة ، فمثلاً يشير فى الأبيات الآتية إلى العادات والتقاليد المختلفة التى يسلكها العامة فى عيد النيروز :-

حل العيد فهب أيها الساقى وأدر الكأس واركل دور الفلك ولف الأيام

يكفينا حرف السين من (ساغر) أى الكأس أيها التركى

فى يوم العيد إذا لم يتوفر السينات السبعة (١) للماجنين الشمالى

(١) جرى يوم العيد إعدادهم أشياء أو أطعمة أو سبقة تبدأ بحرف السين مثل : سنبل ، سيب أو التفاح ، سوسن ، سيم أى الفضة ، سير أى الثوم ، سركه أو الخل ، سبند أى العود والبخور.

يكتسى الناس بالقشيب بكثرة الحديث وأنا أروم الخمر المعتقة المترعة الكئوس

كل واحد يضع على المائدة السكر ويتلو دعاء الخير

وأنا أطلب دعاء الشر من ياقوتتك السكريتين

وبيد كل واحد فضة وحبة قمح وأنا أميل إلى حبة خالك أيها الفضى الجسد

الثوم على موائد الناس وأنا سأمت من حياتى

إذا لم يكن بها راحة قلبى محبوبتى التى أزالت الراحة من قلبى

الفسدق واللوز من نقل يوم النيروز

وأنا لا أريد فسدقًا ولوزًا غير شفتيك وعينيك

يحرقون العود فى العيد وأنا نائح كالعود

بدون حبيبى الذى أضاع إسلامى بخاله الهندى

يلثم الناس بعضهم بعضًا وأنا أموت همًا بسبب

أن غيرى يقبل شفتى محبوبتى العذب الفم

الخل على موائد العامة والحبيب يحيل

وجهه الوردى إلى عبوس يلسعنى كالخل

للناس يوم عيد واحد فى العام وأنا من طلعة

الملك لى أعياد فى العام والشهر والأسبوع والصباح والمساء .

فلا جرم أن هذا هو عيدى الخاص أبقاها الله

خالدًا ورائجًا إذا كسد سوق العيد العام

وقاءانى واحد بين قلة من الشعراء حين تعمد إدراج أوضاع عصره وسمات لغته فى شعره بل عرض بعض اللهجات والنطق الناقص أيضًا ، فعلى سبيل المثال بذكر شعره التالى وهو حوار بين شيخ وطفل وصبى صغير السن وكلاهما نصف أخرس .

أكَنيَّات قاءانى

كنت أتسمع عجوزًا شبه أخرس وقت السحر يحادث طفلاً ألكن بهذا النحو :

يا من صُصُصُبحى من ضفيرتك ليليليلُ

أسود ومَنْ ليليليلى من طلعتك صُصُصُبح منير

رضضضاب ششفتيك وششششهدهما

أززالا الصصصبر والتححححمل من من جسمى

فقال الطفل :

لا تغيب أنت أنت على على على إذا إذا إذ ذهب عنى أقأقأقأقل من النساء

هل تريد أن أل ألكم رأرأسك بضربة حتى يسقط مخمخك وووسط فقمك

فقال العجوز : ووالله معمعروف أننى أنا المسكين ولدت ألكن

سبسبعون وثمانون سنة وفقها ثلاث وأنا شبه أخ أخ أخرس وأل وأل ألكن

فقال الطفل أش أش أشكر إلا إلهى مثمثمئة مرة

لأننى نوت فى دنياى من الململل والمحمحن

أأأنا أيضًا أل أل ألكن مثمملك أن أن أنت

وأن وأن أنت أيضًا أل أل ألكن مثمثلى أأأنا

كتاب (بريشان)

لقاءانى فوق ديوانه مجموعة تحوى القصص والوعظ والنصح على مثال كلستان سعدى باسم (بريشان) أى المضطرب المتوزع الفكر ، ويشمل ١١٣ حكاية ، وأنشأ ٣٣ فقرة من النصائح خالية من الأساس وبعيدة عن الضمير وقائمة على خيانة الملك والأمراء وخداعهم ، ووقع الكتاب الذى يحوى موضوعات فى سيرة المؤلف من ص١ إلى ص ٤٠ فى كليات قاءانى طبعة طهران وطبع مراراً ، ويذكر هذه الطبعات إدوارد فى العمود الثانى ص ٢٢٧-٩ من فهرسه .

٨- فروغى (ت ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٨ م)

أشرنا فيما سبق إلى ميرزا عباس ولد أغا موسى بسطامى ، وقلنا إنه كان يتخلص فى البداية بمسكين وبفروغى فيما بعد يقال إنه نظم نحو عشرين ألف بيت لكنهم اختاروا منها خمسة آلاف وألحقوها بنهاية كليات قاءانى طبعة طهران (١٣٠٢هـ / ١٧٨٤-٥ م) ، وفى الواقع هذه العلاقة نفسها التى ربطت هذين الشعرين لا تزال موجودة بين ديوانيها ، مال فى الظاهر فروغى على النقيض سيرته المختصرة التى زانوها على غزلياته المنتخبة ، سعى سعياً بليغاً فى اتباع طريقة الضيوف كما فعل بايزيد البسطامى والحسين الحلاج فى الماضى ، ولهذا ساء ظن الفقهاء به وتعقبوه . وتكفى فى نظرى للتعريف به الأبيات الثلاثة الأولى من أول غزلية توجد بمنتخبات ديوانه ومعناها

متى غادرت قلبى حتى إننى أتمناك ومتى أخفيت حتى إنى أبحث عنك

أنك لم تغب حتى أطلب حضور؛ وأنت لم تفتقد حتى أظهرك

خرجت بمائة ألف اجتلاء إليك بمائة ألف عين

٩- يغما جندقى

هو ميرزا أبو الحسن جندقى الذى يشتهر فى الأغلب بإفراطه فى الهزل ، وكان فحشه الخاص به يتمثل عبارته (زن قحبه) أو المرأة الداعرة ، هو آخر شاعر يذكره صاحب مجمع الفصحاء قبل ذكر سيرته الخاصة ، كان يغما لفترة الكتب لدى رجل حاد الطبع وسفيه اللسان اسمه ذو الفقار خان سمنانى ، ويقال إنه نظم غزلياته هذه وأبياته الهجائية الكريهة لمجرد تسلية خاطر هذا الأمير وجلب رضاه وسمى مجموعته (سر داريه) ، ومع أن (يغما) قد خلف قدراً كبيراً من الشعر الجاد والمراسلات المؤثرة المقبولة الفاتنة وطبع كله كلياته الكبيرة عام (١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦-٧ م) بطهران لكن شهرته أو فضيحته قامت على هزلياته ، ولا يكتب مؤلف تذكره دلكشا عنه غير ثلاثة أسطر ويعرفه بأنه :(شخص لطيف وجدير بالمودة وشاب حسن الطبع وفصيح لم يفكر قط جمع أشعاره) ، هاجم قاءانى يغما بأسلوبه الخاص ، ونظم هذه الأشعار الآتية المغالية والمليئة بالمبالغات فى حقه [١] .

محتويات كليات يغما

تشمل كليات يغما الأجزاء الآتية كما ظهرت طهران :

أ – النثريات (ص ٢ – ١٤٥) وهى مراسلات كثيرة يخاطب بها أصدقاءه ومعارفه وليس لها للأسف تاريخ على حدود بحثى ، والدراسة الدقيقة لهذه المراسلات سوف تزودنا – بلا ريب – بمعلومات زائدة عن حياته ، كثيرا منها خطابات لأصدقائه ومعارف وأناس مجهولين وكتب بعضها إلى أولاده ميرزا إسماعيل المتخلص بهنر ، وميرزا أحمد صفائى ، وميرزا محمد على خطر ، وميرزا إبراهيم دستان ، وكتب بعضا منها إلى رجال تفاوتوا شهرة وقوة وذكر أسمائهم ، وقد سعى فى كثير من هذه المراسلات إلى أن كتب بالفارسية الخالصة ويتجنب الألفاظ العربية ، وكتب قسما من المراسلات واسمها (نامه بسيط) أو الرسائل المبسطة بأسلوب كثير البساطة .

(١) حذف ما يسمى هذه الأشعار لفنع هجائها ، وهى فى ص ٣٧٢ من كليت قاءانى طبعة طهران عام (١٢٠٢ هـ / ١٨٨٤ – ٥ م).

ب - الشعر

١- الغزليات القديمة (ص ١٤ - ١٨٣) .

٢- الغزليات الجديدة (ص ١٨٤ - ٢٠٣) .

٣- السردارية التى أشرنا إليها فيما سبق (٢٠٤ -٢١٧) نظمت فى شكل الغزل ويتخلص (سردار) أى القائد .

٤- القصابية (ص ٢١٨ - ٢٣١) ، وهى من حيث الشكل والمحتوى تشبه السردارية وتخلص فيها بقصاب .

٥ - كتاب أحمد (ص ٢٣٢ - ٢٤٧) ويشبه ما سبقاه وتخلصه فيه (أحمد) .

٦ - مثنوى شكوك خلاصة الافتضاح (ص ٢٤٨ - ٢٦٥) يشرح فيه واقعة مفتضحة وقبيحة ذكر حالها فى حاشيته ص ٢٤٨ .

٧ - مثنوى شكوك الدليل (٢٦٦ - ٢٨٠) على وزن الشاهنامه وظاهر مدح وباطنه هجاء لمن اسمه سيد قنبر وهو قارئ روضة - ويسميه يغما (رستم السادات) .

٨ - المراثى فى مصائب أئمة الهدى عليهم السلام (٢٨٢ - ٣٠١) .

٩ - الترجيع بند والتركيب بند (ص ٣٠٢ - ٣٣١) وأغلبها يشرح موضوعات هابطة وسالفة .

١٠ - القطعات (٣٣٢ - ٣٥٥) ، وأكثرها هجاء وهزل وشرح موضوعات قبيحة .

١١ - الرباعيات (٣٥٦ - ٣٨٩) ، وهى هابطة ووقحة أيضاً.

هجاء يغما

تشكل الغزليات الجديدة والقديمة والمراثى وذكر المصائب فى ١ ,٢ ,٨ مما سبق الجزء الجاد والمعتبر فى ديوان يغما ، وتكون تقريباً ثلث كلياته ، وباستثناء رقم ٧ الذى

يمكن قبوله بصعوبة فإن باقى ديوانه لا يستحق الطبع أو الترجمة ، وعبارته (زن قبحه) وهى عبارة فحش خاصة بالشعر بل يطلقها على نفسه أيضا مع أنها تعبير يعدم القبول واللطف ، لكنها بالقياس إلى غيرها من الألفاظ التى يستخدمها تعد مقبولة ولطيفة ، ومن ناحية أخرى فإن أشعاره الجديدة ومرائيه تدل على مقدرته نظم الأبيات الجيدة والمقبولة ؛ وعلى أنه فاق قاءانى تسلطًا على الألفاظ وإن افتقر إلى إيقاعه وموسيقاه.

المرائى الدينية ليغما

يبدو أن يغما هو مبتكر لأسلوب فى إنشاء المرائى يسمى (نواح ضرب الصدور)، وكنت أظن حتى فترة أن هذا الأسلوب من الأساليب التى ظهرت فى إيران بعد الثورة الدستورية (١٩٠٥ م) ، وذكرت نماذج عدة له فى كتابى المسمى (صحافة إيران وشعرها الحديث) ، والأشعار التالية هى مطالع ثمانى قطع من المرائى صاغها يغما بذالك الأسلوب نفسه :-

نواح ضرب الصدور

أصل عطشا الفرات الأكبر هو فتاى الأكبر

ففيضى سيلا يا عين عينى الدامعة فهو فتاى الأكبر

صنع نقابى الأسود عالما من نيل الغراء

حتى أحدثت كسوة عمرك(غديرهم) المنتصر

فأتى بياقوت دام من هو فتاى الأكبر

حتى البد ستظل حرقتك يا وليد الأحرار

من الأزل ليت أمى لم تلدنى

لا يمكن الصبر طويلا على فتاى الأكبر

(وله أيضا)

ماذا أفعل إذا لم أفعل غير الشكوى من الفلك الظالم ؟

وماذا أفعل إذا لم أفعل غير شكاية النجوم؟

ماذا أفعل إذا لم أفعل ؟ ماذا أفعل إذا لم أفعل ؟

ماذا أقاسى إذا لم أقاسى من هم العباس المبتلى ؟

ماذا أفعل إذا لم أفعل غير النواح على حسرة الأكبر ؟

ماذا أقاسى إذا لم أقاس ؟ ماذا أفعل إذا لم أفعل ؟

(وله أيضا)

أراك شمسا يوم الحشر فى الليل الخفى

وأراك شمسا واضحة من الصباح إلى المساء

شمسا ، ثم شمسا متمردة شمسا ثـم شمســا متمـردة

وهنت بسبب هذه المصيبة العظمى الذرات العالية والسافلة

فاستح فأنت أيها الشمس لست أقل من الذرة

وكل ما هو موجود يتحرك ويعمل

شمسا ، ثم شمسا متمردة

(وله أيضا)

الملك القليل جنده والسهل والجبل خصمه واحزناه عليه

شق قلب الإيمان وا أسفاه على نصرة العدو

واحزناه وا أسفـاه علـى نصـرة العـدو

وحزناه وا أسفاه على نصرة العدو

آه من هؤلاء الوضعاء الذين باعو دينهم لدنياهم

واحزناه على ملك عالم الدين وملك الدنيا

هاجم فانتطم أمره واحزناه واأسفاه على نصرة العدو

(وله أيضا)

أرى حشرا ظاهرا فى عالم السماء

فهل هذا مساء عاشوراء أو صباح حشر السماء ؟

فاستحى يا سماء أخيرا يا سماء

فاستحى يا سماء أخيرا يا سماء

ظهرت شمس من دورة السماء ذات النجوم الحالكة

ليتك لا تدرونين بمثل هذا الدوران مرة أخرى يا سماء

فاستحى يا سماء أخيرا يا سماء

فاستحى يا سماء أخيرا يا سماء

(وله أيضا)

لم يقم أهل الأرض بمأتم لهذه المصيبة

وإنما الأركان الأربعة والجهات الست والأفلاك التسعة دار مأتم لها .

كيف يجوز أن تنقلب أيها الفلك ؟

كيف يجوز أن تنقلب أيها الفلك ؟

صراخ الجن والملائكة يجرى فى مأتم فخر الأمم

من الثرى إلى الثريا ومن الثريا إلى الثرى

مـن القـدم إلى مسـاء العـدم

فكيف يجوز أن تنقلب أيها الفلك ؟

(وله أيضا)

الأسبوع ضغينة والشهر شر والعام حقد والقرن فساد

والليل هم والنهار ظلم والمساء ألم والصبح عزاء

والدم مهدر والمال مضيع والدم مهد والمال مضيع

الفتنة يقظى والأمان نائم والخصم حقود

والجمع بلا حام والمائدة مطوية والنهب هو الحاكم

والأتراك المغيرون يكمنون والدم مهد والمال مضيع

(وله أيضا)

انظر ولد الزهراء فى حلق ابن مروان

الأول ذليل والثانى عزيز فانظر هذا وذاك

فآه وآه انظر ذورة الزمان فآه وآه انظر دورة الزمان

آل مروان أمسكوا سيوفهم وأل يسن وهبوا أرواحهم

فانظر نفى الحق وإثبات الباطل والكفر والإيمان

إذا نظرت لهذا وذاك عيانا فآه وآه انظر دورة الزمان

هذا آخر الأجراء من حيث الشكل يقترب كثيرا ، إلى رقم ١٩ الذى أدرجته فى كتاب(صحافة إيران وشعرها الحديث) ، والأشعار السابقة مهمة من حيث الشكل . والنواح الآتى سهلاً جدا وجميلا ، وأختار ستة أبيات فقط من ١٩ بيتا التى تشكله :

كَلَّ كثيرا من الحياة قلبى وأعانى سكرات الموت فى كل أن
غـدت قلـوب النســاء دار الأم ومـأتم
وصارت أجساد الرجال هدف السيوف والسهام
والولدان يتشحطون فى دمائهم والبنات يصرخن
والأخوان صرعى والأخوات أسيرات
بلغت دماء الأكباد أفواه الأمهات
وصار اللبن دما فى حلوق الرضع
وصار الشرر فى أعين الأسرى والنار فى ضمائرهم بدلا من الدمع والصراخ
وارتفع صريخ العطشى أفواههم من الثرى السافل حتى الأثير العالى

وما يثير الحيرة هوان شعراء الهجاء والهزل مثل يغما وقاءانى تملكهم هذا القدر من الحب الإيمان بأئمة دينهم ، وتظهر إمارة حبهم فى عدد قليل من قصائدهم ، وربما نجد نظيرا أقرب لهما فى الأدب الأوروبى الحديث الشعر الفرنسى (فرلان – verlaine) ١٨٤٤ – ١٨٦٩ م .

سبهر وهدايت وشيبانى

يجب ذكر اثنين من الشعراء دون بقية شعراء عهد ناصر الدين شاه الذى كان مقتله (أول مايو ١٨٩٦ م) الزهرة الأولى للثورة التى أثمرت بعد ذلك بعشرة أعوام ؛ أولهما : ميرزا محمد تقى كاشانى المتخلص ب(سهبر) ، والثانى ميرزا رضا قلى خان هدايت ، لكنها يشتهران أكثر بكتابتهما فى التاريخ ؛ لهذا فلسوف أذكرهما فى الفصل التالى مع أن مجـــمع الفصحاء أورد ذكرهما (١٥٦٢/ – ١٨١ سيرة سبهر و ١٨٥–٨٧٦ سيرة هدايت) ، وشاعر ثالث يجدر ذكره هو أبو النصر فتح الله خان شيبانى كاشانى الذى طبعت نخبة من شعره فى (أختر) بإسلام بول (عام ١٣٠٨ هـ

/ ١٨٩٠ -١ م) ، وورد شرح مفـــصلة لسيرته فى مجـــمع الفصحاء (٢٤٥) ، ولو أتسع المقام لأمكن زيادة عدد كبير على هؤلاء الشعراء ل ، كنا اكتفينا بذكر أهمهم بل إننا لم نوف حق هؤلاء .

المدرسة الجديدة لشعر ما بعد الثورة

تحدثت فيما يتصل بالمدرسة الجديدة الأدبية التى ولدت ثورة (١٩٠٥ -٦) الدستورية وما بعدها من سنوات شعرائها فى كتاب مستقل عنوانه (صحافة إيران وشعرها الجديد) ، وأنقل منه ما يتسع المقام لذكره هنا :

دخو ، عارف ، أشرف ، بهار

أهم هؤلاء الشعراء المعاصرين هم دخو (دهخدا) القزوينى : وعارف القزوينى، وسيد أشرف جيلانى ، وبهار المشهدى ، ودخوا هم أكثر الأربعة شباباً وأهمية : فقد نظم شعراً كثيراً فى الفترة الأخيرة إذا صح ظنى ، وتتضح قوة قريحته الشعرية من القطعة رقم ٣ والقطعة رقم ١٤ فى كتابى السابق الذكر إحداهما فى رديف (أكبلاى) والأخرى فى غاية اللطف نظمها فى ذكرى صديقه القديم ميرزا جهانجير خان شيرازى صاحب جريدة (صور إسرافيل) ، وطبعت القطعة الأولى فى هذه الجريدة نفسها فى عددها المؤرخ ٢٠ نوفمبر ١٩٠٧ م ، وطبعت الثانية فى عدد مارس ١٩٠٩ م ، أما (بهار) ملك الشعراء فهو صاحب جريدة (نوبهار) أو الربيع الجديد ، والتى انتشرت باسم تازه بهار أى الربيع الجديد بعد توقفها ، وهو شاعر لبضع قصائد جميلة وردت تحت أرقام ٢٠ ،٢٤ ،٣٤ ،٦٣ ، ٤٧ ، فى كتابى الآنف الذكر ، الذى أدرجت فيه أيضًا أشعار لعارف تحت رقم ٣٣ وشعرًا لأشرف فى أرقام ٢٧،١٩،١٦،١٣،٩،٧،٤ ولا أعتقد أن شعر هؤلاء الشعراء وغيرهم طبع فى صور إسرافيل ونسيم شمال ونوبهار ، ولابد من جمعه ، وفى الصحف الحالية يوجد عمود خاص للأدب ينشر فيها مثل هذا الشعر ،

وقد وضحت بالتفصيل هذه النقطة ، وهى أن الشعر المعاصر عليه أن ينظم لكى يقع موقـــع الرضـا من الذوق الدائم الاتسـاع عامة ويعكس الأفكار المتزايدة للـشـعب ، ولا يختص بمدح ممدوحين معينين وأمراء ووزراء ونجباء .

المرحوم أديب الممالك

يلزم هنا أن نذكر كلمة عن أحد الشعراء ، وقد مات حديثًا وتتمتع آثاره بقدر وقيمة عند أبناء وطنه ، ولكنها فى غير متناول اليد وهو ميرزا صادق حفيد القائم المقام المعروف ولقبه أديب الممالك وتوفى فى ٢٨ ربيع الثانى ١٣٣٥ هـ (٢١ فبراير ١٩١٧ م) .
ولدى ثلاثة مصادر عن سيرته :

١- شرح فى مخطوطتى رقم ١٩ عن شعراء إيران الجدد (ص ٩٣ – ٥٠) .

٢ – نبذة فى العـدد العـشرين من الفــترة القديمة لصحيفة (كاوه) بتاريخ ١٥ أبريل ١٩١٧ م .

٣ – رسالة نشرت فى مطبعة (كاويانى) بتاريخ ١٣٤١ هـ / ١٩٢٢ م بيد ملك حسينى ساسانى ابن عم أديب الممالك ، وأعلن ناشرها أنه ينوى جمع أشعار هذا الشاعر ونشرها ، ويطلب من أى قارئ لديه نسخة من أشعاره التى لم تنشرها هذه الرسالة أن يرسلها إليه ليطبعها.

خدماته فى الكتابة الصحفية

أوردت موجزًا لسيرة أديب الممالك فى كتابى (صحافة إيران وشعرها الجديد) بمناسبة ذكر الصحف التى كانت تنشر بقلمه ، وهذه الجرائد التى نشرت فى أوقات مختلفة هى الأدب الصادر فى تبريز (٣٧ – ٣٨) ، ومـــشهد (ص ٣٨) ، وطهران (ص ٣٩) ، والتى تشـمل السـنوات مـا بين ١٣١٦ – ١٣٢٢ هـ / ١٨٩٨ – ١٩٠٥ م ، ثم جريدة الإرشاد الصادرة فى (باكو) كانت تصدر باللغتين الفارسية والتركية بعون

أحمد بيك أغا بيف قراباغى . ثم جريدة إيران الملكية (ص ٨٨- ٩١) التى نشرت شارك فى أصدرها فى ١٣٢١هـ / ١٩٠٣ -٤ م ، ثم عراق العجم ص ١١٨ - ١١٩ التى نشرت خلال عام ١٣٥٢هـ / ١٩٠٨ م ، وأخيراً صحيفة مجلسى (ص ١٣٢ - ٣) التى كان يكتب فيها فى عام ١٣٢٤ / ١٩٠٦ م ، ورد أشهر شعره فى هذه الصحيفة ص ٣٠٠ - ٣٠٢ .

ولد أديب الممالك فى ١٢٧٧ / ١٨٦٠ -١ م ويتصل نسبة بثلاثة ظهور بميرزا عيسى القائم المقام وبخمسة وثلاثين ظهرا بالإمام زين العابدين ، وبلغ فى ١٣٠٨ / ١٧٩٨- ٩٠ خدمة حسن على خان أمير العسكر فى تبريز وغير تخلصه من (بروانه) إلى (أميرى) للانتساب إليه ، وسافر فى ١٣١١ هـ / ١٨٩٣ -٤ م مع هذا الأمير إلى كرمان شاهان دار الترجمة ، لكنه عاد فى صفر ١٣١٤ (يوليو - أغسطس ١٨٩٦) الى أميرة بأذربيجان وغير بها قلنسوته إلى العمامة وصار معاون مدرسة (القمانية)، وبدأ ، يصدر جريدة الأدب وأدام أصدارها فى مشهد وطهران كما ذكرنا ، وساح خلال عام ١٣١٨ - ٢٠ هـ / ١٩٠٠ - ٢ م القوقاز وخوارزم (خيوة) ، ثم سافر إلى مشهد وعاد فى آخر عام ١٣٢٠ (مارس ١٩٠٣) إلى طهران وصار فى العامين التاليين (١٣٢١ -٢م / ١٩٠٣ - ٥ م) الكاتب المهم والمحرر الأول لجريدة إيران الملكية (إيران سلطانى وفى عام ١٣٢٣ / ١٩٠٥ -٦) أصبح مدير جريدة إرشاد (باكو) ثم غدا فى ١٣٢٤ - ١٩٠٦ م كاتبًا بجريدة المجلس التى كان أسسها ميرزا محمد صادق طبا طبائى ، وفى ١٣٢٥ - ١٩٠٧ أسس جريدة (عراق عجم) وشارك فى يوليو (١٩١٠) المهاجمين وطلاب الحرية أثناء فتح هران ، وعين فى رئاسة قضاء العراق ، ثم تولى المنصب نفسه فى (سمنان) وماتت ابنته الوحيدة فى ١٣٣٠م ، ١٩١٢ م . وبعد هذا بعامين عين مديراً للصحيفة الشبه الرسمية (آفتات) أو الشمس ، ثم فوضت إليه رئاسة القضاء فى يزد فى ١٣٣٥ هـ / ١٩١٦ م ، ولكن لم يمر وقت حتى أتى طهران ، ومات بها فى سن الثامنة والخمسين .

نقد شعره

لا تنحصر أهمية شعره – كما يرى خان ملك ابن عمه ورفيقه – فى أسلوبه البديع والمبتكر وحسب ، بل فى أنه يحكى أطوار الشعب الإيرانى وأخلاقه فى السنوات التى تغص بالحوادث ما بين ١٩٠٦ و ١٩١٢ م ، يقال إنه لم يبلغ فى الهجاء بعد (سوزنى السمرقندى) من الشعراء القدامى شاعر مثلما بلغ أديب الممالك ، ونشر خان ملك فى الرسالة التى نشرها مطالع جميع القطع التى بحوزته لأديب الممالك وأورد عدد أبيات كل قطعة وطلب ممن لديه شعر له ليس عنده هو أن يرسل به إليه قبل جمادى الأولى ١٣٤٢ هـ (ديسمبر ١٩٢٣ م) وهو التاريخ الذى حدده لطبع ديوان شبه كامل شعره . ونشرت جريدة (كاوه) الشعر الآتى ، وهو جزء من إحدى قصائده عن هجوم روسيا القيصرية وقارنت موضوعها بمضمون قصيدة سعدى الشيرازى التى أنشأها بمناسبة زوال الخلافة العباسية على يد المغول وشعر (الأنورى) فى هجوم الغز ، وشعر حافظ الشيرازى عن حرص تيمور وطمعه :

لما انفصل الحمل المسكين عن راعيه فلم يأتح

النوم فى الصحراء من الخوف ولم يهدأ

فقدم دب للصيد وأجهز عليه وصار حملنا طعمة لذاك الدب القوى

فأسفًا على هذا الحمل الصغير الغافل وتبًا لذا الدب العجوز الضارى

ذكر فى مخطوطتى رقم ١٩ فى ص ٤٤ أربع وأربعون تاليفًا من تآليفاته منها ديوان عربى وآخر فارسى ، ومجموعة مقامات ومعجم شعرى ، وكتب رحلات ، وبضعة كتب فى الفلك والجغرافيا والعروض وسائر العلوم .

الفصل الثامن

المذهب الشيعى وأئمته المجتهدون والمشايخ

المذهب الشيعى

كان من أهم نتائج تجديد المذهب الشيعى ونشره فى عهد الصفويين ظهور المجتهدين والمشايخ واستقرارهم ، وهم الذين يطلق عليهم السواح الغربيون– غالبا – اسم (القساوسة) ، ومع أن هذه التسمية لا تناسبهم تمامًا إلا أن استعمالها يقترن بالصواب فى حق الشيوخ الشيعة أكثر من العلماء السنة ، لأن هؤلاء السنة ما هم علماء بالأوامر القرآنية ومطلعون على القوانين الشرعية ، ولا يدعون أية قدرة سماوية أو نفوذًا خاصًا روحيًا كما يفعل المشايخ الشيعة .

أصل الاجتهاد

الخلاف الكبير الذى يشاهد بين العلماء السنة والشيعة يكمن فى موضوع الاجتهاد ، والاجتهاد هو الكشف والنشر الجبر للحقائق الجديدة الدينية المبنيين على فهم كلام الله المجيد والأحاديث والأخبار ، وهذا الكشف والنشر ينالهما الشيخ الشيعى بسعى وجهد فائقين ، والجملة الأخيرة هى المعنى الحرفى لكلمة الاجتهاد فى العربية[1] ، ومن يبلغ هذه الدرجة يسمى مجتهدا ورتبته تساوى تقريبا رتبة (الكاردينال)

(١) يرى ياسمى أن الاجتهاد فى اصطلاح علماء الشيعة هو استفراغ الوسع فى تحصيل الظن بأحكام الشرع بالأدلة الأربعة وهى : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والعقل .

فى المذهب الكاثوليكى ، أما السنة فلا يوجد فيهم مثل هذه الدرجات ، ويعتقدون أن باب الاجتهاد بالنحو الذى ذكرناه آنفًا قد أنسد بعد وفاة مؤسسى المذاهب الأربعة وهم أبو حنيفة (ت ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م) ، ومالك بن أنس (ت نحو ١٧٩ / ٧٩٥) ، والشافعى (ت ٢٠٤ / ٨٢٠) ، وأحمد بن حنبل (ت ٢٤١ / ٨٥٥) ؛ وبهذا فإن باب الاجتهاد الذى لا يزال مفتوحاً للناس فى عقيدة الشيعة قد أنسد فى عقيدة السنة منذ أكثر من ألف عام ، والمذهب الشيعى يفوق الذهب السنى بمراتب كثيرة من ناحية قابليته للتوافق واستعداده للتكلف والتلاؤم بسبب الإجازة بالاجتهاد رغم أنه من نواح أخرى أكثر محدودية وصرامة من المذهب السنى .

اجتذاب العلوم الدينية لأصحاب القرائح والطامحين

على النحو الذى سوف نثبته خلال هذا الفصل فإن القوة والمرتبة التى نالها الشيوخ فى العصر الصفوى قد صرف الشباب الذين كانوا يأنسون فى أنفسهم الاستعداد الوهبى والقريحة الذاتية للشعر والأدب وسائر العلوم عن هذه الفنون وشغلهم بالعلوم الدينية، وتعزى- إلى حد ما - قلة الشعراء وكثرة العلماء الدينيين فى العصر الصفوى إلى رفعة مكانة هؤلاء العلماء وظهور مجال لأهل العمائم ، أسس الملوك الصفوية الذين أطلقوا على أنفسهم بحب بالغ (كلاب على عتبة الأئمة الأطهار أو خدام للمذهب الاثنى عشرى) المدارس العديدة ، وكان كل طالب علم فقير وجائع يلتحق بهذه المدارس يتوقع - بلا شك - أن يغدو مجتهداً عظيمًا ، ويتملك مفتاح الحياة والممات للناس ، ويضحى مشمولاً بالاحترام الذى يساوى تقريباً جلال الملوك .

عدم الوصول لرجال الدين

لم تبتعد طبقة قط من الطبقات الاجتماعية الإيرانية عن متناول الأجانب كما ابتعد المشايخ ، وكل من يعلم الفارسية جيداً استطاع أن يختلط ليس وحسب بالحكام وأصحاب المناصب الحكومية المؤتنسين بالعادات والأفكار الغربية والمؤلفين معهم أكثر

من غيرهم من الطبقات ؛ بل تمكن من مخالطة أرباب الحرف والصناع وأرباب الأراضى والفلاحين والصوفية وأتباع الباب والبهاء والدراويش ، لكن قلة من الأوربيين هى التى استطاعت أن تختلط برجال الدين وتصادقهم .

قصص العلماء

ولفهم الحياة الخاصة لطبقة رجال الدين وإيثارهم العزلة وكيفية حياتهم ؛ فلن يجد على قدر علمى أفضل من كتاب متوسط الحجم وجديد التأليف واسمه قصص العلماء ، ومؤلف هذا الكتاب هو محمد بن سليمان التنكابنى المولود فى ١٢٣٥ / ١٨١٩ - ٢٠ وأنهى هذا الكتاب خلال ثلاثة أشهر وخمسة أيام وأتمه فى ١٧ رجب ١٢٩٠ هـ / ١٠ ديسمبر ١٨٧٣ م ، ويشمل سيرة (١٥٣) رجلاً من علماء الشيعة من القرن الرابع إلى الثالث عشر الهجرى ، وليس به أى ترتيب صحيح لا بالترتيب الهجائى لأسمائهم ولا بحسب تقدمه الزمنى .

جعل المؤلف سيرته فى المرتبة الرابعة وتجاوزت عشرين صفحة ، وذكر ١٦٩ كتاباً من تأليفه غير الشروح والتحريرات المختلفة الأخرى، وكنت قد طالعت فيما سبق أجزاءً من هذا الكتاب عن الشيخية والبابية ثم قرأته من أوله إلى آخره فى عطلة أو عام (١٢٩٣) ، واكتسبت من وسط الموضوعات التافهة والخزعبلات قدراً قيماً لا يمكن الحصول عليه فى كتب السير الأخرى ، ومع أن هذا الكتاب يتمتع بميزة أيضاً فوق قصص علمائه إلا أننى سأتريث بإيجاز عن كتب السيرة قبل أن أدخل فى شرح موضوع آخر:

علم الرجال أو كتب السيرة هو العلم بأحوال الأئمة والقواد ونقلة الأخبار ورواتها ويشكل جزءاً مهماً من علم الفقه ؛ لأن هذا العلم لازم لتفهم صحة الروايات أو سقمها، وكتب الرجال هذه منها عدد كبير فى المتناول .

نشر أسبرنجر Sprenger أحد أهم كتب الرجال وهو فهرست محمد بن حسن ابن على الطوسى الملقب بشيخ الطائفة (ت ٤٦٠ هـ / ١٦٠٤ م) ، ويحصى أربعة

كتب أخرى لها الدرجة نفسها من الأهمية هي أسماء الرجال تأليف الشيخ أحمد بن على البخاشي (ت ٤٥٥ هـ - ١٦٠٣ م) ومعالم العلماء تأليف محمد بن على بن شهر آشوب المازندراني (ت ٥٧٨ - ١١٩٢) - وإيضاح الاشتباه تصنيف حسن بن يوسف بن مطهر الحلّي (ولد ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م ومات ٧٢٦ - ١٣٦٢) ، ولؤلؤة البحرين وله جانب أخص وموضوعه أحوال علماء البحرين ومؤلفه يوسف بن أحمد بن إبراهيم البحريني (ت ١١٨٧ / ١٧٧٣-٤) ، وكتاب آخر يماثل هذا الأخير من ناحية اختصاصه بمكان واحد هو (أصل الأمل في علماء جبل عامل) تأليف محمد بن حسن بن على الحر العاملي المولود في ١٠٢٣٣ هـ / ١٦٢٣-٤م ، وألف كتابه في ١٠٩٧ / ١٦٨٦ ، وكل هذه الكتب مؤلفة بالعربية ، أما أقدم كتب الرجال بالفارسية وألف في (٩٩٠هـ / ١٥٨٢) م ، ولا يجدر إهماله فهو مجالس المؤمنين .

مجالس المؤمنين

مؤلفه سيد نور الله بن شريف المرعشي الشوشتري الذي قتل بتهمة ثباته على مذهب التشيع في ١٠١٩ / ١٦١٠-١١ ، ويتميز هذا الكتاب عن سائر الكتب المذكورة بالتفصيل وسهولة فهم العمة ، لكنه أورد سيرة عدد كبير من كبار الشيعة في اثنى عشر مجلساً لا الفقهاء وحدهم بل سائر الطبقات ، وليس من تابعي المذهب الاثنى عشر وحدهم بل كل من يعتقد بوجوب تولي على بن أبي طالب الخلافة مباشرة بعد الرسول .

روضات الجنات

من الكتب الجديدة في الموضوع نفسه التي ألفت قبل ستين عاماً بإيران فضلاً عن قصص العلماء الذي سبق ذكره لابد من ذكر ثلاثة كتب : الكتاب المفصل روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات بالعربية تأليف ، محمد بن باقر بن حادجي

زين العابدين الموسوى الخونسارى الذى يقص سيرته هو فى ص ١٢٦ – ٨ الجزء الأول فى عام ١٢٦٨ هـ / ١٨٦٩ م ، والسير التى رتبها هجائياً تشمل علماء المسلمين فى كل عصر ولا تنحصر فى الفقهاء أو أتباع المذهب الشيعى وحدهم ؛ فمثلا أورد سير صوفية كبار مثل البسطامى ، وإبراهيم بن أدهم ، والشبلى ، وشعراء عرب ، مثل – ذى الرمة والفرزدق ، وابن الفريد ، وأبى نواس ، والمتنبى ، والحلاج ، وشعراء فرس ؛ مثل : سنائى ، والعطار ، وناصر خسرو ، والرومى ، وفضلاء ، وعلماء كالبيرونى ، وثابت بن قرة ، وحنين بن إسحاق ، وابن سينا ، وغيرهم وفوق هؤلاء أورد نكر الفقهاء الشيعة حتى عهد قريب ؛ ولهذا فإن هذا الكتاب يحتل أهمية خاصة فى نظرنا .

نجوم السماء

والكتاب المهم الآخر المؤلف فى عام تأليف روضات الجنات نفسه (١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ – ٧٠ م) لكنه بالفارسية هو نجوم السماء ، ويختص بأحوال العلماء والفقهاء الشيعة فى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر الهجرية (١٥٩٢هـ / ١٨٨٢ م) ، وبترتيب تاريخى ، مؤلفه هو محمد بن صادقبن مهدى ، وينقص هذا الكتاب شأن سائر التأليفات الشبيهة له فهرست الأعلام أو حتى فهرست الموضوعات ، ولكنه بوجه عام يمكن أن تجد فيه قدراً كبيراً من المعلومات المفيدة .

كشف الحجب

الكتاب الثالث الذى أميل أن أتحدث عنه هنا على حدة هو كشف الحجاب والأستار عن أسماء الكتب والأسفار ، وورد بهذا الكتاب نكر الكتب ذات الأهمية الأولى، لكن يرى به قدر كبير من المادة العلمية عن أحوال الشخصيات كذلك ، درج فى هذا الكتاب أسماء وموضوعات خاصة بـ (٣٤١٤) كتاب شيعى بالترتيب الهجائى وبالعربية ، ومؤلفه هو سيد إعجاز حسينى المولود فى ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٥ م ، والمتوفى فى ١٢٨٦ هـ / ١٨٧٠ م ، وناشر هذا الكتاب وطابعه هو محمد هدايت حسين وجد

أصله المخطوط فى المكتبة القيمة فى (بانكيبور) ، وأعد بتشجيع أ. دنيسون روس فصول الكتاب للطبع وبادر إلى طباعته على نفقة الجمعية الآسيوية فى البنغال .

تذكرة للشعراء الشيعة

ويلزم أن ننوه هنا بشرح لكتاب عربى فى ذكر أحـــوال الشـــعراء الشيعة اسمه (نسية السحر فى من تشيع وشعر) بقلم يوسف بن يحيى اليمنى الصنعائى، وهذا الكتـاب نادر ، وعلى حـد علمى لم يطبع حـتى اليـوم ، ولحسن الحظ فـقـد وصلت إلى نصـــفه (من حرف الطاء إلى الياء) ، وينحصر فى ذكر الشعراء الذين نظموا بالعربية .

مقارنة المؤلفات المذكورة

من بين هذه الكتب يبدو روضات الجنات أثر علمية وأجدر بالإفادة ، أما العالمين بالفارسية وحدها ؛ فسوف يصادفون موضوعات مهمة كثيرة وبعض الأجزاء المزجية للفراغ والمضحكة فى مجال المؤمنين ونجوم السماء وقصص العلماء ، والكتب القديمة للرجال مثل كتاب الطوسى والنجاشى عامة كثيرة الجفاف والخشونة ، وهى تفيد فى المراجعة أكثر منها فى المطالعة ، ولأننا نهتم هنا بالفقهاء فى العصر الصفوى وبعده ؛ فنكتفى بكلمات يسيرة عن علماء الشيعة القدامى مع أن طلاب العلوم الشرقية من أوربا على علم بأسمائهم وألقابهم والتايخ التقريبى لحياتهم .

المحمدون الثلاثة مؤسسو الفقه الشيعى والكتب الأربعة

أهم العلماء القدامى فى الأخبـاء محـمـدون ثلاثة هم : الكلينى (محـمـد بن اليعقوب المتوفى فى ٣٢٩ هـ / ٩٤١ م) ، وابن بابويه (محـمـد بن على بن مـوسى المتـوفى فى ٣٨١ / ٩٩١ -٢) ، والطوسى (محـمـد بن حسن المتوفى فى ٦٤٠ /

١٠٦٧) ؛ الذى سبقت الإشـــارة إليه . الأول هو مؤلف الكافى) والثانى مصـــنف من لا يحضره الفقيه ، والثالث محرر الاستبصار وتهذيب الأحكام ، وتسمى الشيعة هذه الكتب عامة (بالكتب الأربعة) . واسم كتاب (من لا يحضره الفقيه) يـــشبه عبارتـنا المتداولة تقريباً ، وهى (كل إنسان ماضى نفسه Every man his own lawyer) ، ورد شرح تفصيلى لهذه الكتب الأربع فى كشف الحجب الذى سبق ذكره .

ثلاثة أسماؤهم محمد فى القرون الأخيرة

ظهر فى الأزمنة الأخيرة ثلاثة من العلماء أسماؤهم محمد وهم : محمد بن حسن ابن على الحر العاملى مؤلف كتاب أمل الآمل المذكور فيما سبق ، ومحمد المرتضى الذى يسمى عادة الملا محسن فيض وتوفى فى حدود ١٠٩٠ هـ / ١٦٧٩، ومحمد بـاقر مـجلسى (ت ١١١١ هـ / ١٦٩٩ – ١٧٠٠ م) ، ولكل من هؤلاء الثـلاثة كتـاب كبير ومفصل : الأول كتاب اسمه (الوسائل) ، والثانى (الوافى) ، والثالث (بحار الأنوار) ، ويجب بوجه عام تسميتها بالكتب الثلاث فى العهود الأخيرة .

اللغة العربية هى لغة تأليف الكتب الدينية

كل هذه الكتب السبعة التى تعد أساس الفقه والأصول والأحاديث والأخبار الخاصة بالشيعة ألفت كسائر تأليفات علماء الإسلام وفقهائه بالعربية ؛ لأن هذه اللغة فى الإسلام بمثابة اللغة اللاتينية فى مؤلفات المسيحيين الكاثوليك ، ولا يتسع هذا الكتـاب شرح أوسع لهذه الكتب المذكورة أكثر مما قدمناه ، ويلزم أن نتحدث عن الرسالات الفارسية المؤلفة فى الموضوعات الدينية لأن قبيل هذه الرسائل كانت الوسيلة الرائجة الفقهاء العهد الصفوى لترويج عقائدهم الديني ؛ة وارتهن نجاحهم أكثر بهذه الرسائل . ومع أنه من الواجب علينا وصف هذه التـأليف الفارســـية المذكورة ، لكننا لن نستطيع أن نقدم لها شرحاً يليق بها يذكر صاحب روضات الجنات عن كمال الدين

حسين الأردبيلى المعروف بالأخص المعاصر للشاه إسماعيل الأول (نقل أنه أول من صنف فى الشرعيات على مذهب الشيعة بالفارسية).

قلة الكتب الفقهية الشيعية فى أوائل الحكم الصفوى

رأينا من قبل كيف واجه الشاه إسماعيل وقت فتحة تبريز بشأن العثور على المعلمين والكتب بهدف نشر وتعليم للمسائل وأصول العقائد لذلك المذهب الذى كان ينوى إقراره مذهبًا رسميًا لسائر البلاد ، ومع أن هذه الفكرة لم تكن مستحسنة لدرسه، لكنه أقدم عليها وهى ضرورة دعوة هؤلاء العلماء الفضلاء الشيعة العرب إلى إيران؛ لأنهم افتقدوا بإيران تماما ، وكان أغلب هؤلاء العلماء العرب الشيعة قاطنين إما فى البحرين فى الخليج الفارسى أو فى جبل (عامل) فى الشام ، وقد صنف كما ذكرنا كتاب عن علم البلدين : أولهما (لؤلؤة البحرين) ، وثانيهما :(أمل الآمل) الجزائرى بصحبة أخيه شيراز تعلم من أحد معارفه عبارة (مدرسة منصورية راميخواهم) أى أريد المدرسة المنصورية ، وكان يحاكيها محاكاة الببغاء هو وأخوه فى سؤالهما عنها .

سيرة واحد من طلاب العلوم الدينية

نقابل ضمن سيرة أحوال سيد نعمة الله الجزائرى هذا حسبما ورد فى قصص العلماء أموراً دقيقة وغير متوقعة هى نموذج للمشقة والضربات التى تحل بطلاب ذاك الزمان فقد ولد المذكور فى (١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ – ١ م) وألف سيرته فى التاسعة والثلاثين من عمره ويقول : (فى هذا العمر القصير كم حدثت لى من مصائب جمة) ، وبداية هذه المصائب من السنة الخامسة من عمره حين كان يشارك رفاقه الصغار اللعب فأتاه أبوه وقال له : (هلم يا ولدى لكى نذهب إلى المعلم ؛ ونتعلم الكتابة حتى تصل أعلى الدرجات) .

الخطوات الأولى فى طريق التحصيل

وأجبر سيد نعمة الله على الذهاب إلى المدرسة رغم بكائه واستغاثته بوالدته ، وكان بمجرد انصرافه من الدرس وعودته إلى اللعب مضطراً إلى متابعة دروسه بدقة واهتمام شديدين حتى إنه ختم القرآن فى سن الخامسة والنصف ، وقرأ بعض الشعر ، لكن هذا التقدم لم يغير شيئًا من وضع حياته ولم يصرفه عن اللعب ؛ لأنهم أودعوه لدى أحد علماء الصرف العميان لكى يعلمه أمثلة الزنجانى وصرفه لأن سيد أصبح عمله هو أن يمسك يد هذا المعلم الأعمى ويقوده ؛ فكان المعلم يجبره على أن يبعثه لجمع العلف لحيواناته وإعداد أوراق التوت لإطعام دود قزه ، ثم انتقل إلى معلم آخر وانشغل بتحصيل (كافية) ابن الحاجب ، وكان هذا المعلم رجلاً فاضلاً أبيض اللباس وعلى رأسه عمامة عظيمة (كأنها قبة صغيرة) ، ولم يستطع أن يجيب عن أسئلة تلميذه فقال له الطفل: (إذا لم تكن تعرف صيغ الصرف ، لماذا وضعت على رأسك هذا الحمل الثقيل ؟ فضحك الحضار وخجل المعلم ونهض عنه وانصرف ، ويقول سيد: (وحتى ما حدث على أن أتعلم جاهداً صيغ الصرف ، وأنا الآن إستغفر الله عن سؤالى هذا الرجل المؤمن ، لكنى أحمد الله أن ما وقع حدث قبل بلوغى وتكلفى بالتكاليف الشرعية).

مشقات السفر فى طريق العلم

واستأذن والده بعد أن تعقب تعلمه على يد عدة من المعلمين فى الاتجاه إلى (الحويزة) لدى أخيه الأكبر ؛ فركب سفينة وعبر بها ترعًا ضيقة كانت أشجار الغاب تحجب شطآنها ، ويقول سيد : (وكان يخرج من الماء بعوض كثير كان الواحد مثل النحلة) ، ولم يكن يسد ريقه غير تجرع لبن الجاموس الذى لم يكن معه غيره فأحس لأول مرة مرارة السفر وشدة المصائب التى كانت تواجه الدارس ، وقرأ شرح الجامى وشرح الجاربردى على الشافية على يد أستاذ ، وكان هذا الأستاذ يكلفه كثيراً من المشاق فقد أمر كل تلاميذه إلى الاتجاه إلى الشاطئ وقت قضاء الحاجة والإتيان بأحجار معهم لكى يبنى بها داره ، وكان هذا الشيخ يحمل كلا من تلاميذه أحمالاً على

عوائقهم فى كل مرة كان يتجه بهم إلى الحويزة العتيقة من مثل الأسماك وغيرها، وإذا كانوا يودون نقل الدروس عنه لم يكن يسمح لهم ، لكنهم كانوا ينسخونها بدون علمه ، ويقول سيد: (كانت هذه أحواله معنا وكنا مع هذا راضين نهاية الرضا على أن نقوم بخدمته حتى نستفيض من بركات أنفاسه الشريفة) .

التحصيل والمشقة

" فى أكثر الأوقات كنا نمكث بالمدرسة للمباحثة حتى الظهر ، وكنا إذا ذهبنا إلى منزل هذا الشيخ بطوناً خاوية من الطعام ؛ فكنا نظل بلا طعام إلى الليل، وكان رفيقى يقنع بقشر الشمام الملقى على الأرض والملوث بالتراب ، وكان يخفى هذا عنى خجلاً وحياء ، وكنت أنا الآخر أفعل فعله نفسه ، فرآنى رفيقى أتناول هذا القشر ؛ فضحك فسألته عن سبب ضحكه فقال : أنا أيضاً على هذه الحال نفسها ، ثم قال : إذن نجمع كل يوم معاً قشر هذا الشمام ونطهره بالماء ونأكله ، كنا ندرس على ضوء القمر ، وكنت قد استظهرت فنون الكتب مثل ألفية ابن مالك والكافية وغيرها ، فكنا نستذكر الدروس فى الليالى المقمرة ونكرر ما حفظناه من المتون فى الليالى المظلمة حتى لا ننساها ، كنت أظهر أننى مصاب بالصداع لا شىء إلا لكى أتجنب رفاق الدرس من الحديث معى، وأضع رأسى بين ركبتى وأقرأ سراً هذه المتون " .

من البصرة إلى شيرزا

وبعد مكث أربعة أيام لدى أهلى صممت على الذهاب إلى شيرزا ؛ فاستقل قارباً من شط العرب إلى البصرة ، وكان يخشى أن يطلبه أبوه ويجبره على العودة ؛ فكان يخلع ملابسه أغلب الوقت وينزل الماء ويراعى دفة السفينة حتى لا يراه أحد كما تظل السفينة فى تحركها ، فإذا انطوت مسافة طويلة واطمأن الركاب صعد هو على ظهرها وارتدى ملابسه ، وفى أثناء الطريق رأوا جماعة على الشاطئ فصاح شيخ من رفاقه على من بالشاطئ : هل أنتم من السنة أو من الشيعة ؟ فردت تلك الجماعة : نحن من

السنة فأخذ هذا الشيخ يلعن الخلفاء الثلاثة ويسبهم ؛ فبادلتهم تلك الجماعة السباب وألقوا عليهم من الشاطئ الأحجار وأصابوا السفينة .

فى مدرسة شيرزا

مكث سيد وأخوه فترة قصيرة فى البصرة ، وكان حاكمها حسين باشا(العثمانى) فأتى والدهما لإعادتهما إلى الجزائر ؛ فأبديا طاعتهما لكنهما تسللا غفلة ، وركبا سفينة وسلكا- كما ذكرنا - طريقها إلى شيـــرزا واستقرا فى المدرسة المنصورية . ولم يتعد سيد إذ ذاك الحادية عشر من عمره ، فذهبا لدى أســـتاذ يدرس ألفية ابن مالك ، فلما فرغ من درسه وعلم بحالهما نهــض وأستاق سيد إلى ظهر عمود وعرك بشدة أذنه ، وقال لا تحسب أيها الصبى نفسك شيخ العرب وتحب الرئاسة . ولا تضيع وقتك وإلا لن تصبح رجلاً فاضلا .

كان حياتهما بالمدرسة صعبة أيضًا ، وكان معاشهما اليومى قليلا وحقيراً حتى أراد أخوه العودة إلى الجزائر بالعراق ليتخلص من ضيق المعاش ، لكن سيد صمم على البقاء والتعيش بأجر الكتابة ، وكان يقضى وقت الصيف حين كان الطلاب يصعدون بأعلى المدرسة وينامون على سقفها ويجلسون عليه فى حجرته ؛ حيث تنعدم القناديل والطعام حين الاستذكار ، فكان يراجع دروسه على ضوء القمر ويقاوم الجوع ، وكانت أصابعه تدمى فى الشتاء بسبب البرودة ، وهو ينسخ الحواسى والدروس إلى أن مرت ثلاثة أعوام على هذه الحال ، ومع نحافة جسمه فقد بدأ يؤلف (مفتاح اللبيب فى شرح تهذيب الشيخ بهاء الدين محمد) وشرحا على الكافية ، وقد تجاوزت دائرة تحصيلاته فى ذلك الوقت النحو والصرف العربى وحضر حوزة دروس معلمين وأساتذة كبار من الأحساء وبغداد والبحرين كان منهم الشيخ جعفر البحرينى .

معلم قاس

وحدث يومًا أن وصلهما نبأ موت جماعة من أقاربهما وأعمـــامها فجلسا للعزاء؛ ولم يذهبا إلى مجلس الدرس ؛ فتفقدهما الأستاذ فقالوا له عن مصيبتهما ، فلما حل اليوم التالى وذهبا إلى الدرس لم يرض الشيخ بالتريس لهما وقال : (لعن الله والدى أن درسـت لكما ، لماذا غبتما بالأمس ؟) ، فحـكى سيد عما حدث لهما فأجاب الشيخ (كان من الواجب أن تأتيا أولا إلى الدرس ثم تنصرفا بعده وتقومان بالعزاء)، ولم يرض الشيخ بالتدريس لهما إلا عندما أقسم التلاميذ على ألا يقطعوا الدروس ويتغيبوا عن مجلسهما ولو وقعت المصائب . لكن سيد صار فيما بعد محل اهتمام هذا المدرس القاسى حتى أراد أن يزوجه من ابنته ، لكن سيد اعـتـذر عن قـبـول هذا الشـرف قائلاً : (بعد أن أصير عالما بإذن الله وأفرغ من التحصيل ؛ فلسوف أتزوج) ولم يمر وقت طويل حتى سافر هذا الأستاذ إلى الهند وعلا أمره فى حيدر أباد .

حياة طالب فى شيرزا

مكث سيد نعمة الله تسع سنوات فى شيرزا ، وكان رهن الشدة والأعواز أكثر وقته بها حتى إنه لم يكن يجد غير الماء القراح لسد رمقه . وكان له صديق له منزل بنواحى شيرزا ؛ فكان ينام عنده لكى يتمكن من المطالعة على ضوء قنديله . وكان عليه أن يوجد أواخر الليل فى مكان الدروس ، وكان مكان الدرس بآخر المدينة ؛ فكان يستيقظ ويسلك طريقه فى جنح الظلام وحيداً ويمر بين الأسواق المظلمة والخالية ، وكان ينشد الشعر بصوت مرتفع إذا مر قرب محلات البقالة حتى لا تظن الكلاب أنه لص فتهاجمه ، وكان يصطنع مع كل كلب حيلة حتى ينجو منه حتى يصل فى النهاية إلى مسجد قبل طلوع الفجر ويحر الدرس ، وأصر والده على العودة إلى الجزائر ؛ فعاد وتزوج ، لكن أحد الفضلاء ذهب إلى زيارته ولامه بسبب زواجه وهو لم يكمل علم الحديث ، فترك سيد زوجته وأسرته وعاد إلى المدرسة المنصورية بشيرزا مع أنه لم يمر على زفافه أكثر من ثلاثة أسابيع . واشتعلت النيران بعد ذاك بشهر فى المدرسة المنصورية واحترق أحد طلابها كما صارت بعض الكتب طعمه للنار ، وفى هذه الحال

وصله نبأ وفاة والده ؛ فاضطرته هاتان المصيبتان وسائر الحوادث غيرها إلى ترك شيرزا والتوجه إلى أصفهاني .

تعرفه على الملا محمد باقر مجلس

ابتلى فى أيام مكوثه بأصفهان الأولى ثانية بالفقر والعوز الذى تعود عليه فيما سبق من سنواته ، فكان يعمد إلى أكل الطعام المالح لكى يملأ بطنه بامـلاء ، يتناول ما يملأ بطنه من ثقيل حتى ساعده الحظ ونال معرفة الملا محمد باقر مجلسى وكان أحد كبار العلماء ومتعصبيهم وربما أكثر الشيوخ الشيعة مقدرة ، واستقبله مجلسى بداره وراعاه أربع سنوات علمه الحديث ، لكن العلاقة والقربى بينهما لم يمنعاه من احترامه والخوف منه ، يذكر سيد فى (أنوار النعمانية) : مع أننى كنت موضع الاهتمام الكامل لهذا العالم الكبير ، لكنه كان يستدعى كل وقت إلى مكتبته حتى أحادثه أو أعاونه فى تأليفه كتابه الكبير (بحار الأنوار) ، وكان مضطر قبل دخول مكتبته إلى الوقوف.

حصوله على منصب التدريس فى أصفهانى

صار - بمساعدة هذا النصير القوى - سيد مدرسًا بالمدرسة التى كان أسسها من فترة حديثة ميرزا تقى قرب حمام الشيخ بهائى بأصفهان ، وظل يعمل بالتدريس بها نحو ثمانية أعوام ثم أضطر إلى السفر عنها بسبب اشتداد ضعف عينيه وعجز أطباء العيون فى أصفهان عن معالجته ، وزار السامره والكاظمية وسائر الأماكن المتبركة بالعراق وعاد عن طريق شوشتر إلى أصفهان . وفقد أخاه فى عام ١٠٩٧هـ / ١٦٦٧-٩م وظل متأثرًا لهذه الحادثة حتى وقت كتابته لسيرته هذه أى بعد وفاة أخيه بنحو عشرة أعوام ، ورجع بعد زيارة مشهد إلى الحويزة وركن إلى العزلة ، وتمتع أثناء تحريره هذه السيرة (١٠٩٧ / ١٦٦٨-٩) بحياة هادئة ومستقرة . ولا نجد بعد هذه السنة شيئًا من سيرة سيد مهما ، أما عن تاريخ وفاته فالمعلوم أنه مات عام (١١٣٠هـ / ١٧١٨ م) أى قبل هذه الواقعة المهولة التى أنهت الحكم الصفوى بأربعة أعوام .

قيمة هذه السيرة الذاتية

سقت خلاصة لكامل هذه السيرة المفيدة والمشوقة ومثل هذه الوثائق الشخصية نادرة جداً فى الكتب الفارسية ، وقد وجدت من الضرورى تلخيص هذه السيرة وإثباتها مع أن أصلها بالعربية كما أشرت من قبل ؛ لأنها توضح بجلاء حياة طلاب العلوم الدينية التى تشبه - بتغيير بسيط - حياة الطلاب الأوربين فى القرون الوسطى ، ورأينا أنه كان يمنع فى طفولته من اللعب والأعمال الخاصة بالأطفال قبل الأوان ويدفع إلى تحصيل الكتب الصعبة والجافة والطويلة العربية ويجبر على تعلم الصرف والنحو العربى الذى يتزايد أشكاله وغموضه ويجبر على مدارسة الشروح وشروح الشروح والتفاسير والحواشى . ورأينا أنه انشغل مع صغر سنه بعشق التحصيل ، وكان يجتهد فى تكميل معلوماته فى العلوم الدينية والشرع الإسلامى وكيف أنه عاش جائعًا وفى برودة الشتاء وحرارة الصيف وأضاع نور بصره بسبب مطالعة المتون السيئة الخط والمعقدة على ضوء نور القمر الضعيف ، وأفسد قوته الهضمية بتناول الطعام غير المناسب والمنتظم وبعد جوع يفوق الطاقة ، وانفصل عن حياته الأسرية وعلاقاته بأقاربه وسقط فى محيط من التعصب والتعلق بالشكليات ، ورأيناه هو نفسه أنه أضاف حواشى وشروحا إلى عدد من حواشى الكتب كانت تزاد حيثما تطلبت مواضع من المتون الإيضاح لمشكلها وغموضها ، ثم رأيناه فى النهاية أنه صار موضع اهتمام أحد الشيوخ الأقوياء الشيعة بالصدفة وصار مدرسًا أو متوليًا أو مجتهداً محليًا مع أن طرق طالب العالم كان وعرا وقاسياً ونادراً ما كان ينتهى بسالكه إلى مقصوده ، لكن إذا واتاه حظه كان يلقى إزاء نصبه المكافأة الكبرى .

مرتبة المجتهدين فى عهد الصفويين وخلفائهم

كان المجتهد يعد نائب الإمام المنتظر فى نظر السلاطين الصفويين هذا الإمام المنتظر هو الذى نكر اسمه رد السامعون بقولهم (عجل الله فرجه) كان المجتهد يتصرف فى أرواح الناس وأجسادهم ، ويحكى الحاج سيد محمد تقى رشتى الملقب

حجة الإسلام : أنه قتل بنفسه بضعة رجال تهمة الزندقة والمعاصى المختلفة ، وفى أول مرة له لما لم يجد من يساعده فى تنفيذ حكمه قام هو بنفسه بإنزال أول ضربة سيف على عنق المدان ، لكنه لم يؤثر فيه فأتاه رجل لمعونته وفصل عنق المدان ، وأقام المجتهد بعد ذلك صلاة الميت عليه واعتراه الذهول لشدة اضطرابه ، ومجتهد آخر هو أغا محمد على المعاصر لكريم خان الزندى لقب بقاتل الصوفية من كثرة من حكم عليهم بالقتل من العارفين والدراويش وشفع أحد حاشية الشاه عباس ، وكان قد قتل كثرة من الناس الملا أحمد أردبيلى المعروف بالمقدس (٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م) لكى يعفو عنه الشاه ، فكتب المقدس هذه العبارات التالية إليه : (يعلم مؤسس هذا الملك الغضب عباس أن هذا الرجل يبدو مظلومًا مع أنه كان ظالمًا فى أول الأمر فإن تعف عنه فلعل الله تعالى يعفو عنك أنت أيضا . كتبه أحمد الأردبيلى عبد ملك الولاية) .

شراء قصر فى الجنة

والأغرب من هذا القصة التالية الواردة بقصص العلماء (طبعة لكهنو ، ص ٣٢): وهى أن الأمير محمد على ميرزا وهب اثنين من المجتهدين ألفى تومان مقابل كتابتهما وختمها دعاء يعد أنه فيها بقصر فى الجنة أحدهما سيد رضا بن سيد مهدى تردد أولاً فى الأقدام على هذا الفعل ؛ لكن الأمير قال: (أكتب العقد فى هذا الطلب ثم يختمه علماء كربلاء والنجف وأقبله ، وسوف أطلبه من الله تعالى) ، وكثير من مثل هذه الحوادث يمكن ذكره كتسبه كرامات أخرى لأغلب العلماء والمجتهدين ، لكن يكفى ما ذكرناه للتدليل على القوة الزائدة الوصف للعلماء ؛ فقد كانت قوة أحدهم تفوق قدرة الوزير ولو أراد أحد الوزراء المقربين يقلد أحدهم فى أقل تصرف له لصار موضع نقمة الشاه وسخطه ، ولا ينحصر هذا الأمر بالعهد القديم بل إن قصة إلغاء امتياز التبغ والطباق فى عام (١٩٨٠- ١ م) معروفة مشهورة ، مما سبق يتبين قوة المجتهدين والشيوخ العظمى ومع أن قوتهم اتجهت إلى الضعف بالفعل ؛ فإن هؤلاء المجتهدين لا يزالون يتدخلون فى جميع أعمال الشيعى وتكليفاته من أقل أعمال الطهارة الشخصية حتى أعظم الأمور السياسية .

الفتوى

يمكن لأى مسلم شيعى أن يعرض المشاكل التى يناط حلها بالمذهب – وفى أى شأن يتعلق فى الواقع بالمذهب – على أحد المجتهدين ، ويطلب منه القرار الشرعى أو فتواه طبقًا للمذهب الشيعى ، وقد زادت إقامة العلماء والمجتهدين فى كربلاء والنجف وخارج حدود ايران من حصاتهم بشكل أعظم ، كان تحطيمهم أو أضعاف شأنهم حلم كثيراً من سلاطين إيران قبل الصفويين وبعدهم ، لكن إجراءات لتحقيق هذا الحلم قل أن بلغت مقصودها .

محاسن رجال الدين وعيوبهم كالحسد وقبح المسلك

مع أن دراساتهم عامة محصورة فى دائرة ضيقة ، لكنها تقترن داخل هذه الدائرة نفسها بالصحة وترتفع إلى درجة النقد والتمحيص ، وأكثر فضلاء دقة أعرفه هو ميرزا محمد بن عبد الوهاب القزوينى الذى حصل علمًا كاملاً بأساليب النقد الرائجة فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وأحكمها على أساس دراساته الدينية التى ذكرناها الآن إلا أنه علاوة على فساد بعض الشيوخ منهم وتعصبهم ؛ فقد صار بعضهم ألعوبة الحسد غير اللائق وانشغل بتحطيم غيرهم . وتدل الحكاية المشهورة فى تاريخ إيران للكم خان (١/ ٢٥٨ –٩طبعة ١٨١٥ م) وقصص العلماء (٢/ ص ٢٦ –٧ طبعة لكهنو) على أن علماء كبار مثل ميرداماد وبهاء الدين العاملى كان بإمكانهما الارتقاع عن هذه الصغائر والشيم البذيئة ، لكن زملاء هذين العالمين – بقول صاحب قصص العلماء الذين لم يبلغوا علومهما وطبعها لم يتورعوا من أن يخاطب بعضهم البعض بالسفيه والحمار وإنزال الوهن بطبقتهم وتهيئ أسباب سرور الملحدين والكافرين ورضاهم ، ومع أن هذا السباب والوقاحة كانت تلف حينا بلباس الاستعارة والتورية ، لكنها لم تقل عنفًا وفظاظة منها هذا البيت الشعرى :

ولست جديراً أن تكون مقدمًا
وما أنت إلا نصف جند المقدم

ضـد المقـــدم هو المؤخر والنـصف الثانى لـــ (مؤخر) هو (خر) أى حمار ، لو أراد القراء الوقوف على أسوأ وأعنف من هذا فليراجعوا مطايبات ملاميرزا محمد شيراونى أغا جمال أصفهانى التى وردت بقصص العلماء ، ويروى فى الكتاب نفسه واقعة شائقة عن جمال الدين خونسارى تبين أن بعض الشيوخ وصف غيره بمحدودية الفكر ، ولم يقف على ضيق فكره وقريحته ، كان الشيخ جمال يتقاضى من الشاه سنويا أربعة آلاف تومان لكى يصدر فتاواه وأحكامه ، فأتاه أربعة رجال وسألوه أربعة أسئلة فرد عليهم بقولة (لا أعلم الآن) ، فقال أحدهم وكان من أعيان الدولة : أنت تتقاضى سنوياً أربعة آلاف تومان لكى تعلم وأنت تجيب (أنا لا أعلم) فى مجلسك هذا إذا سألك أحد ؛ فقال جمال : أنا أتقاضى أربعة آلاف تومان مقـــابل ما أعمله ، ولو تقاضيت مقابل ما لا أعلمه ؛ فلن تكفيى خزانة الملك .

الإخباريون والأصوليون

يشكل الفقه والعقيدة وما يتعلق بهما من علوم تستلزم إتقان اللغة العربية المواد الأساسية لعلوم المشايخ ودراساتهم، لكن كل طبقة بعد معلومات تمهيدية يميل إلى تخصص محدد ؛ فمثلاً القضاة أكثر بالفقه ويميل الأصوليون إلى علم الأصول ، كذلك سادت الخصومة العارمة بين الأصوليين – وهم الأقوياء الآن – والإخباريون الذين ليس لهم الآن منزلة ومرتبة لوجود الامتياز والافتراق الكامل بين الجماعتين ؛ فالأصوليون كما يدل اسمهم هو اتبا ع الأصول العامة المستخرجة من كلام الله والأحاديث المعتبرة ، ويتذرعون بالاستنباط للوصول إلى النتائج ، أما الإخـــباريون فلا يتبعون غير الأخبار ويبطلون القياس ، ويعد الملا محمد أمين بن محمد شريف أسرابادى (ت ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣-٤ م) بوجه عام مؤسس المذهب الإخبارى ، وهو كما يذكر صاحب لؤلؤة البحـــرين (طبعة بمباى ، ص ١٢٢) أول من فتح باب اللوم على المجتهدين نجد أن الفرقة الناجية الاثنى عشرية انقسمت إلى شعبتين هما الإخباريون والمجتهدون . ويتحدث كتاب الملا محمد أمين المسمى بفوائد المدنية فى أغلبه من لوم المجتهدين وتأنيبهم ويتهمهم بتخريب التشيع الدين الحق وتضييعه ، وأحد علماء

الأخبار – وقد كان يعيش فى القرون التالية – وهو ميرزا محمـد الإخبارى البحرينى تحكى هذه الواقعة الآتية كرهه للمجتهدين .

احتلال الجنرال الروسى

" لما وقع الخصام بين فتح على شاه والقيصر الروسى واستولى أشبختر القائد الروسى على بعض ولايات إيران الحدودية ، وكان يخرب كل مدينة يبلغها اضطراب فتح على شاه ، وكان ميرزا محمد الإخبارى يقيم بطهران فقدم إلى الشاه ، وقال سوف أحضر إليك رأس أشبختر[١] خلال أربعين يوماً بشرط أن تزيل مذهب المجتهدين وتتركه وتقتلع جذور المجتهدين وتنشر المذهب الإخبارى ، فقبل الشاه ومكث نيرزا محمد أربعين يوما ختم فيها القرآن وترك الحياة ، وأعد وجها من الشمع وضرب بالسيف عنقه، فلما انقضت المهلة وحل اليوم الأربعون عقد فتح على بلاطه وأتى برأس أشبختر فى ذاك اليوم نفسه ؛ فشاور الشاه أمناء فاعترض هؤلاء قائلين : إن مذهب المجتهدين مذهب كان منذ عهد أئمة الهدى حتى اليوم وهم على الحق والمذهب الأخبارى نادر وضعيف ولا يمكن تحويل الشعب عن مذهبه فى بداية الحكم القاجارى ، وربما صار هذا سبب اختلال أحوال السلطان ودولته . فضلاً ما أكثر أن يخاصمك ميرزا محمد ويتعاون مع خصمك ويعاملك بهذه المعاملة نفسها التى عامل بها اشبختر والصلاح أن تعطيه مالا وتعتذر إليه وتأمره بالاتجاه إلى العتبات ليسكن بها ؛ لأن وجود مثل هذا الرجل فى العاصمة ليس من صلاح الدولة فقبل السلطان هذا الرأى" .

المشايخ القشريون وذوو المشرب المتسع

يسمى الإيرانيون الشيوخ الشديدى التعصب والتشدد والمحدودى الفكر بالقشريين أو السطحيين والإخباريون على وجه الخصوص من هؤلاء الطبقة كذلك عدد

(١) (أشبختر) نطق الروس لكلمة inspector ، واسمه سيانوف وكان من كرجستان .

من الأصوليين من مثل ميرزا إبراهيم بن الملا صدرا المعروف أحد أساتذة سيد نعمة الله الجزائـرى ؛ فقد كان هذا الرجل يقول مادحاً نفسه : إن اعتقادى مثل اعتقاد العامة ، وكذلك الـشيخ ملا على موزى الحكيم الذى كان يدعو دائماً : اللهم أمتنى على عقيدة العوام ، لكن على النقيض يمكننا أن نحصى علماء ذوى أفكار أكثر انفتاحاً وطبعوا عقيدتهم الدينية بمذاق الحكمة العرفان ويسمى هؤلاء بالمتكلمين ، وقد سعوا إلى التوفيق بين الدين والفلسفة وهم يشبهون كثيراً (المدرسيين) فى القرون الوسطى الغربية ، وعلاوة على هذا ، فقد كان من زمرة الفلاسفة من يستحق اسم الفيلسوف فى الواقع من مثل الملا صدرا الشيرازى وغيره الذين وإن لم تتفق آخر نتائج أفكارهم واستدلالهم كامل الاتفاق مع الشرع ، لكن أسـلوب تعليـمهم ونوعية معارفهم كانا ما كان للعلماء ، وكانوا غالباً يظهرون من هذه الطبقة نفسها .

الآثار المكتوبة لطبقة العلماء

بقى بالطبع كثيراً من آثار هذه الطائفة الكبيرة والنشطة بالفارسية والعربية على السواء ، لكن من الصعوبة والموهة والفنية ما يصعب قراءتها على غير العاطلين ، ويقول صاحب مقص العلماء إن العلماء تطول أعمارهم ، ولما أنهم بالقاعدة وحسب العادة هم منزوون ومنشغلون بالمطالعة ويمضون شطراً عظيماً من عمرهم فى التأليف فلا غرو أن يترك كل منهم مائة أو مائتين مؤلفاً من الكتب والرسالات . والتمثيل يحصى صاحب قصص العلماء ٦٩ كتاباً من تأليفه هذا خلاف الشروح والحواشى والتحريرات الموجزة . ويذكر ٦٩ كتابا من آثار ملا محسن فيض ، ويذكر أن مجموعة مؤلفاته تقترب إلى المائتين وبلغت تأليفات محمد بن على بن بابويه الملقب بالصدوق ١٨٩ كتاباً ، وقس على ذلك . وكثيرا من هذه المؤلفات لا قيمة لها فى الواقع ولا قدر ، وهى عبارة عن مذكرات وشروح وتفسيرات نحويه ومنطقية وقضائية وصارت النصوص التى وضعت لها هذه الحواشى غير المرتبة والمتعبة أتعاباً أكثر صعوبة وأشكالاً عن ذى قبل ، وكان المرحوم الشيخ محمد عبده المفتى الأكبر للديار المصرية ورئيس الأزهر – وهو أحد أكبر علماء عصرنا وأعظمهم تنوراً – يقول بشأن المؤلفات نفسها : يجب أن تلقى طعمة للنار ؛ لأنها تمتع من تسب العلم ، ولا تعد عوناً ووسيلة له .

والكتب الفقهية بدورها - حتى أفضلها - هى بعامة غير مفهومة لدى غير المسلمين ، وما يدرس فى المعاهد العليا فى إنجلترا باسم (الفقه الإسلامى) إنما هو قسم من الفقه الذى يجرى ويتداول فى البلاد الإسلامية وتسمى اصطلاحاته بالأحكام والفرائض، ولا يشمل الفقه الحقوق المدنية والجنائية بل يحوى شرح التكاليف الشخصية مثل الصلاة والصيام والحج والجهاد وهى العبادات، هذه العبادات نفسها بشعبها المختلفة وفروعها المتداخلة تشكل تقريباً نصف كتب الفقه

وما يثير العجب أنه مع غفلة مثقفى الغرب عن الشرع الشيعى فإن أخذ أفضل الكتب الأوربية المتعلقة بالفقه الإسلامى تبحث قوانين التشـــيع ، وهذا الكتاب من تأليف (أمدى كورى) amedee querry ، واسمه الحقوق الإسلامية ومنتخب القوانين المتعلقة بالمسلمين الشيعة ، ومن يرد من الرقاء الأوربيين الاطلاع على هذه الموضوعات والوقوف على تفصيلاتها المتداخلة التى يبدو بلا معنى وفائدة فى أعين الأوربيين فيلزمه مراجعة هذا الكتاب المعتبر ، وأساس كتاب كورى هو كتاب شرائع الإسلام فى مسائل الحلال والحرام تأليف عالم الشيعة المعروف نجم اليد أبى القاسم جعفر بن الحسن الحلى المشتهر بالمحقق الأول المتوفى فى ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م ، وقد نجح كور نجاحًا باهرًا فى القيام بهذا العمل الشاق المنهك فى مهارة وأستاذية لا نهاية لهما حين رجع إلى التصنيفات المعتبرة التى يذكرها فى المقدمة كتابة وكذلك إلى الفقهاء المشاهير فى عصره ، وعن طريق إقامته اثنين وعشرين عاماً فى إيران وتركيا، ونيل مناصب رسمية من قبيل عمله مستشاراً فى سفارة فرنسا فى طهران وغيرها ، وقد زاد فهرست المصطلحات العلمية التى لحقت بالعربية نهاية كتابة من أهمية هذا الكتاب وقيمته بلا حدود .

السؤال والإجابة

تحسن الإشارة فى هذا الموضوع إلى رسالة السؤال والإجابة الفارسية المتعلقة بالمسائل الفقهية ومؤلفها هو المجتهد حاجى سيد محمد باقر ؛ الذى سبق ذكرنا

لفظاظته فى تنفيذ الحدود الشرعية وإيقاع القتل بالمذنبين والمهدرة دماؤهم ، ألف هذه الرسالة بعد عام ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م وطبعت عام ١٢٤٧ / ١٨٣٢ ، ويبدو أن مكان طبعها هو أصفهان وطابعها هو ميرزا زين العابدين تبريزى الذى أدخل الطباعة بإيران .

ويشمل هذا الكتاب ٢٦١ ورقة بطول ٦ - ٩٢ وعرض ٥- ٢٠ وبكل ورقة ثمانية وعشرون سطراً ، ووضع حرف (س) و (ج) بينقوسين أحمرين فى سائر الكتاب ولدى جزء واحد منه ، وكان يجب أن أحـــوز الجزء الثانى له ، لكنى لا أعلم هل طبع أو غير ذلك ، وقد رتبت مباحث الكتاب ترتيبًا عدديًا ويبدأ بشرح العبادات كالوضوء والصلاة والصدقة والصوم والحج وبآخره قسم اسمه كتاب الودائع فى الأصول بداية المباحث ، وبكل باب من أبوابه وردت المسائل المختلفة لذاك المبحث على طريق السؤال والإجابة كما يعتقد المؤلف ممثلا فى المقدمة يبدأ فى شرح المسائل الآتية بدون أى إطناب ، وبعد الحمد والصلاة والدعاء مباشرة :

س - لو أن تابعا يتبع أحد المجتهدين الأحياء ، فهل يجوز أن يستمر فى اتباعه بعد مماته ويمشى على أو لا ؟

وإجابه هذا السؤال يشمل صفحته تقريبًا ، وخلاصة أن أتباع الميت لا يجوز ، وعليه أن يتابع أحد المجتهدين الأحياء ، ويذكر أدلة وشواهد كثيرة فى تأييد هذا القول منها أقوال محمد باقر (يبدو أنه مجلسى)، وسيد محمد مهدى ، والشهيد الثانى ، والمحقق الثانى .

وتختلف أبواب هذا الكتاب من حيث التفصيل كبير الاختلاف فباب الصلاة يستغرق تقريبًا سبعين ورقة ، لكن غيره لا يصل إلى هذا العدد فمثلاً كتاب الودائع وهو الباب الأخير لا يزيد عن نصف صفحة وننقله كما هو كنموذج :

كتاب الوديعة

س - أرســل زيد أمانة إلى أحد الأمناء قائلاً له أعــطها لفــلان من الناس ، ولما وصلت الأمانة إلى هذا الأمين وهو يعلم علم اليقين أن الأمانة المرسلة إليه هى ملك

عمرو ويد المرسل وغيره يد غاصبة معتدية ، ويطالب عمرو بالأمانة ويقول إن هذه الأمانة المرسلة إليك هى ملكى ، ويقره الأمين فى ذلك ويقول إنه أرسلها إلىّ لأعطيها فلاناً ولا أعطيها لك ، فهل لعمرو الحق شرعاً فى استرداد المال من الأمين أو لا ، ومن الذى يعطيه الأمين هذه الأمانة حتى تبرأ ذمته؟

ج - فى الحقيقة لو طابق ما ذكر الواقع أى أن هذا الشخص الأمين كان عالما أن المال ملك عمرو ويد المرسل يد غصب وعدوان يلزم هذا الأمين أن يسلم المال لمالكه سواء أذن المرسل فى تسليم المال لمالكه أو لم يأذن ، أما كلام الأمين وهو يعلم أن المال ملك عمرو أننى لن أعطيك يا عمرو هذا المال بسبب أن المرسل قال لى أعط هذا لفلان ولي ؛ فهذا ينافى ولا يطابق الشرع المطهر .

س - إذا استودع زيد عمرو أمانة وظلت عنده نحو ١٧ عاماً ورغم تأكيد عمرو على زيد باسترداد وديعته ، فإن زيد لم يبد غير عدم الاكتراث حتى تلفت هذه الأمانة بدون تقصير من عمرو فهل على عمرو غرامة ؟

ج - إذا طابق ما ذكر الواقع ؛ فلن تكون غرامة على عمرو .

عقائد عوام الشيعة

نعود الآن إلى الموضوع الأهم ، وهو الشرع الشيعى الذى قل أن استفت حتى

اليوم اهتمام المستشرقين الأوربيين ونذكر لهذا نبذة منه ، ويكفى أن نبحث بإيجاز العقائد الجارية بين العوام ونضرب صفحاً عن تاريخ تطورها وتكاملها ، كما يكفى أن نذكر أهم الكتب الدينية المؤلفة فى عهد الصفويين وما بعدهم ، ولم أعتمد فى إعدادى هذا الموجز على الكتب الكبيرة والمشهورة المعتبرة مثل حق اليقين لملا محمد باقر مجلسى ؛ بل استخرجت الموضوعات المطلوبة من كتاب صغير اسمه عقائد الشيعة .

كتاب عقائد الشيعة

ألف هذا الكتاب على أصغر بن على أكبر فى عهد محمد شاه (قبل النصف الأول للقرن التاسع عشر الميلادى) ، وطبع بإيران بدون ذكر مكان الطبع أو تاريخه ، ويشمل ٨٣٤ صفحة غير مرقمة تحوى مقدمة وخمس مشكاوات أو أقسام وخاتمة ، وموضوعاته بإيجاز كالتالى :

- المقدمة

لم يخلق الله هذا الخلق عبثاً بل خلقهم لعبادته وطاعته حتى يجدوا جزاء أعمالهم فى الآخرة ، وأرسل الرسل بالكتب لكى يبينوا للناس ما طلبه منهم وما كتبه بهذه الكتب وجعل خاتم الرسل وأعظمهم محمداً بن عبد الله ؛ فنزل القرآن والأئمة الأطهار فى أمته لكى يهدوا الناس فى هذا الزمان من الغيبة الكبرى يلزم الرجوع إلى الكتاب والآثار وأخبار الأئمة الأطهار ، وما يعلم إذن من هذه أن حكم الله ثلاثة أشياء: الأول الاعتقاد القلبى ، والثانى الإقرار اللسانى ، والثالث العمل بالأركان والعلم بالأحكام إما بالاجتهاد أو التقليد والاتباع .

فى الرد على العقائد الباطلة

إذن فلابد أن يكون المرء مجتهداً أو مقلداً ، ويذكر المؤلف بآخر مقدمته بضعة موارد للكفر والزندقة ، وينصح الناس باحترازهم منها وحدة الوجود والاتحاد والحلول والجبر وسقوط العبادات والرياضات والإباحة والغلو فى حق الأئمة ، وإنكار حشر الأجسام ونشرها والحياة الأخروية وتحليل أنواع الغناء والمسكرات والتناسخ والتشبيه وغيره ، وتحوى المشكاة الأولى (ص ٧- ٢٨) أربعة مصابيح فى بيان الاعتقادات المتعلقة بالذات والصفات الإلهية .

الذات والصفات

"التوحيد علي أربعة أقسام أو مصابيح : الأول هو توحيد الذات الإلهية لله الواحد الفرد الذى لا شريك له ولا كفواً وهو ذات مقدسة ومستجمعة جميع صفات الكمال ومبرأة من جميع صفات النقص ، وهو صاحب الجلال وليس مركباً من أجزاء وأعضاء لا أجزاء خالية ولا أجزاء عقلية ولا خارجية ولا داخلية ، وليس من المجردات والبسائط ولا من غير المجردات مثل النور وغير النور ولا هو بالجوهر ولا العرض ولا المحل لم يتولد من أحد ، وليس له ولد ولا صاحبة ووالد ولا يرى فى الدنيا والآخرة ولا يراه حتى الرسل والأئمة والأولياء ، ولكنه يعرف من آثار قدرته بالعقل والبصيرة .

الله ليس بمحتاج ولا يأكل ولا يشرب ولا يكتسى ولا تجرى عليه الهموم والآلام والأحزان والسعادة والعلو والدنو ، ولا يلحقه تغير وتبدل وترق وتنزل ، وكان على صراط مستقيم ، ولا يزال هو الغنى المطلق والقديم.

وصفاته الذاتية هى عين ذاته عن ذاته لأن ذاته شيء وصفاته الذاتية شيء آخر على حدة اجتمعت فيه ، وهذه الصفات جميعاً لها جانب سلبى وتسمى الصفات السلبية " .

الرد على الصوفية

وهنا يخرج المؤلف عن الموضوع ويشرح رداً على الصوفية خاصة من قال إن الله حلّ فى الحسان الوجوه على الأغلب وتجلى فهيم ، وعن عقيدة وحدة الوجود القائلة بأن نسبة الأشياء إلى الوجود المطلق كنسبة الأمواج إلى البحر ونظيرها نور الشمس الذى يختلف لون باختلاف زجاج النافذة المواجهة له .

توحيد الصفات

المصباح الثانى ، توحيد الصفات على ثلاثة أقسام (١) : الأول الصفات الذاتية مثل الحياة والقدرة والكلام أيضاً جزء منها ، ومن شعب العلم الإدراك بالسمع

(١) فى الأصل (على قسمين) .

والبصر وأضف بعض العملاء على هذه الصفات الست أزليته وصدقه ؛ لكن هاتين الصفتين كصفة الكلام والإرادة والإدراك صفات من الدرجة الثانية: و تساوى صفات الحياة والقدرة والعلم ، ثم الصفات السلبية التى تسمى صفات الجلال وتقابل صفات الكمال والجمال وهى سبع ، والله تعالى مبرأ منها ومنزه عنها وهى: أولاً أنه غير مركب ، وثانياً ليس له جسم ، وثالثاً ليس مرئياً ، ورابعاً ليس محلاً ، وخامساً ليس له شريك ، وسادساً أنه معانى أى إن صفاته الذاتية الإلهية لا تزيد على ذاته بل هى عين ذاته، وسابعاً ليس محتاجاً . والثالثة الصفات الفعلية ؛ وهى صفات يجوز إثباتها لله أو نفيها عنه مثل كونه الرازق والخالق والرحمن والرحيم والجواد وغيره ، وفى هذا القسم أشار إلى المذاهب والمعتقدات الخاصة: بالأشاعرة ، والمعتزلة ، والكرامية ، والبلخية والبخارية ، والحسن البصرى .

توحيد الخلق

والمصباح الثالث فى توحيد الخلق الله هو الواحد الذى ليس كفوا أحد يقول لعباده يخطئ من يتابع قول المجوس حين قالوا إن أهور مزد خالق الخير وأهرمن خالق الشر ، والله تعالى هو خالق كل شىء بوسيلة الأسباب ، ويمكن أن يفوض قدرته على الخلق للملائكة وسائر الموجودات (وأما الخير والشر فيظهران من الخلق المختارين وليس من عمل الله بل من عمل العبد ؛ لهذا يقبع موقع الثواب والعقاب للاختيار المفوض له ، ويعمل بإرادته ما أمره الله به أو ما نهاه عنه مع أنه يعمل بالقدرة والقوة التى ليست له إلا بعطاء الله ، لكن بما أن الله أعطاه الحرية والاختيار ؛ فقد أقر له الثواب والعقاب؛ فالله خالق الخير والشر والعبد فاعلهما ولا تقيض فى هذا الكلام ؛ لأن هذه الرسالة ألفت للعامة).

الرد على الغلاة

ثم يشرع المؤلف فى الرد على عقائد غلاة الشيعة لم يقول إن أمير المؤمنين علياً هو أمر الخالق وخلق أشياء بلا إذن من الله ؛ فكلامه غلط وقول من قال إن الإمام علياً

خلق العالم بإذن الله بلا دليل ، وقوله إنه قاسم الأرزاق ليس له دليل ، وقولهم إنه استأذن فى خلق العالم الل ، ه وإنه مد يده تحت السجادة فخلق السموات والأرض هو من جملة أغلاط مزورى الغلاة ، ولكن مع ذلك طبقًا للأخبار الكثيرة فيجب الاعتقاد بأن أمير المؤمنين يوم الحساب سوف يحول الله له ولسائر الأئمة حساب الخلق ، ويقبل شفاعتهم وغير ذلك ؛ ولهذا لقب على -ً عليه السلام - بوجه الله ويد الله وباب الله وغير ، وواجب الاعتقاد بالبداء هو أن الله يخلق كل ما يريد والاعتقاد بأن الله يخلق بوساطة كل ما أراد .

توحيد العبادة

المصباح الرابع فى توحيد العبادة ، اعلم أن العبادة ، مختصة بالذات المقدسة الإلهية ، ويجب عبادة الذات المقدسة الإلهية وعبادة الصفات الفعلية والأسماء غلط ، وكل من يعبد اسم الله دون ذاته مثل لفظ الجلالة وغيره هو كافر، وكل من يعبد الاسم والذات معًا مشرك والشرك نوعان الجلى والخفى : والأول عبادة غير الله فى الظاهر والعلن كعبادة الصنم ، والوثن ، والحجر ، والسمك ، والشجر ، والنجوم ، والشمس ، والقمر ، والنار ، والإنسان سواء كان له شكل مثل الصليب أو كان له صورة فى شكل رسول أو إمام أو شكل غير ذلك ، أما الشرك الخفى فهو عبادة أشياء أخرى كالدنيا ومالها والمرأة والولد وهواء النفس والرياء وغير ذلك ، أما زيارة الكعبة وقبور الأئمة فلا يدخل فى شرك العبادة ، ولا يستعاب تعظيم الأنبياء والأولياء وأئمة الهدى والعلماء والسلاطين المنصفين طالما لم يصل إلى حد العبادة والسجود .

المصباح السادس من المشكاة الرابعة

فى بيان عقيدة ظهور الإمام الثانى عشر ورجعته

غيبة الإمام

المصباح فى غيبة الإمام : اعلم أن للإمام ثلاث غيبات: الأولى: الصغرى ، والثانية، الكبرى : والثالثة : الأصغر . الصغر تبدأ من ٨ ربيع الأول ٢٦٠ هـ (أول يناير ٨٧٤ م) واستمرت تسعة وستين عامًا ، وآخر زمان الغيبة الصغرى كان حين مات رابع وآخر الوكلاء فى (٣٢٩ هـ / ٩٤٠ -١ م) ، وكان هؤلاء الوكلاء الواسطة بين الإمام الغائب والشيعة ويبدأ من هذا التاريخ عهد الغيبة الكبرى ، ولم يبلغ أحد خدمة الإمام الغائب . والعهد الذى نعيش فيه جزء من فترة الغيبة الكبرى ، أما الغيبة الأصغر للإمام فهى من ظهر الجمعة وقت أن يرب عنق خطيب مكة ثم يغيب حتى يظهر صباح الخميس يوم عاشوراء، وغيبة هذه الحضرة من جملة الإسرار الإلهية لكن لها علامات كثيرة ، وذكر فى هذا الكتاب أكثر من ٨٤ علامة من أهمها خروج (سفيانى) وهو رجل قبيح الوجه وأبله وشرير ، وتتخسف الأرض فى النهاية بجيشه وظهور كلف فى قص الشمس ، وكثرة فقهاء السوء والضلال ، وكثرة الشعراء ، وزيادة الظلم والجور والفساد ، وظهور الدجال راكبًا حمارًا أسود واجتماع ٣١٣ رجلاً فى الطالقان بخراسان لمساعدة إمام الزمان وغيرها ، لكن من ظهوره حتى شهادته سوف تنقضى سبعون سنة ، ثم يموت مسمومًا على يد امرأة اسمها (مليحة) ؛ وسوف يرجع الإمام الحسين ليغسل إمام الزمان ، ويكفن ، ه وهذا أول القيامة الصغرى .

القيامة الصغرى

وسوف يظهر الرسول وجميع الأئمة والغاصبون والظالمون لآل محمد ويقتلهم الأئمة ويقتلونهم جميعًا ، ويجب العلم أنه لن يرجع غير المؤمن الخالص والكافر

الخالص ، أما من كان بين بين فلن يرجع وإذ ذاك لن يبقى فى الدنيا والرسول والأئمة الهدى ويعم العالم الفساد لمدة أربعين يوماً ، وإذ ذاك سوف ينهار سد يأجوج ومأجوج فيخرجون ويقتلون كل من يجدونه من أهل الدنيا ، يأكلون كل ما على الأرض من علف وعشب وطعام ويجففون كل يما يصلونه من أنهار وبحار .

القيامة الكبرى

وهذا هو أول بداية القيامة الكبرى فيبعث الله عباده أحياء بأبدانهم الأصلية العنصرية التى كانت لهم فى الدنيا اللبنة التى تتحطم ثم يعاد بناؤها ، واللبنة الثانية هى اللبنة الأولى نفسها ، اعلم أن القيامة هى نفث إسرافيل ونفخه فى الصور على أربع مراحل : الأولى لإخراج أرواح أهل الأرض من أجسادهم وجذبه إلى صوره فيقبض أرواح جميع أهل العالم ما عدا الأئمة الأربعة عشر ، وبعد أن تتخلق أبدانهم ثانية ينفخ إسرافيل ثانية فى صوره ؛ فتخرج الأرواح من شقوق الصور كما تخرج أفواج النحل من خلاياها وتدخل كل روح جسدها ، ويحيى جميع الحيوانات أيضاً للحساب عن الشدة والقسوة التى نزلت بها ثم ينصب ميزان لوزن الأعمال الخيرة والشريرة ، ويأمر الله هذين الملكين الموكلين اللذين كتبا فى الدنيا أعمال الإنسان الطيبة والسيئة واسم أدهما السائق والآخر الشهدى بأن يزنا أعماله الطيبة والسيئة .

والنار سبع هى : جهنم ، والسعير ، والجحيم ، واللظى ، والحطمة والحاقة [(١)] والهاوية ؛ الأولى للمسلمين الذين ماتوا مذنبين وبدون توبة؛ وسوف ينجون منها بعد عذابهم ، والثانية لليهود والثالثة للنصارى ، والرابعة للصائبة ، والخامسة للمجوس، والسادسة لمشركى العرب، والسابعة للمنافقين ، ويجب العلم بأن الكفار مخلدون فى جهنم لا يخرجون منها وبعضهم لا يخلدون فيها لأنهم ؛ كان أهل تقوى وصفات حميدة فلا يعذبون مثل كسرى أنو شيروان بسبب عدله وحاتم الطائى بسبب كرمه .

(١) لم يوردها الأصل ؛ فوضعناها لكى تصل إلى سبع .

وبعد هذا يصف الصراط الأدق من الشعرة والأحد من السيف والأحرق من النار، وهو معبر على جهنم يعبره جميع الناس حتى الرسل والأئمة والأولياء ؛ ليصلوا إلى الجنة ثم يشرح بالتفصيل الجنة المادية وينهى شرحه بذكر الأعراف ، وهى الواقعة بين الجنة وجهنم ، والأعراف مرعى حسن أو موضع عال على الصراط وهو مكان المستضعفين من الرجال والنساء ومن لا يستحق الجنة ومن لا يستحق النار مثل ولد الحرام والزنا الذى لم يذنب ، ويدخل بعض أهل الأعراف بشفاعة الرسول أو الأئمة الجنة ، ويصف نعيم الجنة مثل ماء الكوثر وسدرة المنتهى وشجرة الطوبى ، وحين تستقر كل روح فى الجنة أو النار أو العراف يظل الموت بين الجنة والنار فى صورة كبش أسود ، وينادى المنادى بأنه لن يموت واحد من أهل الجنة والنار بعد .

والخاتمة ص ٢٣١-٨٣١

النور الثانى فى معنى الكفر والإيمان

أتى الكفر على خمسة معانى فى القرآن ، والكفر فى الدنيا على ثلاثة أقسام : كفر قلبى ، وقولى ، وفعلى ، كما أن الإيمان على الأقسام الثلاثة نفسها . ويجب العلم بأن الإيمان غير الإسلام فأهل السنة والشيعة غير الاثنى عشريين مسلمون ، لكنهم ليسوا مؤمنين وهم ليسوا أنجاساً ، لكنهم سوف يخلدون فى النار ، ويجب قتل المرتدين ولا تقبل توبتهم فى الدنيا ، لكن بعض العلماء قال إن توبتهم سوف تقبل فى الآخرة لكن تقبل توبة من قبل الإسلام دنيا واستقام عليه . ولو ارتدت امرأة فهى تقتل بل تحبس وتضرب حتى تتوب أو تموت ، وهنا ينتهى الكتاب بذكر الإقسام الخمسة للإيمان والأنواع الستة للتوبة [1] ذكرت خلاصة عقائد شيعة إيران الحاليين بشكلها

(١) لم يذكر ياسمى كل المشكوات الخمس ، وإنما ذكر الأولى والمصباح السادس ؛ لأن غيرها لا هم الإيرانيين لمعرفتهم بها، ولكثر الأغلاظ والأوهام إلى أوردها المؤلف ضمن رسالته والخاصة بعقائد العامة والعجائز. (المترجم)

العامى وصورتها المبسطة ، وكان- بلا شك -الألفت للنظر شرحنا لسلسلة التكامل والتطور لهذه العقائد من العهد القديم إلى العصر الحالى ومقابلتنا الروايات التاريخية والمنحولات إحداها بالأخرى بقدر ما تسمح المواد المعتبرة والوثائق الصحيحة ونقارن بالتفصيل بين المعتقدات الأصولية والفرعية للسنة والشيعة ، لكن لو ألف كتاب يمهد لمثل هذه الدراسة لكان ألزم وأولى كما أن كتابنا لا يتسع لهذه الدراسة ، لكن الشيوخ والمجتهدين القشريين لم تكن عقائدهم بهذا الحد من الفجاجة والسطحية - كما ذكر فيما سبق- لكنهم رأوا أن الصلاح فى أن يتركوا العامة على عقيدتهم [1] ، ولا يزعجوا أنفسهم ؛ لأن باب البحث لو انفتح على أمة هى على أهبة واستعداد للشك والارتداد؛ فلسوف تتولد مخاطر كبيرة .

التقسيمات الكلية للأفكار الدينية للإيرانيين

إذا أردنا أن نقسم الأفكار الشرعية والفلسفية للإيرانيين بإيجاز ؛ فسوف نحدد ثلاث طوائف لك منها ؛ فتنقسم طبقة العلماء إلى ثلاث مجموعات هم : الإخباريون ، والأصوليون أو المجتهدين ، والمشايخ ، ثم تتشعب طبقة الفلاسفة أو الحكماء إلى ثلاث شعب هى : المتكلمون ، والحكماء (وهم الفلاسفة البسطاء والخُلَّص)، والعارفون الصوفية .

تقسيمات جوبينو

إن الشرح الذى كتبه جوبينو عن هذه الطبقات هو أكثر التعريفات التى رأيتها حتى اليوم فى اللغات الأوربية وضوحاً وحياة وإيجاز مع أننا لا يمكن أن نصدق قط أن صحته بقدر وضوحه . فمثلاً الإخباريون هم أشد طوائف الشيعة تعصبا وضيق أفق بوجه عام ، لكن جوبينو يعدهم أصحاب مشرب واسع وهم أنفسهم لا يدعون هذا لهم .

(١) هذا الجزء الذى آثر ياسمى حذفه حتى لا يعاب به المذهب الشيعى . (المترجم)

ويقول فى حق الشيخية إنهم لا ينكرون البعث الجسمانى تماماً فى حين أنهم يعتقدون بالبعث بأجساد حور فى لون الزاج الأسود ؛ وهذا ما جعلهم هدفًا لسهام التكفير . فضلاً عن أن عقائد الشيخية فتحت الباب بحسم لتقدم أفكار (البابية) ، وهى أشد خروجًا وتشدداً ، والبابية هم خارجون عن الحدود الإسلامية ، بينما الشيخية نفذوا داخلها وكان لهم بين أبناء الطبقات العالية والمقامات الشامخة أتباع ذوو نفوذ ، وسوف نفصل القول عن الفلاسفة والصوفية فى الفصل التالى ، لكن الأفضل أن ننقل بالنص كلام جوبينو عن العلماء [1] : (لا يجب أن ننسى أن نفصل ما بين الطوائف الثلاث المذكورة ما أمكن بالتصنيف نفسه الذى قدمته ، لكن مع ذلك يلزم أن نذكر هنا أنه ندر أن ظل إيرانى طـــوال مدة عمره فى طبقة واحدة ، ولم ينتقل إلى غيرها ، ولم يتبع الطوائف الثلاث جميعها) .

المجلسيون

الملا محمد باقر مجلسى أحد أكبر المجتهدين فى العصر الصفوى وأقواهم وأكثرهم تعصبًا وجد من الضرورى أن يدافع عن أبيه الملا محمد تقى مجلسى ، وكان من علماء عهده المبرزين ويهتم بالصوفية فقال : (لا يسوء ظن أحد بأبى بأنه من الصوفية ، لكن الحقيقة غير ذلك لأنى عاشرت أبى فى سره وجهره واطلعت على أحواله وعقيدته ؛ فقد كان أبى يخطئ الصوفية ، لكن أبى فى بداية الأمر دخل فى زمرة الصوفية لما غالوا وأفرطوا بهدف أن يجتث شأفة شجرتهم الخبيثة الزقومية ويقتلع جذورها ، فلما انطفأت نائرة شقاوتهم ؛ أفشى إذ ذاك سريرته وإلا ما تصف ولدى بنهاية الورع والتقوى والزهد والعبادة والزهادة والخشية والنقاء) .

وكان الملا محمد باقر – خلافًا لذلك – متعصبًا ومتشدداً وفعالاً فوق الطاقة ، كانت له أليفات إذ كان يكتب الفارسية بأسلوب سهل وقابل للفهم وينشر المذهب الشيعى بين العامة ، وكان يوقع المجازر بالصوفية بقسوة بالغة كما كان رضى الأخلاق

(١) كتابه الأديان (الأديان والمذاهب الفلسفية فى آسيا الوسطى (باريس ١٨٦٦ م) ، ص ٢٨ – ٣٣ عن طبقات العلماء الثلاث .

وورد فى قصص العلماء كثير من دماثة خلـقه وحسن طبعه ، سأله شخص فى منامه بعد وفاته : (كيف أحوالك فى الآخرة ؟ وماذا جرى لك فيها ؟) فأجابه مجلسى : (لم يفدنى عمل واحد من أعمالى غير أننى أعطيت يهودياً يوماً حبة تفاح فنجوت بذلك) ، ويرى فى قصص العلماء سيرة ١٥٣ عالماً ، ونكتفى بذكر خمسة وعشرين منهم لأنهم أكثر أهمية وجذباً للاهتمام ، وقد رتبنا هؤلاء بترتيبهم التاريخى قدر الإمكان ، ووضعنا بين قوسين العدد الموضوع بأصل كتاب جوبينو المثبت بعد ذكر اسم كل منهم :

١- علماء ما قبل العصر الصفوى

١- محمد بن يعقوب الكلينى (رقم ٩٦) الملقب بثقة الإسلام مؤلف الكافى متوفى عام ٣٢٩ هـ/ ٩٤١ م .

٢- محمد بن على بن حسين بن موسى بن بابويه القمى المعروف بالصدوق (رقم ٩٥) متوفى عام ٣٨١ / ٩٦١ - ٢ورد من مؤلفاته فى قصص العلماء ١٨٩ مجلداً أهمها (من لا يحضره الفقيه، وهو الكافى السابق من الكتب الأربعة .

٣- محمد بن محمد بن نعمان بن عبد السلام الحارثى الذى يسمى فى العادة بالشيخ المفيد (رقم ٩٧) متوفى عام ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م ذكر قصص العلماء أن عدد مؤلفاته ١٧١ .

٤- سيد مرتضى الملقب بعلم الهدى (رقم ٩٨) متوفى عام ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م وهو حفيد الإمام السابع موسى الكاظم .

٥- أحمد بن على النجاشى (رقم ٢٣١) المتوفى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٣٦ م وهو أحد تلامذة الشيخ المفيد ومؤلف كتاب الرجال المعروف .

٦- محمد بن حسن بن على الطسى الملقب بشيخ الطائفة (رقم ١٠٠) المتوفى عام ٦٤٠ هـ / ١٠٦٧ م وهو محمد الثالث من المحمدين الأوائل (والمحمدان الآخران هما رقم ١٠٢ السابقين) ، وهو شيخ الطائفة مؤلف كتابين من الكتب الأربعة هما تهذيب الأحكام والاستبصار كما رتب فهرساً معروفاً لكتب الشيعة .

٧- نصير الدين الطوسى الملقب بالمحقق ، والذى تعظم شهرته فى الحكمة والعلوم عن علوم الشرع (رقم ٩٠) المتوفى عام ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ م وأشهر تواليفه أخلاق ناصرى فى الأخلاق والزيج الإيلخانى مؤلفى علم الكلام وشراحه .

٨- نجم الدين جعفر بن يحيى المشهور بالمحقق الأول مؤلف شرايع الإسلام (رقم ٨٩) المولود عام ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ - ١ م والمتوفى فى المحرم ٧٢٦ هـ / ديسمبر ١٣٢٥ م ، وحين كان شاباً أظهر مقدرة فى النظم لكن والده منعه بشدة قائلاً إن الشعراء ملعونون والشعر يخالف التدين .

٩- حسن بن يوسف بن على بن المطهر الحلى المعروف بالعلامة الحلى (رقم ٨٨) مات فى الشهر نفسه والسنة التى مات فيها المحقق الأول ، وكان هذا المحقق يكبره بعشرة أعوام ، ورد ٧٥ كتاباً باسمه فى قصص العلماء ، فوق أن العلامة الحلى كان من أسرة كبيرة من العلماء ظهر فى مدة قصيرة عشرة مجتهدين فيها كان منهم أبوالعلامة وابنه فخر المحقق (رقم ٨٦) .

١٠ - الشيخ شمس الدين بن محمد بن مكى العاملى المعروف بالشهيد الأول (رقم ٨٢) قتل فى أواسط صفر ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م بفتوى القاضى برهان الدين المالكى وابن جماعة الشافعى .

٢- رجال الدين فى العهد الصفوى وما بعده

١١- نور الدين على بن عبد العالى المشهور بالمحقق الثانى (رقم ٨٤) أتى من مسقط رأسه الكرك إلى إيران وصار موضع احترام الشاه طهما سب واهتمامه وتوفى عام ٩٤٠ هـ / ١٥٣٣ - ٤ م .

١٢ - أحمد بن محمد المدعو بالمقدس الأدربيلى (رقم ٨٣) ، كان الشاه عباس الأول يجله كثيراً ، وتوفى عام ٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م .

١٣ – مير محمد باقر دامار (رقم ٧٧) ، وهو حفيد المحقق الثانى لقى بدوره كثيراً من احترام الشاه عباس وتوفى عام ١٠١٤ هـ / ١٦٣١-٢ م ، وأنشد أحد الشعراء فى كتابه الصراط المستقيم :

الصراط المستقيم لميراماد
لا يسمع به مسلم ولا كان كافراً

وكان نفسه ينظم الشعر بتخلص (إشراق) .

١٤ – الشيخ محمد بهاء الدين العاملى الذى يسمى عادة الشيخ بهائى (رقم ٣٧)، كان يضارع أمير داماد شهرة ونفوذاً واحتراماً ، وكان هذان أكبر العلماء الذين بعثوا على جلال الشاه عباس الأول وشوكته ، ولد الشيخ البهائى قرب بعلبك عام ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م وتوفى ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م ، ولم ينحصر فضله فى علوم الشرع وحدها وأهم كتبه (جامع عباسى) الذائع فى عامة إيران وفى متناولهم ، لكن العمر لم يطل بالشيخ لإتمامه ، ومن تأليفه الكشكول جمع فيه الحكايات والقصص العربية وهو خلاصة كتاب سابق له قل شهرة واسمه (المخلاة) . وألف فى الرياضيات والنجوم ومثنوياً فارسياً باسم (نان وحلوا) .

١٥ – محمد بن مرتضى الكاشانى الذى يسمى عادة الملا محسن فيضى (رقم ٧٦) ، وقد كان مبغوضاً لدى الشيخ أحمد الأحسائى مؤسس الطريقة الشيخية الذى اعتبره مجرد أخبارى وكان يخاطبه بدلاً من (محسن) بمسئ ، كان لمحسن فيض يد أطول فى العرفان والحكمة من الشرع ، وأشهر كتبه أبواب الجنان المؤلف فى عام ١٠٥٥ هـ / ١٦٤٥ م .

وبعد هذا التاريخ انتقل من كاشان إلى شيراز وعمل فى تحصيل الحكمة على يد ملا صدرا وتزوج ابنته ، وكان فيض شاعراً وذكر مجمع الفصحاء أن شعره ما بين ستة آلاف إلى عشر آلاف .

١٦– مير أبو القاسم فندرسكى مع أنه لم ترد سيرته بقصص العلماء ، لكنه يعد أكبر فيلسوف وصوفى فى عهده ، وكان الشاه عباس الأول يجله كثيراً ، ويروى أن هذا

الشاه لامه بسبب اختلاطه بأوساط الناس وأوباشهم وتفرجه على مناقرة الديوك ، عاش فترة في الهند أثناء حكم شاه جهان وتوفى في ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠- ١ م تقريباً بأصفهان .

١٧ - ملا صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازى المشهور بملا صدرا يعد بالإجماع أعظم فيلسوف في العصر الأخير لإيران ، ونزاعه الدائم مع علماء الفقه معروف ، ولم تكن درجة تدينه وتشدده في قوة أو استحكام معلميه ميرداماد والشيخ البهائى ، فلا غرو من أن قصص العلماء لم تخصص فصلاً لسيرته ، ولكن يوجد في هذه الكتاب وغيره مثل لؤلؤة البحرين نبذ عنه متفرقة . أثرت تعليماته في الفقهاء عامة والشيخية خاصة ، أثبت روضات الجنات تاريخ موته في عام ١٠٧ هـ / ١٦٦٠ م لكن لؤلؤة البحرين ذكر أن وفاته حدثت بعد ذلك بعشرين عاماً .

١٨ - عبد الرازق لاهيجانى ، وهو تلميذ كملا محسن فيض لملا صدرا ومؤلفاه الفارسيان المشهوران هما (سرمايه ايمان) أى رأس مال الإيمان وجوهر مراد ، وكان يعتبر كالشيخ الطبرسى صاحب مجمع البيان دلالة الألفاظ ذاتية ، ويقول إن النسبة والعلاقة الحقيقية توجد فيما بين لفظ كل كلمة ومعناها ؛ بحيث إن المرء إذا سمع كلمة غريبة أمكنه أن يفطر ويستنبط معناها . كان أولئك الستة السابقون فلاسفة وفقهاء معًا إلا أن فلسفتهم فاقت فقههم ، لكن من يلى باستثناء آخرهم أو حاج ملاهادى فقد كانوا جميعاً من العلماء الشيعة والشديدى التعصب .

١٩ - ملا محمد تقى مجلسى (رقم ٣٦) يقال إنه أول من جمع أحاديث الشيعة وأخبار فضائلهم وبونها ووصله علم الحديث والأخبار من المحقق الثانى في عهد السلاطين الصفوية ، وذكرنا قبل أنه نسب إلى الصوفية مات عام ١٠٧٠ هـ / ١٦٥٩م-٦٠ ، وتاريخ وفاته يندرج في بعض حروف هذا المصرع باتساق وتناسب تام : (افسر شرع أو فتادبى سروبا كشت فضل) أى (سقط تاج الشرع وصار الفضل بلا رأس وقدم) ؛ فإذا حذفنا حرف الشين وهو تاج كلمة (شرع) وحذفنا حرفى الفاء واللام وهما رأس كلمة (فضل) وقدمها تبقت الحروف (ر، ع ، ض) ، وهى تساوى بحساب الجُمَّل (٢٠٠ + ٧٠ + ٨٠٠ = ١٠٧٠) .

٢٠ ، ملا محمد باقر مجلسى (رقم ٣٣) ، وهو ابن الشيخ السابق وذكرناه مراراً فى هذا الفصل ، واشتهر أكثر من والده بمراتب ، وأوسع تأليفاته وهو بحار الأنوار مجموعة مفصلة من الأحاديث والأخبار الشيعية . وله مؤلفات أخرى منها بالفارسية : عين الحياة ، مشكوة الأنوار، حلة المنين ، حياة القلوب (وهو ناقص) ، وتحفة الزائرين ، وجلاء العيون وغيرها ، وتوفى كما سبق عام ١١١١ هـ / ١٦٩٩- ١٧٠٠ م .

٢١ ، سيد محمد مهدى بروجردى الملقب ببحر العلوم (رقم ٢٧) ولد فى ١١٥٥ ٣/١٧٤٢ وتوفى ، فيما يبدو ، نحو ١٢٤٠هـ / ١٨٢٤ ، ٥ م .

٢٢- سيد محمد باقر بن سيد محمد تقى رشتى الملقب بحجة الإسلام (رقم ٢٦) ، الذى مر ذكره قبل وذكرنا قسوته الشديدة فى تنفيذ الحدود على من نقض الشرع ، وكان له نفوذ وثروة طائلان وأنفق - بذكر صاحب روضات الجنات (ص ١٢٥)- مائة ألف دينار فى بناء المسجد الكبير فى حَىّ بيد آباد بأصفهان . ولد نحو (١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ -٧ م) توجه للعراق فى السادسة عشر لإكمال دراسته وفى ١٢١٦ أو ١٢١٧ هـ (١٠٨١-٣) عاد إلى أصفهان ، وتوفى يوم الأحد الثانى من ربيع الأول ١٢٦٠ هـ (٢٣ مارس ١٨٤٤ م) ، يذكر صاحب روضات الجنات أن جميع الناس - وهم فقط المتدينون والمسلمين - أقاموا عزاءه لمدة عام كامل ؛ لأنه لم يكن وراءه من يحفظ حدود الشرع بمثل ما فعل أو يعلى الشرع ، ومن غرائب الاتفاقات أن مير على محمد الباب ونهضة الفرقة البابية التى هيأت كثيراً من أسباب ضعف علماء الشيعة قد ظهر بعد وفاة سيد باقر بشهرين .

٢٣ - الشيخ أحمد بن زين الدين بن إبراهيم الأحسائى مؤسس الطريقة الشيخية عاش أغلب عمره فى يزد وقصد كرمان شاهان منها بطريق أصفهان فظل بها حتى وفاة حاكمها محمد على ميرزا ولد فتح على شاه ، وكان هذا الأمير يجلّه كثيرا ودفعه إلى المكث بكرمان شاه ، ثم اتجه لزيارة الأماكن المقدسة بالعراق وأتم بها أغلب مؤلفاته ، ومنها شرح الزيارة الكبير وشرح الفوائد، ثار الشيخ أحمد بحماس شديد

يعادى ملا صدرا ومحسن فيض والصوفية ، لكنه كفر بفتوى لملا محمد تقى قزوينى ، ولما قتل القزوينى على يد البابيين فى نحو ١٨٤٧ م لـب بالشهيد الثالث ، وتوفى الشيخ أحمد الأحسائى فى ١٢٤٣ هـ / ١٨٢٧ -٨ م فى نحو التسعين .

٢٤- الملا أحمد نراقى الذى مرض وتوفى فى ١٢٤٤ هـ / ١٨٢٨ -٩ م كان شاعراً وفقيها معًا ، ونظم بالفارسية بأسلوب جلال الدين الرومى وسمى نظمه (طاقديس) أى الشبيه بالطاق ، وكان يتخلص بصفائى ، ووردت سيرته بمجمع الفصحاء (٢/ص ٣٣) .

٥٢- حاجى ملا هادى سبزوارى آخر فيلسوف كبير إيرانى نظم شعراً بتخلص (أسرار) ، ولد ١٢١٢ / ١٨٩٧ -٨ م وتوفى ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م .

الفصل التاسع

كتاب النثر (إلى عام ١٨٥٠ م)

أنواع النثر

يقسم أدباء الشرق ومن لهم يد فى المعانى والبيان النثر من حيث الشكل إلى ثلاثة أنواع : العَرِىّ ، والمقفى ، والمسجَّع ، لكننا نقسم بتقسيم أبسط النثر قسمين : الطبيعى ، والمصنوع ، ونرى أن النثر المصنوع عامة غير مقبول ومحبوب ، لكن أسلافنا فى (إنجلترا) لم ينفروا من هذا النثر بدرجتنا ؛ والدليل على ذلك ظهور (إيفوويست Euphuists) فى عهد إليزابيث ، وفى كتب مثل مقامات الحريرى (بالعربية) أو أنوار سهيلى (بالفارسية) ، التى ألفت فى الأغلب بقصد وقوعها فى الآذان بموقع القبول وإظهار فضل المؤلف إذا بدت نثراً مصنوعاً فيمكن الإغضاء عنها إلى حد ما ، أما الكتب التى تحوى موضوعات مهمة ويحتاج إليها إذا كتبت بالنثر المصنوع والمتصنع فلا يمكن تحملها قط ، وهذا موضع بحثنا ، وهو أى أسلوب للكتابة النثرية يمكن عده حسناً وجيداً بإطلاق ؟ وما الذى يحسب سيئًا ورديئًا ؟ لأن الأذواق الطبائع تختلف من بلد إلى بلد بل ومن مدينة إلى أخرى وفى كل زمان عن زمان حتى أن مؤلفًا اشتهر فى عصره وكان أسلوبه مقبولاً مستحسنا لايعود نثره إلى عهد تالٍ مقبولا ومعتبراً أو بحسب المثل العربى (الناس أشبه بزمانهم منهم بآبائهم) .

والعبارات المصنوعة هى فى الكتب التاريخية ، لكن المؤرخ الجاد لو كان بإمكانه أن يكتب موضوعاً بسهولة فى سطرين وكتبه فى صفحة فلنا الحق أن نحنق عليه ؛ لأنه ضيع جزءاً من وقتنا بسبب سوء أسلوبه وفجاجة طبعه .

كان النثر الفارسى قبل الغزو المغولى بسيطاً ومستقيماً بوجه عام ولا يصل نثر فى إيجازه واختصاره إلى درجة ترجمة البلعمى لتاريخ الطبرى وسياسة نامه لنظام الملك وسفرنامه لناصر خسرو وقابوس نامه وجهار مقاله ، غير أن المغول والتتر والترك كانوا ضرراً - فيما يبدو - على الأدب الإيرانى؛ لأنهم كانوا يروجون النثر المسجع والمصنع والمتملق ، ووصاف الحضرة المؤرخ حين قدم كتابه فى (٧٠٢ م) إلى غازان خان كان أول مفسد كبير للغة واقتفى أثره - للأسف - عدد كبير من المؤرخين .

وفى العصر الأخير حدث رقى كبير فى النثر ، وكان أحد أسبابه - كما ذكرنا فى النظم - أن الكتاب فى الزمن الأخير قلدوا القدماء وأعرضوا عن أسلوب التحرير الذى ذاع بعد المغول فضلاً عن التوسع الجديد فى الصحافة والكتابة فيها إن كانت لا تؤدى عامة إلى الإسلوب البديع واللطيف ، لكنها تستوجب الإيجاز والاستقامة ، ويمكن أن نفضل من ناحية الأسلوب والترتيب والتوثيق كتاب تاريخ الصحوة الإيرانية (تاريخ بيدارى إيرانيان) تأليف ناظم الإسلام كرمانى ، والذى لم يكمل للأسف بدرجات على كتب التواريخ الكبيرة ، والتى تفيض بالادعاء لرضا قلى خان ولسان الملك (روضة الصفا لمير خواند وناسخ التواريخ) فى حين أن هذين الكتابين لا يتقدمان عليه بأكثر من خمسين سنة تقريباً ، ولا أنوى فى كتابى فى هذا أن اذكر كتب النثر المصنوعة المؤلفة لمجرد إظهار مهارة كتابها التاريخ أو سائر الكتب المفيدة قابلة للترجمة بحيث تبدو ترجمتنا لائقة بمطالعة الإنسان الأوربى إذا اقضى المقام ، وأرى أن نخلص تلك الكتب من كل صناعاتها اللفظية ثم نلخصها ، لضرب المثال أنقل بضعة أسطر من الكتاب الجم الفائدة والكثير الصنعة وعنوانه (أحسن التواريخ) المؤلف فى أوائل الحكم الصفوى (٩٨٥ هـ / ١٥٧٧ - ٨ م) ، واقتبست منه موضوعات عديدة فى الفصول الأولى لهذا الكتاب ، وما أنقله يتصل بحرب محمد خان أستاجلو مع شاهرخ ذى القدر الأعمى فى ربيع عام ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م : (فى الربيع حين توجه سلطان الزهور بحشمته وتجمله لمهاجمة قبيلة الرياحين وهزم بطعن أسنة الأشواك جنود الشتاء عن الرياض :

تصاعدت دقات طبول السحاب وجاش جيش الرياحين

فقطب وجهه (أى السحاب) وشد أقواس رستم (أى قوس قزح) للمجادلة

فرفعت فروع الزهور أعلامه وأعدت الرياحين خيلها وحشمها
وأخذ السحاب يسحب أحجاراً من الندى
من مفرق شعر ملك التركى إلى ذيله
نزل خان محمد أستاجلو فى مشتاه بماردين

كان يمكن أن يعبر كل هذه العبارات والأشعار فى سطر واحد قائلاً (وقت الربيع نزل خان محمد أستاجلوا فى مشتاه بماردين) .

إن الأشعار اللطيفة والخيالات الشاعرية جميلة ومقبولة فى مكانها ، لكنها بلا مبرر وتثير الحنق فى الكتابة التاريخية ، وما نقوله هنا للأسف – وقد ذكرناه فيما سبق – إن تقريبًا جميع الإيرانيين المتعلمين وجميع المؤرخين إما أنهم شعراء أو يعرفون الشعر ؛ ويحبونه ، ومن الأسهل والألذ عندهم أن يشجنوا كتب تاريخهم بالشعر من أن يزينوا التاريخ بالشعر بحيث لا يوجد تاريخ حقيقى فى أشعارهم التاريخية؛ فأنا مكتف خلال الحديث عن النثر الفارسى فى العصور الأخيرة بذكر الآثار المتضمنة موضوعات بديعة ومفيدة وحسب والتى تحاشت الزينات الشكلية ، وأقسمها من ناحية موضوعها إلى خمسة أقسام :

(١) الفقه .

(٢) الحكمة.

(٣) العلوم الرياضية والطبيعة والعلوم الخفية والغريبة.

(٤) التاريخ العام والخاص والمحلى.

(٥) كتب الرجال وتذاكر السير وكتب الرحلات.

١ - الفقه

تنحصر الكتب الفقهية فى الفترة موضع دراستنا أى من استقرار الحكم الصفوى حتى العصر الحاضر فى إيران بعقائد الشيعة الاثنى عشرية وأحكامهم وفرق الشيخية والبابية والبهائية ، ألف جميع الكتب الفقهية أوائل هذا العصر بالعربية وحررت أيضاً الكتب الأخيرة باللغة نفسها ، وهجر أغلب هذه الكتب اليوم فى البلاد

الإسلامية واستغفلت على الفهم الأعلى قلة من المختصين الذين يمكنهم الإفادة منها وإلا فإن عامة الناس لا يفيدون منها . يكتب فاضل كتاباً فى الفقه أو الصرف أو النحو أو المنطق فينال شهرة كبيرة فى مدرسة الطلاب ومحضر العلماء المشغولين بالتدريس بأسلوب القرون الوسطى ، ويظهر آخر فيمكث شرحًا لذاك الكتاب ، ويكتب ثالث شرحًا على شرح الكتاب ، ويأتى رابع فيكتب شرحاً على شرح الشرح ، ويأتى خامس فيضع حواشى على هذه الحاشية أو الشرح الأخير؛ حد أن النتيجة المتحصلة تأتى فى النهاية شبيهة جدا بكلمة نصر الدين أفندى (جحا) ، وكان تركيا ظريفًا (هذا هو ماء حساء الأرنب) أى غذاء عار من الطعم والفائدة لأن عناصره الأصلية استهلكت فيه ولم يعد به تركيبه الأصلى . كان المرحوم الشيخ محمد عبده المفتى الأكبر لمصر ورئيس جامعة الأزهر والذى يبدو أن قل العالم الإسلامى فى عصره الحديث بالإتيان بمثله فى تنور فكره وعشقه للعربية ، كان يقول دائمًا إنه يجب إحراق هذه الكتب وهى زخرف قول ؛ لأنها ملأت المكتبات ولا يتأتى منها فائدة غير إطعام الدود والنمل وتظليم العلم الحقيقى، هذا هو رأى أحد علماء الإسلام الكبار ؛ ونحن لا نتردد فى الأخذ به ، فى الحقيقة بقدر ما ننظر بعين الإجلال إلى كثرة من الأعمال المفيدة والمقبولة للمسلمين نتأثر ونتألم لوجود مثل هذا النوع من التأليف ، نرى فى روضات الجنات وقصص العلماء وغيرهما أسماء كثرة من العلماء ألف الواحد منهم ما بين أربعين خمسين إلى ستين مؤلفًا فى الفقه لا يقرأ اليوم أحد ، ويمكن أن يقرأها تلاميذهم بالضغط والتهديد، وربما يأنف غيرهم من دراستها ، بل نرى من العبث ذكر عدد هذه الكتب وعناوينها حتى لو اتسع المقام.

الفقه بالعامية الفارسية

إن من قام به العلماء الشيعة من جليل العمل فى أواخر العهد الصفوى هو نشر العقيدة الشيعية وتاريخ التشيع وأحاديثه وأخباره باللغة العامية وترويجها ، كما فعل المجليسون حين أدركوا أن لا مناص من مخاطبة العامة بلغتهم حتى يرسخوا فى

قلوبهم ؛فسهلوا كتابتهم ولقوا مكافأتهم ؛ الرسمى لدولته رأى قلة من الكتب الفارسى عن التشيع وكان ، وكما يذكر صاحب رضات الجنات الملا محمد تقى مجلسى ، أول من سعى بعد استقرار الحكم الصفوى إلى نشر أحاديث الشيعة ، وألف ابنه ملا محمد باقر كتابه العظيم بحار الأنوار بالعربية فى المجال نفسه ، وبالفارسية المؤلفات التالية : عين الحياة ويشمل مواعظ عن الزهد فى الدنيا ، ومشكوه الأنوار ، وحلية المتين فى الأخلاق والأعمال ، وحياة القلوب فى أجزاء ثلاثة : الأول عن الرسل قبل محمد ، الثانى عن محمد رسول الله ، والثالث عن الأئمة الاثنى عشر ، لكنه لم يكمل غير جزء منها ، وتحفة الزائرين ، وجلاء العيون ، ومقياس المصابيح فى الصلاة اليومية ، وربيع الأسابيع ، وزاد المعاد ورسالات قصيرة كثيرة، لكن المدهش أنه لم يذكر ضمن هذه الكتب أحداهم تأليفه وهو (حق اليقين) المؤلف فى ١١٠٩ هـ / ١٦٨٩ م وطبع بأناقه تامة فى طهران فى ١٢٤١ / ١٨٢٥ ، وقرر ا.دولى برستين كاز يميرسكى أن يترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية ، لكنه تراجع عن عرفه وأرسل أصل ترجمته إلى طلب منى أن أتم عمله لكنى، مع الأسف – لم أجد من الوقت ما يبلغنى القيام بهذا الأمر ؛ إذ كان يستحق العناء ؛ لأنه لا توجد ترجمة واضحة ومعتبرة عن عقائد الشيعة بأية لغة أوربية .

تصنيف كتب العقيدة الفارسية

سائر الكتب الأساسية للمذهب الشيعى وهى القرآن الكريم والحديث والأخبار بالعربية ، وألفت رسالات وكتب دينية بالفارسية يمكن تقسيمها – بشىء من التجاوز– إلى أقسام ثلاثة : أصول العقيدة ، والتاريخ ، والحدود والقوانين الشرعية ، لكن من الناحية العملية امتزج التاريخ بالعقيدة خاصة فى القسم المرتبط بالإمامة حين سعى المؤلفون إلى إثبات أن الرسول كان مائلاً إلى أن يخلف عليًا – كرم الله وجهه – بعده وأن أبابكر وعمر وعثمان غصبوه هذا الحق، وأن الأئمة أولاده هم اثنا عشر لا أقل ولا أكثر من ذلك ، وأنهم هم الذين يتبعهم الشيعة الاثنا عشر لا غيرهم ، الخلاصة أن

القسم الأول بينما يتعلق بالذات والصفات الإلهية ويقترب إلى الإلهيات فإن القسم الأخير له يحوى موضوعات تاريخية أو أن كله تقريبًا تاريخ ويشمل خاتمته وصف الجنة والنار والحشر وغير ذلك .

وإنشاء هذه الكتب - بوجه عام كثير السهولة والاستقامة والخلو من الصنعة البديعية ، لكنه عامة يقلد العربية ، ويقوم ترتيب كلماته وتشكيل جمله على النسق العربى ، فالأسلوب العربى لا تجده فقط فى العبارات التى ترجمت مباشرة عن العربية بل تراه مبثوثًا فى سائر الكتاب : كأن العلماء المذكورين تبحروا فى العلم بالقرآن والحديث وروضوا عليمًا أذهانهم حتى إن فكرهم أثناء الكتابة بالفارسية كان متقيداً بالعبارات العربية ، وتظـــــهر الســـطور الآتية وهى من بداية الجزء الثانى لحق اليقين هذه السمة الغريبة :

" المقصود التاسع فى إثبات الرجعة ، اعلم أن من جملة ما أجمع عليه بل من ضروريات المذهب الحق للفرقة المحقة هو حقية الرجعة أى رجوع جماعة من أفضل الناس إيمانًا وأكثرهم كفرًا إلى الدنيا قبل القيامة فى عهد حضرة القائم (ع) ، يرجع المؤمنون الأخيار ، لكى تتنور أبصارهم رؤية حكومة أئمتهم وينالوا بعضًا من ثواب طيباتهم فى الدنيا ، ويرج الكفار الأشرار لمعاقبتهم وعذابهم ومشاهدتهم أضعاف تلك الحكومة التى لم يكونوا يريدونها لأهل البيت ولانتقام الشيعة منهم ، بينما يظل باقى الناس بقبورهم إلى يوم القيامة المعروفة ، كما ورد فى أحاديث كثيرة أنه لا يرجع فى الرجعة إلا من كان له محض الإيمان أو محض الكفر ، أما سائر الناس بعدهم فيتركون على حالهم " ، هذه العبارة المؤلفة كلها بالأسلوب العربى يمكن أن تكون ترجمة حرفية لحديث روى أصله ، ويبدو أن بداية أصل الحديث لابد أن يـــكون شيـئًا شهيًا بهذا لا يرجع فى الرجعة إلا من له محض الإيمان أو محض الكفر كما ترى نفوذ النحو العربى ظاهر ومحسوس فى سائر الترجمة .

١- الرد على أهل السنة

والنوع الآخر من الكتابات الشيعية هو ردود على أهل السنة والفرق الشيخية والبابية والبهائية والنصارى ، ويقع أهل السنة بالطبع فى أى رسالة تتحدث عن أصول العقيدة موضع الهجوم ؛ لأنه لم يستطع أحد قط من عهد نادر شاه إلى وقت حاجى الشيخ الرئيس (أبى الحسن ميرزا) - وكان أحد دعاة الوحدة الإسلامية - أن يبدل خصومة هاتين الشعبتين الكبيرتين للإسلام إلى صلح ووفاق ، وإذا شوهد السلام واتساع الأفق فى الجيل الجديد الإيرانى المعاصر فليس بسبب اتجاههم إلى توحيد الفرق المختلفة بل - فى الأغلب - لأن هذه المسائل والمجالات المذهبية قل أن تكون محلاً للبحث والدراسة .

٢- الرد على الصوفية

نصادف ضد الصوفية أيضاً فى الرسالات الأصولية الشيعية هجوماً خاصة فى نفى وحدة الوجود ؛ فقد صادفت بضع رسالات مستقلة تنحصر فى الرد على الصوفية مثل الخيراتية لمحمد على بهبهانى الذى حرك إيقاع مذبحة شديدة بالصوفية وقتل عدد كبير من شيوخهم مثل مير معصوم مشتاق على ، ونور على شاه ، و" مطاعن الصوفية " تأليف محمد رفيع بن محمد رفيع بن محمد شفيع تبريزى المؤلفة فى ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦م ، وتشبث صاحب هذه الرسالة لإثبات دعواه بالإنجيل ، وذكر قول المسيح " احذر من يأتونك فى لباس الخراف " الصوف " ، وهم ذئاب ضوار فى بواطنهم " .

٣- الرد على النصارى

بعث الخلاف بين الإسلام والمسيحية على تأليف عدد كبير من الرسائل الفارسية ، وأثبت الأستاذ صامويئل لى فى كتابه (الرسالات البحثية فـــى المسيـحية والإسلام) (كامبردج ١٨٢٤ م) نتيجة دراسته فى هذا المضمار ، ألف سيد أحمد بن زين

العابدين العلوى بضعة كتب فى هذا الموضع فى الرابع الأول للقرن السابع عشر الميلادى منها (فى الرد على المرآة المظهرة للحق) تأليف جزاويه ، وأخرى فى الرد على اليهود ، وفى أواخر العصر دفعت مؤلفات هنرى مارتين - وهو من الدعاة والمبشرين للمسيحية - ميرزا إبراهيم وغيره لتأليف ردود عليه .

٤- الرد على الشيخية

تنتسب (الشيخية) إلى الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائى من أهالى البحرين ، وتوفى كما يذكر صاحب روضات الجنات فى التسعين فى ١٢٤٣ م / ١٨٢٧ م وتولى رئاسة الشيخية بعده سيد كاظم رشتى ، ومن بين تلاميذه سيد على محمد الباب مؤسس الفرقة البابية وبضعة نفر من خلفائه ، كذلك كان من تلاميذه حاج ميزا كريم خان كرمانى ؛ الذى وسع من الطريقة الشيخية ، لم يرض علماء الشيعة بهذه الطريقة ، وهى أصلاً شيعية متشددة وسعى حثيثا بضعة من المجتهدين الكبار من مثل محمد تقى قزوينى عم الشاعرة المشهورة البابية (قرة العين) ووالد زوجها فى مدافعة هذه الطريقة ، وفقد هذا الملا من فرط عدائه للشيخية والبابية حياته فسماه الاثنا عشرية بالشهيد الثالث ، وقد أوردت شرحًا فى سيرة الشيخية وتعريف مذهبهم فى الحاشية رقم E ص ٣٣٤-٤ بآخر الجزء الثانى من كتابى (مذكرات سائح) ، ويكفى هذا الشر نفسه للمبتدئين فى دراسة الفكر الإيرانى ، ألف الشيخ أحمد كثرة من الكتب لعلها جميعها بالعربية ، ويذكر صاحب روضات الجنات بعد إيراده أسماء تأليفات الشيخ أحمد (ص ٢٥) ضمن بعض الموضوعات الأخرى أن هذا الشيخ كان يعادى الصوفية عداءً شديداً رغم عقيدته فى يوم القيامة ، وقد أدى اتساع المشرب والعقيدة عند الصوفية خاصة قولهم بوحدة الوجود بهم إلى كره فقهاء كل مذهب سواء الاثنى عشرى أو السنى أو الشيخى أو البابى أو البهائى حتى المسيحى ، وكان هنرى مارتين يدرك بالطبع أنه أكثر تناسبًا وتجانسًا مع الشيوخ المتعصبين بشيراز من الصوفية وهم جماعة ماجنين خوارج عن الدين ، وفى أواخر الأيام وقع الخلاف

والجدال الكثير الحدة بين الشيخية والبابية ، وكانتا في الأصل شعبتين لأصل واحد إلى حد أن قام أحد الشيخية من بين العلماء والفقهاء الذين حاكموا وأدانوا (الباب) في تبريز أواخر ١٨٤٧ م وهو الملا محمد ممقاني .

٥- الرد على البابية والبهائية

أوجبت نهضة البابية البهائية - التي سرت من إيران إلى خارجها ، ودخلت الآن أمريكا مناقشات مكتوبات مكتوبة كثيرة بحيث تحتاج دراستها جميعا إلى بحث خاص ، وقد شرحت ذلك في موضع آخر من كتابي مذكرات سائح ٢/ ص ١٧٣ -٢١١ ، لكن أهم هذه الكتب بالفارسية كتابان من تأليف البابا نفسه هما : البيان الفارسي ، والدلائل السبعة ، وأول كتاب دفع لبهاء الدين كتابه الإيقان ألفه ، بذكر أدلة قبل أن يدعى بهاء الدين أنه من يظهر الله ، أما ألواحه وأغلبه بالفارسية وألفه بعد الإيقان فهي تخرج عن الحساب وأهمها وأكثرها جذباً للاهتمام ألواح السلاطين ، وتوجد بكثرة تأليفات (الأزليين) من أتباع البهاء .

وبوجه عام ، ، وأهم رسالة بالفارسية حول الرد على البابية والبهائية هي إحقاق الحق لآغا محمد تقي همداني (ألفت ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م) ومنهاج الطالبين لحاجي حسين قلي وكان أرمينياً ، ثم أسلم وطبعت رسالة بالهند في ١٣٢٠ هـ - ١٩٠٢ م ، وسلك البابية والبهائية أسلوبا وطريقة خاصة في الكتابة الفارسية يجدر كثيراً بالاهتمام والملاحظة ، فبعض من ألواح بهاء الله المؤلفة في الإجابة عن أسئلة الزردسيتيين هي بالفارسية الخالصة ، وليس بها لفظ عربي واحد، لكن أهم كتبهم من قبيل كتاب الأقداس فهو بالعربية ، لقد ارتفع بهاء الله بالإنشاء الأدبي عند البهائين سواء في العربية أو الفارسية إلى حد كبير ؛ لأن أسلوب تحرير ميرزا على محمد الباب كما يقول جوبينو (مظلم وجاف وكدر) .

أ- الفلسفة

تقسيمات الفلسفة

يعرف المسلمون الحكمة أو الفلسفة بأنها العلم بحقائق الأشياء بقدر ما تيسر للإنسان ، وتنقسم إلى قسمين : الحكمة النظرية ، والعلمية ، أما الحكمة النظرية فهى الرياضيات وعلم الطبيعة وما وراء الطبيعة أو بعدها أو فوقها ، والحكمة العلمية هى تهذيب الأخلاق وتدبير المنزل وسياسة المدن ، والكتب الثلاثة المشهورة الفارسية فى الحكمة العلمية هى : أخلاق ناصرى وأخلاق ، جلالى ، وأخلاق ، محسنى ، وكلها ألفت فيما سبق فترة الدراسة ، و لا أرى كتاباً مهما فارسى ألف فى فترتنا هذه فى الحكمة العلمية ؛ إذن فيلزمنا هنا الأكتفاء بالحكمة النظرية ، ونبدأ بشرح ما وراء الطبيعة لأنها تتعلق بالعقيدة الدينية من ناحية ، وبالعلوم من ناحية أخرى .

الشيعة والمعتزلة

يتفق الجميع على أن الشيعة الاثنى عشرية والمعتزلة كان شديدى الارتباط فى أوائل الحكم العباسى ، ومعلوم أن المذهب المعتزلى هو أكثر المذاهب الإسلامية تنوراً وفلسفة ، ومن مختصات المعتزلة الاعتقاد فى الاختيار ومخالفة أهل الجبر ، لكن المذهب الجبرى تقدم فيما بعد وأحال الارتقاء والتوسع فى الفكر الإسلامى إلى جمود ، وبناء على ما سبق فإن الكتب التى تبحث الذات والصفات الإلهية بقلم علماء الشيعة أكثر بكثير من تواليف السنة ذات الجانب الفلسفى .

فلاسفة الإسلام مدينون إلى اليونانيين

تدين فلسفة المسلمين كسائر علومهم تقريبا إلى اليونانيين والمسلمون مقرون هم بذلك أنفسهم ترجم بعض كتب مشاهير الفلاسفة والحكماء اليونان إلى العربية فى

أوائل الحكم العباسى أواسط القرن الثامن الميلاد ، وكتب فى تاريخ الفلسفة الإسلامية من ذاك العهد إلى هجوم المغول حين نزلت ضربة قاصمة بالعالم الإسلامى وزالت الخلافة العباسية ومحقت بغداد المستشرقين الأوربيون مراراً ، وأفضل تاريخ موجز للفلسفة الإسلامية وخدمات الفلاسفة الكبار ومذاهبهم المختلفة هو كتاب (تاريخ الفلسفة الإسلامية) تأليف الدكتور ت ، ج ، بوير وترجمة للإنجليزية أ . ر ، جونز ويمكن لعامة القراء الإفادة منه ، ويلزم الإشارة هنا إلى أن أحد المذكورين فى هذا الكتاب وأتى بعد زوال الخلافة العباسية كان ابن خلدون (ولد فى تونس ١٣٣٢ وتوفى فى القاهرة ١٤٠٦ ، وكان رجلاً فائقًا بلا مثيل ، لم يكن له سابق ولا لاحق) ، كما يذكر بوير (ص ٢٠٨) .

إشكالية تحديد أسلوب الفلسفة الإيرانية ومقامها فى العهد الأخير

السؤال الواجب الرد عليه هو : إيران التى أوجدت فى القرون الأولى لهجرة كل هؤلاء الفلاسفة (المعروفين بالحكماء العرب) ألم تلد بعد أول القرن السادس عشر الميلادى أى حكيم أو فيلسوف إلهى قط؟ وللإجابة على هذا السؤال يجب أولا على المرء أن يقف على تاريخ فلسفة العرب واليونان (خلاصة جميع الفلسفة العامة) ، فضلا عن إتقان للعربية والفارسية ، وأنا لا ادعى أبدا أننى محيط بكل هذا ، وتظهر هذه الإشكالية أيضا حين ننقد ونحكم على الآثار العلمية للمسلمين ، هل يشارك بضعة من عشاق رباعيات عمر الخيام السيد ويبك Woepecke الرأى؟ وسوف يعجبون بالرسالات العربية للخيام فى علم الجبر ، إن معرفة العربية لا تكفى لكى يقول شخص إن الرازى كان مقدماً فى الطب أو ابن سينا ، لكنهم فى ألمانيا قاسوا كثيراً عن أى بلد آخر فى هذه الشعبة التى تتطلب تخصصاً كاملاً مثل كتاب الدكتور فيدمن Weide-mann من أرلانكن (عن المناظر والمرايا والفيزياء وغيرها) ، وكتاب الدكتور جوليوس هير شبرك Hirscgberg من برلين فى باب طب العيون ، وكتاب الدكتور ماكسن شيمون (فى التشريح وغيره) ، لكن تظل موضوعات كثيرة لم يطرق بابها أحد ، وقل أن وجدنا مستشرقًا مستعداً للإقدام على تلك الدراسة .

أما ما يخص الفلسفة الإيرانية فى الفترة قبل أربعة قرون تقريبا ، فيمكن القول إن نحو ستة من المتفكرين ظهروا ، لكن إلام تبلغ درجة شهرتهم من الكفاءة والمرجعية؟ فهذا سؤال لم يجد حتى الآن الإجابة الشافية ، وأسماء هؤلاء المفكرين حسب أسبقيتهم التاريخية هى : الشـــيخ بهاء الدين العاملى (ت ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢م) – ومـــيرداماد (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١-٢م) – وملا صدرا (ت ١٠٥٠ / ١٦٤٠ -١) – وملا محسن فيض (ت بعد ١٠٩١ / ١٦٨٠) – وملا عبد الرازق لاهيجى – وحاج ملا هادى سبزوارى الذى يقترب زمنه كثيراً منا وتاريخ وفاته (١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م) .

الحكمة والكلام

حكماء الإسلام على طبقتين بعضهم جعل فلسفته تابعاً للدين وبعضهم لم يحتد بهذه الحدود ، وتسمى الطبقة الأولى بالمتكلمين أو أهل الكلام ، والطبقة الثانية هى الحكماء أو الفلاسفة ، ويعد من الستة السابقين ملا صدرا فى الواقع ، وملا هادى فى الاحتمال ضمن الطبقة الثانية ، لكن الأربعة الباقين يحسبون من الطبقة الأولى ، ومع مرتبتهم من الناحية الفلسفية لا تبلغ علو الاثنين الأولين ، لكن بسبب نواح أخرى يجب عدهم أدباء وكتاباً كباراً ، وقد وردت سير هؤلاء الستة ما عدا ملا هادى الذى تأخر عهده فى روضات الجنات وقصص العلماء ، ونكتب فوق ما كتبناه عنهم فيما سبق نقلاً عن الكتابين المذكورين النقاط الآتية :

كان الخمسة الأوائل تقريباً متعاصرين ومتصلى الوشائج ، وكان للشيخ بهاء الدين وميرداماد نفوذ خارق ومحبة خاصة من الشاه عباس الأول ، ومع هذا – كما يذكر السير جون ملكم – لم يكن أحدهما يظهر حسده للآخر ، وكان الملا صدرا تلميذها ومحسن فيض وعبد الرزاق لاهيجى تلميذين وزوجى ابنتى الملا صدرا .

١- الشيخ بهاء الدين العاملى

(ولد ٩٥٣ هـ/ ١٥٦٤ م وتوفى ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م)

كان الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثى العاملى الهمدانى الجبعى أحد علماء الشيعة قدم من جبل عامل الشام إلى إيران ، ومن هنا أتت نسبته (العاملى) التى شهر بها ، لكن الإيرانيين يسمونه عادة (شيخ بهائى) وكان أبوه الشيخ حسين من تلاميذ زين الدين الشهيد الثانى ، وبعد أن اتهم أستاذه بجريمة التشيع وقتله العثمانيون ، قدم إلى إيران وبرفقته ابنه شيخ بهائى ، وبعد وصوله إليها سعى بهمة عالية إلى تحصيل العلوم الدينية والرياضيات والطب ، وقد تلقى العلم على يد والده ثم على يد الملا عبد الله يزد تلميذ جلال الدين دوانى صاحب أخلاق جلالى وهو من تلاميذ سيد شريف جرجانى أيضاً ، وأخذ الرياضيات عن (ملا على مذهب) وملا أفضل قاينى ، والطب عن علاء الدين محمود ، ولم يمر وقت طويل حتى حاز شهرة فائقة فى القضاء وصار صدراً أو شيخ الإسلام لأصفهان ، وبعد فترة غلبه الشوق إلى مكة ، وفى عودته من الحج لبس رداء التصوف وساح العراق ومصر والحجاز والشام وتعرف إلى علماء وفضلاء كثيرين ولاقى صوفية كباراً .

ولد الشيخ البهائى فى ١٧ المحرم ٩٥٣ هـ (٢٠ مارس ١٥٦٤ م) فى بعلبك بالشام وتوفى فى ١٢ شوال ١٠٣١ (٢٠ أغسطس ١٦٢٢) ، كتبه المعتبرة هى (جامع عباسى) فى الفتاوى الشرعية ، وزبدة ، ومفتاح الفلاح ، وتشريح الأفلاك ، وخلاصة الحساب ، والكشكول فى الحكايات والنصائح والأشعار، وبعضها فارسى ومثنوى (نان وحلوا) فيه سيرة للمؤلف ، وهو فى الحج ومثنوى آخر اسمه (شيروشكر) ، ومنتخب من هذين المثنويين وغزلياته أورده مجمع الفصحاء فى الجزء الثانى ص ٨- ١٠ .

٢ - ميرداماد

بدأ فى مشهد مير محمد باقر الأسترابادى المتخلص بإشراق المشتهر بداماد تعليمه الأولى ، لكن قضى الشطر الأعظم من حياته بأصفهان ، وكان - كما رأينا -

موضع احترام الشاه عباس ، وحين كان صاحب (عالم آراى عباسى) منشغلاً بتأليف تاريخه فى ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦ م كان ميرداماد يعيش فى أصفهان ، أما بقية ميرداماد فهو فى الواقع لقب والده سيد محمد ، لأنه تزوج من ابنـة الشـيخ على بن عبد العالى من الفقهاء المعروفين ، وتوفى مير محمد باقر فى ١٠٤١ هـ / ١٦٣١-٢ م ، وأغلب تآليفه بالعربية ، وله أشعار فارسية بتخلص إشراق ، تمتع فى الظاهر بحسٍّ للتحقيق فى الحكمة الطبيعية ، ويذكر صاحب قصص العلماء أنه أمر ببناء بيت من الزجاج للنحل لكى يعاين نظام النحل فى إخراج العسل ويطلع على عمله ، كما ورد بهذا الكتاب فإن الملا صدرا رأى ميرداماد فى منامه وسأله (كفرنى الناس ولم يكفروك مع أن مذهبى هو مذهبك ، فما سبب ذلك ؟) فأجابه ميرداماد : (كتبت الحكمة بالنحو الذى يعجز العلماء عن فهمها ولا يفهمها غير أهل الحكمة ، لكنك جعلت موضوعات الحكمة من الابتذال والوضوح فى البيان حتى استطاع شيخ الكتاب البسيط فهمها إذا قرأ كتبك ؛ لذلك كفروك ولم يكفرونى) .

٣- ملا صدرا الشيرازى (ت ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ -١ م)

كان صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازى الشهير بالملا صدرا الولد الوحيد لأب عجوز ، وبعد وفاة أبيه رحل عن شيراز إلى أصفهان ، واشتغل بالدرس – كما ذكرنا– لدى شيخ بهائى وميرداماد ؛ ونال الإجازة منهما بأن يشرح كتبهما ، وبعد ذلك ذهب إلى إحدى قرى (قم) وآثر العزلة وأمضى حياته قانعًا ، وانشغل بالتفكر والتعمق فى الفلسفة ، يقال إنه ذهب للحج مترجلاً سبع مرات ومات فى نهاية حجته السابعة حين وصل البصرة عام ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ -١ م خلف صدرا ولداً اسمه إبراهيم لم يتبع طريقة أبيه بل جاهر بمخالفته وتباهى بأن اعتقاده هو اعتقاد العوام نفسها ، وقد نقلنا هذا الموجز لسيرته عن روضات الجنات (ص ٣٣١-٢) وقصص العلماء ، وزيادة على ما ذكرنا يمكن أن نقول إنه لقى عنتًا شديدًا من الفقهاء كما يستدل من مقدمة (أسفاره) وكتب الشيخ أحمد الإحسائى مؤسس المذهب الشيخى شرحًا على كتابيه (الحكمة العرشية) و (المشاعر) ؛ لذا فإن الشيخ

محمد إقبال محق فى قوله إن فلسفة الملا صدرا هى المنبع والمنشأ للإلهيات الأولى لفرقة البابية ، وإن جذور حكمة هذه الفرقة العجيبة يجب تلمسها فى أفكار الشيخية ؛ لأن الشيخ أحمد الإحسائى مؤسس الشيخية كان يدرس فلسفة الملا صدرا بشوق وافتتان عظيمين وكتب شروحًا على كتبه ومؤلفاته على حد علمى بالعربية ، وأشهرها الأسفار الأربعة وشواهد ، الربوبية والكتاب الأول طبع فى قطع كبير فى ١٢٨٢ / ١٨٦٥ ، وطبع شواهد الربوبية مع حاشية ملا هادى سبزوارى فى طهران بدون تاريخ ، ومن جملة آثار صدرا التى لم أرها إلى الآن - كما يذكر روضات الجنات (ص ٣٣١) - شرح أصول الكافى وكتاب شرح الهداية وحاشية على إلهيات كتاب الشفاء لأبى على ابن سينا وشرح على حكمة الإشراف (ولعله كتاب الشيخ شهاب الدين السهروردى المشتهر بالمقتول الذى قتل بتهمة الزندقة ، وهو من الكبار المشاهير والمظاليم) ، وكتاب الواردات القلبية وكسر أصنام الجاهلية وبضعة تفسيرات لبعض سور القرآن وغيرها .

آراء فى الملا صدرا

مع الشهرة ورواج الفلسفة الخاصة بالملا صدرا فى إيران وحدها رأيت موجزين كثيرى السطحية والنقص عن مذهبه الفلسفى فى اللغات الأوربية ، ألف الكونت جوبينو بضع صفحات عن آراء صدرا ، لكن معلوماته - فيما يظهر - أخذها شفاهة من دروس معلميه ومعلموه المذكورون لم يكونوا على اطلاع كامل بآراء صدرا ، وكتب جوبينو فى نهاية الشرح الذى أداره للملا صدرا : (الطريقة الحقيقية للملا صدرا متخذة بالحرف عن أبى على ابن سينا) .

فى حين أن صاحب روضات الجنات يكتب بصراحة عن الملا صدرا: كان منقحًا أساس الإشراق بما لا مزيد عليه ومنقحًا أبواب الفضيحة على طريقة المُشّاء والرواق) ومعلوم أن ابن سينا كان من اتباع أرسطو والمشائين .

أما التعريف الأكثر إيجازًا - ولكن الأكثر جدًا وصحة مما قالوه - عن صدرا ومذهبه فهو الذى قدمه محـــــمد إقبال ، وإقبال أحد التلاميذ السابقين للدكتور مك

تاجرت Mc Tagart ، ودرس فى جامعة كمبردج نفسها ويعد اليوم أحد المفكرين المعتبرين والمبتكرين فى الهند ، ويكتب فى كتاب صغير له وقيم جداً واسمه (انتشار الحكمة الإلـهية فى إيران) فى جزء من تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٧٥ شيئًا عن الملا صدرا ، لكنه فصل القول فى ملا هادى سبزوارى (ص ١٧٥ - ١٩٥) ، وعده خليفة لصدرا ، وكما سنذكر فإن الملا هادى كتب خلافًا لصدرا بالفارسية ولم يكتب بالعربية.

ويلزم أن ننوه هنا إلى أن الملا صدرا كان يظهر احترامه واعتقاده العظيم فى الشيخ محيى الدين بن عربى المغربى المعروف ، ومع أن ابن عربى لم يكن إيرانياً ، لكن نفوذه كان أشد فى البلاد الإسلامية والمذاهب المغالية فى الفلسفة والعرفان الإيرانى عن أغلب الفلاسفة والعارفين .

٤- الملا محسن فيض كاشانى (ت نحو ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م)

محمد بن مرتضى الكاشانى الذى يسمى محسن المتخلص بفيض من أهل كاشان وكما قلنا كان التلميذ الخاص والأثير والمحبوب وزوج بنت الملا صدرا ، أورد صاحب روضات الجنات (ص ٥٢٤ - ٩) وقصص العلماء من سيرته أكثر مما أورداه عن أستاذه ، وبما أنه لم يكن فقيهاً وحكيماً وحسب بل كان شاعراً أيضاً وردت سيرته فى رياض العارفين (ص ٢٢٥-٦) ومجمع الفصحاء (٢/٢٥-٦) .

نشاطه الخارق فى التأليف والتصنيف

فاق نشاطه فى التحقيق والتحرير العادة : فقد ذكر له قصص العلماء نحو مائتى كتاب ورسالة وقل أن داناه أحد من معاصريه أو سابقيه فى كثرة تصانيفه ما عد الملا محمد باقر المجلسى ، ذكر له قصص العلماء ٩٦ كتاباً آخرها شرح الصدر فى سيرته هو، لكن الروضات كان أكثر تفصيلاً عن تأليفاته (٥٤٥ - ٦)، وذكر سنوات تأليف أغلبها ، ألف هذه الكتب فيما يبدو بين ١٠٩٢ هـ / ١٦٢٠ م و ١٠٩٠ / ١٦٨٠ ، كان

فى الرابعة والثمانين من عمره فى عام (١٠٩٠ م) العام الذى يعده البعض تاريخًا لوفاته ؛ ومن هنا فإن مولده فى حدود ١٠٠٦ هـ / ١٥٧٩– ٨ م ، لدى نسخة من مفاتح الشرائع من تأليفاته ، ويبدو أنها بخط مؤلفها نفسه وتاريخ كتابتها سنة ١٠٤٢ هـ / ١٦٣٢ – ٣ م.

فأل مناسب

وقتما عزم الملا محسن على ترك أسرته فى كاشان والتوجه إلى شيراز وحضور درس سيد ماجد البحرينى العالم المعروف لم يأذن له أبوه لذلك ، وفى النهاية أوكلا السفر إلى أخذ الفأل من القرآن الكريم والأشعار المنسوبة إلى الإمام على فظهرت من القرآن الآية :

(التوبة – ١٢٣) ، وظهر من شعر الإمام وبه عبارة (صحبة ماجد) التى ناسبت المطلوب تمامًا ؛ لأنها إشارة إلى سيد ماجد البحرينى الآنف الذكر ما يلى :-

تغرب عن الأوطان فى طلب العلا
وسافر ففى الأسفار خمس فوائد

تفرج هم واكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد

فإن قيل فى الأسفار ذل ومحنة
وقطع الفيافى وارتكاب الشدائد

فموت الفتى خير له من قيامه
بدار هوان بين ذل وحاسد

فلم يمنعه أبوه من السفر بعد هذا الأمر الصريح وسمح له بالتوجه إلى شيراز؛ فأتاها محسن وانشغل بالأخذ عن سيد ماجد هذا والملا صدرا ، وقيد قصص العلماء

تاريخ هذا السفر فى عام (١٠٦٥ هـ / ١٦٥٤-٥ م) ، ولكن هذا غير مقبول لأن بناء على هذا التاريخ لابد أن يكون فى سن الستين من عمره ، هو بادئ الدرس لأول مرة ومتزوج بابنة الملا صدرا .

معاداة الشيخ أحمد للملا محسن وغلبة محسن على مسيحى

غدّ صاحب قصص العلماء الملا محسن أخبارياً صرفًا وصوفيًا ومن المعتقدين بمحيى الدين بن عربى ، وكما سبق فقد كان الشيخ أحمد الأحسائى الذى كتب شرحاً على كتابين من كتب الملا صدرا يكره كثيًرا الملا محسن ويسميه (مسيئًا) لا (محسنًا) ، ويسمى الشيخ محيى الدين بن عربى (مميت الدين) ، ونرى فى قصص العلماء حكاية أقرب إلى الخرافى هى فى عهد الشاه عباس أرسل ملك الفرنجة مبشراً ليبشر بالمسيحية فى إيران ، وكان هذا الرجل يتوسل بكرامة هى أنه يظهر أوصاف ما يخفيه إنسان فى قبضة يده ؛ فأخذ الملا محسن حفنة من تراب قبر سيد الشهداء (رضى الله عنه) وغاص ذلك المبشر فى لجة الفكر ، ولما أصر عليه لكى يصف ما بقبضته قال: (أنا لم أعجز، ولكن حسب رؤيتى فإنى أرى أن ما بيدك قطعة من تراب الجنة لكنى أدير الفكر فى كيفية وصول تراب الجنة إلى يدك) ، فقال الملا محسن : صدقت وأظهر له ما بيده وأقنعه بأن يقبل الدخول فى الإسلام ؛ فدخل هذا الشخص بناء على قول صاحب الكتاب الإسلام ، ومع أن الملا محسن كان يبدى فى كثير من الأوقات تقواه وورعه لكنه خوفًا للفقهاء كان يجيز الغناء ، وأفضل مؤلفاته بالفارسية فيما يظهر (أبواب الجنان) المؤلف فى ١٠٥٥ هـ / ١٦٤٥ م وموضوعه الصلاة ولزومها (ولا ينبغى الخلط بين هذا الكتاب وكتاب متأخر له الاسم نفسه ، لكن موضوعه الأخلاق [1]) ، لكن لم يطبع من تأليفه الكثيرة غير عدد قليل متداول الآن وفى هذا الوقت يعرف الناس اسمه أكثر من تأليفاته .

(١) يشك ياسمى فى نسبة هذا الكتاب لمحسن .

٥- الملا عبد الرزاق لاهيجى

تشبه سيرته سيرة الملا محسن كثيراً لأنه كان تلميذاً للملا صدرا ، وكان يتخلص فى شعره بـ (فياض) ، لكن آثاره رغم أنها تقل عن آثار فيض تزيد اليوم عنها رواجًا وذيوعا ، ولعل أشهر كتبه جوهر المراد بالفارسية ، وفى الفلسفة و (سر مايه إيمان) بالفارسية ، والكتابان مطبوعان وما أورده روضات الجنات وقصص العلماء عنه قليل وغير كاف ، ويأسف صاحب القصص من أن جميع كتبه كانت وفق الشرع ، لكن لا يعلم إلى أى حد كانت تتطابق وعقيدة الشخصية ، وأنه كان يكتب كتبه لمجرد التقية والاحتياط وقول صاحب القصص يؤيد - إلى حد ما - رأى (جوبينو) أيضاً.

مير أبو القاسم فندرسكى

ذكرت شيئا قبل هذا عن مير أبى القاسم فندرسكى ، ولن أكتب عنه شيئًا هنا إلا محاولتى كشف حقيقته المبهمة وهو الذى عده (جوبينو) أحد معلمى الملا صدرا الثلاثة وهذا بشىء من الاختصار لم أصل عنه إلى شىء خلاف الشرح الموجز له الوارد فى رياض العارفين ومجمع الفصحاء ، والشعر الوارد فى هذين الكتابين له مكرر ونبذة من (دبستان) وردت فى حقه تجعله مرافقًا ومشاركًا لأتباع الجوزاء وعباد الشمس ولا شىء عندى حول سيرته وفلسفته بما يجعلنى أفضل أن أجعله (قلندريا) لا (فيلسوفا) ، ولعل جو أصفهان - وكانت مركز الشيعة الاثنى عشر ضاق على تحمله فأجبر على الرحلة إلى الهند ، ولو اعتمدنا قول رياض العارفين إن مزاره معروف ومعلوم فى أصفهان ؛ فلابد أنه عاد إلى أصفهان ثانية من الهند فى أواخر عمره .

ويعدد جوبينو (ص ١٩ - ١١٠) أسماء بضعة من الفلاسفة ظهروا بعد الملا صدرا حتى وقت إقامته بإيران ، لكن أغلبهم لم يتمتع بأهميته وابتكار خاص ، ونقدم هنا سيرة واحد فقط من الفلاسفة عاش فى عهد جوبينو الذى يصفه بأنه (شخص لا نظير له مطلقًا) .

٦- حاجى ملا هادى سبزوارى

(ولد ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ - ٨ م وتوفى ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٥ م)

لا يلزم التفصيل فى سيرة هذا الفيلسوف فى العصر الحديث ؛ لأن الشيخ محمد إقبال فصل القول فى آخر كتابه (انتشار الحكمة الإلهية فى إيران) فى آرائه الفلسفية ، وأنا حين كنت أدرس فى شتاء ١٨٨٧ - ٨ م فى طهران على يد واحد من تلاميذه ذكرت نبذة من سيرة أستاذه وأدرجت ترجمة إنجليزية لها فى كتابى (سنة بين الإيرانيين) (ص ١٣١-٤) ؛ وطبقًا لما أوردته فإن ملا هادى - حسبما يذكر ابنه - كان من أولاد المهدى وولد عام ١٢١٢هـ / ١٧٩٧ -٨ م ، وبدأ الدرس فى سبزوار مسقط رأسه ، ثم انتقل إلى مشهد وأصفهان وتتلمذ إلى الملا على نورى ومر على كرمان بعد حجه وتزوج منها وعاد إلى سبزوار وأمضى بقية حياته بها ومات فى ١٢٩٥ / ١٨٧٨ ، ومؤلفاته الفارسية المشهورة هى أسرار الحكم وشرح الألفاظ والعبارات المشكلة للمثنوى وبالعربية له منظومة فى المنطق وأخرى فى الحكمة وتفسير (لدعاى صباح) و (جوشن كبير) ، وحرر حواشى عديدة على شواهد الربوبية وسائر مؤلفات ملا صدرا وتخلص بأسرار فى شعره وأوجز صاحب رياض العارفين سيرته (ص ٢٤١-٢) ، وذكر أنه فى الستين من عمره وقت تأليفه هذا الكتاب (١٢٨٧ / ١٨٦١-٢ م) ، وقد طبع على الحجر أغلب كتبه بإيران .

٣- العلوم الرياضية والطبيعية والفنون الغريبة والخفية

كما ذكرنا تحسب الرياضيات والطبيعات وما وراء الطبيعة أو بعدها أجزاء من الفلسفة النظرية ، وبسبب أن فلاسفة الإسلام كانوا يبدون رأيهم ويتخذون آراء لهم قبل كل تجربة واستقراء وتحقيق فى العوامل والحوادث الطبيعية ؛ لأنهم كانوا يعدون ذلك جزءًا من الفلسفة النظرية ، وينظرون فى الوقائع الطبيعية بنظرتهم هذه ، والعلوم المسماة بالعربية أو الإسلامية كلها ميراث عن اليونان ، وكان العهد الوضاء للعلوم فى القرن الأول للخلافة العباسية (٧٥٠ - ٨٥٠) ، وكان خلفائهم - خاصة المنصور

وهارون والمأمون - يبذلون جهدهم وينفقون أموالاً لكى تنقل مؤلفات الفلاسفة والطبيعيين والأطباء اليونان بدقة وجمال إلى العربية ، وما أسدوه من خدمة عظمى للإنسانية هى أنهم حفظوا العلوم اليونانية فى أيام القرون الوسطى المظلمة ونقلوها إلى عصر النهضة الكبرى ، وهذا أمر لاشك فيه ، لكن تبقى مسألة أثرت إشكالاً لم تحل إلى الآن ، وهى هل كان الغرب حاملين وناقلين وحسب للعلوم اليونانية أو أنهم أجازوا عليها تغييراً وزادوا زيادة وإذا غيروا أو أضافوا إليها فهل يعد ما فعلوه رقياً بهذه العلوم وتكاملاً لها ، بحيث فيما يتصل بهذه المشكلة خاصة ما يرتبط منا بالطب فى كتاب (الطب العربى) (كمبردج ١٩٢١)؟ لكن بسبب عدم اطلاعى الكامل على كتب اليونان الأصلية فى هذا المجال شق علىّ الأمر كثيرا؛ لأن من أراد الحديث عن الطب والرياضيات والطبيعات والنجوم والكيمياء عند المسلمين لابد أن يتصف بثلاث سجايا قل أن تجتمع فى شخص واحد: أولها: معرفته بالعلم الذى يبحثه ، ثانيها :معرفته بالعربية ثم الفارسية والتركية لفهم المصادر المتأخرة ، وثالثها : العلم باليونانية ، وفيما يخص الطب ما وصلته من نتيجة هو أن أبا بكر محمد بن زكريا الرازى كان فى الطب أعلى مقاماً من أبى على ابن سينا الذى فاقه شهرة ، ولعله أعظم أطباء المسلمين ، ويرى رأيى هذا الدكتور ماكس نويبورجر Neuburger حين ذكر الرأى نفسه قبلى فى كتابه المهم (تاريخ الطب ٢ /ص ١٦٨)، ولا تزال المعلومات عن الأمراض والأعراض المختلفة لها الواردة بالكتاب الكبير (الحاوى) مفيدة ومهمة ولها منافع عملية فوق فوائدها التاريخية والأدبية ، وبناء على هذه المعلومات يمكن تحديد أسلوب علاج هذه الأمراض والعمل به ، كان ابن سينا أكثر منطقية وتنظيماً وفلسفة من الرزاى ، لكنه يفتقر إلى التحقيقات البقراطية التى تمتع بها سلفه العظيم .

ضعف العلوم بعد هجوم المغول

أجملت فى كتاب الطب العربى تاريخ ظهور هذا الفن وتطور فى المسلمين من بداية القرن الثامن الميلادى إلى الثانى عشر ، ولم أمتد بتاريخ الطب إلى الفترة التى أنهيت بها كتابى هذا؛ لأن علوم المسلمين - كما أشرت مراراً وتكررا - قد لقت فى

القرن الثالث عشر صدمة وضربة ماحقة بسبب الغزو المغولى حتى إنها لم تفقق منها حتى اليوم ، ومع أن كتبًا طبيًا وعلمية ألفت بعد ، المغول لكن لا نوقن ببلوغها درجة الكتب التى ألفت فى أوائل العصر العباسى حتى القرنين الحادى عشر والثالث عشر الميلاديين ، ولا يمكن احتمال أن شيئا جديداً وصحيحاً أضيف إلى هذه العلوم بعد المغول ، لكنى أعترف بأنى لم أبحث بدقة فى هذا الخصوص ، وترد قائمة مفصلة بأسماء هذه الكتب فى المؤلف الجم الفائدة للدكتور أدولف فونان المسمى بالمؤلفات الطبية للإيرانيين ، وتعد هذه القائمة مرشداً طبيًا لمن يريد أن يقوم بدراسات فى هذا المجال ، وأشهر وأهم الكتب المتأخرة لعله تحفة المؤمنين تأليف محمد مؤمن حسينى المؤلف للشاه سليمان الصفوى فى (١٦٦٩ م) ، ولدينا نسخ منه مخطوطة ومطبوعة وترجم إلى التركية والعربية أيضاً .

الدراسات الشخصية لعلماء الإسلام

ما ذكرناه عن الطب ينطبق على علم الحيوان والنبات والكيمياء وغيرها تماماً ويصل فى الرياضيات والنجوم وعلم المعادن إلى درجة الصدق ، وقد ألف المتخصصون المتقنون للغة العربية كتبًا دقيقة التحقيق فى هذه الموضوعات منهم (ويبك Woe-pecke) فلا الجبر والمقابلة وفيدمان فى الميكانيكا وهيرشبرج Hirschberg فى طب العيون ومن الشباب هلميارد Holmyard فى الكيمياء ، وأرى أن جميع هؤلاء العلماء وصلوا لهذه النتيجة ، وهى أن مقام العلماء المسلمين إذا لم يَفُقْ ما ذكر لهم فلن يقل عنه، لكن المشكلة تكمن فى أننا أقنعنا أنفسنا بأن يجب أن يكون للملاحظة والتجربة المباشرة فى تحديد خواص الأشياء والحوادث الطبيعية دخل على الوجه الأليق ، وقد جعل الدكتور بذل الرحمن – وهو الآن مدرس اللغة العربية فى المدرسة الشرقية فى لاهور – حين كان يدرس فى كمبردج موضوع بحثه فى كتب الجاحظ ، ويعد الجاحظ رائد علماء الطبيعية العرب بسبب كتابه العظيم (الحيوان) ، وعطف الدكتور بذل الرحمن – وهو شاب فعال ونشط – اهتمامه بناء عن طلب منى إلى هذه الرسالة وهى هل يمكن أن يوجد دليل فى كتب الجاحظ على أن الجاحظ قام بنفسه بتحقيقات

ودراسات فى عادات الحيوانات وحياتها ؟ وفى النهاية رأينا عبارة حلت القضية ، يقول الجاحظ : إن النمل حين يدخر حبات الغلال يقطع أعلا الحبة وأسفلها حتى لا تنمو ، وبعد مشقات وتحقيقات للتحقق من صدق قوله بأن لى صدق الجاحظ تماماً فى نهاية الأمر بناء على قول (هوارسدنيس ثورب) ، وهو أحد أساتذة علم النمل بإنجلترا كان لدى أمل فى أن هذه النقطة دليل على أن هذا المحقق العربى القديم أدرك بنفسه هذه النقطة فى حياة الحيوان التى جهلها أغلب العلماء المحدثين ؛ لكنى للأسف وجدت هذه المعلومة نفسها فى كتاب بلينى العالم الرومى فى التاريخ الطبيعى والمتوفى (٨٩ م)؛ ولهذا أظن أن معرفة الجاحظ هذه كانت مبنية على السماع والرواية ، وليس على التحقق الشخصى والدراسة المباشرة فى حياة الحيوان .

العلوم الجديدة الأوربية فى إيران

يبدو هذا السؤال فى كل علم من علوم العرب ولا يستطيع الإجابة عنه إلا من تبحر تبحراً كاملاً فى الكتب العلمية للقدماء ، وهو هل فى الكتاب الكبير الذى ألفه ابن البيطار بالعربية فى النباتات الطبية موضوع لم يرد فى كتاب (ديوسكوريدس Dioscorides وهو من أطباء اليونان فى القرن الأول الميلادى) ؟ ومهما كانت إجابة السؤال المذكور تبقى هذه النقطة المريب ، وهى هل تقدم العلماء المسلمون فى القرون الأخيرة عن أسلافهم أو بلغوا مرتبتهم أو غير ذلك ؟ فى الأيام الأخيرة خاصة بعد تأسيس دار الفنون أى أوائل عهد ناصر الدين شاه قاموا بترجمات عدد من الكتب العلمية الأوربية ، لكن هذه الترجمات عامة بإنشاء غريب ، ويمكن بمشقة إدخالها ضمن الأدب الفارسى ، وقد ذكرت عدداً منها فى كتابى صحافة إيران وشعرها الحديث ص ١٥٤ – ٦٦، وعنوان هذا الجزء هو (التأثيرات التجديدية فى عالم المطبوعات غير المجلات والجرائد) ، لكنى لا أعلم من الإيرانيين الذين درسوا فى معاهد أوربا بعد أواسط القرن الثالث عشر الهجرى ونالوا درجات علمية منها من نال فخراً وشهرة فى مجال الاختراع وابتكار كشف جديد .

فى الخاتمة يلزم أن أذكر كلمة عن العلوم الخفية ، وهى التى تشمل النجوم والكيماء لأنهم فى الشرق لا يفصلون النجوم والكيمياء عن الهيئة والكيمياء بمعناها الأوربى ، وتسمى الكمسترى أو الكيمياء الغربية بالكيمياء فى العربية والفارسية ، وأسماء العلوم الأربعة الأخرى التى تبحث الطلسمات والسحر تسمى الليمياء والهيمياء والسيمياء والريمياء ، والحروف الأولى لهذه العلوم الأربعة ومعها الكيمياء مأخوذة من كلمة (كله سر) أى : الجمجة أى جميع هذه العلوم أسرار ، ويعد كتاب (أسرار قاسمى) الفارسى وكتاب (شمس المعارف) للشيخ البونى المعروف بالعربية نموذج لقبيل هذه المؤلفات وتحكى هذا القسم من الأدب ، وعلى حدود علمى فقد كان ابن خلدون المؤلف الوحيد من المسلمين الذى سعى إلى ادعاء أساس فلسفى وعقلانى لهذه العلوم وطابق وقارن الدكتور دنكاك مكونالد بمهارة فائقة فى كتابه الشائق الدقيق (الحياة والوضع الدينى فى الإسلام) أفكار ابن خلدون وآراءه بالدراسات الروحية فى العصر الحديث، وكنت أنا دائماً أنظر بانفتاح وعدم تعصب إلى القوة والقدرة التى يدعيها المتعاملون مع الجن والسحرة ، وكلما أمكن لى أن أنحرف عن طريقى وأبذل وقتًا فى التحقيق فى أعمالهم فعلت ذلك ، وكنت أعود دائمًا يائسًا إلا فى حادثتين إحداها فى صيف ١٨٨٨ م وقت مقامى بكرمان رأيت ساحراً قام بفعل أثناء عروضه التى تعدم الأساس والصدق عجزت تماماً عن فهمه وحرت فيه ، والثانية قابلت الشيخ حبيب أحمد مؤلف الكتاب المحير المسمى أسرار الأصوات والأعداد والذى إذا لم أصدق جميع ادعاءاته فلا أقل من الاعتراف بأنه غاية فى المهارة والمقدرة فى قراءة السرائر والضمائر .

٤- التواريخ العامة والخاصة والمحلية

يجب الاعتراف – مع كامل أسفى ، وخلافًا لميلى القلبى – بأن الإيرانيين تخلفوا عن العرب كثيراً فى التأليف التاريخى (١) وفاق العرب فى هذا الفرع الأدبى الإيرانيين ،

(١) هنا اعتراف من براون بأنه منحاز إلى الإيرانيين ولو بالقلب مع أن إيران والعرب يشكلون جناحى الحضارة الإسلامية معاً بدون تمييز .(المترجم) .

فقد كان المؤرخون فى القرون الأولى الإسلامية كالطبرى يؤرخون الأحداث ونقلا عن أناس شاهدوها ، وكانت أخبارهم تصلهم من خلال سلسلة من الرواة بعد تدقيق وتمحيص كاملين ، ولم يكتف هؤلاء المؤرخون بذكر الوقائع التاريخية طبقًا للحقيقة بل تركوا لنا من الأزمان الغابرة موضوعات تاريخية مفيدة يمكن أن نبحث بناء على الوثائق المدرجة فى كتبهم صحتها أو سقمها ، ومع أننا نختلف فيما يتصل بصحة قول الرواة واستحكام سلسلة الأخبار عن المسلمين إلا أن مؤرخين عربياً أتوا فيما بعد أوجزوا هذه الروايات والوثائق القيمة والمضنية ولخصوها ونقحوها وإن فى عبارتهم لطف السابقين وإيجازهم ، وكانت فى مثل عبارة المؤرخين الأوائل جميلة ومقنعة وأفضل المؤرخين فى اللغة الفارسية حتى القرن الثالث عشر الهجرى إذا لم يبلغوا درجة العرب فى اللطف والتأثير ، لكنهم كانوا أكفاء ومحل ثقة ، لقد هيأ الذوق الفاسد والطبع المعوج للحكام المغول والترك أسباب فساد التاريخ وضياعه وأضاع أسلوب موضوعاته وتتضح هذه الحالة فى تاريخ جها نكشا تأليف الجوينى (المؤلف نحو ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) وتاريخ وصاف المؤلف فى ٧١٢ / ١٣١١ ، ويعد لكتاب الجوينى .

وسبق قولنا إن تاريخ وصاف ترك أثراً سيئًا ومفسداً على الكتابة التاريخية فى القرون التالية وقل أن رأيت ضمن كتب التواريخ الفارسية المتأخرة كتاباً يبلغ مرتبة تاريخ (تجارب السلف) لهندوشاه بن سنجر بن عبد الله الصاحبى الكيرانى الذى ألفه فى ٧٢٤ / ١٣٢٤ لنصرة الدين أحمد أتابك لرستان ، وهذا الكتاب فى حقيقته تقليد ونسخة لكتاب التاريخ العربى باسم كتاب الفخرى ، ولكنه يسمى هنا (منية الفضلاء فى تواريخ الخلفاء والوزراء) .

ولم يقع كتاب تجارب السلف فى ذوق أهل عصرنا هذا الذى يسيطر عليه البحث العلمى موقع القبول ؛ لأنه أولاً لم يطبع حتى اليوم بل إنه لا يوجد منه – حسب علمى – غير نسختين إحداها بحوزتى تحت رقم G.3 وخطت فى ١٢٨٦ هـ / ١٨٧٠ م ، والأخرى فى المكتبة الوطنية فى باريس وتاريخ كتابتها ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦ –٧ م .

بعض التواريخ المعتبرة فى العصر الأخير

سوف يكون باعثًا على الضجر وخلوا من الفائدة ذكرى أسماء جميع الكتب التاريخية فى القرون الأربعة الأخيرة بإيران ، ذكرت بل وصفت بالتفصيل كتب التاريخ المتعلقة بعصور بعينها فى القسم الأول لهذا الكتاب خاصة صفوة الصفا فى أحوال الشيخ صفى الدين جد السلاطين الصفويين وسيرة الشاه إسماعيل نقلاً عن دنيسن روس فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية فى ١٨٩٦ م ص ٢٦٤ - ٢٨٣ ، وأحسن التواريخ لحسن روملو المؤلف فى ٩٨٥ هـ / ١٥٧٧ - ٨ م، وتاريخ عالم آراى عباسى لإسكندر المنشئ الذى ألفه فى ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦ م ، ووضع خلاف هذه الكتب تواريخ أخرى فى سير شخصيات معينة فى أواخر العصر الصفوى مثل فوائد صفوية (١٢١١ هظ - ١٧٩٦/ ٧ م) وتذكرة آل داود (١٢١٨هـ / ١٨٠٣-٤م) ، والتى لو كانت موجودة لأفدت منها فى إعداد كتابى هذا ، لكنى - مع الأسف - لم أصل إليها ، وتوجد بضعة كتب أوربية فى تاريخ ما بعد الصفويين تغنيناً إلى حد ما عن كتب التواريخ الفارسية ؛ لكن الكتب الفارسية بعضها طبع فى أوربا؛ مثل تاريخ زنده ومجمل التواريخ بعد النادرية وطبع على الحجر فى الشرق بعضها الآخر من مثل دوره نادرى لميرزا مهدى خان استرابادى الذى يتيسر الحصول عليه ، هذه التواريخ الخاصة - غالبًا - تحوى موضوعات مفيدة ، ومن يرد بحث هذه الفترة فلا مناص له من الرجوع إليها ، لكن للأسف قلل من فائدتها أسلوب تدوينها وتأليفها بسبب انغلاقه وركونه الشديد إلى الاهتمام بالشكل واعتماده على الصيغة اللفظية وإظهار مقدرة مؤلفها الأدبى وإيراد الألفاظ المهجورة ، وقد شكونا من هذا النقص فيما سبق فقر أغلب كتب التاريخ العام الفارسية :

لا يمكن أن أنكر شيئًا كثيراً عن كتب التاريخ العام لهذا العصر مثل حبيب السير لخوندمير (٩٢٩ / ١٥٣٣ هـ) وملحقات روضة الصفا لرضا قلى خان وناسخ التواريخ تأليف لسان الملك والتاريخ النادر (خلد برين) (١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ -١ م) لأن جميع هذه الكتب حين تتحدث عن وقائع عصر مؤلفيها لا تختلف عن التواريخ المختصرة السابقة وليس لها من الأهمية الكبيرة حين تتحدث فى أحداث القرون السابقة ؛ لأنها

نقلت عن كتب السابقين ، ولم تبذل أى اهتمام فى تشخيص الأسانيد وترتيب الأحداث فضلاً عن أن هذه الكتب لا تحسب تاريخ الشعب الإيرانى بل أغلبها سيرة للسلاطين والأمراء الأجانب الذين حكموا إيران باستبداد متعاقبين وتسابقوا فى ميدان الإغارة والنهب ، وما هى إلا حوليات مضنية للمذابح وأعمال النهب والتطاول ، والتى يمكن بمشقة استخراج موضوع عام قيم منها ، إلا بعد تعب عظيم وصبر مقيم يمكننا استخراج نقاط منها تلقى شعاعًا خافتًا على الأوضاع والمسائل الدينية والسياسية والاجتماعية هذه الموضوعات نفسها هى التى لو وقعت فى يد مؤرخ كابن خلدون لخرج منها بنتائج قيمة .

أمارات الرقى فى العصر الحديث

مع ذلك نرى فى العصر الحديث آثاراً تبعث فى تقدم التاريخ . كان ميرزا جانى كاشانى وهو من بين قتلى الدفعة الأولى من البابية عام ١٧٥٢ م تاجراً بلا بضاعة أدبية وألف كتابه (نقطة الكاف) فى تاريخ البابية بحماس وتعصب وتشدد ، لكنه كان على اطلاع تام وعبارته سهلة وخالية من الاستغلاق والزينة اللفظية الكريهة والممجوجة ، أما التاريخ غير التام وهو (بيدارى إيرانيان) لناظم الإسلام كرمانى الذى ذكر أسانيده وبحث نفوذ الشخصيات ضمن الوقائع السياسية ووضعها تحت اهتمامه فهو تاريخ مختلف فى رأيى ، ويعلو رتبة عن جميع الكتب التاريخية الفارسية التى ألفت فى القرون الستة أو السبعة الأخيرة .

٥- أحوال الرجال - السير الذاتية - كتب الرحلات

تداول كتب الرجال بين المسلمين

أبدى المؤلفون المسلمون دومًا رغبة جامحة فى كتابة الرجال وتبحث هذه النوعية من الكتب عادة كافة الكبار من كل طبقة وطائفة وتشرح سيرهم مثل : وفيات الأعيان لابن خكان ، وروضات الجنات الذى اقتبست منه موضوعات كثيرة فى الأجزاء الخيرة

لهذا الكتاب ، ألف وفيات الأعيان فى القرن الثالث عشر الميلادى ، والروضات فى التاسع عشر وكلاهما بالعربية ، ومن كتب الرجال الأخرى (نامه دانسوران) أو رسالة العلماء التى ألفتها جماعة المؤلفين (نحو ستة) وهو بالفارسية الحديثة روعى فيه منهج واسع ومفصل ، لكنه لم يتم وطبع على الحجر بطهران الجزء الأول فيه ١٢٩٦ هـ / ١٨٧٩ م والثانى فى ١٣١٢ هـ / ١٩٠٤-٥ م (تم طبع بقية الأجزاء فيما بعد بطهران)، وغالبًا تختص هذه الكتب بأحوال طبقة بعينها وتزداد كذلك معلومات جغرافية وتاريخية ، ويمكن أن نمثل بدستور الوزراء لخواندمير المؤلف عام (٩١٥ هـ / ١٥٠٩ - ١٠ م) وتاريخ تأليفه يؤخذ من اسمه للنوع الأول ، ويقع بالضبط فى بداية الفترة المدروسة ، أما عن الحكماء والأطباء فلم أجد فى الفارسية ما يضارع تاريخ الحكماء للقفطى وعيون الأنباء لابن أصيبعة ، وألف هذان الكتابان فى القرن الثالث عشر الميلادى وهو العصر الخاص بتأليف هذا القبيل من المؤلفات العربية ، ومن ناحية أخرى تكثر تذاكر الشعراء فى الفارسية خاصة ، وأن تأليف هذا النوع من السير قد بات ذائعًا بعد أن حرر سام ميرزا ولد الشاه إسماعيل الصفوى تحفته السامية (تحفة سامى) فى (٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م) يقلد دولتشاه فى تذكرة الشعراء ، أما سيد نورى شوشترى الذى لفظ أنفاسه الأخيرة تحت سيطرة السلطان المغولى الهند جها بخير فى ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ - ١١ م بتحريض السنة ولقب عند الشيعة ، بالشهيد الثالث ؛ فقد ألف كتابًا مفيداً هو مجالس المؤمنين الذى حوى سير أعيان الشيعة ، ولقب عند الشيعة العرب والإيرانيين من كل طبقة وزمرة من الحكام إلى الشعراء ، ويعد كتاب آثار البلاد لزكريا بن محمد بن محمود القزوينى و (هفت إقليم) أو الأقاليم السبعة للعالم تأليف أمين أحمد الرازى (ألف ١٠٢٨ / ١٦١٩) نموذج الكتب الجغرافية القديمة وسيراً ممتزجة بالجغرافيا ، ولدينا كثرة أيضًا من التواريخ الخاصة بالبلاد والمدن الإيرانية الحديث خاصة من الكتاب العربى روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات الذى أفادنى كثيرا فيما يتعلق بالمذهب الشيعى وعلمائه .

روضات الجنات

هذا المؤلف المفيد الذى يجدر الثناء عليه بأكثر من ذلك يشمل سيرة (٧٤٢) من الفضلاء وعلماء الإسلام والشعراء القدامى والمحدثين ، مؤلفه هو محمد باقر بن حاجى أمير زين العابدين الموسوى الخونسارى وزمن تأليفه النصف الثانى للقرن التاسع عشر الميلادى ، طبع فى طهران طبعة أنيقة جدا فى ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٨ م (أى أنه بغير فهرست كالعادة) ، رتب ترجماته ترتيباً هجائيًا أى يأتى أولاً أحمد فعلى محمد وهكذا لكن لم يلتزم بهذا الترتيب فى كل المواضع فقلما اتفق أن يكون الاسم هو الاسم المعروف لصاحبه بل كان الأعيان المذكورون يعرفون غالباً بألقاب وأسماء أخرى لا تظهر فى الترتيب الهجائى من الوهلة الأولى ، فمثلاً الشطر الأعظم من المجلد الرابع والأخير يختص بالأعيان الذين أسماؤهم (محمد) واندرجوا فى نحو (١٤٣) مقالة ، ويشمل سيرة كبار العلماء من السنة والشعية الذين يحتاج الأمر إلى رجوع إلى سيرهم من مثل : الكلينى وابن بابويه والشيخ المفيد ، ومؤرخين مثل الطبرى والشهرستانى وعلماء مثل الرازى البيرونى ، وفلاسفة مثل الفارابى والغزالى وابن عربى ، وشعراء فرس مثل العطار والرومى ، ولم يتبع هذا الكتاب أى منهج صحيح ومحدد لا على أساس الترتيب التاريخى ولا بسياق آخر يمكن من خلاله العثور على الشخص المطلوب ،

قصص العلماء ونجوم السماء وغيرها

من بين الكتب الأخرى التى كنت دائم الرجوع إليها قصص العلماء لمحمد ابن سليمان تنكابنى المؤلف فى (١٢٩٠ هـ - ١٨٧٣ م) ، وورد بهذا الكتاب نحو مائة وخمسين من علماء الشيعة ، ومع أنه يقل عن روضات الجنة صحة وثقة ، لكنه يزيد عليه وضوحًا وسهولة ، ومن الكتب المفيدة الفارسية التى تبحث فى مجال نجوم السماء تأليف ميرزا محمد على المؤلف فى (١٢٨٦ / ١٨٦٩ - ٧٠) ، ويشمل مير علماء الشيعة فى القرون ١١،١٢،١٣ الهجرية (١٧،١٨،١٩ م) ، كذلك كتابان آخران

يخصان علماء البحرين وجبل عامل : الأول لؤلؤة البحرين تأليف الشيخ يوسف الأحمد البحرانى ؛ الذى كان يعيش فى القرن الثامن عشر ، والثانى (أصل الأصل فى علماء جبل عامل) من مؤلفات محمد بن حسن العاملى ؛ الذى كان يعيش فى القرن السابق .

الخطاطون

يلزم ذكر شىء عن كتاب جديد يتميز بسمات خاصة مع أنه لم يوضع من قبل إيرانى بل ألف بالتركية واسمه "الخط والخطاطون فى فن الخط وأهله " مؤلفه العالم الفاضل ميرزا حبيب أصفهانى الذى عاش الجزء الأخير من حياته فى إسلام بول ، وكان عضواً بجمعية المعارف أو الأكاديمية العثمانية .

التراجم الذاتية

ما ذكرناه هو أسماء بضعة كتب مفيدة ، ومن أراد الاطلاع على كافة الرجال وتذاكر السير فعليه الرجوع إلى فهارس النسخ الفارسية تأليف رييه وأتيه وغيرها ، أما فيما يتصل بالتراجم الذاتية فأهمها جميعاً تذكرة أحوال الشيخ على حزين أو ترجمته الذاتية ، وهى أحد مصادر الأولى لتاريخ هجوم الأفغان وسقوط أصفهان فى ١٧٧٢ م.

كتب الرحلات

كتب الرحلات بدورها قسم من السيرة الذاتية واهتم ناصر الدين شاه بهذا النوع اهتماماً خاصاً ، ألف رحلة فرخ خان أمين الدولة إلى لندن وباريس فى نهاية حرب ١٨٥٧ - ٨ م بين إيران وإنجلترا أحد كتابة ورفاق سفره وهو ميرزا حسين بن عبد الله، ولكنها لم تطبع حتى الآن ، وورد فى خاتمة هذه الرحلة معلومات عن الدوائر الحكومية والمؤسسات الوطنية الفرنسية .

بستان السياحة

أهم هذه الكتب وأكثرها تنوعًا بستان السياحة لحاجي زين العابدين شيرواني الذي ألفه في ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١- ٢ م، ويتحدث المؤلف عن نفسه ضمن شرحه مدينة شماخي فقد ولد في منتصف شعبان ١١٩٤ (١٥ أغسطس ١٨٧٠) ، وذهبوا به إلى كربلاء وهو في الخامسة من عمره وأقام بها ، وقام بأسفار طويلة إلى العراق، وجيلان والقوقاز، وآذربيجان، وخراسان، وأفغانستان، والهند، وكشمير ، وبدخشان، وتركستان وما وراء النهر، وخليج فارس، واليمن، والحجاز، ومصر، والشام، وتركيا، وأرمينية ومدن إيران : مثل طهران ، وهمدان ، وأصفهان ، وشيراز ، وكرمان ، وكان حاجي شيرواني شيعيًا ويتبع الطريقة النعمة اللهية؛ ولهذا فقد نال لقاء عدد كبير من العلماء والصوفية ، تميز بذهن حاد ودقة خارقة ، ولا يكتب أحداثه وما شاهده بسفره بترتيبها التاريخي في رحلاته بل يرتبها تحت العناوين التالية :

الباب الأول : في سيرة خاتم النبيين والأئمة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين .

الباب الثاني : سيرة بعض العلماء والعارفين والحكماء وبعض الشعراء والعلماء .

الباب الثالث : في بيان بعض المذاهب المتشتتة والعقائد المختلفة .

الباب الرابع : في بيان أسماء الأمصار والقرى وجغرافيتها وهي الواقعة بإيران وتركستان وأفغانستان والهند وبعض أوربا والصين والخطا والبلاد العثمانية من الشام ومصر وغيرها على حسب هجائيتها .

الرحلة : في بيان مقدمات هذا البستان وترتيبه وبين بعض المعلومات المناسبة له.

الرياض : في بيان البلدان وأشخاصها ، وهذا هو المقصد الأقصى لهذا الكتاب وعددها يتطابق وحروف الهجاء بحيث تكون الروضة الأولى لحروف الألف والروضة الثامنة والعشرون لحرف الياء يحوي هذا الكتاب موضوعات متفرقة في الجغرافيا والسير ، وبما أنه راعى ترتيب حروف الهجاء فيها وقيد في بدايته فهرس مفصل

فيمكن لقارئه بسهولة الإفادة منه ، كان المؤلف فطنًا ودقيقًا ، ومع أنه لم يستطع سياحة أوروبا لكنه لم يغفل السياح الأوربيين ومحادثتهم واكتسب من حواره معهم معلومات عن بلادهم وآدابهم وعادتهم ، بحث تحت عنوان (الفرنجة) (٣٨٥ – ٧) أحوال البلاد الكبرى الأوربية وعاداتها فيضع فرنسا أولاً ، ثم النمسا ، ثم إنجلترا أو يكتب شرحًا مفصلاً لحواره مع رجل إنجليزى يسميه (مستر فكليس) ، وقابله فى عظيم آباد بالهند ، كما قابل سفير النمسا بإسلام بول الذى دعاه إلى زيارة بلاده لكنه يقول : (بما أن ليس من فائدة دينية ناتجة عن هذه الزيارة فلم أقبلها) ، وأقيم أجزاء الكتاب موضوعات عن الفرق والمذاهب الدينية فى آسيا وبحث خلال المباحث المختلفة أحوال الزردشتيين والمزدركيين، واليهود، والنصارى، والهندوس، والصوفية، والغلاة .

ولا يمكننا هنا أن نحصى جميع الكتب المفيدة اللائقة بالرجوع إليها التى ألفت فى التاريخ والسيرة والجغرافيا من النصف الثانى للقرن التاسع عشر فصاعداً بإيران، ومع أن أغلبها استخرج من المصادر العربية والفارسية القديمة ولخصت ، لكن جديداً يظهر فى بعض الموضوعات المفيدة لا يمكن أن يوجد فى غيرها من الكتب .واكتفى بذكر بعض المعلومات الخاصة التى نلاحظها فى هذا القسم من الأدب وكتب إيران الحديثة .

فى العادة إذا لم يقم بإيران الأوربيون الدارسون للفارسية ؛ فإنهم يستخدمون المصطلحات التى قابلتهم فى المخطوطات الفارسية ، ويظهرون معرفتهم بالأدب الفارسى التى وردت فى الفهرست الذى لا نظير له وأعده الدكتور (ريبه) ، لكن بعد دخول الطباعة بالرصاص وعلى الحجر إلى إيران – خاصة بعد عام (١٨٨٠ م) – أخذت أهمية المخطوطات تقل يوماً بعد يوم لأن الكتب المهمة إما أنها طبعت فى المطابع الحجرية أو مطابع تجميع الحروف عن أصلها المخطوط ، ولم تجلب هذه الآداب المطبوعة حتى اليوم الاهتمام الذى اكتسبته الآداب المخطوطة وغالبًا فلا نستطيع أن نحصل على معلومات صحيحة عن مؤلف أحد هذه الكتب الجديدة أو موضوعاتها ونشر فهرس الكتب المطبوعة الفارسية بالمتحف البريطانى بهمة السيد (ادواردز) مجدداً بطريق الطبع خطوة كبيرة فى طريق إكمال المعلومات السابقة ، لكن المعلومات المتصلة

بكل كتاب مذكور فهى موجزة كثيراً بوجه الاضطرار ، ولا تضم قط نقطة خاصة من سيرة المؤلفين والمصنفين إلا معلومات عامة عن المؤلفات المختلفة ، وما يلزمنا هو فهرس إرشادى موسع للكتب الفارسية المؤلفة فى القرن الأخير وطبعت بإيران لأنه أمكننا للأسباب التى سأذكرها الآن أن نحصل بسهولة على قائمة بالكتب الفارسية المطبوعة فى تركيا ومصر والهند .

الحقيقة أن تجارة الكتب الفارسية فى غاية الفساد والاضطراب ، فلا يوجد الناشرون وباعة الكتب المتمكنون والدائمون ، ولا تنشر قائمة بالكتب الموجودة ، وأغلب الكتب ليس لها ثمن محدود ولا دار دائمة لبيعها ، وكثير منها تفتقد عدداً من الصفحات ، وقل أن يوجد كتاب يضم فهرساً لمحتوياته أو ثبتا بأسماء من فيه . والكتب التى تطبع فى أكثر من مجلد يتغير كل مجلد فى شكله وقطعه وأسلوبه بل يتغير موضوعه على طول الكلام ، بل يتغير اسم المؤلف نفسه غالبًا ، ولمجرد التمثيل أذكر واحداً من عدة كتب ألفت باسم ميرزا محمد حسن خان أبن حاجى على خان مراغة الملقب بحاجب الدولة وأعتماد السلطنة ، فمحمد حسن خان نفسه ذكر تباعاً بألقاب مختلفة مثل صنيع الدولة ومؤتمن السلطنة وأعتماد السلطنة ، ولابد قبل كل شىء أن نذكر أنه لا يظهر قط أن اعتماد السلطنة هذا قد كتب هذه الكتب ، ويدور على الألسنة أن اعتماد السلطنة كان يجبر بضعة من الأدباء المعوزين على كتابة هذه الكتب ويضع هو اسمه كمؤلف عليها ويمكن قبول العمل الأول من هذين العملين تجاوزاً لكن العمل الثانى يستحق اللوم والتقبيح ، ثم أنه نشر فى ١٢٩٣ / ١٨٧٦ الجزء الأول من مرآة البلدان وهو قاموس جغرافى لبلاد إيران وقراها ، ويقوم أساسًا على معجم البلدان لياقوت الحموى ويشمل الحروف من الألف إلى التاء ، ويبدو أن هذا الجزء طبع مرتين الأولى انتهت بذكر تبريز ولها ٣٨٨ صفحة الطبعة الثانية التى حدثت فى السنة التالية (١٢٩٤ / ١٨٧٧) حوت ذكر طهران وبها ٦٠٦ صفحة وبعد أن وصل المؤلف إلى طهران كأنه ملّ الجغرافيا فأكمل كتابه بإثبات تاريخ يبدأ من عهد ناصر الدين شاه (ملك الأوان) وزاد فى نهاية ذلك الجزء وسائر المجلد تقويمًا البلاط الملكى ، ويشمل الجزء الثانى أحداث السنوات الخمس عشرة الأولى من حكم ناصر الدين شاه، وبه

٢٩٨ صفحة فضلاً عن تقويم لسنة ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م يحوى ٤٥ صفحة ، والجزء الثالث يستمر بهذا المنوال نفسه ، ويبلغ تقويمه خمسين صفحة ، وهنا ربما تنكر المؤلف مقصده الأساسى وهو ذكره موضوعات جغرافية فأكمل فى الجزء الرابع معجمه الجغرافى وأتم الحروف من التاء إلى الجيم ، لكنه ولج التاريخ ثانية فذكر نبذات من وقائع سنة تأليف الكتاب (١٢٩٦ / ١٨٧٩) وضم التقويم العادى له ، وفى هذا الجزء بدافع سعادته بالصلح والاتفاق الذى تم بين التاريخ والجغرافيا يزيد من قطعه الكتاب ويصل من ١٠,٥ بوصة طولاً ، و ٦,٧٥ بوصة عرضاً إلى ١٣,٥ بوصة وطولا ، و٨,٢٥ عرضاً .

وكأن المؤلف إذ ذاك ملّ من مرآة البلدان وسأمه ؛ لأنه بعد عام من الراحة شمر عن ساعد نشر كتاب جديد اسمه (منتظم ناصرى) ، وخرج إلى النور مجلدات ثلاثة منه بين عامى ١٢٥٨ و ١٣٠٠ هـ / ١٨٨١ و ٨٣ م ولدى فقط الجزء الأول والثالث لهذا الكتاب ويشـــمل الأول موجزاً لتاريخ الإســـلام من أول الهجرة إلى ٦٥٦ هـ / ٦٢٢ – ١٢٥٨ م) أى تاريخ الخلفاء وملحق به الأحداث المهمة لإيران وأوربا بالتقويم الشمسى الذى يبدأ من مارس ١٨٨٠ ، يستغرق من ص ٥٧ إلى ٢٣٩ من هذا الجزء ، وتأخر الكتاب ٤٢ صفحة ألحقت لتقـــويم البلاط أما الجزء الثالث فيحـــوى تاريخ القاجارية من ١١٩٤ / ١٧٧٩ إلى ١٣٠٠ / ١٨٨٢ (صفحة ٣٣٢ – ٨٧) فضلاً عن التقويم الأخير .

مطلع الشمس (١٣٠١ – ٣ هـ / ١٨٨٤ –٦ م)

ويبدأ اعتماد السلطنة فى السنة التالية تأليفه الجديد باسم مطلع الشمس ، فى بداية هذا الكتاب يعتذر بحجة واهية عن عدم إكمال مرآة البلدان ، ويقول بما أن حرف الحاء والخاء يأتيان بعد الحروف المدرجة فى مرآة البلدان ، وبما أن خراسان أهم ولاية تبدأ بحرف الخاء ، وبما أن ناصر الدين شاه والمؤلف من أتباعه المطيعين وزين جميع كتبه باسمه قد زار هذه الولاية أخيراً فقد صمم بأن يوقف هذا الكتاب على أوضاع هذه الولاية ، وبما أن خراسان تقع شرق إيران ، فقد جعل عنوان الكتاب (مطلع الشمس) ، ثم يضيف فى الجزء الأول المؤلف فى ١٣٠١ هـ / ١٨٨٤ م حالة طريق

طهران إلى مشهد الذى يمر بدماوند وفيروز كوه وبسطام وبجنورد وقوچان ، ويشرح أحوال كل بلد من هذه البلاد مع قراها وبنازلها وسط هذا الطريق ، أما الجزء الثالث المطبوع عام ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م فهو وصف لمدينة مشهد وعماراتها وتقرر عن تاريخها من ٤٢٨ / ١٣٠٦ إلى ١٣٠٢ / ١٨٨٥ والعظماء والأعيان المولودين بها وسيرة الأمام على الرضا وفى الخاتمة (٤٦٩ - ٥٠٠) فهرس قيم ملحق لكتب مكتبة عتبة الإمام الرضا ، وورد ضمن هذه الموضوعات الجغرافية والتاريخية تذكره الشاه طهماسب الصفوى أيضًا (من ص ١٦٥ إلى ١٢٦ - وهى التذكرة نفسها التى نقلها منها موضوعات كثيرة فى أحد الفصول السابقة - والجزء الثالث الذى نشر فى ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٦ م) فى شرح عودة الشاه بطريق زوار الرضا العادى (نيسابور وسبزوار ودامغان وسمنان) مع تاريخ ووصف جغرافى وسير كبار كل من هذه البلاد والمنازل الواقعة على هذا الطريق ، وتأخر كل جزء ألحق تقويمًا للبلاط .

وسائر مؤلفات محمد حسين خان الكثيرة التى ألفت بعد مطلع الشمس ألحق بها تقويم مستقل عن الكتاب فى صفحاته ما عدا تاريخ النسوة الشهيرات المسلمات التى تسمى بالخيرات الحسان ، وطبع فى مجلدات ثلاثة بين السنوات من ١٣٠٤- ٧هـ / ١٨٨٧- ٩٠٢ م لا تضم تقويمًا ، لكن (المآثر والآثار) الذى يشرح الأعمال الكبار فى أربعين سنة من حكم ناصر الدين شاه ملحق بآخره تقويم ، ويلزم كثيرًا من يريد الاطلاع على أحوال الأعيان وتكامل أوضاع إيران إلى سنة تحرير الكتاب أن يراجع هذا الكتاب (المآثر والآثار) ، وقد ألف كاتب آخر معروف باسم محمد تقى خان الحكيم فى (١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ - ٨ م) معجمًا كاملاً لأسماء الأماكن والبلاد الإيرانية ويضم ٥٧٤ صفحة وسماه (كنج دانش) أو كنز المعرفة ، ومن المحاسن التى تبعث الآمال لهذا الكتاب أنه ضم فى البداية فهرسًا للمصادر والمراجع والكتب التى رجع إليها المؤلف يذكر منها عدداً من الكتب الأوربية والمؤرخين اليونانيين القدامى .

وتتميز هذه الكتب المطبوعة الفارسية - مع النقص الذى فيها - بالخط الجيل والأنيق فى طباعته وحسن الإخراج والورق الممتاز ، ولا تسبب ملل القارئ وبعضها مثل الخط والخطاطين لسنكلاخ ومثنوى كشف الأبيات طبع علاء الدولة فى الواقع كتب

مقبولة وأنيقة وتفضل بشكل واضح جميع الكتب المطبوعة بإيران تقريباً هذه ؛ التى طبعت بالهند، لكن يمكن الحصول بمشقة على هذه الكتب فى أوربا ، ولعله لا يمكن الحصول عليها بيسر إلا من طهران وتبريز وربما أصفهان ، بل إن مجموعة كتب المتحف البريطانى بها نواقص كثيرة ، لكن المجموعة الخاصة بى التى اشتريت فى البداية من إيران سبب أنها كاملة لأنى حصلت على مجموعة من هذه الكتب من مكتبتين معتبرتين وأضفتها إلى الكتب الأخرى ملكى ، هى مكتبة المرحوم شارل شفر ومكتب المرحوم هوتم شيندلر ، وكما ذكرت سابقاً فإن أجلَّ خدمة للمستشرقين المتخصصين فى الإيرانيات هى تأليف فهرس صحيح ومفصل لكتب إيران المطبوعة ونشره فى أسواق باعة الكتب بأوربا .

ولأن الطباعة على الحجر بدايتها سهلة وبسيطة ولا تحتاج مهارة فنية أو تكاليف ضخمة ، ويبادر إليها غالباً الكتاب الفقراء ومحبو الاطلاع الفقراء أيضاً ، ويطبع منها عدد قليل جدا ؛ بحيث إنها تنفد نسخها فى مدة قصيرة ؛ لهذا لابد من احتساب عدد كبير من الكتاب المطبوعة على الحجر من ناحية الندارة فى حكم النسخ المخطوطة، وليس فى حكم الكتب المطبوعة بتجميع الحروف .

الفصل العاشر

رقى السنوات الأخيرة (من ١٨٥٠ م فما بعدها)

عوامل التحديد

أثبت أن الأدب الفارسي من نظم وشعر لقى روحًا جديدة من بعد نصف القرن التاسع عشر الميلادى ، ولم يتوقف وحسب عن الضعف بل وميله درجة من التعالى والرقى لم يبلغه فى القرون الأربعة الأخيرة - تقريبًا من ١٥٠٠ إلى ١٩٠٠ م - وهى فترة دراستنا هذا الجزء من الكتاب ، والآن أقوم بشرح ثلاثة أو أربعة أنواع من الأدب الجديد الذى ظهر فى السنوات الأخيرة ، شرح ميرزا محمد على خان تربيت وهو المؤلف الحقيقى لكتابى (صحافة إيران وشعرها الحديث) - فى الصفحات من ١٥٤ - ١٦٦ - سبب ظهوره تحت هذا العنوان : عوامل التجديد التى أثرت فى صحافة إيران ومطبوعاتها من غير الجرائد والصحف ، ويحصى المذكور بين هذه العوامل التآليف العلمية المختلفة التى ألفها المعلمون الأوربيون فى دار الفنون والمدارس العسكرية والسياسية فى طهران من (١٥٨١ م) فصاعداً ، كذلك الترجمات التى تمت للكتب الأوربية (خاصة الكتب الفرنسية) كمسرحيات موليير وأساطير جول فرن ، وقد تسببت هذه الترجمات نفسها فى زيادة اهتمام الإيرانيين بأوربا وميلهم إلى تعلم اللغات الأجنبية ، وقد أعد السيد (تربيت) قائمة من (١٦٢) كتابًا مترجمًا ، وأورد بها الروايات التى أبدعها الإيرانيون على الأسلوب الأوربى ، ويمكن أن يراجع هذه القائمة من يطلب مثل هذه الدراسات .

إن وقع ثورة (١٩٠٦) والانتشار غير العادى للكتابة الصحفية التى تعد من ثمرات هذه الثورة وسهولة الطباعة ونشر الكتب بسبب رواج هذه الصحافة منحت

النهضة الأدبية رقياً جديداً ، ومع أن هذه النهضة جمدت أيام الحرب العالمية ، لكنها بعد هذه الحرب خرجت عن عقالها وتحركت حركة جديدة ، وما يجب عليّ ذكره فى هذا الباب يقع تحت ثلاثة عناوين هى : المسرح – الرواية – الصحف ، لكنى لا أستطيع التفصيل فى المسرح والرواية .

المسرح

المسرح المحلى الوحيد الذى يمكن ذكره هو ما يعرض فى التعزية أيام المحرم من مشاهد مقتل الحسين ، وقد تحدثنا عنه فى أحد الفصول السابقة ، ولا يمكن التسليم بأن مسرح التعزية هذا لم يتاثر بالمسرح الغربى ، وقد ترجمت على الأقل ثلاث من مسرحيات موليير الكوميدية إلى الفارسية هى : طبيب رغم أنفه ، وقصة شعب ميزا نتروب الهارب Misathrope ، والثالثة سميت مسرحية الحمار ، وأرها مسرحية نزقة أو طائشة ، لكن نسخ هذه الترجمات قليلة ، ونعلم أنها لم ترج بين العوام ، وليس لدى منها غير نسخة لمسرحية ميزانتروب التى طبعتها مطبعة (تصويرالأفكار) فى إسلام بول عام ١٢٨٦ هـ / ١٨٩٦ – ٧٠ م وعنوانها قصة الشعب الهارب ، وقد تغيرت العادات والأخلاق الخاصة بالشخصيات فى هذه المسرحية واكتسبت شكلاً إيرانياً ، والحوار كله شعر ويقترب جداً إلى الأصل ، وترى بين الحين والآخر اصطلاحات وأمثال فارسية أيضًا قيدت بدل من الفصل الثانى ، فمثلاً النص الفرنسى التالى أنشودة قديمة فى المشهد الأول من الفصل الثانى من كتاب موليير :

si le noi m'avait donné

paris, sa grande ville

Et qu'il me fallut quitter

L'amour de ma mie

Je dirai au roi Henri

Reprenez votre Paris !

J'ainme mieux ma moie o gai !

J'aime mieux ma mie

وترجمت شعراً بالفارسية معناه :

لو أعطاني الملك شيراز نظير شعره
من حبيبتي التركية الشيرازية

لقلت له أيها الملك مع أن شيراز
مدينة لا يعدلها مدينة أخرى

إلا أن التركية الشيرازية هي
حسبي واسعد أنت مدينة شيراز

ولو قارنا الأشعار الفارسية الآتية بالمشهد الثاني للفصل السابع نجد نموذجاً طيباً لأسلوب ترجمة المسرحية ، والشخصيات هي مؤنس بدل Alceste ، وفتينة بدل Gélimene ، وليلى بدل Eliante ، وناصح بدل Acaste ، ونعيم بدل Philinte ، والفراش بدل أحد الحراس Marechaussee :

مؤنس (يتقدم الفراش) : بم تأمر ؟ أقبل لأرى .

الفراش : لدى كلمتان مع حضرتك .

مؤنس : يمكن أن تفضي بكلمتيك .

الفراش : رئيس الديوان الذى أنا له عبد وفراش سلمنى أمراً بإحضارك .

مؤنس : إحضارى أنا ؟

الفراش : نعم أنت .

مؤنس : لأى سبب ؟

ناصح : بسبب كلام فارغ صدر من (أميدى) وسعادة البك مؤنس .

فتينة (لناصح) : كيف حدث هذا ؟

ناصح : أصبح هو و (أميدى) مختلفين بسبب شعر ليس له وقع ولا مبرر ، والآن يريدون الإيقاع به وفاق عمله .

مؤنس : إننى لا أقر أبداً بالمداهنة فى حكمى .

ناصح : ولكن الأمر قد صدر فغادر هذا المكان .

مؤنس : كيف يصلحون ويصفون ما بيننا ؟

بأوامر الكبار التى كانت فى محلها .

فهل تؤمن بأشعار الناس الرديئة ؟

لا أتراجع عن قولى عنه .

وما تطلبه منى أمر سيئ .

ناصح : ولكن الموضوع طريف .

مؤنس : لا أستطيع أن أقبل الشعر الفج الفارغ .

ناصح : يريدون قبول رأيك ، وهذه رغبتهم منك .

مؤنس : أنا ذاهب ، لكن لن أتراجع عن رأى .

ناصح : أذهب وتبين نفسك .

مؤنس : إلا بأمر ملكى خاص ومنتسب إليه بأنه وجد أشعاراً جدالية ، ولابد أن تكون جيداً وإلا أعلنت رأيى أن أشعاره سيئة ويجب شنق أصحابها من الشعراء إلى نعمان بيك ونعيم بيك اللذين يضحكان عند رؤيته ، حقًا لم أكن أظن أنى كنت وأكون أضحوكة هكذا .

ناصح : هلم ، وأذهب .

فتنية : أين يجب أن نراك ؟

مؤنس : أنا ذاهب ، ولكنى سريعاً سأتى هنا حتى أقضى المشكلة .

ولا أجد ذكراً فى نسختى للمترجم كما لا تبدو مقدمة لها ، والعجيب أن فى العام الذى ترجمت فيه مسرحية ميرزا نتروب أى (١٢٦٧ هـ / ١٨٦٩ - ٧٠ م) ترجم أحمد وفيق باشا (طبيب رغم أنفه) مسرحية جورج دندان ونشرها ، لكن مسرحية تارتوف ترجمة بعد ذاك بفترة قصيرة .

مسرحيات ميرزا جعفر قراجه داغى

فى ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م طبعت فى طهران على الحجر سبع مسرحيات فارسية فى مجلد ونشرت بمقدمة فى الفوائد التربوية لغة المسرح بقلم ميرزا جعفر قراجه داغى ، كان ميرزا فتح على دربندى قد ألف هذه المسرحيات فى البداية بالتركية الأذرباجانية وطبعها فى تفليس نحو عام ١٦٨١ م ، وقد طبع من هذه المسرحيات خمس زودت بحواشٍ وملاحظات كثيرة مرة أخرى فى أوروبا وهى : (وزير لنكوران) النص المترجم ، وفهرس للألفاظ ، ومذكرات ، وأعد ذلك و، ح.د.ه جارنوج (لندن ١٥٨٢) - ثلاث مسرحيات هزلية مترجمة من التركية الأذرية والفارسية ومعها حواشي وتوضيحات والناشر هو وارمون (فينا وليبزج ١٨٨٩) ، والمسرحيات الثلاثة الهزلية السابقة هى (خرسى فلدورباسان) أو الدب المضارى و (وكلاى مرافعة) أى محامو الدفاع و (ملا أبراهيم خليل كيمياكر) أى الشيخ إبراهيم خليل المشعوز ، أما المسرحيتان الأخريان اللتان لم تنشر حتى اليوم فى أوربا فهما (مرد خسيس) أى البخيل ويوسف شاه سراج (وأن نشرتا فيما بعد) .

مسرحيات ملكم خان الثلاث

ظهرت مسرحيات من تأليف الأمير ملكم خان الوزير السابق الإيرانى فى القصر الملكى عندئذ ولا يعرف تاريخ تأليفها ، وقد سبق أن طبع جزء منها فى حواشى جريدة الاتحاد الصادرة فى تبريز فى ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م ، لكن النسخة الكاملة لكل من هذه المسرحيات الثلاث وجدت فى مكتبة الدكور (روزن) فى برلين ، وهذه الثلاث هى قصة أشرف خان حاكم بلاد العرب أيام مكثه فى طهران (سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨٧١ م) - طريقة حكم زمان خان بروجردى فى عام ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ - ١ م .

● حكاية توجه شاه قلى ميرزا إلى كربلاء وقصة أيام مقامه بضعة أيام فى كرمان شاه لدى شاه مراد ميرزا حام هذه المدينة .

صحيفة المسرح

وأخيراً صدرت جريدة للمسرح فى طهران فى ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م تخرج مرتين فى كل شهر ويراد بها المسرحيات التى تذم الاستبداد وتطعنه ولدى بعض أعداد من هذه الجريدة ورد بها جزء من المسرحية المسماة (شيخ على ميرزا حاكم ملاير وتويسركان وزفافه إلى ابنة ملك أجنة) .

هذه هى كل المسرحيات الفارسية التى وصلتنى حتى الآن - وإن كانت مسرحية جعفر أفندى داء من أوربا تأليف حسن مقدم ظهرت بعد تأليف هذا الكتاب - وهى بعامة مسرحيات هزلية كوميدية تهجو أصول الحكم الاستبدادى وأوضاع إيران الاجتماعية ، وفى مسرحية (وزير لنكوران) اختلط عشق مبتذل سوقى بأصل الحكاي ، لكن العشق أو الحب مفتقد فى سائر المسرحيات الفارسي ؛ ة لأن هدف مؤلفيها كان لا يتجاوز إثارة كره الشعب وسخطه على أسلوب الحكم القديم ، بعبارة أخرى ألفت هذه المسرحيات مثل كتاب سياحتنامه أو رحلة إبراهيم بيك التى سوف نشير إليها فيما بعد لهدف أساسى هو شرح الأمور السياسية ، وليس لها صورة المسرحية ، ولم تعرض تقريباً

واحدة منها على خشبة المسرح ، ولا يمكن أن نقارن بين واحدة منها والمسرحية التركية (الوطن) التى وضعها كمال بيك . الخلاصة أن المسرح لم ينجح حتى ذياك الوقت فى أن يخلق لنفسه مكانة فى إيران أو حتى يروج برواج المرسح نفسه المسرح فى تركب.

الرواية

ترى كثيرا بإيران حكايات على أسلوب (ألف ليلة وليلة) أو (حسين الكردى) وهى أكثر محلية وانتشاراً ، لكن فيما يتصل بالروايات الحقيقية فيمكننا أن تحدث عنها بأقل مما تحدثناه عن المسرح ، ووصلنى أخيرا روايتان سعى فيهما مؤلفاهما سعيًا جامعًا إلى إسباغ الثوب الروائى على تاريخ إيران فى عهد رواج الزردشتية ، وقبل ظهور الإسلامـأولها عن قوروش والأخرى قباذ وابنه وخليفته أنوشيروان ومزدك الزنديق المبتدع .

العشق والملك رواية تاريخية عن عهد قوروش

رواية قوروش (أو الجزء الأول منها ، وهو بمثابة مقدمة للجزئين التاليين له) تم فى ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م ، وطبعت بعد ذلك بثلاث سنوات فى همدان ، اسمها (العشق والملك) ، ومؤلفها شيخ موسى مدير المدرسة الحكومية (نصرت) بهمدان ، وأرسل فى يناير ١٩٢٠ نسخة منها تكرمًا منه ، يصف فى المقدمة هذه الرواية بقوله: (يمكن القول إنها أول رواية ألفت فى إيران بالشكل الغربى) ، وضع أساس هذه الرواية على أن تكون رواية تاريخية ، لكن أسماء شخصياتها عامة وضعت بشكلها الفرنسى ، وليس بأصلها الفارسى القديم مثل (ميترادا) وصحيحها (مهرداد) و (أكباتان) وهى أكباتانا أو هاكما تانا أى همدان القديمة وإيسباكو (أسباكو) وساكزار أو سياكرس بدلاً من هوا خشاتارا ، أما (كامبيزس) أى (كامبوجيا) فقد كتبها (كامبوزيا) ، وهى كتابة وسط بين الكتابتين ، الوصف المقدم للمناظر والمجالس

والأشخاص الذى ورد بأصل الرواية والحوار الجارى الطويل بالطبع تقليد للرواية الغربية ، ومع أن أصل الرواية الذى أدخل فيه مذاق من العشق والحرب لم يكن كثير الجذب والتأثير ، لكنه جدير بالقراءة ، لكن الأعداد والنوات والمعلومات المتعلقة بالآثار القديمة والأساطير والملاحظات المتصلة المفصلة التاريخية التى قامت أساسًا على روايات (هيرودوت) والمعلومات المستخرجة من الأبستاق ؛ فقد زادت من صعوبة الرواية ، لكن المؤلف لم يسع بليغًا إلى أن يقع فى أخطاء فاحشة عند ذكره الأحداث التاريخية والسنوات والعادات التاريخية فوق أنه لم يحاول قط أن يستخدم اللغة الفارسية القديمة وينفى ويهجر الألفاظ العربية ، وسوف تثبت الفقرة الموجزة التى أذكرها من تلك الرواية كم يختلف أسلوبها عن أسلوب الحكايات الرائجة فى إيران : (أجل هذا التجهيز لإعداد زفاف ، ولا أظن ليس إلا زفافًا قوروش الملك المقتدر لفارس وميديا لأن ليس خلاه ملك اليوم له شعبية وحب لدى أهل أكباتان حتى إن شعبها اعتبروا زفافه عيداً كبيراً وزينوا الأسواق وأبدوا من صميم قلوبهم السرور والسعادة) ، ولا أدرى كم راجت واشتهرت هذه الرواية فى إيران ولم أصادف نسخة لها غير هذه التى أرسلها مؤلفها إلى ، وقد ألحقت بهذه الرواية المرسلة إلى رسالة بتاريخ ٤ صفر ١٣٣٨ هـ (٣٠ أكتوبر ١٩١٩ م) يطلب فى المؤلف أن أنوه عن هذه الرواية فى جريدة التايمز وآمل أن يقبل شرحى الموجز لهذه الرواية لتقديمها إلى أوربا وليس فى مكنتى أكثر من هذا ، فى الحق أن هذه الرواية تجدر بالثناء بسبب تزويدها القراء بالمعلومات وتفيد كثيرا فى تحريك أذهان بنى جلدة المؤلف وتدخل أسلوباً وطريقة للكتابة إلى الأدب الفارسى بشكل غير مسبوق إلى عصرنا هذا .

صيادو مزدك أو المنتقمون منه

هذه هى الرواية الثانية وعنوانها الفارسى (دام كستران يا انتقام خواهان مزدك) ، والتى أشرنا إليها فى بداية هذا القسم طبعت فى بمباى عام ١١٣٩ هـ / ١٩٢٠ - ١ م ، ومؤلفها هو صنعتى زاده كرمانى ، ولم تكمل هذه الرواية ؛ لأننا نقرأ فى آخر صفحة (١١٠) عبارة (تم الجزء الأول) ، ولا نعرف قط إلى أى حد كان المؤلف يريد

أن يتابع روايته ، ولا أدرى هل أضاف جزءاً آخر إلى الجزء الأول أو لا؟ أسلوب هذه الرواية بعامة يشبه كثيراً الرواية السابقة ؛ (العشق والملك) لكنها تمتلئ بالأخطاء فى التاريخ والآثار القديمة فعلى سبيل المثال فى ص (١٠) تحدث عن نقش بهرام جور وقال : (كان صورة قد صورت بأسفله بالخط المسمارى) !

* وقبل أن نترك الحديث فى الرواية أذكر شيئًا عن قصة (شرلوك خُس) المعروف ومترجمها هو مير إسماعيل عبد الله زاده ترجمها عن الروسية وطبعها فى مطبعة (خورشيد) بطهران فى (١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ -٦ م) واسمها : أحداث العروض الذهبية وسيرة أغوسطس ميلورتن وصاحب القرية ، وبعد أن ترجم الاسم (هولمز) إلى الروسية كتب بشكل (خمس) أو (خومس)، وكان لهذا التحوير الدكتور واطسون Watson أكثر سعادة، وأسلوب هذه الحكايات فى منتهى السلاسة والسهولة ، وتعد من أفضل الكتب للمبتدئين فى تعلم الفارسية بشرط أن تكون فى متناول الأيدى ، لكن هذه الروايات نادرة الوجود، وفى تركيا تروج كثيراً رواية (شرلوك هولمز) .

الصحافة

شرحت فى كتاب آخر لى هو (صحافة إيران وشعرها الحديث) ما يتعلق بالصحافة الإيرانية التى كانت عاملاً قوياً فى ظهور التجديد والرقى بالحد الذى لا أجد حاجة إلى التفصيل فى هذا الموضوع هنا ، فن الطباعة انتشر منذ قرن تقريباً بتشجيع عباس ميرزا فى إيران وصدرت أول جريدة فى (١٨٥١ م) ، وبعدها انتشرت جرائد أخرى ، لكنها كانت من طرف الحكومة ؛ لذلك لم تكن ذات رواء وطعم بل أثناء مقامى بإيرن فى (١٨٨٧ -٨ م) كانت الجريدة الوحيدة التى تستحق القراءة باللغة الفارسية هى جريدة (أختر) أو (النجم) التى كانت تطبع فى إسلام بول مرة كل أسبوع وتاريخ تأسيس هذه الصحيفة هو (١٨٧٥ م) ، وتقترب مدة صدورها إلى نحو عشرين عامًا ، وكانت جريدة (قانون) للأمير ملكم خان تطبع وتصدر فى (لندن) فى (١٩٨٠ م) ، لكن بسبب هجومها الشديد على حكومة إيران ملكها ووزرائها امتنع

صـدورها فى إيران ، وصـدرت جـريدة الـ (حـبل المتين) فى كلكتـا فى ١٨٩٣ م، وجــريدة (ثريا) فى القـاهرة فى ١٨٩٨ م وانتـشرت جريدة (بروش) أو (التربيـة) عام (١٩٠٠) بدل ثريا ، هذه هى الجرائد الخمس المهمة التى كانت تصدر خارج إيران ، ولم تنتشـر بداخلها جرائد مستقلة وقوية إلى عام (١٩٠٨ م) بعد وقـوع الثورة ووصول الصراع بين الشاه والأمة إلى أقصى درجاته .

ومن أفضل الصحف الداخلية من الناحية الأدبية (صور إسرافيل) ، و (نسيم شمال) ، و (مساوات) ، و (نوبهار) ، والأولى والثانية والرابعة هى أشعار طيبة من نظم دهخدا ، أما سيد أشرف جيلانى وبهار المشهدى نوبهار فقـد أفدت من جريدتيهما ونقلت منهما شعراً أوردته فى كتابى عن صحافة إيران وشعـرها الجديد ، وفى عمود (جرند ويرند) أو (الثرثرة) بجريدة صور إسرافيل وردت نماذج كثيرة الجودة والابتكار للنثر الفارسى أنقل منها فيما يلى بضعة أسطر ؛ لأننى لم أر حتى الآن بإيران نظيراً لها ، وهذه القطعة من نثر قلم (دهخدا) فى عدد من صور إسرافيل .

جردن ويرند

بعد عدة رحلات إلى الهند ومقابلة الأبدال والأوتار والمهارة فى الكيمياء والليمياء والسيمياء نلت - بحمد الله - تجربة متعمقة ، وهى علاج ترك الأفيون ولو كان هذا العلاج اكتشف فى أحد البلاد الأجنبية لصار مكتشفه صاحب امتياز لا محالة ونال الهدايا وذكر اسمه بإجلال فى سائر الصحف ، ولكن ماذا أفعل وليس بإيران من يقدرنى ؟ إن العادة هى الطبيعة الثانية ، وما أن يتعود أحد أمراً ما استطاع تركه بسهولة، ويتخلص العلاج فى أن المريض يقلل من الأفيون بنظام خاص بمرور الوقت حتى ينقطع تماماً عنه ، الآن أعلن لجميع أخوانى المسلمين الغيورين المتعودين على الأفيون أن ترك الأفيون ممكن بشرط أن يصمم بحسم على تركه ، ثم إن من يتناول مثقالين يومياً من الأفيون ينقص مقدار حبة قمح منه ويضع مقدار حبتى قمح من المورفين بدلاً منه ، ومن يتعاطى عشرة مثاقيل من الأفيون يقلل منه فى اليوم بقدر حبة

حمص ، ويضيف بدلاً منه قدر حبتي حمص حشيشاً ، ويستمر على ذلك حتى يصل إلى تناول أربعة مثاقيل من المورفين بدل مثقالي أفيون، وعشرين مثقالاً من الحشـــيش بدل عـشرة من الأفيون ، ثم يغير بعد ذلك المورفين إلى تناول ماء بطعم المورفين ويغير الحشيش إلى تناوله اللبن الخض أو الخثير وتسهل كثيراً حدته ، وإذا سهل الله الأمر هكذا على إخواني الغيورين مدمني الأفيون ؛ فلماذا لا نخلص أنفسنا من مشقة اغتياب الناس وإهدار كل هذا المال والوقت وترك الإدمان ؟ إذا تم بهـــذا الشك ؛ فلن يسبب المرض كثيراً .

كذلك العلية والأطباء إذا أرادوا إزالة عادة قبيحة من أذهان الناس يفعلون كما أشرنا فانظروا مثلاً : في الحق أحسن الشاعر الذي قال إن العقل والحكومة قرين أحدهما بالآخر فإذا فكر مثلاً عظماؤنا في أن الشعب فقير ليس باستطاعته أن نأكل خبز القمح ، وعليه أن يمضي عمره في زراعة القمح وهو بنفسه دائم الجوع ؛ فانظروا ماذا يفعلون :

في اليوم الأول من العام يعجنون خبزهم بالقمح الخالص ، وفي اليوم الثاني يضعون في كل مائة كيلو جرام من القمح كيلو جراماً من الحنضل والشعير والحبة السوداء ونشارة الخشب والبرسيم والرمل والطوب والتراب . ومعروف أن مائة كيلوجرام من القمح لن يظهر فيها كيلوجرام واحد من هذه الأشياء ، وفي اليوم الثاني يوضع كيلوجرامان من هذه الأشياء ، وفي الثالث يوضع ثلاثة كيلوجرامات منها، وفي اليوم المائة بعد ثلاثة شهور وعشرة أيام يوضع في المائة كيلوجرام قمحاً ما يعادلها من الحنــظل والــشعير والحبة والسوداء ونـــشارة الخشب والقش والبرسيم والرمل وخلافه ، وفي هذه الرسالة وفي هذه الحالة لن ينتبه أحد وتزول عادة أكل خبز القمح من أفكار الناس .

في الحقيقة إن العقل والحكومة متقارنان

وأخواني الغيورون المتعودين على الأفيون – بلا شك – يعلمون أن الإنسان هو عالم صغير يشبه سائر العالم الكبير أي كل شيء يحدث للإنسان يمكن أن يحدث

الحيوان والشجر والحجر والطوب والأبواب والجدران والجبال والبحار ، وكل شيء يحدث لهذه الأشياء جميعاً يحدث للإنسان أيضاً ، لأن الإنسان عالم صغير وهذه الأشياء هي العالم الكبير ، وما أريد قوله بالشكل نفسه الذي يمكن به أن تزيل عادة من رأس الإنسان يمكنك أن تزيل العادة نفسها من فكر الحجر والطوب والآجر ؛ لأن بين العالم الصغير والعالم الكبير شبيهاً تاماً ؛ إذن فأي إنسان يقل عن الحجر والطوب ؟

فمثلاً أنشأ الحاج الشيخ الهادي المجتهد المرحوم دار شفاء وأوقف عليها وفقًا بحيث يقيم أحد عشر مريضاً بها على الدوام طالما بقي الحاج الشيخ على قيد الحياة وتعودت هذه المستشفى على وجود أحد عشر مريضاً بها ، وما أن صار الحاج مرحوماً قال طلاب المدرسة لابنه الأكبر سوف نعتبرك السيد المرضى واحداً في الشهر الأول وأنقص اثنين في الشهر الثاني وثلاثة في الثالث وأربعة في الرابع وهكذا ، حتى وصل عدد المرضى الآن إلى خمسة مرضى ، وسوف ينتهي هؤلاء الخمسة بعد خمسة شهر بالتدريج بحسن تدبيره ؛ فانظروا كيف يمكن بالتدبير إزالة العادة من رأس كل مخلق ، فالمستشفى الآن التي كانت تعودت على وجود أحد عشر مريضاً بها زالت هذه العادة من رأسها بدون أي تعب ، لماذا ؟ لأنها هي الأخرى جزء من العالم الكبير، وهي مثل الإنسان وهو العالم الصغير ويمكن تخليصها من العادة (دخو) لا يمكن في الحقيقة بيان المقصود والهدف من هذه المقالات عند ترجمتها لأنها نوع من التجديد في الهجاء والنقد الفارسي وكتبت بعبارة عامية لكنها موجزة وسلسلة ، ومع أن هذه المقالات كانت بإمضاء مجهول ومختلف ، لكني أظن أنها جميعها كتبها دهخدا ، وأرى أن دهخدا – استناداً على هذه المقالات النثرية القليلة وبضع قطع شعرية أصدرها لابد أن يتبوأ الرتبة الأولى على الأباء والكتاب المعاصرين الإيرانيين ومن أسف أن دهخدا مع أنه في مقتبل العمر ، لكنه لم يصدر في الظاهر في هذه السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة عملاً أدبيا .

الاثنتا عشرة سنة الأخيرة (١٩١٢ - ١٩٣٢ م)

فيما يتصل بالاثنتى عشرة سنة الأخيرة لا أسطيع أن أكتب الشيء الكثير ، بلغ الضغط والظلم الروسى فى إيران من بداية عام (١٩١٢ م) ذروته وانسدت فى هذه الفترة أبواب الحرية والارتقاء الأدبى ، وفى أيام الحرب العالمية غدت إيران الضحية المطيعة والمنقادة لثلاث قوى أجنبية متضادة ، ولم يكن يلوح أى شعاع أمل لإيران إذا انتصرت واحدة من الثلاث ، وبدا فى كل صقع منها قلة الأقوات واتجه القحط والغلاء والنهب إلى الولايات الغربية ، وكانت الثورة البلشفية رحمة من السماء على إيران، وأبقى انسحاب الجيش الإنجليزى بعد عقد معاهدة بين إيران والإنجليز الإيرانيين أسياداً على بلادهم إلى حد ما ، لكن إيران إلى حد يمكنها انتهاز هذه الفرصة من التقاط الأنفاس والسانحة غير العادية فهذا موضوع يجب دراسته بعد ذلك .

إيران وألمانيا

يعجب البعض فى تأييد الحزب الكبير الإيرانى أثناء الحرب العالمية الأولى لألمانيا، وكان أغلبه من الديمقراطيين وطلاب الإصلاح ، وحل هذه المشكلة سهل جداً : إذ إن روسيا كانت إمبراطورية مفرغة ومكروهة وأى قوة تشغلها عن صيد فريستها العاجزة وهى إيران وتسبب وهنها لابد أن تستجلب محبة الشعب الإيرانى ، وإيران لم تكن على أى عداء سابق وقلق من ألمانيا لبعدها عن حدودها ولم تهدد استقلالها أبداً ، ولاشك أن الألمان استفادوا من هذا الشعور وقاموا بدعايات شديدة بالحد الذى يجدر الكتابة والقراءة عنها .

جريدة (كاوه) في فترتها القديمة (١٩١٦ / ١٩١٩ م)

كانت جريدة (كاوه) أحد عناصر الدعوة والتبليغ ، وكانت تصدر فى برلين اسماً مرة كل أسبوعين واستمرت فى صدورها من ٢٤ يناير ١٩١٦ م إلى ١٥ أغسطس

١٩١٩ م ، وكانت الفترة الفاصلة طويلة بين عددى (٢٩ ، ٣٠) الصادرين فى ١٥ يوليو ١٩١٨ وعددى (٣١ - ٣٢) الصادرين فى ١٥ أكتوبر ١٩١٨ م وبين عدد (٣٣) الصادر فى ١٥ نوفمبر ١٩١٨ م ، وعدد (٣٤) الصادر بأول مارس ١٩١٩ م آخر عدد لها فى فترتها القديمة .

الفترة الثانية لكاوه (١٩٢٠ - ١٩١٢ م)

صدر العدد الأول لجريدة (كاوه) فى فترتها الجديدة فى ٢٢ يناير ١٩٢٠م وتركت الجريدة فى هذه المرة السياسية تماماً وعطفت اهتمامها إلى الأدب والعلوم لكنها لم تفقد فى أسلوب كتابتها وطريقة تحريرها وحسن طبعها درجتها العالية السابقة ، وهذه المرة كانت (كاوه) تصدر مرة كل شهر واستمرت عامين آخرين وآخر أعدادها (رقم ١٢) طبع فى أول ديسمبر ١٩١٢ م ، وبه نحو ٣٣ صفحة كبيرة من عمودين .

المقالات المهمة في الفترة القديمة لكاوه

كانت موضوعات كاوه فى الأغلب سياسية فى الأوقات التى كانت لها جوانب دعائية وإرشادية ، ورغم أنها كانت تنشر موضوعات مفيدة تتصل بأحداث إيران وأعمال الوطنيين بها (لجنة الدفاع الوطنى) ؛ لكنها لم تكن تتطرق إلى الموضوعات الأدبية حتى بعد إعلان الهدنة وانتهاء الحرب إلا فى بعض من أعدادها كما رأينا فى العدد (٤) (بتاريخ ٤ مارس ١٩١٦ م) حين نشر قطعة شعرية كردية ، وفى العدد (٢٠) نشرت سيرة للأديب الكبير سيد محمد صادق قائم مقامى الملقب بأديب الممالك والمتوفى فى ٢٨ ربيع الثانى ١٣٣٥ هـ (٢١ فبراير ١٩١٧ م) ، وفى العدد (٢١) كتب تقرير عن النتائج العلمية المتحصلة من مأمورية الكابتن (نيدر ماير) إلى أفغانستان ، وفى العدد (٢٣) مقالة الأستاذ (مينوخ) عن رضا عباسى وهو من الفنانين المشهورين الإيرانيين ، وفى العدد (٢٦) نشر تقرير عن الدارسين الإيرانيين

فى ألمانيا ، وفى عدد (٣٣) (١٥ نوفمبر ١٩١٨ م) نشر تقرير بمناسبة وصف كتاب جديد اسمه (الطريق الجيد) بالألمانية عن الخطوات والمساعى المختلفة الرامية إلى إصلاح الخط الفارسى أو تغيره وفى العدد (٣٢) (أول مارس ١٩١٩ م) نشر موجز عن تأسيس الجمعية الأدبية الإيرانية فى برلين ورسالة ميرزا محمد خان قزوينى بشأن مسألة عن الإملاء الفارسى ،وفى العدد (٣٥) بتاريخ (١٥ أغسطس ١٩١٩) أدرجت مقالة مفصلة ومهمة بقلم ميرزا محمد خان عن أقدم شعر فارسى بقى بعد الفتح الإسلامى لإيران .

المنزلة السامية للفترة الجديدة لـ (كاوه) فى الأدب والنقد

الفترة الجديدة أو الثانية لجريدة كاوه التى بدأت فى ٢٢ يناير (١٩٢٠ م) كانت على النقيض كلها منصبة على الأدب ونشر خلالها مقالات كثيرة فى الثراء ، وكانت الجالية الإيرانية المقيمة فى برلين قليلة العدد ، ولكن ضمت بضعة من المفكرين والعلماء المعتبرين ومع أنهم كانوا مفرطى التعصب لإيران ، لكنهم كانوا واقفين تمامًا على نقائص وطنهم ومتشوقين إلى اقتباس أفضل أعمال العلم والمعرفة الغربية ونشرها ، ومن سمات التحقيق عند الألمان : الإيجار والاستقصاء والتدقيق الفائق والتجارب المضنية فى استخراج الموضوعات من كافة المصادر وجميع المراجع ، وكان الإيرانيون – وهم متميزون دائمًا بالاستنباط الماهر لكن تحقيقاتهم الأدبية فى الأغلب بدون دراسة ونظرياتهم غير ناضجة وغيرمستحكمة محتاجين أكثر من أى شىء إلى التأسى بالألمان وتقليد منهج تحقيقهم واستقصائهم ، ويظهر صاحب جريدة (كاوه) فى المقالة التى يبدأ بها الفترة الجديدة لجريدته مقصدة ومرماه بقوله :

(كانت جريدة كاوه وليدة الحرب ؛ ولهذا فمنهجها كان يتناسب وظروف الحرب والآن وقد انتهت الحرب وحل السلام العالمى أعدت كاوه دورتها الحربية قد انتهت وتبدأ دورة السلام ؛ ولهذا فإنها تقوم على أساس جديد وتنتهج خطًا ومسلكًا جديدًا مع بداية عام ١٩٢٠ م – ٩ ربيع الثانى ١٣٣٨ هـ بحيث تفترق عن كاوه السابقة ، وفى الواقع تلبس كاوه ثوبًا قشيبا بحيث تكون موضوعاتها فى الأغلب مقالات علمية وأدبية

وتاريخية وتقصد أكبر من أى شىء إلى ترويج الحضارة الغربية فى إيران وجهاد التعصب والحفاظ على الأمة والوحدة الوطنية الإيرانية والجهاد من أجل تنقية اللغة والأدب الفارسيين وحفظهما من الأمراض والأخطار المستولية عليهما وتقوية الحرية الداخلية والخارجية لإيران بأقصى ما يمكن ....

ويرى مؤلف هذه السطور أن الأمر الذى لا مناص منه لإيران ولكل محبى إيران أن يسعوا إلى تحقيقه بكل ما أوتوا من قوة ويقدموه على كل شىء ثلاثة أمور إن بالغنا فى التشديد على ضرورتها إنما نقلل من حقيقتها وهى : أولاً قبول الحضارة الأوروبية ونشرها بلا شرط وقيد ، والتسليم المطلق إلى أوروبا واقتباس الأدب والعادات والتقاليد والعلوم والفنون وطرق العيش وسائر أوضاع الغرب بلا استثناء (ما عدا اللغة) وتنحية كل أنواع التفاخر والمباهاة الفارغة التى تنشأ عن إساءة معنى حب الوطن يمكن أن تسمى (حب الوطن الكاذب)، والثانى : الاهتمام البليغ فى الحفاظ على اللغة والأدب الفارسى والارتقاء بهما ونشرها وتعميمها ، والثالث : نشر العلوم الغربية وزيادة الإقبال على تأسيس المدارس وتعميم التعليم وبذل جميع القوى المادية والمعنوية فى هذا السبيل ، هذا هو رأى راقم هذه السطور فى باب خدمة إيران ، وأقول كذلك إلى من يشاركون المؤلف الرأى - عن طريق تجاربهم العلمية والسياسية الكثيرة - إن إيران يجب وحسب أن تتغرب ظاهراً وباطناً وجسماً وروحاً ، ولابد فى خاتمة شرح أصول العقائد أن أذكر أيضاً أننى أرى أنه ربما يكون أعظم وأوقع جميع الخدمات التى يمكن أداؤها فى هذا السبيل هو نشر ترجمات لسلسة من الكتب المهمة الأوربية باللغة الفارسية السهلة والميسرة فى إيران) .

وطبقاً لمفاد المرام السابق نشرت بطبع مقالات عن منهج التعليم فى ألمانيا والخطوات التى تقدمها الجمعية الإيرانية الألمانية والتسهيلات اللازمة لإقامة الدارسين الإيرانيين فى ألمانيا ودراستهم ، لكن أغلب المقالات تنصب على اللغة والأدب الإيرانى .

بعض المقالات المهمة فى الفترة الجديدة لكاوه

يرى مثلاً فى عام (١٩٢٠ م) سلسلة من المقالات بقلم تقى زادة (بتوقيع دارس) عن أحوال أهم شعراء إيران القدامى ومقالة مبتكرة بقلم الدكتور آرثر كريستنسن عن وجود الشعر فى البهلوية ، وبحث عن تطور اللغة الفارسية فى القرن الأخير ، ومقالات عن مزدك وأخرى بعنوان مناظرة الليل والنهار فى مقارنة منهج التحقيق لدى المشارقة والغربيين ، وينتهى أغلبها إلى تفضيل الغرب على الشرق - والعصور الأربعة للغة الفارسية بعد الفتح العربى ، ومعيار تذوق الأشعار الجديدة المفضلة الفارسية والأشعار التى قرأها المؤلف من شعر كربلاء ، ومصادر الشاهنامة من البهلوية والعربية والفارسية مقالة مهمة جداً عن الفارسية الفصيحة وفارسية (خان وادة) (وهى موضع فى إسلام بول يقطنها أغلب التجار الإيرانيين) ، ويذم فى هذه المقالة مؤلفها التقليد الأعمى عند بعض الشباب الإيرانى المقيم فى إسلام بول للمصطلحات وتركيب الجملة التركية ، وهذه المقالات فى غالب نقاطها دليل على فرط اطلاع مؤلفها وقدرته النقدية ونهاية ابتداعه وابتكاره ؛ بحيث إننى لم أر مثيلها حتى اليوم فى اللغة الفارسية ، وتستحق الوصف والتحليل الأكثر تفصيلاً ، ولكن المقام لا يتسع لذلك فى هذا الجزء .

السنة الأخيرة لكاوه (١٩٢١ م)

نشرت كاوه فى عامها الأخير هذه المقالات القيمة نفسها وظلت تنشر موضوعات مفيدة فى التاريخ والأدب كانت تضارع تحقيقات المستشرقين الأوروبين ، ونشرت سلسلة من المقالات المهمة التاريخية بعنوان (العلاقات الإيرانية الروسية فى عهد حكم الآن قويونلو والأسرة الصفوية إلى أول حكم آغا محمد خان قاجار) بقلم سيد محمد على جمال زادة فى كل شهر ملحقة بجريدة (كاوه) ، وتدل على أن المؤلف اطلع على كافة المصادر الموثوق بها الشرقية والغربية وانتقدها ، وقد أنزل حجب جريدة كاوه بعد ديسمبر (١٩٢١ م) ضربة عظيمة على علم الإيرانيات .

إيران شهر

فى يونيو (١٩٩٢ م) صدرت فى برلين مجلة علمية وأدبية وفارســية أخرى باسم (إيران شهر) أى بلاد إيران تحت إدارة حسين كاظم زادة ، ومع أن هذه المجلة كانت تصدر رسمياً كل أسبوعين ، لكنها علمياً لم تكن تخرج إلا كل شهر ، وتميزت هذه الجريدة عن (كاوه) بشدة سهولتها وقربها أكثر إلى فهم العامة ، ونعلم أن أغلب هدفها هو البحث فى أحداث إيران قبل الإسلام والمشاكل التى تواجه الشباب الإيرانى الحالى ، وفى العدد السابع (ديسمبر ١٩٩٢ م) نشرت مقالة مفصلة عن إيفاد الدارسيين إلى أوروبا فى الفترة الثالثة من هذه المقالة المذكورة وعنوانها (مكان دراسة الطلاب وكيفيتها) (ص ١٦٢-٤) يكتب صاحب المقالة : إنه يجب إيفاد الطلاب الإيرانيين إلى إنجلترا وألمانيا وليس إلى فرنسا للأسباب الآتية :

(نحن الإيرانيين نتشابه أكثر مع الفرنسيين من حيث الأخلاق والطبيعة والاستعداد والميول الروحية لأن أصلنا لاتينى - باستثناء سكان أذربيجان الذين تتشابه طبيعتهم وأخلاقهم أكثر بطبيعة العنصر الأنجلو ساكسونى - بحيث إن جدة الذهن والذكاء ، وحب الذات ، وشباب الفكر ، والظرف ولطافة الحس ، وحس الامتزاج والخالطة ، أو جمال المشرب من ناحية وعدم الثبات وتلون المزاج وسرعة الشعور بالتعب والوهن واللامبالاة والانحلال ، والإفراط ، والتفريط فى الأمر من ناحية أخرى من السمات الخلقية لنا وللفرنسيين) .

وكأن هذا الرأى أثر عامة فى الإيرانيين لأن سبعين إيرانياً كانوا هم الموجودين فى (أغسطس ١٩٩٢ م) فى ألمانيا ، لكن عددهم بلغ مائة وعشرين فى شهر ديسمبر من العام نفسه .

الصحافة الإيرانية بعد الحرب العالمية

بعد أن صارت الصحافة الإيرانية فرنسية التوقف والتأزم نتيجة للهجوم الروسى فى (١٩١٢ م) نفثت فيها ثانية روح جديدة خاصة فى إنــهاء الحرب العالمية ، لكن المرء

لابد أن يقنع بسبب اختلال وسائل المواصلات وعدم انتظام البريد بالمعلومات الناقصة عنها ويغض الطرف عن الاطلاع الكامل عن الصحافة ، نشرت فى العدد الرابع لجريدة (كاوه) بتاريخ (١٩١٢ م) (ص ١٥ – ١٦) قائمة مختصرة للجرائد والمجلات الفارسية التى تأسست بعد بداية عام ١٣٣٤ هـ (نوفمبر ١٩١٥ م) ، وقد رتبت هذه الجرائد السبع والأربعون بالترتيب الأبجدى كما حدد مكان النشر واسم مدير تحريرها وتاريخ تأسيسها ، وطهران فى المرتبة الأولى وبها سبع عشرة صحيفة ، ثم شيراز وبها سبع صحف ، ثم تبريز ورشت وبكل واحدة منهما أربع صحف ، أما أصفهان ومشهد وكرمان وكرمان شاه وخوى وبوشهر وباكو وهراة وكابل وجلال آباد – وهذه المدن الثلاث الأخيرة تقع فى أفغانستان – ففى كل واحدة منها جريدة واحدة أو اثنتان ، وأكثر من نصف هذه الجرائد (٢٥ عددا) بدأ فى عام (١٣٣٨ هـ) (أى العام الذى بدايته ٢٦ سبتمبر ١٩١٩ م) ، لكن هذه القائمة ناقصة لأنها لم تذكر تسع مجلات فارسية كان ميروها أو أصدقائى يرسلون إلى نسخة من كل منها ما عدا مجلتين ، هما (عالم نسوان) و (أرمغان) ، وهذه المجلة الأخيرة من أفضل المجلات المذكورة لأنها تحوى أشعاراً كثيرة للمرحوم أديب المالك وتقريرات الجمعية الأدبية بطهران ، ثم مجلة (بهار) الشديدة الجدة والمتغربة ،لكنها تضم أشعارا تستحق الاهتمام ، كذلك مجلات (فروغ) (تربيت) و (طهران) و (دانش) التى كانت تصدر فى مشهد و (ممات وحياة) التى تنصب أساسا على شرح الاختراعات والغربية ووصف التقدم المادى ، ومجلة (فردوسى) التى تطبع وتنشر من قبل المتخرجيين من المدرسة الأمريكية بطهران ، ومجلة (بارس) التى نصفها فارسى ونصفها الآخر فرنسى ، وانتشرت هذه المجلة فى ١٥ أبريل ١٩٢١ م فى إسلام بول و (كسنجينة معارف) التى صدر عددها الأول فى ٢٤ أكتوبر ١٩٢٢ م فى تبريز لكن لا تصل إحداها إلى (إيران شهر) فى أهمية موضوعاتها وجمال إخراجها ، كما أنها بطريق أولى لا تضارع (كاوه) أيضاً ، ولكن يمكن استثناء مجلة (كل زرد) أو الزهر الأصفر من هذا الحكم ، وأسست هذه المجلة فى أواخر أغسطس (١٩٢٠ م) فى طهران ، وكان مديروها ميرزا يحيى خان ريحان ينظم شعرا بتخليص (ريحانى) ويطبعه فيها .

مطبعة (كاويانى) فى برلين

أسس ميرزا عبد الشكور وسائر الإيرانيين المقيمين فى برلين بهدف تيسير طبع الكتب الفارسية والاهتمام بتصحيح المطبوعات الإيرانية وتنقيتها مطبعة (كاويانى)، ويعد تأسيس هذه المطبعة – فى الحق – تقدمًا مهمًا فى تجديد الحياة الأدبية الإيرانية ، ولا يوجد اليوم أية مطبعة غيرها يمكنها أن تنافسها فى هذه الجوانب المذكورة ، وفضلاً عن طبع المسرحيات الجديدة والرسالات المتعلقة بالموسيقى والزراعة وغيرهما أو تجديد طبع الكتب القديمة مثل (كلستان) سعدى و (موشى وكربة) عبيد زاكانى فكروا بمنتهى الذكاء والظرف فى أن يجمعوا النسخ النادرة للأدباء العظام القدامى ويطبعوها مثل : زاد المسافرين لناصر خسروا الذى لا يوجد له فى الدنيا غير مخطوطين (مخطوطة باريس ، ومخطوطة جامعة كمبردج) قامت هذه المطبعة بطبعة ، وهى الآن فى نوفمبر ١٩٢٣ م مشغولة بطبع (وجه الدين) لناصر خسرو بعد أن حصلت على النسخة الوحيدة أخيرا من (بطروجراد) ، لكن هذه الكتب التى تتسم بالعبارات المشكلة والغريبة وتكلف كثيرا فى طباعتها ويقل مشتروها فلا بد أن تصيب ناشريها والمسئولين فى هذه المطبعة بالضرر والخسارة ، وإن مطبعة (كاويانى) بامتلاكها شخصا مثل ميرزا محمود زادة إنما تمتلك محققًا يتمتع بالصلاحية ؛ لأنه يتبع المنهج النقدى التحقيقى الصحيح الذى ابتكره ميرزا محمد خان القزوينى.

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩- الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩- الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢- السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣- نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤- صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبـة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: روف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنينل ألكسندرو فنادوليتا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد فاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إ[illegible]
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنيال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوچية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

١٨٩-	العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتازار	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدراقيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١- فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤- الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩- لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨- الفجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	جون جريين	على يوسف على
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	روميلو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧-	الجينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة پروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة پروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	أقدم لك: فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣-	أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥-	الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦-	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧-	أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠-	أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤-	مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦-	محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧-	بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢-	وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو بوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣-	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠-	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١-	عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣-	الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤-	لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦-	متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠-	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٣٤١- قصائد من رلكه (شعر) راينر ماريا رلكه حسن حلمى

٣٤٢- سلامان وأبسال (شعر) نور الدين عبدالرحمن الجامى عبد العزيز بقوش

٣٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية) نادين جورديمر سمير عبد ربه

٣٤٤- الموت فى الشمس (رواية) بيتر بالانجيو سمير عبد ربه

٣٤٥- الركض خلف الزمان (شعر) بونه ندائى يوسف عبد الفتاح فرج

٣٤٦- سحر مصر رشاد رشدى جمال الجزيرى

٣٤٧- الصبية الطائشون (رواية) جان كوكتو بكر الحلو

٣٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١) محمد فؤاد كوبريلى عبدالله أحمد إبراهيم

٣٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة أرثر والدهورن وآخرون أحمد عمر شاهين

٣٥٠- بانوراما الحياة السياحية مجموعة من المؤلفين عطية شحاتة

٣٥١- مبادئ المنطق جوزايا رويس أحمد الانصارى

٣٥٢- قصائد من كفافيس نسطنطين كفافيس نعيم عطية

٣٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية باسيليو بابون مالدونالدو على إبراهيم منوفى

٣٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية باسيليو بابون مالدونالدو على إبراهيم منوفى

٣٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة حجت مرتجى محمود علاوى

٣٥٦- الميراث المر بول سالم بدر الرفاعى

٣٥٧- متون هرمس تيموثى فريك وبيتر غاندى عمر الفاروق عمر

٣٥٨- أمثال الهوسا العامية نخبة مصطفى حجازى السيد

٣٥٩- محاورة بارمنيدس أفلاطون حبيب الشارونى

٣٦٠- أنثروبولوجيا اللغة أندريه جاكوب ونويلا باركان ليلى الشربينى

٣٦١- التصحر: التهديد والمجابهة آلان جرينجر عاطف معتمد وآمال شاور

٣٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية) هاينرش شبورل سيد أحمد فتح الله

٣٦٣- حركات التحرير الأفريقية ريتشارد جيبسون صبرى محمد حسن

٣٦٤- حداثة شكسبير إسماعيل سراج الدين نجلاء أبو عجاج

٣٦٥- سأم باريس (شعر) شارل بودلير محمد أحمد حمد

٣٦٦- نساء يركضن مع الذئاب كلاريسا بنكولا مصطفى محمود محمد

٣٦٧- القلم الجرئ مجموعة من المؤلفين البراق عبدالهادى رضا

٣٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات جيرالد برنس عابد خزندار

٣٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ فوزية العشماوى فوزية العشماوى

٣٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية كليرلا لويت فاطمة عبدالله محمود

٣٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢) محمد فؤاد كوبريلى عبدالله أحمد إبراهيم

٣٧٢- عاش الشباب (رواية) وانغ مينغ وحيد السعيد عبدالحميد

٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه أومبرتو إيكو على إبراهيم منوفى

٣٧٤- اليوم السادس (رواية) أندريه شديد حمادة إبراهيم

٣٧٥- الخلود (رواية) ميلان كونديرا خالد أبو اليزيد

٣٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات) جان أنوى وآخرون إدوار الخراط

٣٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤) إدوارد براون محمد علاء الدين منصور

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٧٤٥ / ٢٠٠٢

لقاء فى الظلام



943

قصص أفريقية

اختيار وترجمة : محمد عبد الواحد

المشروع القومي للترجمة

لقاء فى الظلام "قصص أفريقية" ◆ اختيار وترجمة : محمد عبد الواحد

هذه هى الترجمة للمجلد الرابع والأخير من سلسلة الكتب المهمة والثرية التى ألفها المستشرق الإنجليزى الكبير إدوارد براون عن تاريخ الأدب الفارسى من البداية حتى عام ١٩٢٠م. وقد آثر المترجم أن ينقل هذا الكتاب عن نسخته الفارسية المترجمة عن الأصل الإنجليزى؛ لأن المترجم الإيرانى رشيد ياسمى قد انتهج فى ترجمته أن يحذف ما يفيد الغربيين ولا يضيف جديداً إلى القارئ الإيرانى والعربى، خاصة فيما يتصل بتفصيلات من التاريخ والدين لقاء إضافاته التى توجبت بعد رحيل المؤلف وظهور دراسات جديدة وتحقيقات طريفة.